



٣٠١٠٢٠٠٠٠٠٣٥٦٠



المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة أم القرى
كلية اللغة العربية
قسم الدراسات العليا العربية
فرع الآداب

٣٥٦٠
٣٥٦٠

٣٥٦٠
٣٥٦٠

شجر الرثاء

في عهد النبوة والخلافة الراشدة

دراسة توثيقية موضوعية فنية

بحث مقدم لنيل درجة الماجستير في الأدب

إعداد

أحمد بن علي ناصر الشرفي

إشراف

الدكتور صالح أحمد بيلو

١٤١٤ هـ - ١٩٩٤ م



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

شكر وتقدير

1

امتثالاً لقوله تعالى : « لئن شكرتم لأزيدنكم » إبراهيم (الآية ٧) ، وقول المصطفى (ﷺ) : « من صنع إليكم معروفاً فكافئوه ، فإن لم تجدوا ما تكافئوه فادعوا له حتى تروا أنكم قد كافأتموه » مسند أحمد بن حنبل ٦٨/٢ ، فإني أشكر الله من قبل ومن بعد على ما وفق وأعان ويسر وتمم ، ثم أرفع خالص تقديري لجامعة أم القرى ممثلة في معالي مديرتها الدكتور راشد الراجح . والمسئولين عن كلية اللغة العربية وفي مقدمتهم عميد الكلية الدكتور سهيل بن حمدان الغامدي ، ورئيس قسم الدراسات العليا العربية الأستاذ الدكتور سليمان بن إبراهيم العايد ، الذي كان له كبير الأثر في إنجاز هذا العمل .

وأقدم بالشكر والعرفان لأستاذي الفاضل الدكتور عليان بن محمد الجازمي ، العميد السابق للكلية ، وأستاذي الجليل الأستاذ الدكتور حسن محمد باجوده ، المشرف الأول على هذه الرسالة ، الذي رعى هذا البحث منذ كان مجرد فكرة ، وكان لتوجيهاته السديدة وملاحظاته القيمة أثر ملموس على مباحث هذه الرسالة ، فجزاه الله خيراً ، وأطال عمره في العمل الصالح والعلم النافع إنه ولي ذلك والقادر عليه .

كما أزجي الشكر لأستاذي الكريم الدكتور صالح آدم بيله الذي أكمل مهمة الإشراف ، فأثرى بعلمه ومنهجيته جوانب هذا البحث ، وأضاف إليه أبعاداً جديدة ، فجزاه الله عني خير الجزاء ، وجعل ذلك في موازين أعماله .

والشكر أيضاً للأستاذ الدكتور عبد الله أحمد باقازي ، الذي أتم معي هذا العمل ، وكان له فضل لا ينسى .

وأخيراً أتوجه بالشكر والامتنان لأعضاء لجنة المناقشة ، مقدراً لهم ما سيقفونه من وقت وجهد في تقويم هذه الرسالة وتقييمها ، وما سيتفضلون به من توجيه وإرشاد سيكون محل عنايتي . بإذن الله .

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات .

المقابلة

المقدمة

الحمد لله حمد معترف بأفضاله التي لاتعد ولا تحصى ، ونعمه التي لاتحصر ولا تستقصى ، المتفرد بالكمال والجلال ، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين بشيراً ونذيراً ، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً ، وعلى آله الطيبين الأخيار، وصحابته المصطفين الأبرار .

وبعد :

فإن شعر الرثاء من أنبل الشعر العربي قاطبة ، لأنه يصدر عن معاناة حقيقية وتجربة فنية صادقة تترك أكبر الأثر في النفوس ، ناهيك عن أنه يصور مرارة الحزن والأسى وألم الفقد وجلل المصاب .. !

وقد استوقفني شعر الرثاء في صدر الإسلام على وجه الخصوص، لارتباطه - بوجه عام - بشخصية الرسول الكريم ﷺ وخلفائه الراشدين وصحابته الكرام رضوان الله عليهم أجمعين . ولما دار حول هذا الشعر من تشكيك في صحة نسبته في القديم والحديث . وقد نبّه إلى ذلك ابن هشام في السيرة النبوية، وابن سلام في الطبقات ، والدكتور شوقي رياض في كتابه شعر السيرة النبوية - دراسة توثيقية -، والدكتوران وليد عرفات وسيد حنفي حسنين في تحقيق كل منهما ديوان حسان

بن ثابت .

ابن

(ب)

ولئن تناول هذا الشعر بالدراسة باحثون قبلي إلا أن دراساتهم كانت نظرية في مجملها، فلم تُعنَّ بالجانب التطبيقي المتمثل في استقراء النصوص الشعرية واستنطاقها بغية توثيق نسبتها، ودراستها دراسة موضوعية وفنية .

وبنظرة سريعة إلى بعض تلك الدراسات نجد -على سبيل المثال- أن الباحثة بشرى الخطيب في كتابها «الرثاء في الشعر الجاهلي و صدر الإسلام» قد بنته على فصول ستة خصت السادس منها بالرثاء في صدر الإسلام، وكانت دراستها مقتضبة خلت من الدراستين التوثيقية والفنية.

وأما الدكتور شوقي رياض ففي كتابه الآنف الذكر نجد الاهتمام منصباً فيه على دراسة شعر السيرة بين الرواية والتدوين، ودراسة ظواهر التشويه والنقص فيه، وجاءت دراسته التوثيقية نظرية اكتفى فيها بعرض بعض الأشعار المختلف في نسبتها، ثم وضع منهاجاً مقترحاً لتوثيق الشعر دون أن يتمكن من تطبيقه على النصوص الشعرية.

وأما الكتاب الذي بعنوان : « شعر الرثاء في صدر الإسلام - دراسة موضوعية فنية - » للدكتور مصطفى الشورى فقد خلا من الدراسة التوثيقية ، كما كانت دراستاه الموضوعية والفنية مبتسرتين لم تتناولوا الموضوع تناولاً تكاملياً، إذ جاء بعض منها في صورة إلماحات سريعة دونما بسط للآراء ومناقشتها.

إضافة إلى أن بعض محققي الدواوين الشعرية في عصر صدر الإسلام كانوا يكتفون بالإشارة العابرة إلى وجود خلاف في نسبة بعض القصائد لقائلها دونما تمحيص وتحقيق لهذه النسبة.

وبلا شك فإنني قد أفدت كثيراً من هذه الدراسات التي اطلعت عليها. وقد كانت حافزاً لمضاعفة الجهد، بل إنها أضاعت لي بعض جوانب البحث ومعاله.

ومن أجل ذلك كله عقدت العزم على سد هذه الثغرة، ودراسة شعر الرثاء في هذه الفترة دراسة تقوم على أسس علمية ومنهجية أزعم أنها تختلف كثيراً عن الدراسات السابقة. فجاء البحث بعنوان: «شعر الرثاء في عهد النبوة والخلافة الراشدة - دراسة توثيقية موضوعية فنية -» .

ولم يكن الطريق الذي سلكته خلواً من عقبات وصعاب ؛ فقد واجهت من ذلك الشيء الكثير، فما أكاد أفرغ من عقبة حتى تلوح أخرى .

ومن أبرز هذه العقبات : جمع النصوص الشعرية من أمهات المصادر وبخاصة أولئك الشعراء الذين لم يكن لهم ديوان مخطوط أو مطبوع، كأبي سفيان بن الحارث، وهبيرة بن أبي وهب، وجزء بن ضرار الذبياني، وبعض النساء الشواعر، وغيرهم، إضافة إلى خلو الدواوين المطبوعة لبعض الشعراء من قصائد تتصل بموضوع الدراسة، كديوان مزرد بن ضرار الذبياني، الأمر الذي اقتضى مني جمع شعر كل شاعر على حدة من مظانه المختلفة.

ومنها - أيضاً - تداخل الأشعار وتشابهاها، مما تطلب مني التمييز بينها، حتى تكون لدي ما يشبه المعجم الشعري لكل شاعر، وكان ذلك عوناً لي - بعد الله عز وجل - في القيام بتوثيق ماتسنى لي جمعه من شعر.

يضاف إلى ماتقدم أن بعض المصادر المتعلقة بموضوع الدراسة لم تكن متوفرة مما استدعى القيام بالمراسلات الرسمية والشخصية.

وبعد أن ذلت الصعاب بفضل من الله تعالى شرعت في إقامة بنيان هذا البحث الذي انتظم في مقدمة ومدخل وفصول ثلاثة وخاتمة.

فأما المقدمة فقد تحدثت فيها عن سبب اختيار الموضوع، والدراسات السابقة، والصعوبات التي واجهت البحث، والخطة التي اقتضتها طبيعته والمنهج الذي اعتمدت عليه.

وأما المدخل فقد اشتمل على العناصر التالية:

- الرثاء في اللغة والاصطلاح .

- نشأة فن الرثاء . . .

وكان هذا المدخل ضرورياً للتعرف على المعنى اللغوي والإصطلاحي لهذا الفن ونشأته مع مناقشة هذه النشأة، وبسط الآراء حولها ما أمكن .
وأما الفصول الثلاثة ، فقد أوقف أولها للدراسة التوثيقية ، وانتظم في مبحثين يسبقهما توطئة :

- التوطئة : بين يدي التوثيق .

- المبحث الأول : الشك والانتحال وشعراء الرثاء .

- المبحث الثاني : توثيق شعر الرثاء .

وقد استعرضت في التوطئة دراسات السابقين للنحل والانتحال مبيناً أن هذه الظاهرة ليست وليدة الأدب العربي ، بل هي عامة في آداب اللغات الأخرى .

وفي المبحث الأول تحدثت عن الشعراء الذين دار حول شعرهم شك كبير مناقشاً ذلك كله للخروج بأراء أحسب أنها من الأهمية بمكان.

واستأثر المبحث الثاني بتوثيق شعر الرثاء في عهد النبوة والخلافة الراشدة، واعتمدت فيه على تطبيق نوعين من مناهج نقد النصوص : خارجي يعالج الرواية والأسانيد والأحداث التاريخية ، وداخلي يقوم على التحليل الأسلوبي في ضوء المعجم الشعري لكل شاعر ، بغية التوصل إلى نفي أو إثبات أو ترجيح نسبة النصوص الشعرية المختلف فيها ما أمكن ذلك .

وعقدت الفصل الثاني للدراسة الموضوعية واشتمل على ثلاثة مباحث:

- المبحث الأول : الرثاء والرؤية الإسلامية.

- المبحث الثاني : النقائص وفن الرثاء .

- المبحث الثالث : الرثاء ودعوى ضعف الشعر.

ففي المبحث الأول انصب الحديث على إبراز الرؤية الإسلامية في شعر

الرثاء من خلال التأثير بالقيم والأفكار والمبادئ الإسلامية بصفة عامة، أو التأثير

بالقرآن الكريم في ألفاظه ومعانيه والاقتراس منه بشكل خاص وأحسب أن الأثر

الإسلامي قد بدا واضحاً كل الوضوح وفي ذلك رد على أولئك الذين زعموا أن الأثر

الإسلامي كان خافتاً ضعيفاً في شعر تلك الفترة .

واشتمل المبحث الثاني على دراسة مقومات النقائص الرثائية ، ومدى قدرة

الشعراء على انتقاء المعاني والأفكار، مع عقد موازنة بين بعض نقائص المسلمين

والمشركين لمعرفة مدى الجودة والإخفاق في شعر كل منهما.

ثم عرضت في المبحث الثالث الآراء المتعلقة بقضية دعوى ضعف الشعر وبخاصة الرثائي منه ، وناقشتها عند كل من القدماء والمحدثين في ضوء بعض القصائد .

وأما الفصل الثالث فقد خصصته للدراسة الفنية ، وجاء في أربعة مباحث:

- المبحث الأول : بناء القصيدة .

- المبحث الثاني : لغة الشعر .

- المبحث الثالث : الصورة الفنية .

- المبحث الرابع : الموسيقى .

وقد تناولت في المبحث الأول بناء القصيدة العربية عند القدماء وبسطت الآراء حولها وناقشت ما يحتاج إلى نقاش وشفعت ذلك بدراسة لبناء قصيدة الرثاء في هذا العصر .

وفي المبحث الثاني كشفت الدراسة عن أهم الظواهر اللغوية والجمالية في قصيدة الرثاء .

وخصصت المبحث الثالث للحديث عن الصور الفنية فبينت مادتها ووسائلها ودورها في خدمة النص الشعري مفيداً من الدراسات البيانية والنقدية .

وختمت الفصل بمبحث رابع درست فيه الموسيقى بنوعها الخارجية المتمثلة في الوزن والقافية وما يندرج تحتها ، وقمت بإحصاء البحور المستخدمة وأحرف الروي . وشفعت ذلك بدراسة للموسيقى الداخلية من طباق ومقابلة وحسن تقسيم وغير ذلك مما كان له دور في إثراء المعنى وإضفاء الموسيقية عليه .

وأما الخاتمة فقد أودعتها أهم ما انتهى إليه البحث من نتائج ومقترحات.

وكان المنهج الذي سرت عليه في هذه الدراسة تاريخياً وصفيّاً تحليلياً يميل في كثير من جوانبه إلى المناقشة العلمية بقصد التوصل إلى آراء أحسب أنها تتصف بالجدة والاستقلالية. وقد اتضح الجانب التاريخي من هذا البحث في الدراسة التوثيقية حيث رتبت القصائد ترتيباً تاريخياً، بيد أن المعالجة كانت وصفية تحليلية، كما برز الجانب الوصفي في الدراسة الموضوعية. أما الجانب التحليلي فقد استأثرت به الدراسة الفنية. واعتمد فيه تطبيق نوعين من النقد: أحدهما معياري يوصل الحديث بالقديم، ويطوّع النقد الحديث ليسهما في الكشف عن جماليات النص وإبداعاته. أما الآخر فذوقيٌّ يركز على ماتوافر لديّ من قراءات في كتب النقد والبلاغة القديم منها والحديث .

على أن طبيعة البحث اقتضت المزوجة بين هذه المناهج في بعض المواطن كالذي حدث عند دراسة شعر النقائض ، إذ اعتمدت فيه على منهج تاريخي وصفي في أن واحد، واقتضت طبيعة الدراسة في مبحث الرثاء ودعوى ضعف الشعر المزوجة بين المنهجين الوصفي والتحليلي على حد سواء .

وكان من الطبيعي أن تتعدد مصادر هذا البحث ومراجعته بين قديم وحديث . ومن أهم هذه المصادر الدواوين الشعرية ، وكتب السيرة ، والطبقات والتراجم ، والموسوعات الأدبية ، والنقد الأدبي قديمه وحديثه ، وكتب البلاغة والبيان العربي وغير ذلك مما أثبتّه في فهرس المصادر والمراجع.

ولايفوتني هنا أن أزجي خالص شكري وتقديري لسعادة أستاذنا
 الدكتور حسن محمد باجودة رئيس قسم الدراسات العليا سابقاً والمشرف
 الأول على هذه الرسالة، فقد كان له الفضل - بعد الله - في الأخذ بيدي مذ كان
 البحث فكرة، وكانت توجيهاته السديدة وآراؤه الصائبة خير عون لي للمضي قدماً
 في بناء بحثي هذا حتى وصل إلى صورة مرضية، غير أن ظروف تفرغه العلمي
 حالت دون متابعة هذا البحث في مراحلهِ الأخيرة، فجزاه الله عني خير مايجزي به
 عباده الصالحين.

كما أثنى بالشكر والعرفان لسعادة أستاذي الدكتور صالح أحمد بيلو
 الذي قبل مشكوراً برحابة صدر وكرم جم مواصلة الإشراف على هذا البحث والعمل
 على إتمامه، وقد منحني من وقته الثمين وعلمه الغزير ومنهجه العلمي ماكان له كبير
 الأثر في إنجازهِ والوصول به إلى الصورة التي أمل أن تكون مرضية، كما أغنى
 بملاحظاته الدقيقة وتوجيهاته القيمة جوانب كثيرة من هذا البحث ، أضافت إليه
 أبعاداً جديدة لم تكن فيه. فجزاه الله عني خير الجزاء وأوفاه، ومتعه بالصحة
 والعافية، وأجزل له المثوبة والأجر ، إنه سميع مجيب .

وأسجل في هذا المقام شكري الوافر لسعادة الأستاذ الدكتور عبد الله
 أحمد باقازي الذي تفضل علي فقبل إكمال فترة الاشراف على هذه الرسالة وافدت
 كثيراً من علمه وخبرته في سد بعض الثغرات الموجودة في هذا البحث ، كما لا
 أنسى أن أتوجه بالشكر لكل من قدم لي نصيحة أو مشورة أو دلني على رأي من

(ط)

الأساتذة الأفاضل والزملاء الكرام ، وأسأل الله القدير أن يثيبهم ويجزيهم خير
الجزاء .

وبعد ، فإنني لا أدعي لبحثي هذا الكمال أو الإحاطة أو خلوه من الهنات
والمآخذ، وحسبي أنني بذلت غاية طاقتي وجهدي ، فإن أصبت فذلك فضل الله يؤتيه
من يشاء، وإن كانت الأخرى فعذري أنني مجتهد ينشد الحقيقة ليس إلا .

والله أسأل أن ينفع بهذا العمل ، ويجعله في ميزان عملي خالصاً لوجهه
الكريم . والحمد لله أولاً وأخيراً ، وصلى الله على سيدنا ونبينا محمد وعلى آله
وصحبه أجمعين .

الباحث

أحمد علي الشرفي

١

مداخل

★ الرثاء في اللغة والإصلاح .

★ نشأة فن الرثاء .

الرتاء في اللغة والإصطلاح

لابد لنا ونحن نبحث عن معنى أي لفظ من ألفاظ اللغة العربية أن نضع في اعتبارنا المراحل الثلاث التي يمر بها اللفظ ، وهي:

(١) المعنى اللغوي للفظ المفرد .

(٢) المعنى الإصطلاحي أو الوصفي أو الصناعي للفظ المفرد .

(٣) العلاقة المعنوية في اللغة العربية باعتبارها لغة اشتقاقية بين الاسم

والمسمى ، بين اللفظ وما وضع اللفظ دليلاً عليه (١)

وهذه هي المراحل التي يجب أن يتبناها كل باحث عند الكشف عن معنى أي لفظ من ألفاظ اللغة العربية، وبطبيعة الحال فإن هذا التدرج المنطقي في التعامل مع أية لفظة من ألفاظ العربية هو الذي يوصلنا في النهاية إلى فهم حقيقي لمعانيها المختلفة.

المعنى اللغوي :

من خلال البحث في المعاجم اللغوية نجد أن كلمة الرثاء تتألف من ثلاثة

أصول:

الأصل الأول : « رثاً » بالهمز يرثاً رثيئة ، والرثيئة من اللبن، ورثأت اللبن

(١) د. حسن محمد باجوده « نهوض القرآن الكريم بخصائص اللغة التعبيرية » ، النادي الأدبي

بمكة، ص ١٤ .

خلطته «يقال رثاً اللبن : خثُر . والاسم الرثيئة . قالوا في أمثالهم «إن الرثيئة مما يطفىء الغضبا».

قال أبو زيد : يقال ارتثاً عليهم أمرهم : اختلط (١).

الأصل الثاني : « رثا » بالالف المنقلبة عن واو يرثو من الرثو، فأماً قولهم رجل مرثو أي : ضعيف العقل، فمن الرثية. ورثوت الرجل لغة في رثائه ورثت المرأة بعلمها ترثيه وترثوه رثاية. (٢)

الأصل الثالث : « رثى » بالالف المنقلبة عن ياء يرثي رثياً ومرثية ورثية. يقول ابن فارس: الراء والثاء والحرف المعتل أصيل يدل على رقة وإشفاق ، يقال: رثيت لفلان: رقت. ومن الباب قولهم رثي الميت بشعر (٢).

وفي جمهرة ابن دريد «ورجل به رثية أي شعف، والرثية الضعف يجده الشيخ في مفاصله.

قال الشاعر «امرؤ القيس»:

ولست بذى رثية إمر
إذا قيد مستكراً أصحبا

أي تبع والأمر : الرجل الضعيف (٣)

«والرثية بالفتح وجع في الركبتين والمفاصل. وقال ابن سيده: وجع المفاصل

(١) « الصحاح » رثاً . وانظر معجم مقاييس اللغة و « اللسان » المادة نفسها .

(٢) معجم مقاييس اللغة ، ٤٨٨/٢ ، وانظر : اللسان ، « رثا » .

(٣) ابن دريد «جمهرة اللغة» ، ٢١٨/٣ .

واليدنين والرجلين وقيل: وجع وظلأع في القوائم، وقيل: هو كل مامنك من الانبعاث من وجع أو كبر، قال رؤبة فشدد:

فإن تريني اليوم ذا رثية (١)

يقول ابن فارس : (رث) الراء والثاء أصل واحد يدل على إخلاق وسقوط، فالرث: الخلق البالي، يقال: حبل رث ، وثوب رث ، ورجل رث الهيئة. وقد رث يرث رثانة ورثوة...

وأما قولهم: ارتث في المعركة فهو من هذا، وذلك أن الجريح يسقط كما تسقط الرثة ثم يحمل وهو رثيث . ومن الباب (الرثة) وهم الضعفاء من الناس(٢).

المعنى الاصطلاحي :

قال ابن منظور «رثى فلان فلاناً يرثيه رثياً ومرثية : إذا بكاه بعد موته. قال فإن مدحه بعد موته قيل رثاه يرثية ترثية.

ورثيت الميت رثياً ورثاء ومرثاة ومرثية. ورثيته: مدحته بعد الموت وبكيته، ورثوت الميت أيضاً إذا بكيته وعددت محاسنه وكذلك إذا نظمت فيه شعراً (٣).

ورثت المرأة بعلمها ترثيه ورثيته ترثاه رثاية فيهما (الأخيرة عن اللحياني) وترثت كرتت قال رؤبة:

(١) اللسان والقاموس المحيط ، « رثا » .

(٢) ابن فارس « معجم مقاييس اللغة » ، ٣٨٤/٢ ، « رث » .

(٣) اللسان ، « رث » ، وانظر : القاموس المحيط ، « رث » .

بكا) نكلى فقدت حميما فهي ترثى بأبا وانبيما

وامرأة رثاء ورثاية : كثيرة الرثاء لبعطها أو لغيره ممن يكرم عندها: تنوح نياحة (١) ، تقول : « رثى الرجل ميتاً يرثيه رثياً أي : يبكيه ويمدحه والاسم المرثية » (٢).

وهكذا يتضح لنا أن الرثاء عند أهل اللغة هو بكاء الميت وتعداد حسناته بالشعر أو النثر .

ولعل هذا التعريف الذي قام به الخليل بن أحمد الفراهيدي أقدم محاولة لشرح معنى الرثاء (٣).

العلاقة بين المعنيين :

عند استقراء المادة اللغوية لكلمة «رثا» نجد الضعف في الهمة ورخاوة الأعضاء والرقة والإشفاق وكل ما يعني الإنهاك والضعف ونجد كل ذلك جلياً في المعاني الرئيسة لهذه الأصول الثلاثة الأنفة الذكر. على الرغم من تغير صورة الحرف الأخير منها، كما يقال بشأن «رثاً» يلمس ضعف الرثيئة وهو اللبن المخلوط. وبشأن (رثا) ضعف العقل في الرجل المرثو، وبشأن (رثى) ضعف الرجل الذي به

(١) اللسان « رثا » .

(٢) الخليل بن أحمد الفراهيدي « العين » ، تحقيق : د. مهدي الخزومي ، د. إبراهيم السامرائي، وزارة الثقافة والاعلام ، العراق ، ٢ /

(٣) انظر: بشرى محمد على الخطيب « الرثاء في الشعر الجاهلي وصدر الإسلام » ، مطبعة الادارة المحلية ، بغداد ، ١٩٧٧م ، ص ٢٠ .

رثية، وهو جسر العلاقة المعنوية التي ربطت بين الاسم ورث ثم التحول إلى المعنى الاصطلاحي «الرثا» التي ربطت بين الاسم والمسمى وبين اللفظ وماوضع اللفظ دليلاً عليه. فموقف الرائي من فقد إنسان ما هو إلا موقف من مواقف الضعف بنوعيه «النفسي والجسدي» هذا الضعف أدى إلى إنهاك القوة واضمحلال الحركة والنشاط . فنحن إذاً بصدد مجموعة من المعاني الثانوية التي اتضحت من خلال العلاقة القائمة في اللغة بين المعاني الحسية الأصلية والمعاني الاصطلاحية الوضعية.

تعريفات القدماء ومناقشتها :

عرفنا مما سبق أن الخليل بن أحمد الفراهيدي عندما أراد أن يضع تعريفا للرثاء قال: «رثى الرجل ميتاً يرثيه أي يبكيه ويمدحه والاسم المرثية» وهو بهذا التعريف يدخل في المدح الرثاء .

أما قدامة بن جعفر فإنه يقول: «إنه ليس بين المرثية والمدحة فصل إلا أن يُذكر في اللفظ ما يدلُّ على أنه الهالك مثل: «كان» و«تولى» و«قضى نحبه» وما أشبه ذلك، وهذا ليس يزيد في المعنى ولا ينقص منه، لأن تأبين الميت إنما هو يمثل ما كان يمدح به في حياته، وقد يفعل في التأبين شيئاً يفصل به لفظه عن لفظ المدح بغير «كان» وما جرى مجراها وهو أن يكون الحيُّ وُصِفَ مثلاً بالجوّد، فلا يقال: «كان جواداً» ولكن بأن يقال: «ذهب الجود»... وما أشبه ذلك (١).

(١) قدامة بن جعفر « نقد الشعر » تحقيق كمال مصطفى ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ط ٣ ،

ويؤكد ماذهب إليه قوله: «وإذ قد تبين بما قلنا أنفاً إنه لا فصل بين المدح والتأبين إلا في اللفظ دون المعنى، فأصابة المعنى به ومواجهة غرضه هو أن يجري الأمر فيه على سبيل المدح»(١).

والقدماء عندما عرفوا الشعر أدخلوا الرثاء ضمن المديح فقالوا: «الشعر كله نوعان مدح وهجاء فالمدح يرجع الرثاء والافتخار والتشبيب وما تعلق بذلك من محمود الوصف... إلخ(٢).

وهم بصنيعهم هذا يعتبرون الرثاء مدحاً في الجانب الذي يتناول أخلاق المرثي وصفاته الحسنة أي مايتعلق بالقيم الخلقية للرثاء، ولكننا نعلم أن لكل كلمة دورة حياة، ودورة الحياة لكلمة الرثاء برزت من خلال تلك الإحياءات المختلفة لها تبعاً لاختلاف موضوعات الرثاء وفنونه ودواعيه واتجاهاته، فالإطار الذي يدور الرثاء في فلكه واحد هو فاجعة الموت، لكن معانيه تختلف باختلاف الموقف والأداة، وبما أن المواقف الشعرية مختلفة لذا كان من الطبيعي أن تختلف العناصر الفنية التي تشكّل النص الرثائي

ولهذا لايمكننا أن نضع تعريفاً محدداً لهذه الظاهرة الإنسانية النبيلة، وما ذلك إلا لأن الشعراء لم يكتفوا في معظم ماوصلنا من أعمالهم الشعرية بذكر تلك القيم الخلقية للرثاء ولم يطلقوا العنان لدموعهم بالبكاء والنحيب ولكنهم انطلقوا عن

(١) قدامة بن جعفر « نقد الشعر » ، ص ١٠٢ .

(٢) ابن رشيق « العمدة في محاسن الشعر ونقده » ، تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد ،

المكتبة التجارية الكبرى بمصر ، ط ٢ ، ١٣٧٤ هـ - ١٩٥٥ م ، ١/١٢١ .

طريق خيالهم الشعري إلى عوالم الشعر الرحبة فأمدونا بتلك الصور الشعرية الرائعة التي اشتملت على نظرات تأملية ارتبطت بتصورهم للموت والفناء وصور شعرية أخرى في غاية الجمال لمشاهد صيد الحيوان وصراعه من أجل البقاء ، ولم يكتفوا بكل هذا بل جعلوا الطبيعة والكون كله يشاركونهم أحزانهم وآلامهم فجاءت نظرتهم التكاملية تلك منسجمة مع الموقف العام لفن الرثاء .

كل هذا وذاك كان مرتعاً خصباً وميلاداً جديداً تمخضت عنه تلك التطورات العجيبة لفن الرثاء عبر العصور الذي أصبح له - فيما بعد - اتجاهاته وأبعاده المختلفة لذا كان الرثاء أداة صادقة ومرآة ناصعة انعكست عليها تلك الحياة الإنسانية بكل تجاربها وآلامها ومواقفها المختلفة من الموت والحياة والأحياء.

نشأة فن الرثاء

من الصعوبة بمكان أن يقطع الباحث برأى حول النشأة الأولى للقصائد الرثائية، وحول أصول هذا الفن الرائع الجميل خاصة إذا أخذنا في الاعتبار أن معرفة الجذور الأصلية الأولى التي نشأت عنها موضوعات الشعر الجاهلي ليست واضحة المعالم ، ولم يستطع العلماء أن يتوصلوا بشأن هذه القضية إلى رأي موحد، بل إننا نجد تفاوتاً وتبايناً في الآراء .

فهذا الأصمعي ينص صراحة على قدم الشعر بقوله : « أول من يروى له كلمة تبلغ ثلاثين بيتاً من الشعر مهلهل ثم نؤيب بن كعب بن عمرو بن تميم ، ثم ضممه (رجلٌ من بني كنانة)، والأضبط بن قريع ... وكان بين هؤلاء وبين الإسلام أربعمئة سنة، وكان امرؤ القيس بعد هؤلاء بكثير » (١) .

ويوافقه على ذلك ابن سلام بقوله : « أول من قصد القصائد وذكر الوقائع المهلهل بن ربيعة التغلبي في قتل أخيه كليب وائل » (٢) . وإن كنا نراه في موضع آخر ينقض هذه الفكرة قائلاً : « ولم يكن لأوائل العرب من الشعر إلا الأبيات يقولها الرجل في حاجته، وإنما قصدت القصائد وطول الشعر على عهد عبدالمطلب وهاشم بن عبدمناف» (٣) . ويعلق شارح الكتاب ومحققه فضيلة الشيخ العلامة محمود شاكر على هذا بقوله : « هكذا يرى ابن سلام وغيره من المتقدمين وهو عندي باطل،

(١) « مجالس ثعلب » ، تحقيق عبدالسلام هارون ، دار المعارف ، القاهرة ، ط ٣ ، ١٩٦٩م ، ٤١١/٢-٤١٢ .

(٢) «طبقات فحول الشعراء» ، تحقيق محمود شاكر، مطبعة المدني، القاهرة، ١٩٧٤م، ٣٩/١ .

(٣) السابق ، ٢٦/١ .

فالشعر أقدم مما يزعم وطويله أعتق مما يتوهم» (١) وهذا الرأي هو الذي أميل إليه لأن الشعر قديم قدم الإنسان نفسه .

وإذا ما انتقلنا إلى الجاحظ فإننا نجده يقول : « وأماً الشعر فحديث الميلاد، صغير السن ، أول من نهج سبيله وسهّل الطريق إليه : امرؤ القيس بن حجر ومهلل بن ربيعة ... فإذا استظهرنا الشعر وجدنا له - إلى أن جاء الله بالإسلام - خمسين ومائة عام، وإذا استظهرنا بغاية الاستظهار فمائتي عام » (٢)

ونحن إذ نعترف ويعترف معنا كل العلماء الأجلاء بعظمة الجاحظ وعلو منزلته وطول باعه في كل ميادين العلم التي طرقها إلا أنه قد سها عندما قال بحدائث الشعر ، وفاته أن الشعر قديم كما أسلفنا لأننا لا يمكن أن نقول بحدائث الشعر وإلا كيف نفسر هذا الرقي الذي بلغته القصيدة الجاهلية حتى تعلق بها الأوائل واخذوا أنفسهم وضمنوها مختاراتهم ومجاميعهم الشعرية ، ولأن طبيعة الأشياء وما يقتضيه المنطق يخالف ذلك تماماً لأنه لا يمكن أن يحدث تطور وسريع فجأة .

ولعل من أهم دواعي الشعر تلك المواقف التي أرقّت الشاعر ، وأثارت أحزانه وآلامه وكان لها أبلغ الأثر على نفسيته يقول ابن قتيبة « لم يكن لأوائل الشعراء إلا الأبيات القليلة يقولها الرجل عند حدوث الحاجة » (٣) .

(١) « طبقات فحول الشعراء » ، ٢٦/١ (هامش ٤) .

(٢) « الحيوان » ، تحقيق عبدالسلام هارون ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي ، القاهرة ، ط ٢ ، ١٠٤/١ .

(٣) « الشعر والشعراء » ، تحقيق أحمد محمد شاكر ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٣٨٦ هـ - ١٩٦٦ م ، ١٠٤/١ .

وأحسب أن القائلين بأن نشأة الشعر كانت رثائية قد انطلقوا من فهم
خاطئ لمقولة ابن سلام التي تنص على أن « من قديم الشعر قول دويد بن نهد
الفقاعي حين حضره الموت :

اليوم يبني لدويد بيته لو كان للدهر بلى ابيته
أو كان قرني واحداً كفيته يارب نهب صالح حويته
ورب عبّل خشن لويته (١)

ويفهم من النص أن الشعر القديم بعضه رثائي وبعضه غير ذلك ، ولأن
« من » تفيد التبويض ، كما أن الكلام في النص ينسحب على الرثاء وعلى غيره من
الفنون الأخرى .

ومن خلال هذا العرض الموجز لأراء القدماء نجد أننا لانستطيع أن نقطع
برأي محدد حول تلك النشأة ، لأن وجود مثل هذه الأبيات القليلة المتفرقة في بطون
الكتب لا ينهض دليلاً على تحديد زمن معين لها ، ولأن البحث عن أصول الشعر
وبداياته يعد لوناً من المجازفة والحدس والتخمين والسير في طريق مجهول لانعلم
نهايته ، ولا يصل إلى درجة الإقناع لأن الأدلة حول النشأة تبدو متناقضة ، ولأن
دراسات كهذه تبدو غير مجدية .



(١) « طبقات فحول الشعراء » ، ٣١/١ - ٣٢ .

الفصل الأول

« الدراسة التوثيقية »

- توطئة : بين يدي التوثيق
- الشك والانتحال وشعراء الرثاء
- توثيق شعر الرثاء

بين يدي التوثيق

توطئة :

إن ظاهرة الاختلاف في نسبة نص شعري إلى قائله ، أو الشك في صحة نسبته إليه ، أو اضطراب نسبته لأكثر من قائل - ليست وليدة أدبنا العربي ، بل نجد لها نظائر في الآداب العالمية كلها . وليس هذا قاصراً على الشعر ، بل يشمل كل ما أنتجه العقل البشري من فنون العلم والمعرفة .

ومعروف أن الشعر وصل إلينا عن طريق الرواية الشفوية ، وكثيراً ما نجد أن ذاكرة الرواة تخدعهم فينسبون الشعر إلى أكثر من قائل ، كما أن الكذب لسبب أو لآخر ، والتباين المذهبي والعقدي كثيراً ما يدفع بعض أناس إلى عزو النص الأدبي لغير صاحبه ، أو السطو عليه وادعاء ملكيته ، أو التحريف فيه أو في بعضه . ويمكننا أن نضرب بعض الأمثلة على ذلك ، فالعلماء منقسمون على أنفسهم في أمر نسبة الإلياذة ، فهي لشاعر واحد هو (هوميروس) أم هي لأكثر من شاعر : اثنين أو أكثر من اثنين ؟ (١) .

(١) انظر مثلاً: هوميروس «الإلياذة»، ترجمة: سليمان البستاني، دار إحياء التراث العربي، بيروت لبنان، (د.ت.)، ٤٢/١-٤٣، ود.طه حسين «في الأدب الجاهلي»، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ط ٣، ١٣٥٢هـ، ١٩٣٣م، ص ١١٦، محمد أحمد الغمراوي: «النقد التحليلي لكتاب في الأدب الجاهلي»، المطبعة السلفية، القاهرة، ١٣٤٧هـ - ١٩٢٩م، ص ٢١٦-٢١٨، ود.ناصر الدين الأسد: «مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية»، دار المعارف، القاهرة، ط ١٩٥٦م، ص ٢٨٧ - ٣٠٩، ود.نجيب محمد البهبهتي، «المدخل إلى دراسة التاريخ والأدب العربيين»، دار الثقافة، المغرب، ط ٢، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٥م، ص ٤٧٠ - ٤٧٤ .

والمسلمون وغيرهم من الباحثين في نصوص الكتب المقدسة لدى اليهود والنصارى يرون أن كثيراً من نصوص هذه الكتب ليست وحيًا سماويًا ، بل هي من صنع أناسٍ من البشر ، ثم أضيفت بعد ذلك إلى تلك الكتب على أنها جزء منها .

ونحن نعرف الجهد الهائل المخلص الذي بذله علماء الحديث النبوي الشريف لاستخلاص صحيحه من زائفه ، كما لا يغيب عن الذهن ما أفاض فيه علماء اللغة والأدب في القديم والحديث في الشعر المختلف في نسبته وتمحيص هذه النسبة، وما نزال نسمع حتى الآن بسرقات المؤلفات ، أو اختلاف عدد من الأشخاص حول ملكية هذا الكتاب أو النص .

وبالنسبة للاضطراب في نسبة النصوص الشعرية في تأريخنا الأدبي ، فإن هناك أبياتاً من الشعر الجاهلي والإسلامي تتحدث عن قضية الانتحال وذلك قبل أن يتناولها العلماء الذين تصدوا لدراستها ، من هذا قول الأعشى :

فما أنا أمُّ ما انتحالي القوا ف بعد المشيب ؟ كفى ذاك عارا (١)
وقول الفرزدق :

إذا ما قلت قافيةً شروداً تتحلها ابن حمراء العجان (٢)
وقوله :

(١) ديوانه : شرح وتعليق د. محمد محمد حسين ، مكتبة الآداب بالجماميز ، القاهرة ، ١٩٥٠ م ، ص

(٢) اللسان : (نحل) ، وانظر : أبو عبيدة معمر بن المثنى « نقائض جرير والفرزدق » عناية

المستشرق بيفان ، طبع ليدن ١٩٠٥ م ، ١/١٢٥ (نسخة مصورة) وروايته فيها (تنخلها) أي

أخذ خيارها - وعلى هذا فلا محل للاستشهاد بالبيت - . والبيت غير موجود في ديوانه طبعتي

الصاوي ودار صادر .

والفحلُ علقمةُ الذي كانت له حَلُّ الملووكِ كلامه لا يُنحلُّ (١)
وقول ابن هرمة :

ولم أتحلَّ الأشعارَ فيها ولم تعجزني المدحُ الجيادُ (٢)

ثم تناول هذه القضية علماء اللغة والأدب والنقد ، من مثل : أبي عمرو بن العلاء ، وأبي عبيدة ، والأصمعي ، والجاحظ ، وأبي الفرج ، والقالبي (٣) ، لكن كلام هؤلاء العلماء ليس أكثر من إشاراتٍ أو فقراتٍ متناثرةٍ لا يضمها كتابٌ أو فصلٌ من كتابٍ ، ولاتعالج المسألة معالجةً منهجيةً مفصلةً .

أما ابن هشام وابن سلام فعملهما يختلف عن عمل هؤلاء العلماء ، فقد تتبع الأول منهما ما كان مختلفاً فيه ، أو ما كان هو شاكاً فيه ، أو رافضاً له من الشعر الذي أورده محمد بن إسحاق في سيرة النبي ﷺ ، فكان يسجل رأيه أو رأي من بلغه رأيه من العلماء الأثبات كأبي عبيدة ، وأبي زيد الأنصاري ، وخلف الأحمر .

وهذا الشعر الذي شك فيه ابن هشام أو رفضه ، بعضه ينتمي إلى العصر الجاهلي ، وبعضه إلى عصر النبي ﷺ .

(١) «ديوان الفرزدق» جمع وتعليق عبدالله الصاوي ، المكتبة التجارية الكبرى بالقاهرة ، ط ١ ، ١٣٥٤هـ - ١٩٣٦م ، ٧٢٠/٢ .

(٢) «شعر ابن هرمة» تحقيق : محمد نفاع وحسين عطوان ، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق ، ١٣٨٩هـ - ١٩٦٩م ، ص ٩٩ .

(٣) د.ناصر الدين الأسد «مصادر الشعر الجاهلي» ، ص ٣٢٣ - ٣٣٥ ، د.شوقي ضيف : «العصر الجاهلي» ، دار المعارف ، ١٩٦٠م ، ص ١٦٣ فمابعدا ، ود/على العتوم «قضايا الشعر الجاهلي» ، مكتبة الرسالة الحديثة ، عمان - الأردن ، ط ١ ، ١٩٨٢م ، ص ٢٠٧ - ٢١١ .

ويستطيع من يريد التعرف على آراء ابن هشام في هذه القضية أن يرجع إلى كتابه في السيرة (وهو الكتاب الذي يمكن أن نقول : إنه إعادة لصياغة سيرة ابن إسحاق ، بال حذف والإضافة ، والتعليق والشرح) . وقد درس صنيع هذا العالم جمهرة من المعاصرين دراسة مفصلة ، وأبرزوا جهده في هذه القضية (١) .

وقد كانت تعليقات ابن هشام في سيرته على قصائد الرثاء التي قيلت في عصر الرسول ﷺ وبعد وفاته هي منطلقي في السعي وراء توثيق عدد كبير من قصائد الرثاء المشكوك في أمر نسبتها ، كما يتضح لاحقاً في هذا الفصل .

أما ابن سلام فقد تناول هذه القضية في كتابه « طبقات فحول الشعراء » تناولاً منهجياً : نظرياً في مقدمته ، وتطبيقياً في تراجم بعض الشعراء الذين اختلف العلماء حول أشعارهم ، وبعض هؤلاء الشعراء جاهلي ، وبعضهم إسلامي أو أموي .

وقد انتقد ابن سلام محمد بن إسحاق بشدة ، وقال عنه إنه لم يكن له علم بالشعر ، بل كان يؤتى له به فيضعه في السيرة دون تنبُّه لما فيه من زيف (٢) . ومن

(١) انظر : « مصادر الشعر الجاهلي » ، ص ٣٣٥ - ٣٤٥ : « قضايا الشعر الجاهلي » ، ص ٢١١ - ٢١٦ ، د. شوقي رياض أحمد « شعر السيرة النبوية - دراسة توثيقية » ، دار المأمون للطباعة والنشر ، القاهرة ، ط ١ ، ١٩٨٧ م ، ص ٢١٦ فما بعدها .

(٢) « طبقات فحول الشعراء » ، ١/٧-٩ . وقد زعم الدكتور نجيب البهبهتي أن ما ذهب إليه ابن سلام في استدلاله على فناء قوم عاد وثمود يخالفه فيه كثير من أئمة المفسرين الذين يقولون - على حد زعمه - إن الفناء كان فناء الدولة والسلطان وليس فناء الجنس بتمامه . والواقع أن هذا وهم وقع فيه - مع احترامي الشديد - الدكتور البهبهتي إذ إنني رجعت إلى أشهر أئمة المفسرين فلم أجد أحداً قال ذلك ، بل وجدت هؤلاء المفسرين يقولون بأن المراد مثلاً بقوله عز وجل « انظر : الطبري « جامع البيان عن تأويل أي القرآن » ، ط ٢ ، مصطفى البابي الحلبي بمصر ، ١٣٧٣ هـ =

هنا أثبت في كتابه أشعاراً للجن ، وأشعاراً لعاد وئمود ، اللتين كانتا قد بادتا وباد
معهما كل ما اتصل بهما ، كما انتقد حماداً الراوية واتهمه بالكذب والوضع والنحل ،
بل نقل عن يونس أنه كان يلحن ويكسر (١) .

وقد انصبَّ معظم كلام ابن سلام في مقدمة كتابه على النحل في الشعر
الجاهلي ، أما كلامه عن النحل والانتحال في الشعر الإسلامي والأموي فنجدته بصورة
رئيسية في تراجمه لبعض أولئك الشعراء ، كحسان بن ثابت وأبي طالب وأبي سفيان
ابن الحارث والنابغة الجعدي وذي الرمة وجميل وغيرهم (٢) .

== ١٩٥٤ م ، ٥٢/٢٩ ، ابن كثير « تفسير القرآن العظيم » ، ٢٢٦/٨ ، القرطبي « الجامع لأحكام
القرآن » ، مطبعة دار الكتب المصرية ، القاهرة ، ١٣٦٨ هـ - ١٩٤٩ م ، ٢٦١/١٨ . فهل ترى لهم
من باقية (الحاقه ، الآية ٨ ، « أنه لا بقية لهم ، ولا أحد منهم باقياً ، ولم تبق لهم من فرقة ناجية ،
وأنهم بانوا عن آخرهم ، ولم يبق من نسل أولئك القوم أحد » ، فهل بعد هذا من دليل على فناء قوم
عاد وئمود ؟ وهل يعقل أن يدلي ابن سلام برأيه ذلك دونما تثبت وفهم ماقاله المفسرون ؟ إن
تحامل الدكتور البهيتي على ابن سلام هنا واضح وصريح ، وكان ينبغي له أن يرجع إلى ماقاله
المفسرون لا أن يعتمد اعتماداً كلياً على ماقاله المؤرخون والأخباريون وأصحاب القصص
والأساطير ، وعجب أمره ، يتهم ابن سلام بأن بضاعته من التأريخ قليلة وهو يعلم علم اليقين
حاجة التأريخ إلى إعادة صياغة وتشكيل وبناء « لمزيد من الإيضاح انظر كتابه : « المدخل إلى
دراسة التاريخ والأدب العربيين » ، ص ١٤٧ - ١٥٠ .

(١) « طبقات فحول الشعراء » ، ٤٨/١ - ٤٩ .

(٢) انظر: د. ناصر الدين الأسد : « مصادر الشعر الجاهلي » ، ص ٣٤٥ - ٣٥١ ، ود. شوقي

ضيف : « العصر الجاهلي » ، ص ١٦٤ - ١٦٦ ، ود. علي الجندي : « تاريخ الأدب الجاهلي » ،

مكتبة الجامعة العربية ، بيروت ، ط ٢ ، ١٩٦٦ م ، ٢٥٣/١ - ٢٥٧ ، ود. عبد الحميد المسلوت :

« نظرية الانتحال في الشعر الجاهلي » ، دار القلم ، القاهرة ، (د. ت) ، ص ٥٩ - ٦٨ ، ود. محمد

أبو الأنوار : « من قضايا الأدب الجاهلي » ، مكتبة الشباب ، القاهرة ، ص ١١١ فما بعدها .

ولن يريد أن يتوسع في معرفة إسهام ابن سلام في درس هذه القضية الشائكة أن يرجع إلى كتابه المذكور وإلى ماكتبه عنه بعض الباحثين (١) .

(١) منهم - على سبيل المثال - : د. محمد رجب البيومي، «موقف النقد الأدبي من الشعر الجاهلي»، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض ، ص ٢٧ - ٣٩ ، د.نجيب البهبيتي « المدخل إلى دراسة التاريخ والأدب العربيين » ، ص ١٢٥ - ١٥٤ . وقد تتبع د.البهبيتي آراء ابن سلام في الانتحال من خلال كتابه « الطبقات » فاتهمه في مواضع متفرقة من هذه الدراسة بالتعصب للبصريين ، وبالجهل ومجافاة الحقيقة ، إضافة إلى التضارب الواضح في آرائه النقدية أو التعميم فيها وبكثرة أخطائه ، واعتبر كتابه معولاً من معاول هدم الشعر القديم وأداةً للتشكيك اتكأ عليها المستشرقون بعد ذلك . وقال عن كتابه انه لم يُكْتَبْ لتقديم وجهة نظر علمية مجردة وإنما كُتِبَ ليكون أداة في الصراع بين مدينتين . والحق أقول إن د. البهبيتي لم يراع قواعد المنهج العلمي الذي يكفل لكل باحث حقه في الرفض والاستدراك والجدل العلمي المنظم إذا ما التزم الموضوعية والأدب مع الآخرين ، أما أن يشنَّع على ابن سلام بمثل هذا فأمراً لا يمكن السكوت عليه ، وللحقيقة والموضوعية أقول: إن د. البهبيتي قد استدرك على ابن سلام بعض أمور فانتته فكان محقاً فيها ، كالتعميم مثلاً أو التضارب أحياناً . وإن كان هذا أمراً طبيعياً تقع فيه جميعاً نظراً لبشريتنا وسهونا ، ناهيك عن أن المقاييس النقدية التي اعتمد عليها ابن سلام تبدو قوية بالغة الحجة في عصره نظراً لما توافر لها من أدوات آنذاك ود. عبدالرحمن بدوي، مقدمة كتاب: «دراسات المستشرقين حول صحة الشعر الجاهلي» ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ط ١ ، ١٩٧٩م، ص ٥ - ١٠ . وينبغي التنبيه هنا إلى أن د.عبدالرحمن بدوي قد نقل عن ابن سلام آراء حول الانتحال لم يقلها صراحة ، ولم تصح عنه ، بل إن بعضها ليس موجوداً في كتابه كقوله : إن ماينسب إلى حمير وجنوب اليمن من أشعار باللغة العربية القرشية كله منقول مزيف ، وقوله: إن ابن سلام اتهم خلف الأحمر ، مع العلم ان ابن سلام لم يتهم خلفاً بل أشاد =

وفي العصر الحديث تظهر هذه القضية من جديد على أيدي المستشرقين أولاً ثم على أيدي الدارسين العرب ، وقد تراوحت مواقفهم منها بين التطرف والاعتدال .
فمن المستشرقين المتطرفين نجد مارجليوث في بحثه ينفي وجود الشعر الجاهلي جملة ، بل ينفي أن يكون ثمة شعر عربي قبل الإسلام أصلاً (١) ، ولقد جانبه الصواب في ادعاءاته فهب كثيرٌ من المستشرقين وغيرهم يردون عليه ويفقدون آراءه

== بصدقه وعلمه بالشعر، وقوله ان هناك قصائد نحلت في صدر الإسلام لأسباب دينية ... إلخ ويبدو لي أن د. عبدالرحمن بدوي كان على عجلة من أمره عند عرضه لآراء ابن سلام ، فوقع في سوء الفهم ، وكان حرياً به أن ينقل عن ابن سلام مقاله بكل دقة ، خاصة أن كتاب الطبقات بحوزته وقد أشار إليه وإلى بعض صفحات منه وامتدح مؤلفه وأثنى عليه ودافع عنه . انظر مقدمة ترجمته لكتاب « دراسات المستشرقين حول صحة الشعر الجاهلي » ، ود.علي العتوم : « قضايا الشعر الجاهلي » ، ص ٢١٦ - ٢٢٣ ، ود. إبراهيم عوض : « من نخائر المكتبة العربية » الفصل الخاص بكتاب « طبقات فحول الشعراء » ، الطائف، ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م، ص ١٩ - ٥١ .
(١) نشر هذا البحث في مجلة الجمعية الملكية الآسيوية، عدد يوليو ١٩٢٥م، ثم ترجم إلى العربية عدة مرات، ترجمه د.عبدالرحمن بدوي بعنوان «أصول الشعر العربي» ضمن كتاب (دراسات المستشرقين حول صحة الشعر الجاهلي) ص ٨٧ - ١٢٩ ، ونشره د. يحيى الجبوري بعنوان « أصول الشعر العربي » مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٠م، ود.علي المهنا ضمن كتاب (في قضايا الأدب واللغة) إعداد وتقديم: د.عبد بدوي، مؤسسة الصباح، الكويت، ١٩٨١م، ص ٢٥٩-٣٠٥ ، علاوة على الفقرات الكثيرة التي ترجمها منه د. ناصر الدين الأسد في كتابه : « مصادر الشعر الجاهلي » ، ص ٣٥٢ - ٣٦٧ . وقد لخص د.إبراهيم عوض هذا البحث في كتابه : « معركة الشعر الجاهلي بين الرافعي وطه حسين - بحث موضوعي مفصل » ، مطبعة الفجر الجديد ، القاهرة ، ١٩٨٧م ، ص ٦٤ - ٧٧ .

ومعتقداته، كذلك نجد المستشرق « بلاشير » يزعم أن النصوص الشعرية والنثرية القديمة غير متجانسة في أسلوب بعض مقطوعاتها وهذا مادعاها إلى الشك فيها (١)، وهذا كما يقول الدكتور شوقي ضيف : « زعم مبالغ فيه لأن هذه الأصول وصلتنا عن رواة ثقات أجمع أهل العلم والرواية الصحيحة على توثيقها بحيث لا يرقى إليها الشك » (٢). على حين نجد معظم المستشرقين يكتفي بوجه عام بالشك في بعض ذلك الشعر لاغير ، ويرى ذلك أمراً طبيعياً نظراً لاعتماد انتقاله على الذاكرة والرواية الشفوية، ومن هؤلاء بروكلمان ونولدكه وألوزد (٣) .

ويمثل الجانب المعتدل من المستشرقين « جيمس ليال » الذي تصدى لمارجليوث ، وفند أدلته وافتراضاته محتجاً بأن من وضعوا هذا الشعر على فرض التسليم بذلك - كانوا يحاكون نماذج سابقة وتقاليد أدبية موروثه ، وهذه المحاكاة تدل على وجود أصل كانوا يحاكونه ؛ إذ لا يمكن أن يحاكو شيئاً لم يبق منه ما يتيح لهم هذه المحاكاة ! وإذن لا بد أن يكون هناك شعر جاهلي عرفه الإسلاميون وحاكوه . حقاً خالطه شيء من الانتحال ولكن وراءه شعر صحيح ينبغي أن نتهدى في معرفته بالرواية الوثيقة والسمات الأسلوبية المميزة (٤).

(١) انظر كتابه : « تاريخ الأدب العربي » ، ترجمة د. إبراهيم الكيلاني ، دار الفكر ، دمشق ، ط ٢ ،

١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م ، ص ١٩٦ فما بعدها .

(٢) د. شوقي ضيف : « العصر الجاهلي » ، ص ١٦٨ - ١٧٠ ، وانظر كذلك : د. علي الجندي « تاريخ

الأدب الجاهلي » ، ص ٢٦١ - ٢٦٤ .

(٣) انظر : بروكلمان « تاريخ الأدب العربي » ، ترجمة د. عبد الحليم النجار ، دار المعارف ، القاهرة ،

ط ٣ ، ١٩٧٤ م ، ٦٦-٦٣/١ ، وانظر : د. شوقي ضيف « العصر الجاهلي » ، ص ١٦٦ .

(٤) انظر مقدمة « ديوان المفضليات » ، مطبعة الآباء اليسوعيين ، بيروت ، ١٩٢٠ م ، ود. ناصر الدين

الأسد « مصادر الشعر الجاهلي » ، ص ٣٦٧ - ٣٧٤ . ود. شوقي ضيف « العصر الجاهلي » ،

ص ١٦٧ - ١٦٨ .

ومن الباحثين العرب يبرز د. طه حسين ممثلاً للتيار المغالي المنكر لمعظم الشعر الجاهلي . ومعروف ما كتبه في ذلك الصدد في كتابه « الشعر الجاهلي » ، الذي أصدره في عام ١٩٢٦ م بعد ظهور بحث مارجليوث بشهور عشرة ، ثم عاد طبعه مرة ثانية في عام ١٩٢٧ م بعد أن حذف بعض فصوله وأضاف أخرى بعنوان « في الأدب الجاهلي » . وقد أثار هذا الكتاب ردود فعل عنيفة ؛ فالف بعض الغيورين كتباً للرد عليه مفنديين فيها آراءه وادعاءاته (١) .

وفي الجانب المعتدل يطالعنا مصطفى صادق الرافعي ، الذي عالج هذه القضية في الجزء الثاني من كتابه « تاريخ أدب العرب » ، الذي نُشر للمرة الأولى عام ١٩١١ م ، ود. شوقي ضيف ، الذي أرخ لهذه القضية وأبدى رأيه فيها في كتابه « العصر الإسلامي » وبالذات عند ترجمته لبعض شعراء صدر الإسلام كحسان وكعب بن مالك ، وهذان العالمان هما مجرد مثالين لذلك الجانب المعتدل .

(١) لمعرفة هذه الردود انظر : مصطفى صادق الرافعي « تحت راية القرآن » ، القاهرة ١٩٢٦ م ، ومحمد فريد وجدي « نقد كتاب الشعر الجاهلي » ، مطبعة دائرة معارف القرن العشرين بمصر ، ط ١ ، ١٩٢٦ م ، وانظر : محمد لطفي جمعه « الشهاب الراصد » ، مطبعة المقتطف والمقطم بمصر ، ط ١ ، ١٩٢٦ م ، ومحمد الخضري بك « محاضرات في بيان الأخطاء العلمية والتاريخية التي اشتمل عليها كتاب « في الشعر الجاهلي » ، المطبعة السلفية ، القاهرة ، ١٩٢٦ م ، ومحمد الخضر حسين « نقض كتاب في الشعر الجاهلي » ، المطبعة السلفية ، القاهرة ، ١٩٢٧ م ، ومحمد أحمد الغمراوي « النقد التحليلي لكتاب في الأدب الجاهلي » ، ود. علي الجندي « تاريخ الأدب الجاهلي » ، ص ٢٦٧ - ٣٧٤ ، ود. إبراهيم عوض « معركة الشعر الجاهلي بين الرافعي وطه حسين » .

ولابد من التنبيه إلى أن جزءاً من جهود محققي دواوين الشعراء القدامى من جاهليين وإسلاميين انصرف إلى دراسة النصوص الشعرية المختلف في نسبتها بين الشاعر الذي يحققون له ديوانه وغيره من الشعراء ، وهي جهود خصبة مباركة ، ونظرة إلى صنيع د. إحسان عباس في تحقيقه لشرح ديوان لبيد بن ربيعة العامري ، ود. سامي مكي العاني في تحقيقه لديوان كعب بن مالك الأنصاري ، ود. ابتسام مرهون الصفار في تحقيقها لشعر مالك ومتمم ابني نويرة اليربوعي ، وأستاذنا د. حسن محمد باجودة في تحقيقه لديوان عبدالله بن رواحة الأنصاري ، ود. سيد حنفي حسنين ، ود. وليد عرفات في تحقيق كلٍّ منهما لديوان حسان بن ثابت الأنصاري ، ود. محمد حسن آل ياسين في تحقيقه لديوان أبي الأسود الدؤلي ، ود. عبد الحفيظ السطلي وبهجة الحديثي في تحقيق كلٍّ منهما لديوان أمية بن أبي الصلت ، ود. يحيى الجبوري في تحقيقه لشعر عبدالله بن الزبير ، ود. وليد قصاب في تحقيقه أيضاً لديوان عبدالله بن رواحة ، وأستاذي د. عبدالله الجربوع في تحقيقه شعر ضرار بن الخطاب الفهري كل ذلك يعطينا فكرة طيبة عن هذه الجهود وأهميتها الشديدة في مجال توثيق النصوص الشعرية في العصر الذي ندرسه . يضاف إلى ذلك تلك الدراسات الجزئية التي اقتصرنا على توثيق هذه القصيدة أو تلك ، نحو ما كتبه استاذي د. عبدالله الجربوع حول « إخضاع الحدث التاريخي لدراسة صحة نص من النصوص الشعرية وتطبيق ذلك على القصيدة المنسوبة لضرار بن الخطاب يوم بدر » (١). وكذلك دراسته لروايات القصيدة المنسوبة إلى قتيلة بنت

(١) نُشر في مجلة البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي ، جامعة أم القرى ، كلية الشريعة ، العدد الرابع ، مكة المكرمة ، ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م ، ص ١٩٧ - ٢٠٩ . وقد نفى أن يكون ضرار بن الخطاب هو قائلها لأنها تتعارض مع عدد من الشواهد التاريخية التي أجمع الرواة على صحتها كما أنها لا تتفق مع حياة ضرار ولا مع طريقة نظمه إضافة إلى الضعف الظاهر على أسلوبها .

الحارث (١) . وما كتبه د. جاسر أبو صفية من دراسة نقدية لقصيدة « بانت سعاد » من خلال تطبيق منهج علماء الحديث في دراسة النصوص الأدبية ومناقشة الأسانيد المختلفة التي روت هذه القصيدة (٢) . وهناك دراسات توثيقية لاتعلق بالعصر الذي أدرسه اطلعت عليها وأفدت منها ، فأحببت أن أذكرها هنا لعل باحثاً غيري يفيد منها أيضاً (٣) .

(١) نشرت في « مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية » جامعة الملك عبدالعزيز بجدة ، المجلد الثالث ، ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م ، ص ٥٧ - ٧٠ . وقد انتهى فيها إلى أن « الخلاف بين الروايات المتعددة لهذه المقطوعة لا يمكن التوفيق بينه ، مما يشكك في صحة نسبتها إلى بدر ، ويعزز في الوقت نفسه الرواية المنسوبة للزبير بن بكار ، والتي تغمز في أبيات هذه القصيدة وترى انها مصنوعة » وهذه القصيدة سأتناولها دراسة وتوثيقاً في موضعها من الرسالة إن شاء الله تعالى .

(٢) نشرها في « مجلة أبحاث اليرموك ، جامعة اليرموك » ، المجلد الرابع ، العدد الأول ، الأردن ١٩٨٦ م ، ص ٦٣ - ٩٥ . وقد انتهى إلى أن أسانيد هذه القصيدة واهية لا يعتد بها وهي تكفي لإسقاط القصيدة مع اشتغال النص على مصطلحات فقهية ومفاهيم إسلامية لا تتأني لكعب لحظة إسلامه .

(٣) من ذلك الدراسة التي قام بها أستاذنا د. حسن محمد باجودة لشعر أبي قيس صيفى ابن الأسلت الأوسي ، وبالذات محاولته تمييز شعره الصحيح من غيره ، انظر الديوان ، نشر مكتبة دار التراث ، ط مطبعة السنة المحمدية ، القاهرة ، ١٩٧٣ م ، ص ١ - ٢٢ ، وكذلك البحث الذي قام به سلمان القضاة ، محاولاً من خلاله توثيق الشعر المنسوب إلى الحادرة بمعيار لغوي . انظره في « مجلة أبحاث اليرموك » ، جامعة اليرموك ، المجلد الثامن ، العدد الأول ، الأردن ، ١٩٩ م ، ص ١٢٥ - ١٥٥ . وكذلك ما قام به د. سعد مصلوح من توثيق نسبة الشوقيات للشاعر أحمد شوقي وفق السمات الأسلوبية ، انظر كتابه : « في النص الأدبي - دراسة أسلوبية احصائية » ، النادي الأدبي الثقافي بجدة ، ط ١ ، ١٤١١ هـ - ١٩٩١ م ، ص ١٢٧ - ٢٠٠ .

الشك والانتحال وشعراء الرثاء

مما لا شك فيه أن الشعر الرثائي في هذه الفترة وصل إلينا عن طريق الرواية الشفوية ولهذا نجد من الباحثين من أثار شكوكاً حول بعض شعراء الرثاء الذين دار كلام عن النحل في شعرهم ، أو الذين كانوا مثار دراسات الباحثين واهتماماتهم نظراً لما يفجره شعرهم الرثائي من قضايا .

ولذا كان لزاماً عليّ أن أقف وقفات متأنية عند كل ذلك . وهؤلاء الشعراء هم أمية بن أبي الصلت ، وحسان بن ثابت ، وكعب بن مالك ، وعبدالله بن رواحة ، ومتمم بن نويرة في رثائه لأخيه مالك ، وليبيد بن ربيعة في رثاء أخيه أربد .

فأما أمية فإن الشك يدور حول شعره الذي فيه مشابهة من القرآن الكريم ؛ ففي الوقت الذي نجد من الملاحدة - قديماً وحديثاً - من يقول إنه نظم في الجاهلية ثم تأثر الرسول ﷺ به في نظم القرآن الكريم (١) نجد من يرى أن أمية هو الذي تأثر بالقرآن في ذلك الشعر ، من هؤلاء محمد بن داود الاصفهاني الذي أكد أن هذه

(١) من هؤلاء : فريدريك شولتز محقق ديوان أمية ، وكليمان هوارت ، ونيكلسون ، وتورانراي نقلاً عن د. عبدالحفيظ السطلي « ديوان أمية بن أبي الصلت » ، مكتبة أطلس ، دمشق ، ١٩٧٤ م ، ص ١٢٤-١٣٩ ، محمد هاشم عطية « تاريخ الأدب العربي في العصر الجاهلي » ، مطبعة العلوم ، القاهرة ، ١٣٥١ هـ - ١٩٣٢ م ، ص ٢٠٦-٢٠٧ ، وانظر كذلك كامنتسكي « بحوث في العلاقة بين الشعر المنسوب إلى أمية والقرآن الكريم » رسالة دكتوراه ١٩١١ م نقلاً عن د. عفيف عبدالرحمن « الأدب الجاهلي في آثار الدارسين - قديماً وحديثاً » ، دار الفكر للنشر والتوزيع ، عمان ، ط ١ ، ١٩٨٧ م ، ص ٢٨ .

المشابهة بين شعر أمية والقرآن الكريم تدل على أن أمية قد أدرك الإسلام وسمع القرآن ومدح النبي ﷺ وأقر بكتابه، وإن كان لم يسلم، ولكن قد لام نفسه في شعره عن التأخر بالدخول في ملته (١).

كما تناول د. محمد عبدالله دراز العلاقة بين شعر أمية والقرآن الكريم وأيهما يمكن اعتباره مصدراً للآخر فخلص إلى القول «بأنه من التعسف الادعاء بأن هذا الشعر (يقصد الذي بينه وبين القرآن مشابهة) كان سابقاً للقرآن من حيث التاريخ»، ويؤكد أن القرآن أساس الانتاج الأدبي ثم يضيف «ولقد اثبت شعر أمية بصفة خاصة أنه يرجع إلى عدة مصادر مختلفة، فعندما يتكلم الشاعر عن وصف النار يقلد أسلوب التوراة، وعندما يشرع في وصف الجنة يستخدم عبارات القرآن، وعندما يقص التاريخ الديني يلجأ أحياناً إلى الأسطورة الشعبية، وإلى ما يشبه الأساطير الميثولوجية» (٢)، كما ينبغي الإشارة إلى أن هناك من العلماء من يقرر أن هذا الشعر منحول عليه (٣).

(١) انظر كتابه : « النصف الثاني من كتاب الزهرة » ، تحقيق د. إبراهيم السامرائي ود. محمد نوري

القيسي ، منشورات وزارة الاعلام العراقية ، ١٩٧٥ م ، ص ٣٠ .

(٢) انظر كتابه : «مدخل إلى القرآن الكريم - عرض تاريخي وتحليل مقارن» ، دار المعرفة الجامعية ،

الإسكندرية ، ١٩٨٩ م ، ص ١٤٣-١٤٤ .

(٣) انظر د. طه حسين « في الأدب الجاهلي » لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ط ٣ ،

١٣٥٢ هـ - ١٩٣٣ م ، ص ١٤٥ - ١٤٨ ، وانظر : نالينو « تاريخ الآداب العربية - من الجاهلية

حتى عصر بني أمية » ، دار المعارف بمصر ، ط ٢ ، ١٩٥٤ م ، ص ٧٧-٧٨ ، وانظر د. عبدالحفيظ

السطلي في تحقيقه « ديوان أمية بن أبي الصلت » ، ص ١٢٤-١٣٩ ، وبهجة الحديثي « أمية بن

أبي الصلت - حياته وشعره » ، مطبعة العاني ، بغداد ، ١٩٧٥ م ، ص ١١٢ - ١٢٧ .

كما انتهى بهجة عبدالغفور الحديثي إلى القول بأن ذلك الشعر منحول على أمية، وحجته في ذلك «ركاكة لغته وضعف صياغته وأسلوبه المستمد من القرآن» (١).

ويمكن أن نضيف أنه لو كان شعر أمية قد سبق القرآن لما سكت أمية الحاقده على الرسول ﷺ أن نزلت عليه النبوة ولم يُؤثّر بها مما دفعه هذا الحقد إلى رثاء قتلى بدر الوثنيين رغم تمرده في الجاهلية على الوثنية - لكنه العناد والحقد! - ، ولأشاع بين القبائل وفي الأسواق ومواسم الحج بأن محمداً ﷺ قد سرق شعره ومعانيه وضمنهما القرآن بل لطنطنت بذلك الوثنية العربية كلها في أرجاء الجزيرة .

وأما حسان بن ثابت رضي الله عنه فقد تنبه محمد بن سلام منذ وقت مبكر في كتابه «طبقات فحول الشعراء» إلى ما دخل شعره من نحل ، إذ قال : « وقد حُمِلَ عليه ما لم يُحْمَلِ على أحدٍ . لما تعاضت قريش واستتبت ، وضعوا عليه أشعاراً كثيرة لا تنقى » (٢).

كذلك اختلط بعض شعره بشعر كعب بن مالك وعبدالله بن أبي رواحة رضي الله عنهم جميعاً . بل اختلط شعره الإسلامي بشعره الجاهلي (٣) .

(١) «طبقات فحول الشعراء» ٢١٥/٨ .

(٢) « أمية بن أبي الصلت - حياته وشعره » ، ص ١٢٧ . وقد ناقش د. عبدالحفيظ السطلي دعوى هلهلة النسج وقلق اللفظ في شعر أمية ، وكان له في الظاهر رأي مخالف لهذه الدعوى ، لكنه في الحقيقة وافق على وجود هذا العيب في شعر أمية المنحول ونفاه عن شعره الموثق ، انظر تحقيقه لديوان أمية ، ص ٢٤١ - ٢٤٨ .

(٣) انظر مقدمة تحقيق كل من : د. سيد حنفي حسنين « ديوان حسان بن ثابت » الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٧٤ م ، ص ٢٧ وما بعدها ، ود. سامي مكي العاني « ديوان كعب بن مالك الأنصاري - دراسة وتحقيق » ، مكتبة النهضة ، بغداد ، ط ١ ، ١٣٨٦ هـ - ١٩٦٦ م ، ص ١٠ - ١١ ، ود. حسن محمد باجودة « ديوان عبدالله بن رواحة الأنصاري الخزرجي » ، ص ٤ ، ود. وليد قصاب « ديوان عبدالله بن رواحة - دراسة في سيرته وشعره » ، دار العلوم للطباعة والنشر ، الرياض ، ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م ، ص ٨٦ .

وسوف أقوم في هذا الفصل بدراسة بعض الأشعار الرثائية المنسوبة إلى حسان وإلى غيره ، محاولاً في الوقت ذاته التوصل إلى حكم مرضٍ في أمر هذه النسبة.

وأما متمم بن نويرة ، الذي اشتهر برثائه لأخيه مالك ؛ فإن له على الأقل رثائية في أخيه مالك ، نفى الأسود الغندجاني نسبتها لمتمم ، وجعلها لابن جدل الطعان الشاعر الجاهلي في رثاء أخ له اسمه مالك أيضاً ، وستكون هذه القصيدة مجال دراسة في هذا الفصل في محاولة مني لاثبات نسبتها إن شاء الله تعالى.

ويبقى لبيد رضي الله عنه ، الذي يستحق أن نترث عنه قليلاً نظراً لما يثيره شعره من قضايا ؛ فقد جاء في المصادر القديمة أن لبيداً حين أسلم هجر الشعر تماماً عدا بيت واحد اختلفت المصادر في تحديده (١) .

وهذا القول لو صحّ لكان معناه أن أشعاره الإسلامية الموجودة في ديوانه هي أشعار منحولة عليه ولا أساس لها من الصحة . ومثلها في ذلك كل رثاء نظمته بعد إسلامه في أخيه أريد . ذلك أن هذا يناقض ذاك ولا سبيل إلى التوفيق بينهما بحال.

وقد درس بعض الباحثين المعاصرين هذه القضية ، وكان رأيهم أن لبيداً لم يتوقف عن قول الشعر في الإسلام ، ومن هؤلاء (بروكلمان) الذي يرد على هذه الدعوى قائلاً إنها غير صحيحة ، « فإن كثيراً من شعره مطبوع بطابع الوحي ، ويبعد

(١) أبو الفرج الاصفهاني « الأغاني » ، دار إحياء التراث العربي بيروت ، (نسخة مصورة عن دار الكتب المصرية) ، ص ٣٦٩ - ٣٧٠ ، وعبدالقادر البغدادي « خزنة الأدب » ، تحقيق عبدالسلام هارون ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ٢٧٤/٢ ، وعزالدين بن الأثير « أسد الغابة في معرفة الصحابة » ، تحقيق محمد إبراهيم البنا وزميليه ، دار الشعب ، القاهرة ، ١٩٧٠م.

أن تكون كل هذه الأبيات منحولة ، وإن ظهر فيها شيء من التزديد عليه (١) ، ويقول د. شوقي ضيف « إن للبيد أشعاراً كثيرة تفيض بمعاني الإسلام ومثاليته الروحية وإن قراءته للقرآن الكريم تهذب من لفظه وتدخل عليه غير قليل من الطلاوة ... ويتضح ذلك في مراثيه المشهورة لأخيه أريد ، فإن لألفاظها ماءً ورونقاً وفي معانيها من الإسلام أصداءً وظلالاً . وارجع إلي عينيته فستجد جمال السبك والصيغة، وستجد الروح الإسلامية ماثلة في تضاعيف أبياتها ... إلخ » ثم ينتهي إلى أنه « قد يكون الرواة تزيدوا في بعض هذه الأشعار ، ولكن كثرة ما ينسب إليه منها يدل على أن الإسلام تعمق روحه ، وأنه استشعر معانيه ومواعظه فمضى يحيلها أبياتاً وأشعاراً بل وقصائد دينية» (٢). وهذا هو الرأي نفسه الذي قاله بروكلمان.

وممن نفى صحة هذه الدعوى د. إحسان عباس ، إذ يقول عن قصائده وأرجوزته في رثاء أخيه أريد إن « كل هذه المجموعة مما قاله وهو مسلم . وبذلك تنتفي الرواية التي تدعي أنه لم يقل في الإسلام إلا بيتاً واحداً من الشعر ... ولم تكن مراثيه في أريد كل ما قاله في الإسلام بل يضاف إليها قصائد أخرى مما قاله في الإسلام» (٣).

ويؤكد ما سبق د. يحيى الجبوري . فقد قال بعد أن ساق ما قيل عن هجر لبيد الشعر بعد الإسلام وانصرافه إلى القرآن : « وإن دعوى هجر الشعر مرفوضة لا تقوم أمام تركة لبيد من الشعر الذي قاله في عمره حين بلغ سبعاً وسبعين أو قاله في

(١) « تاريخ الأدب العربي » ، ١٤٥/٨ .

(٢) « العصر الإسلامي » ، دار المعارف ، القاهرة ، ط ٧ ، ص ٩١ ، ٩٢ ، ٩٤ .

(٣) « شرح ديوان لبيد بن ربيعة العامري » ، تحقيق د. إحسان عباس ، وزارة الإرشاد والأنباء

الكويتية ، الكويت ، ١٩٦٢م ، ص ٢٧ .

التسعين أو قاله في المائة ، وكذلك الوصية المؤثرة التي تركها عند وفاته لابنتيه ولابن أخيه في كيفية أداء حقه حين يوارى التراب، وفي ديوان لبيد قصائد ومقتطفات في ثناياها أبيات تعكس المعنى القرآني الذي تأثر به ، ولا يمكن أن يكون ذلك الشعر غير إسلامي مادام بعيداً عن الشك والتزوير « (١) .

وبعد ، فذلك رأيان متناقضان في هذه القضية ، وأحسب أن السر في ذلك هو أن الذين ادعوا هجر لبيد للشعر بعد دخوله في الإسلام لم يطلعوا على ديوان هذا الصحابي رضي الله عنه ومن ثم لم يعرفوا أن قوله الشعر لم يتوقف بعد الإسلام ولا يمكن القول بأن هذه الأشعار الإسلامية الموجودة في ديوانه هي أشعار محمولة عليه وليست له في الحقيقة ؛ إذ إن أحداً لم يشك في هذه الأشعار . وأما من يرى بأنه لم يقل شعراً في الإسلام فأغلب الظن أنه لم يطلع على ديوان هذا الصحابي الكريم .

غير أن هناك قضية أخرى في شعر لبيد يثيرها - بل يفجرها - رثاؤه الذي قاله في أخيه أربد ، بعد الإسلام . ذلك أن الروايات تقول لنا إن أربد هذا قد تأمر هو وعامر بن الطفيل على قتل النبي ﷺ وهو بالمدينة في السنة التاسعة للهجرة وأنه قد أصابته صاعقة قضت عليه بعد ذلك بوقت غير طويل (٢) . ويقول عدد غير قليل من علماء أسباب النزول والتفسير إن أربد هو المقصود بقوله تعالى : ﴿ ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء وهم يجادلون في الله وهو شديد المحال ﴾ (٣) ، وإن

(١) « شعر المخضرمين وأثر الإسلام فيه » ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط ٢ ، ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م ،

ص ٢٣٣-٢٣٥ . وقد توسع د. الجبوري في عرض رأيه هذا توسعاً كبيراً في كتابه : « لبيد بن

ربيعة العامري » ، دار القلم ، الكويت ، ط ٢ ، ١٩٨١ م ، ص ٣٧٩-٤١٢ .

(٢) انظر في ذلك : د. يحيى الجبوري « لبيد بن ربيعة العامري » ، ص ٧٥-٧٨ .

(٣) الرعد : الآية (١٣) .

الرسول ﷺ هو المراد بقوله قبيل ذلك: ﴿ له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله ﴾ (١) ، وإن الإشارة فيه إلى حفظ الله لرسوله من تأمر وأريد وعامر(٢).

ولكن الناظر في السياق الذي وردت فيه هاتان الآيتان لا يجد ما يسوغ القول بأن الضمير في قول الحق تبارك وتعالى « له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله » يعود على الرسول عليه الصلاة والسلام(٣) ، إذ لم يسبق له ﷺ ذكرٌ حتى نستطيع القول بأن المقصود هنا هو النبي محمد ﷺ . وقد تنبه الطبري ، رحمه الله ، إلى هذه النقطة في تعقيبه على تفسير من فسروا الآيتين بأن المقصود بهما هو النبي ﷺ ، وعامر وأريد ، وقال إن الكلام فيهما عام(٤).

(١) الرعد : الآية (١١) .

(٢) انظر مثلاً : الواحدي « أسباب النزول » ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط ١ ، ١٤٠٢ هـ -

١٩٨٢م ، ص ١٥٦ - ١٥٧ ، والسيوطي « لباب النقول في أسباب النزول » ، دار إحياء العلوم ،

بيروت ، ط ١ ، ١٩٧٨م ، ص ١٣٠ . وتفسير الطبري « جامع البيان » ، ١١٤/١٣ - ١٢٨ ،

وتفسير أبي حيان في « البحر المحيط » ، ٣٧١/٥ ، وتفسير ابن كثير ، ٣٥٩/٤ - ٣٦٧ .

(٣) يذكر أستاذنا الدكتور حسن محمد باجوده في دراسته المتأمله لسورة الرعد - رأيين بشأن العائد

إليه هذا الضمير « له » ، الأول: أن الضمير يعود إلى جنس الانسان ، والآخر: انه يعود إلى الذات

العلية . ويبدو أن هذا الأخير هو الراجح عند أستاذنا الكريم . لمزيد من التفصيل انظر كتابه

« تأملات في سورة الرعد » ، دار الاعتصام ، القاهرة ، (د . ت) ، ص ٨٣ .

(٤) تفسير الطبري ، ١٢٠/١٣ . ويذكر د. يحيى الجبورى أن الرأي الراجح هو أن الآيات نزلت في

عامر بن الطفيل وأريد بن قيس فعلاً . انظر كتابه « ليبد بن ربيعه العامري » ، ص ٧٧ .

ويعضد ما قلناه إن سورة « الرعد » هي سورة مكّية في الراجح (١) كما أن
تأمر أريد وعامر على النبي ﷺ إنما كان في المدينة في أواخر حياة الرسول ﷺ ،
على أن الأهم من ذلك هو : كيف طاوعت لبيداً نفسه ، وهو المسلم أن يرثي أخاه الذي
تأمر على قتل الرسول ﷺ ، ويشيد به ويمجد طباعه وأخلاقه ؟ إن لبيداً لم يكن من
المعروف عنهم وهنّ الدين حتى يقال إنه لم يجد من الإسلام مانعاً من أن يرثي أخاه
الكافر الذي أراد أن يغتال النبي محمد ﷺ . وهذه هي إحدى الأمور الشائكة التي
لا أستطيع أن أجد لها حلاً يرضي عقلي وضميري العلمي . أنقول إن هذا الشعر
المنسوب للبيد بعد إسلامه في رثاء أخيه هو شعر محمول عليه لم يقله ؟ لكنني لا أعلم
أن أحداً من القدماء أو المحدثين قد شك في هذا الشعر ، بل لم أجد أحداً قد تنبه
لهذا الأمر أصلاً . أم نقول إن تأمر أريد وعامر على الرسول ﷺ وهلاكهما إنما كانا
والرسول لا يزال في مكة وإن رثاء لبيد لأخيه قد كان قبل دخول الشاعر في الإسلام ؟
أم نقول إن أريد قد هلك بالصاعقة ولكن لم تكن ثمة مؤامرة أصلاً ؟ إننا لو قلنا هذا ،

(١) من الذين قالوا بمكيتهما ابن كثير رحمه الله في تفسيره، ٣٥٠/٤ ، وسيد قطب رحمه الله في
ظلال القرآن ، دار الشروق ، بيروت ، القاهرة ، ط ١٠ ، ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م ، ٢٠٦٦/٤ ،
ومابعدهما ، والشيخ محمد الطاهر بن عاشور ، تفسير التحرير والتنوير عند افتتاحه تفسير
السورة، الدار التونسية للنشر ، ١٩٨٤ م ، ودحسن محمد باجودة «تأملات في سورة الرعد»، ص
٩ ، ود.صبيحي الصالح ، مباحث في علوم القرآن ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ط ١٦ ،
١٩٨٥ م ، ص ١٨٢ هامش ٥ ، وعادل محمد أبو العلا « خصائص السور والآيات المدنية
ضوابطها ومقاصدها » ، دار القبلة ، جدة ، ومؤسسة علوم القرآن ، بيروت ، ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م ،
ص ٦٦-٦٨ ، ود. ابراهيم عوض « سورة الرعد - دراسة أسلوبية وأدبية » ، مركز الشرق
العربي ، الطائف ، ١٤١٠ هـ ، ص ٢ - ١٢ .

فقد خالفنا بغير دليل الروايات المتضاربة على هذه القصة . الحقيقة إنه لأمر يبعث
الحيرة والاستغراب !

الخلفاء الراشدين وقول الشعر :

تذكر بعض المصادر القديمة أن بعض الخلفاء الراشدين قد قال شعراً من
ذلك مارواه ابن عبدربه عن سعيد بن المسيب أنه قال: « كان ابوبكر شاعراً، وعمر
شاعراً، وعليّ اشعر الثلاثة » (١).

وعلى الرغم من أنني لأستطيع أن أنفي عنهم قول الشعر إلا أن النصوص
التي وصلت إلينا منسوبة إليهم كانت مثار شك من قبل الدارسين قديماً وحديثاً،
فأبوحاتم الرازي يرى « أن كثيراً من الصحابة المتقدمين يقولون الشعر وينشدونه
ويتمثلون به ويستحسنونه » إلى أن يقول : « كان ابوبكر وعمر شاعرين، وكان عليّ
اشعر منهما ولكن ليس يروى لهما شعر يعتمد عليه، لانهم لم يكونوا يقولون إلا
الآبيات في أمور تعرض » (٢).

وخير مثال على أن أكثر هذا الشعر المنسوب إليهم منحول ومشكوك فيه أن
من يقرأ الشعر المنسوب إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه سيجد أن معظمه يدور
حول موضوع وغرض واحد ، وأنه قد استغل بقصد أو عن غير قصد في العصور

(١) « العقد الفريد » شرح وضبط وتصحيح أحمد أمين وآخرين ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ،

الطبعة الثالثة ، ١٣٩٣ هـ - ١٩٧٣ م ، ٢٨٣/٥ .

(٢) « الزينة في الكلمات الإسلامية » ، تعليق حسين بن فيض الهمداني ، دار الكتاب العربي بمصر ،

الطبعة الثانية ، ١٩٥٧ م ، ١٠٩/١ .

اللاحقة من قبل الشيعة لاثبات أن علياً رضي الله عنه مصدر كل الفضائل فلا يكادون يسمعون بفضيلة أو حكمة نادرة إلا وينسبونها لعلي رضي الله عنه . ناهيك النثرية التي تشوب معظمه ، وهو بهذا يفتقر إلى العناصر الفنية التي تميز بها الشعر ، كما أن أكثره يبدو مختل الأوزان ، وقوافيه غير متسقة فيها العديد من العيوب .

ويذكر د . يحيى الجبوري أن هذه القصائد المنسوبة إلى علي رضي الله عنه يبدو فيها « مجافاة روح العصر ، وأنها تختلف قوة وضعفاً مما يدل على أن الذين نسبوا إليه تلك القصائد ، مختلفون تتباين ثقافتهم ، وتختلف أزمانهم » (١)

ليس هذا فحسب بل إن نظمهم للشعر لايزيدهم مكانة إلى مكانتهم فرسالتهم أسمى وأنبى « وقد ظن الذين نسبوا إلى الإمام مالم يقل إنهم يحسنون صنعا ويرفعون من قدر علي ... ولئن كان خليفة المسلمين منزهاً عن الشعر ، وأوهام الشعراء وأهواءهم ، خير له وللدين من أن يحسب في عداد الشعراء » (٢) .

وخاتمة القول فإن الشعر المنسوب إلى الخلفاء الثلاثة رضوان الله عليهم قد دخله نحل وشك والدليل على ذلك أن القصائد (٣) التي تنسب إليهم في رثاء المصطفى ﷺ ضعيفة النسج ركيكة السبك فاترة واهية لاترقى من الناحية الفنية إلى المستوى المطلوب فضلاً عن أنها لم تستطع أن ترتفع إلى مستوى الحدث فالرسول ﷺ هو المثل الأعلى ورثاؤه ينبغي أن يكون بمثابة الرثاء المثل .

(١) انظر كتابه « الإسلام والشعر » ، مكتبة النهضة ، بغداد ، ١٣٨٣ هـ - ١٩٦٤ م ، ص ١٢٥ .

(٢) انظر السابق ، ص ١٢٦ .

(٣) انظرها عند الدكتور نشأة العناني «مراثي الرسول ﷺ عقب وفاته» ، دار العهد الجديد ، الطبعة

الأولى ، ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م ، ص ٧٨-٨٧ .

توثيق شعر الرثاء

تمهيد :

لعل من أهم القضايا التي أثارها الدارسون حول شعر صدر الإسلام قضية الانتحال والشك فيما ينسب إليه من شعر ، وهذه القضية ليست قاصرة على شعر صدر الإسلام ، فقد سبق لها أن أثرت حول الشعر الجاهلي .

وقد عزا محمد بن سلام السبب الرئيسي في انتحال الشعر إلى ضياع معظم الشعر بسبب عوامل عدة من أهمها : موت الرواة ، وعدم التدوين ، وانشغال المسلمين بالفتوح ، كما كشف عن عدد من الفئات التي اسهمت في نحل الشعر كالرواة ، والقبائل ، والقصاصون ، والأخباريون ، وغير ذلك .

ويبدو لنا أن آراءه لا تنحصر على العصر الجاهلي وإنما تمتد لتشمل عصر صدر الإسلام ، فهو يشير - مثلاً في أكثر من موضع - إلى نصوص بعينها منتحلة في عصر صدر الإسلام .

ومن خلال استعراضنا لشعر الرثاء المنسوب إلى هذه الفترة فإننا نقف على العديد من تعليقات القدماء وأهل البصر بالشعر والتي تشكل في صحة نسبة هذه النصوص إلى قائلها أو تنفيها قطعياً عن تلك الفترة مما يدفعنا إلى التريث قبل قبولها أو رفضها حتى نخضعها للدراسة الدقيقة .

وقبل أن أبدأ بتوثيق النصوص أود الإشارة إلى أن الشعر الرثائي الذي وجدت اختلافاً في نسبته مما تسنى لي جمعه من المظان المختلفة قد بلغ نيفاً وعشرين نصاً ما بين قصيدة ومقطوعة . وبعض هذا الشعر لشعراء كفار ، وآخر لشعراء مسلمين . وبعضه في رثاء قتلى الطرفين في المعارك التي دارت رحاها بين الإسلام والوثنية ، وآخر في رثاء الرسول ﷺ ، أو عمر أو عثمان أو علي رضي الله عن الجميع وأرضاهم . وقد قمت بدراسة هذه الأشعار المختلف في نسبتها محاولاً تمحيص هذه النسبة .

وكانت الطريقة التي اتبعتها في تمحيص هذا الشعر وتوثيقه ، هي تطبيق منهجين من مناهج نقد النصوص (*) ، أحدهما نقد خارجي يعالج اختلاف الروايات والأسانيد التي تتعلق بنسبة الشعر المختلف فيه لهذا الشاعر أو ذاك ، واخضاع الشعر للأحداث التاريخية لمعرفة مدى انتمائه للعصر الذي قيل فيه ، والآخر نقد داخلي يعالج مضمون ذلك الشعر وأسلوبه من خلال استنطاق النصوص الشعرية ، وهذا المنهج الذي اتبعتة يتفق - إلى حد كبير - مع ماذهب إليه د. شوقي رياض في تصوره للمنهج المتكامل الذي ينبغي اتباعه في تحديد نسبة النصوص الشعرية التي يحوم حولها الشك في سيرة ابن هشام ، وذلك حين يقول: « تبقى النصوص التي تحوم حولها الشبهات وتدفعنا إلى الشك فيها ، والقول بأنها موضوعة أو منحولة ...

(*) لمزيد من التفاصيل حول مناهج نقد النصوص انظر: د. علي جواد الطاهر «منهج البحث الأدبي»، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط ٣، ١٩٧٩م، ص ١١٠ - ١١٤ ، محمد خير شيخ موسى « فصول في النقد العربي وقضاياها ، دار الثقافة ، الدار البيضاء ، د . ت ، ص ٨٥ فمابعدها .

إلا أنه ينبغي أن نتأني وتتريث قبل أن نقرر نحلها ؛ إذ يتطلب منا المنهج العلمي أن ننظر في أسانيد روايتها وفي المصادر التي أوردتها ، ثم نتبع ذلك بفحص دقيق للنصوص ذاتها فننظر فيما تضمنته من معانٍ وأفكار وما انتظمت من ألفاظ وأساليب ، ونقف على خصائصها وسماتها الفنية لنرى مدى المطابقة بينها وبين خصائص الشاعر الذي نسب إليه النص . فإن لم يكن النص لشاعر معروف له خصائصه المميزة ؛ ننظر في مدى ملاءمة هذا النص الشعري لفترة السيرة وأحداثها ومواعمه لسياق الخبر وطبيعة المواقف . كما ننظر في أسماء المواضع والأعلام التي وردت فيه . وإذا كان النص من أشعار النقائض علينا أن نقارنه بالنص المقابل له من شعر الخصوم الذي قيل في المناسبة نفسها ، لعلها تساعدنا في الكشف عن حقيقته» (١).

وإذا كان د. شوقي رياض قد وقف عند عرض المنهج ولم يضعه موضع التطبيق فقد خطوت هذه الخطوة ، وكل ما أرجوه أن أكون قد وفقت ولو بعض التوفيق على أنه لابد من أن أبين أن بعض النصوص التي درستها هنا لم تسمح إلا بتطبيق منهج واحد من تلك المناهج ، وبعضها أمكن فيه تطبيق المنهجين معاً وهذا ما يتضح من خلال الدراسة التوثيقية.

(١) « شعر السيرة النبوية » ، ص ٢٦٧ .

الحارث بن هشام ابن المخيرة

يبكي أخاه أبا جهل

في السيرة النبوية قصيدة من ستة عشر بيتاً على روي الرأء عزاها ابن إسحاق للحارث بن هشام يبكي فيها أخاه عمرو بن هشام (أبا جهل) ويرد على

حمزة بن عبدالمطلب رضي الله عنه ، ونصّها :-

هَذَا لَوْ رَمَّ الْأَيْتِ

وَالْحُزْنَ مَنَى وَالْحَرَارَةَ فِي الصَّدْرِ	أَلَا يَا قَوْمِي لِلصَّبَابَةِ وَالهِجْرِ
فَرِيدٌ هَوَى مِنْ سَلِكِ نَازِمِهِ يَجْرِي	وَاللَّدْمَعُ مِنْ عَيْنِي جُوداً كَأَنَّهُ
رَهِينٌ مَقَامٌ لِلرَّكِيَّةِ مِنْ بَدْرِ	عَلَى الْبَطْلِ الْجَلْوِ الشَّمَائِلِ إِذْ ثَوَى
وَمَنْ ذِي نِدَامٍ كَمَا نَ ذَا خُلُقِ غَمْرِ	فَلَا تَبْعُدَنَّ يَا عَمْرُو مِنْ ذِي قَرَابَةِ
فَلَا بَدُّ لَلْأَيَّامِ مِنْ نَوَلِ الدَّهْرِ	فَإِنْ يَكُ قَوْمٌ صَادَفُوا مِنْكَ دَوْلَةَ
تُرِيهِمْ هَوَاناً مِنْكَ ذَا سَبُلٍ وَعَرٍ	فَقَدْ كُنْتَ فِي صَرْفِ الزَّمَانِ الَّذِي مَضَى
وَلَا أُبْقِ بَقِيَا فِي إِخْءَاءٍ وَلَا صِهْرٍ	فَالْأُمَّتُ يَا عَمْرُو أَتْرَكَكَ ثَائِراً
كَرَامٍ عَلَيْهِمْ مِثْلَ مَا قَطَعُوا ظَهْرِي	وَأَقْطَعُ ظَهْرًا مِنْ رَجَالٍ بِمَعَشَرِ
وَنَحْنُ الصَّمِيمُ فِي الْقَبَائِلِ مِنْ فَهْرٍ	أَغْرَهُمْ مَا جَمَعُوا مِنْ وَشِيظَةٍ
وَأَلْهَى لَا تَتْرَكِيهَا لِذِي الْفَخْرِ	فِي آلِ لَوَى ذَبَبُوا عَنْ حَرِيمِكُمْ
أَوَاسِيَهَا وَالْبَيْتِ ذَا السَّقْفِ وَالسُّتْرِ	تَوَارَثَهَا أَبَاؤُكُمْ وَوَرَّثْتُمْ
فَلَا تَعْذِرُوهُ آلُ غَالِبٍ مِنْ عَذْرِ	فَمَا لِحَلِيمٍ قَدْ أَرَادَ هَلَاكَكُمْ
وَكَوْنُوا جَمِيعًا فِي التَّأْسَى وَفِي الصَّبْرِ	وَجَدُوا لِمَنْ عَادَيْتُمْ وَتَوَازَرُوا
وَلَا شَيْءَ إِنْ لَمْ تَتَّأَرَوْا بِذَوِي عَمْرٍو	لَعَلَّكُمْ أَنْ تَتَّأَرَوْا بِأَخِيكُمْ

بيوت مهترات

بمطردات في الأكف كأنها وميض تطير الهام بينة الأثر
 كأن مدب الذر فوق متونها إذا جردت يوماً لأعدائها الخزر (١)

ويقول ابن هشام عن هذه القصيدة: «إن أكثر أهل العلم بالشعر ينكرها» (٢)،
 ولكن لم يذكر لنا من هؤلاء (٣)، ولا ما حملهم على هذا الإنكار، بل ماذا يقصدون به
 : أيقصدون أن شخصاً آخر من قريش مثلاً قالها يرثي بها أبا جهل بعد مصرعه في
 بدر؟ أم يقصدون أنها مصنوعة ونحلت للحارث؟

وقد اقتفى أثره د. وليد عرفات، إنلابيري: «أن النقائص التي قيلت في بدر
 هي محل شك، وبطبيعة الحال من بين هذه النقائص قصيدتنا هذه التي جاء في
 السيرة أنها تشكل مع أخرى لحسان بن ثابت نقيضتين... ويرصد د. عرفات السمات
 التي تكشف أن النص الشعري المنسوب لعصر صدر الإسلام هو نص مزيف...
 فيذكر منها الافتقار إلى حرارة الشاعر، وتكديس الأسماء وكأنها منسوخة من كتاب
 ، والخروج المتكرر على قواعد النحو والصرف واللغة، وتحريف أسماء الأعلام
 خضوعاً للضرورة الشعرية، إلى جانب كثرة الحشو في العبارة، واختلال التوازن
 واختفاء الإحساس السليم في كثير من الأحيان، فضلاً عما يصدر عن المزيّف الناحل
 من فلتات اللسان التي تكشف - مثلاً - عن إسلاميته رغم أن النص المزيّف منحول
 لشاعر جاهلي... إلخ» (٤).

(٢٠١) ابن هشام «السيرة النبوية»، تحقيق السقا والأبياري وشلبي، مطبعة مصطفى الحلبي، ط٢،

١٣٧٥هـ - ١٩٥٥م، القسم الثاني، ص ١٠.

(٣) يذكر د. شوقي رياض في كتابه: «شعر السيرة النبوية - دراسة توثيقية»، ص ٢٥٢، أن أهل

العلم بالشعر عند ابن هشام هم علماء البصرة وحدهم.

(٤) An Aspect of the Forger's Art in Early Islamic Poetry, Bulletin
 of the School of Oriental and African Studies, XXVIII, 3, 1965,
 pp. 477 - 478.

فإننا نظرنا في الأبيات التي بين أيدينا لنرى هل يوجد فيها شيء من هذه السمات التي أشار إليها د. وليد عرفات لم نجد شيئاً ، بل نجد فيها دعوة لمشركي قريش أن يهبوا للدفاع عن آلهتهم والبيت الذي كانت الآلهة منصوبة فيه ، ولا يتركوهما لمحمد ﷺ ، الذي نال منه الحارث بن هشام بكلمة شديدة ذكر ابن هشام أنه غيرها ، وذلك حيث يقول :

فِيأَلِ لؤي ذَبَبُوا عن حريمكم وألهة لا تتركوها لذِي الفَخْرِ
توارثها أبأؤكم وورثتم أواسيها والبيتَ ذا السَّقْفِ والسِّتْرِ (١)

ثم إن سبّه للرسول ﷺ في البيت الأول من البيتين السابقين وفي البيت التالي الذي يقول ابن هشام أنه غير ما كان فيه من إقذاع في حقه ﷺ :

فما لحليمٍ قد أراد هلاككم فلا تعذروه آل غالبٍ من عذُرٍ (٢)

(١) ذكر ابن هشام : أنه قد أبدل كلمة « الفخر » بالكلمة التي سب بها الحارث النبي عليه الصلاة والسلام . انظر : « السيرة » ق ١١/٢ . وقد رجح الفرد جليوم في ترجمته للسيرة أن عبارة « لذِي الفخر » كانت في الأصل : لذِي الفَجْرِ (أي الفاجر ، إذ « الفَجْر » و « الفجور » بمعنى واحد . انظر ص ٣٤١ هامش ١ من ترجمته للسيرة بعنوان « The Life of Muhammad » .

(٢) يرى جليوم أن تكون كلمة « حليم » هنا قد استبدلت بكلمة « لثيم » أو « ذميم » ، المرجع السابق ، نفس الصفحة والهامش . وينبغي الإشارة هنا إلى أن بحث جليوم عن أصل الكلمات التي استبدلها ابن هشام تنم عن خبث واضح ، وعداء صريح لشخصية الرسول الكريم والنيل منه ﷺ . وأن ما يدعيه هو وأمثاله من المستشرقين من تحر للدقة والموضوعية ؛ إنما الهدف من ورائه النيل من الإسلام وبت الشكوك والأباطيل حوله ... !

→ يجعلنا نجزم أن القصيدة لا يمكن أن تكون منحولة ؛ إذ النحل إنما قام به مسلمون فيما بعد ، ولا يتصور أن مسلماً يمكن أن يقدم على قولٍ مثل هذا في حق النبي ﷺ مهما كان ضعف تدينه ، ومهما كانت رغبته في إخفاء نفسه وإقناع الناس أن أحد المشركين هو الذي قال ذلك !

أما لو قيل إنها قد تكون لمشرك آخر غير الحارث فإننا نتساءل من عساه يكون ؟ ولماذا قيل إنها ليست للحارث بل لغيره ؟ إن تحليل القصيدة يكشف أن قائلها لابد أن يكون حميم الصلة بأبي جهل ، وذلك لما يسودها من لوعة جارفة وحقد دفين . ويؤكد تهديد الشاعر في البيتين السابع والثامن أن هذه الصلة لابد أن تكون صلة قرابة شديدة . بل إن فيهما وفي غيرهما من الأبيات ما يدل على وجه القطع أن هذه القرابة هي قرابة الأخوة ، يقول : -

فلا تَبْعُدَنَّ يا عمرو من ذي قرابةٍ ومن ذي ندامٍ كان ذا خُلُقٍ غَمْرٍ
فإلاً أمتُ يا عمرو أتركك نائراً ولا أبقِ بُقياً في إخاءٍ ولا صِهْرٍ
وأقطعُ ظهراً من رجالٍ بمعشرٍ كرامٍ عليهم مثل ما قطعوا ظهري
لعلكم أن تثاروا بأخيكُم ولا شيء إن لم تثاروا بذوى عمرو

إن الكلام في البيت الثاني صريح صراحة تامة في ذكر الأخوة التي كانت تربط بين الشاعر والقتيل عمرو بن هشام (أبي جهل) ، والصهر الذي بينهما ؛ إذ كان عكرمة بن أبي جهل زوج بنت عمه الحارث (أم حكيم) (١) . كما أن قوله : إن المسلمين قد «قطعوا ظهري» لا يمكن أن يصدر إلا من أخٍ أو أبٍ أو ابنٍ ... !

(١) انظر : ابن هشام « السيرة النبوية » ، ق ٦٢/٢ .

هذا عن تحليل القصيدة من جهة معانيها وجوها النفسي ، أمّا عند تحليل أسلوبها وموازنته بما بقى لنا من شعر الحارث بن هشام فاننا نجد أن كلمة « ذببوا » في البيت ، قد وردت في شعر للحارث نفسه ، وإن كان ابن هشام يقول إنه لم ير أحداً من أهل العلم بالشعر يعرفه (١) ، وذلك قوله :

وقولوا لأهل المكتّين : تحاشدوا وسيروا إلى أطام يثربَ ذي النُخلِ
جميعاً ، وحاموا آل كعبٍ وذببوا بخالصةِ الألوانِ مُحدّثةِ الصُّقلِ (٢)

ومثل ذلك ذكره الألهة في الأبيات التي نحن بصدد دراستها ، وذكره اللات في القصيدة نفسها التي منها البيت السابق ، حيث يقول :

على أنني ، واللاتِ يا قومُ فاعلموا بكم واثقُ ألا تُقيموا على تَبَلِ

ولعلّه بعد تلك الدراسة والتحليل يتضح أن ما ذكره ابن هشام من إنكار أكثر أهل العلم بالشعر للقصيدة المنسوبة للحارث بن هشام ، لا ينبغي أن يعوقنا عن ترجيح نسبتها له . وقد قال د. شوقي رياض مثل هذا ؛ إذ رأى أن إنكار أكثر أهل العلم بالشعر ، على ما يروي لنا ابن هشام أحياناً ، « لا يعني أن يأخذ الباحث المحقق بهذا الإنكار الغالب . بل ينبغي مراجعة هذه الأشعار في مصادر أخرى قد تفيدنا بمعلومات عنها تساعدنا في الوصول إلى الحكم السليم ، فمن هذه النصوص ما يمكن الاطمئنان إلى صحة نسبته إذا قمنا بهذا التحقيق » (٣) .

(١) انظر « السيرة النبوية » ، ق ١١/٢ .

(٢) السابق ، ق ١٣/٢ .

(٣) « شعر السيرة النبوية - دراسة توثيقية » ، ص ٢٣٢ .

وقد أخذ ابن سيد الناس بنسبة هذه القصيدة إلى الحارث بن هشام وأوردها
له في كتابه (١) .

(١) انظر: « عيون الأثر في فنون المغازي والسير »، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط ٣، ١٤٠٢هـ -
١٩٨٢م، ١/٣٤٥-٣٤٦.

هَندُ بنت عتبة تبكي أباهما يوم بدر

ساق ابن إسحاق في السيرة مقطوعة من خمسة أبيات نسبها لهند بنت عتبة

في رثاء أبيها بعد مقتله في بدر على يد المسلمين :

يَرِيبُ عَلَيْنَا دَهْرُنَا فَيَسُوءُ نَا وَيَأْبَى فَمَا نَأْتِي بِشَيْءٍ يُغَالِبُهُ
أَبَعَدَ قَتِيلٍ مِنْ لَوْيِّ بْنِ غَالِبٍ يُرَاعُ امْرُؤًا إِنْ مَاتَ ، أَوْ مَاتَ صَاحِبُهُ ؟
أَلَا رَبُّ يَوْمٍ قَدْ رُزِّتُ مَرْزَأً تَرُوحُ وَتَغْدُو بِالْجَزِيلِ مَوَاهِبُهُ
فَأَبْلُغُ أَبَا سَفِيَانَ عَنِّي مَا لَكَ فَإِنْ أَلَقَهُ يَوْمًا فَسَوْفَ أُعَاتِبُهُ

فقد كان حربٌ يسعُرُ الحربَ ، إنه لكل امرئٍ في الناس مولى يطالبه (١)
قال ابن هشام : وبعض أهل العلم بالشعر ينكر قولها (١)
ويتساءل الباحث عن « بعض أهل العلم بالشعر » هؤلاء ؛ فلا يجد أمامه
سوى أن ينظر في النصِّ محاولاً استنتاجه واستكشاف ما فيه لعله يصل إلى رأي
بشأن هذه النسبِية.

وأول ما يلحظه الباحث على الأبيات أنها تعكس تماسك الرجل وجموده ، إذ
ليس فيها إنكسار المرأة وحسرتها اللذان يجلان المقطوعتين السابقة لها ^{المقطوعة} واللاحقة بها ^{واللاحقة}
(رغم أن ابن هشام يقول إن بعض أهل العلم بالشعر ينكر هذه أيضا).

(١) ابن هشام « السيرة النبوية » ق ٢٨/٢ - ٢٩ .
٤١٠٤٠ / ٢

كذلك قول الشاعر عن الدهر إنه إذا أبى « فما نأتي بشيء يغالبه » ، ففكرة المغالبة للدهر من المستبعد أن تخطر على ذهن امرأة حتى لو كانت تنفي قدرتها هي وقومها عليها .

ثم لماذا تفكر هند في إرسال رسالة إلى أبي سفيان وهو زوجها الذي تعيش معه تحت سقف واحد وتقول إنها إن لقيته فسوف تعاقبه ؟ .

فأبلغ أبا سفيان عنِّي مأكلاً فإن ألقه يوماً فسوف أعاتبه
لذلك أرى أن هذه الأبيات من المرجح ألا تكون لهند ، وأن الاعتماد في إنكار نسبتها إليها على « بعض أهل العلم بالشعر » غير كاف .

أما السبعة الأبيات التي تلي هذه المقطوعة ، التي ذكر ابن إسحاق أنها لهند أيضا في رثاء أبيها ، وعقب عليها ابن هشام يقول إن « بعض أهل العلم بالشعر ينكرها لهند » :

لله عينا من رأى هلكاً كهلك رجالية
ياربُّ باك لبي غدا في النائبات وباكيه
كم غادروا يوم القلبي يب غداة تلك الواء ييه
من كل غيـث في السنين إذا الكواكب خاويه
قد كنت أخذرُ ما أرى فاليوم حَقُّ حذاريه
قد كنت أخذرُ ما أرى فأننا الغداة مؤاميه
يا ربُّ قائل غداً يا ويح أم معاويه ؟ (١)

(١) « السيرة النبوية » ق ٣٩/٢ .

فأمرها مختلف ، إذ إن روحها - كما سبق القول - نسائية بتفجعها
 وحسرتها، وإن الإشارة فيها إلى « هلك رجاله » يتسق مع ما حدث لهند ^{بنت} عتبة في
 غزوة بدر من مقتل أبيها وابنتها وبعض إخوتها على أيدي صناديد الإسلام . ويؤكد
 نسبتها لها تلك العبارة المتفجعة التي جاءت في البيت الأخير : «ياويح أم معاوية !»
 «وأم معاوية هي هند» كما نعلم، وهذه عبارة تشي بروح نسائية .

رثاء هند بنت أُنثاة لهبيدة بن الحارث

أما الأبيات المنسوبة في السيرة إلى هند بنت أُنثاة بن عبَّاد بن المطلب في رثاء عبيدة بن الحارث بن المطلب ، التي تعدد فيها - في لهفة وتفجع - مناقبه من مجدٍ وسؤددٍ وحلمٍ ، وأبٍ وافرٍ وإكرام الأضياف الغرباء ، والأرامل والمطلين والأيتام ، والتي يقول ابن هشام : إن أكثر أهل العلم بالشعر ينكرها لهند هذه (١) . فكل ما أستطيع قوله فيها هو : أن طابع النذب النسائي ظاهر عليها ، وأن الرائية لا بد أن تكون قريبة للميت . وهاتان الصفتان تتوافران في هند بنت أُنثاة . وهذا مجرد اجتهادٍ مني دونما يقين مؤكد ، ولعل باحثاً آخر يقف على شيءٍ ندُّ عني ، فيرى غير ما انتهيت إليه .

وهذه الأبيات هي : مكة والمدنية

لقد ضُمَّن الصفرَاء مجداً وسؤدداً

عُبيدة فابكيه لأضيافِ غربةٍ

وبكّيه للأقوامِ في كل شتوةٍ

وبكّيه للأيتامِ والريحِ زفرةٍ

فإن تصبِح النيرانُ قد مات ضوءها

لطارقِ ليلٍ أو للتمسِ القرى

وحلماً أصيلاً وافر اللب والعقل

وأرملة تهوي لأشعث كالجدل

إذا احمرَّ آفاقُ السماء من المحل

وتشيب قدر طالمًا أزيدت تغلي

فقد كان يُذكيهن بالخطبِ الجرل

ومُستنجحٍ أضحى لديه على رسل (٢)

٤٤ / ٢

(١) « السيرة النبوية » ق ٤١/٢ - ٤٢ .

(٢) السابق ، ق ٤١/٢ - ٤٢ .

أمر البقرة
أفوزها
كربيع

رثاء قتيلة للنضر

ورد ضمن الشعر الذي قيل في غزوة بدر الكبرى أبياتٌ ذكر ابن إسحاق (١)

أن قَتِيلَةَ بنت الحارث قد رثت بها أخاها النضر بن الحارث ، وهي الأبيات التي أولها:
 ياراكباً ، إن الأثيلَ مَظِنَّةً ، من صُبْحِ خامسةٍ وأنت موفِّقُ
 أبلغ بها ميتاً بأن تحييةً ما إن تزال بها النجائب تَخْفِقُ
 منى إليك وعبرةٌ مسفوحةٌ جادت بواكفها وأخرى تَخْنُقُ
 هل يسمعنى النضرُ إن ناديتُهُ أم كيف يسمع ميتٌ لا ينطقُ
 أمحمدُ يا خيرَ ضنءٍ كريمةٍ في قومها والفحل فحل مُعْرِقُ
 ما كان ضرك لو مننتَ وربِّما من الفتى وهو المغيظ المَحْنَقُ
 فالنضر أقرب من أسرت قرابة وأحقهم إن كان عتق يُعْتَقُ
 ظلت سيوف بني أبيه تنوشه لله أرحام هناك تُشَقُّقُ
 صبراً يُقاد إلى المنية متعباً رسف المقيد وهو عانٍ مؤثَّقُ

وفيها تبعت إليه بالتحية والدموع ، ثم تتوجه إلى الرسول ﷺ مادحةً له ،

معاتبته إياه على أنه أمر بقتل النضر صبراً (٢) ولم يمنَّ عليه أو على الأقل لم يفده،

(١) انظر : ابن هشام : السيرة النبوية « ق ٤٢/٢ (هامش ٢) ، حيث يذكر المحققون أن بعض

النسخ تذكر أن الذي ذكر الأبيات هو ابن هشام .

(٢) أنكر ابن جعدبة أن يكون النضر قد قُتل صبراً ، مؤكداً أنه أصر بعد أن جرح في بدر على ألا

يأكل أو يشرب شيئاً حتى مات . انظر ابن سلام « طبقات فحول الشعراء » ، بتحقيق محمود

رعاية لحق الرحم ... إلخ ، وتذكر بعض المصادر أن الرسول ﷺ حين بلغه هذا الشعر قال : « لو بلغني هذا قبل قتله لمننتُ عليه » (١).

وقد حظيت هذه الأبيات بقبول ابن هشام لها ؛ فلم يعترض عليها ، ولم يذكر أن أحداً من أهل العلم بالشعر قد رأى فيها شيئاً ؛ كما حظيت بقبول أكثرية العلماء القدامى (٢)، وإن كان هناك اختلاف بينهم حول ما إذا كانت قتيلة هي أخت النضر أو ابنته (٣) وكذلك حول ترتيب الأبيات ورواية بعض ألفاظها .

إن الزبير بن بكار - فيما أعلم - هو الذي ذكر أن الأبيات محل غمزٍ من بعض العلماء ، حين قال : « وسمعت بعض أهل العلم يغمز في أبيات قتيلة بنت

(١) « السيرة النبوية » ، ق ٤٣/٢ .

(٢) انظر الواقدي : « المغازي » تحقيق (مارسون جونسون) عالم الكتب ، بيروت ١٩٦٩م ، ص ١٢٥-١٣٦ ، ومصعب الزبيري « نسب قريش » عناية ليفي بروفنسال ، دار المعارف للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٥٣م ، ص ٢٥٥ ، والجاحظ « البيان والتبيين » تحقيق عبدالسلام هارون ، مكتبة الخانجي بمصر ، ط ٤ ، ١٩٧٥م ، ٤٣/٤-٤٤ ، والبلاذري « أنساب الأشراف » تحقيق د/محمد حميد الله ، نشر معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية ودار المعارف بمصر ، ١٩٥٩م ، ١٤٤/١ ، وابن داود الاصفهاني « الزهرة » ٦٥/٢ ، وأبو الفرج الاصفهاني « الأغاني » ١٩/١ ، والمرزوقي « شرح ديوان الحماسة » نشر أحمد أمين وعبدالسلام هارون ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ط ١ ، ١٣٧١هـ/١٩٥١م ، ص ٩٦٣-٩٦٨ ، والحصري « زهر الآداب » تحقيق على محمد البجاوي ، دار إحياء الكتب العربية (عيسى البابي الحلبي) ، القاهرة ، ط ٢ ، ٢٨/١-٢٩ ، وابن سيد الناس « عيون الأثر » ٣٤٩/١ ، والسهيلى « الروض الأنف » تحقيق عبدالرحمن الوكيل ، دار الكتب الحديثة ، القاهرة ، ط ١ ، ١٣٧٨هـ/١٩٦٧م ، ٣٤٥/٥-٣٤٦ .

(٣) أغلبية من أوربوا هذه القصيدة ذكروا أن صاحبها هي قتيلة أخت النضر بن الحارث .

الحارث ويقول إنها مصنوعة « (١) ، لكن دون أن يذكر من أولئك العلماء وما الدواعي التي حملتهم على هذا الغمز ، ومن صنع ذلك الشعر في نظرهم ... !
ويؤكد د. محمد عبدالمعيد خان أن مثل هذا الغمز لا يعد شيئاً في مواجهة ذلك القبول العام الذي تحظى به تلك الأبيات عند علماء ثقات ، أو نقاد بصراء بالشعر كالبلاذري والجاحظ وأبي تمام ومصعب الزبيري (٢) . وسوف نرى من خلال تحليل القصيدة نفسياً وأسلوبياً أنه من الصعب جداً التسليم بالقول إنها مصنوعة .

وقبل القيام بهذا التحليل لابد من وقفة عند اختلاف العلماء حول التأريخ الذي قيلت فيه هذه القصيدة ؛ فبينما يرد هذا الشعر ضمن ما قيل في بدر ، نجد ابن هشام يسوق ما روي من أنه قد « بلغ » النبي ﷺ وأنه علق عليه قائلاً : « لو بلغني هذا قبل قتله لمننت عليه » (٣) ، بما تفيد كـ « بَلَّغَ » ، التي تكررت في النص عدة مرات ،

(١) انظر عبارة الزبير في: الحصري « زهر الآداب » ، ٢٩/١ ، وابن عبد البر « الاستيعاب » ، تحقيق على محمد البجاوي ، مكتبة نهضة مصر ، القاهرة ، ١٩٠٥/٤ . ولقد روى كل من الحصري وابن عبد البر هذه المقطوعة على أنها لقتيلة فعلاً ، ثم ساقا ملاحظة الزبير بن بكار بعد ذلك . وأود أنبه إلى أن د. وليد عرفات في مقال له في مجلة « معهد الدراسات العربية والشرقية » بلندن (B. Soas, Vol. XXI, Part 3, pp.453-463) وعنوانه « Early Critics of the Authenticity of the poetry of the Sera » قد سها فنسب كلام الزبير إلى الحصري نفسه (pp 462 في العدد المذكور من المجلة) .

(٢) انظر : مقاله « A Critical Study of the poetry of the prophet's Time and Its Authenticity as the Source of Sira » ، في مجلة « Islamic Culture » ، في مجلة « Islamic Culture » ، في مجلة « Islamic Culture » ، October, 1964 , pp 276 - 275 .

(٣) « السيرة النبوية » ، ق ٤٢/٢ - ٤٣ ، وانظر البحتري « كتاب الحماسة » عناية لويس شيخو اليسوعي ، نشر المكتب الشرقي ، بيروت ، ١٩١٠ م ، ص ٢٧٦ .

من أن قتيلة قالت الشعر في مكة ثم حُمِلت أبياتها إلى الرسول ﷺ ، أي أنها لم تقابله وتنشده الشعر بنفسها ، ونرى المرزوقي يقول إنها أتت النبي ﷺ بنفسها فأنشدته شعرها (١). أما في «البيان والتبيين» و«العمدة» و«الإصابة»، فقد رُوِيَ أنها عرضت للنبي ﷺ أثناء طوافه بالبيت فاستوقفته وأنشدته هذه الأبيات (٢). فأين وجه الصواب في ذلك؟

لا أظن أن هذه الأبيات تأخر نظمها أو تبليغها الرسول ﷺ إلى عمرة القضاء أو عام الفتح ، لأنها مملوءة بعتاب قوي له ﷺ لما أمر بقتل النضر ، ولا يُعقل أن يكون ثمة موضع للعتاب بعد هذه السنوات التي تفصل بين بدر وعمرة القضاء أو فتح مكة . كذلك لا يُعقل أن تسكت قتيلة كل هذه المدة ثم تنشئ قصيدة ترسل فيها لأخيها التحية بعد انصرام هذه الأعوام كلها ، وذلك حين تقول :

أبلغ بها ميثاً بأن تحيةً ما إن تزال بها النجائبُ تخفقُ
مني إليك وعبرةٌ مسفوحةٌ جادت بواكفها وأخرى تخنقُ
هل يسمعن النضر إن ناديته ؟ أم كيف يسمع ميثٌ لا ينطقُ

وأيضا فإنني أستبعد أن تظل تلك الحرقه اللاهبة في صدر الشاعرة كل هذه المدة. ثم إن قولها في مطلع القصيدة :

يا راكبا ، إن الأثيل مظنُّةٌ من صبح خامسة وأنت موفِّق

مشيرة إلى الأثيل حيث قُتل النضر مما يعضد القول أن القصيدة قد قيلت عقب معرفتها بنبا مقتل أخيها في ذلك المكان ، وأنها قد قيلت على هيئة رسالة موجهة إلى أخيها من جهة ، وإلى الرسول ﷺ من جهة أخرى .

(١) انظر : « شرح ديوان الحماسة » ٩٦٤/٢ .

(٢) انظر الجاحظ « البيان والتبيين » ٤٤/٤ ، وابن رشيق « العمدة » ، ٥٦/١ ، ابن حجر « الإصابة » ،

ويضاف إلى هذا أن البيتين الأخيرين اللذين تصف فيهما الشاعرة أخاها وهو يرسف في الأغلال وقد تناوشته السيوف ، ينمّان بقوة من خلال هذا الوصف المفصل ، عن أن الأبيات قد نظمت عقب بدر لا في عمرة القضاء أو عام الفتح ، والبيتان هما :

ظلت سيوف بنى أبيه تنوشه لله أرحام هناك تُشَقِّقُ
صبرا يقاد إلى المنية مُتَّعِبًا رسف المقيدُ وهو عانٍ موثَّقُ

هذا من جهة تأريخ نظم القصيدة ووصولها إلى النبي ﷺ . أما من جهة نسبتها إلى قتيلة فإن ما فيها من انكسار وعتاب يوحي بأنها لامرأة ؛ إذ الرجل المشرك لن يفصح ضعفه بالبكاء على مسمع من الرسول ﷺ والعداوة بين قومه والمسلمين بتلك الفظاعة التي نعلم ، فضلا عن أن يعاتبه ، إذ لم يكن ثمة مجال للعتاب وذكر الأرحام والأمن والفداء .

فإذا كانت الأبيات تنسب لغير قتيلة فلا بد أن تكون امرأة هي التي صنعتها ، ومن خلال استعراضنا لما اطلعنا عليه من الدراسات التي تعنى بتوفيق نسبة النصوص لم نقف على دور للمرأة في وضع الشعر أو نحلّه . كما اننا نستبعد أن يكون بإمكان أي واضع للشعر أن ينقل إلينا أحاسيس ومشاعر الأخت (أو الأبنه) الثكلى المتتاعة بكل صدق وموضوعية . إذ لم يعيش التجربة ذاتها ، ولعل الدكتور محمد عبدالمعيد خان قد أصاب - في مقالته الأنفة الذكر (١) حين اتخذ مما في الأبيات من حرقة ويأسٍ وتحسّرٍ على أن الرسول لم يعف عن الضرر دليلاً على صدق نسبتها لقتيلة .

ويرى أستاذي د. عبدالله سليمان الجربوع أن تناقض الروايات في هذا الشعر دليل على « أن هذه الأبيات هي من صنع الأجيال اللاحقة ، وقد نظمت بعد مرور فترة على أحداث بدر » (١) . وأود أن أقف عند هذا الرأي فأقول : إن الاحتكام إلى اختلاف الروايات في رفض نسبة هذا الشعر إلى قتيلة أحسب أنه لا ينهض دليلاً على ما ذهب إليه لأن ذلك يعني أنه كلما كان هناك اختلاف في رواية حدثٍ ما - وما أكثر الاختلافات في التأريخ - فعلياً أن نرفض وقوع ذلك الحدث ! وعندئذ سوف نجد أنفسنا أمام تأريخ بلا أحداث ! .. إنما السبيل هو تحليل هذه الروايات واستنتاج النصوص . ولست أزمع أن النتيجة التي سيتوصل إليها الباحث عندئذ هي نتيجة مقطوع بها ، ولكني أرى أنها مجرد اجتهاد . والعبرة باقتناع ضمير الباحث العلمي ، وليس هناك طريق آخر .

وأما القول بأن الأبيات نظمت بعد فترة من أحداث بدر فقد قلت رأبي فيها فيما سبق .

(١) نظرة على روايات القصيدة المنسوبة إلى قتيلة بنت الحارث ، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية،

جامعة الملك عبدالعزيز بجده، المجلد الثالث، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م ، ص ٦٢ .

نقيضتا ميمونة

وكعب بن الأشرف ببدر

ساق ابن إسحاق ضمن الأشعار التي قيلت عقب غزوة بدر أربعة أبيات بائية
ذكر أنها لامرأة من المسلمين من بني مُرَيْدٍ يقال لهم الجَعَادرة (بطن من بلي) تجيب
بها كعب بن الأشرف ، الذي بكى أصحاب القلب من المشركين ، وحرّض قومهم على
الأخذ بثأرهم وغزو المدينة . وهذه الأبيات هي :

تحنن هذا العبد كل تحنن	يُبْكِي عَلَى قَتْلِي وَايَسِ بِنَاصِبِ
بكت عين من يبكي لبدر وأهله	وَعَلَّتْ بِمَثَلِهَا لَوْيُ بِنِ غَالِبِ
فليت الذين ضرّجوا بدمائهم	يرى ما بهم من كان بين الأخاشبِ
فيعلم حقاً عن يقين ويبصروا	مجرهم فوق اللحي والحواجبِ

ولكن ابن هشام قال إن أكثر أهل العلم بالشعر ينكرها وينكر نقيضها التي
ردّها عليها كعب بن الأشرف(١) ، وهذه الأخيرة هي التي تهمننا لأن كعباً هو الرائي ،
ولأن فيها بيتين يذكر فيهما بكاء لقتلى قريش ، ويعلن أنه سيبقي باكياً عليهم مشيداً
بمناقبهم ، أما الأخرى فتسفه وتسفه رثاءه وتحريضه ، ونص نقيضة كعب هو :

(١) في السيرة النبوية ، ق ٥٣/٢ المنكر هو ابن إسحاق . ولكن من الواضح أن هذا سهو من
المحققين أو من الطابع ، إذ إن ابن إسحاق كان قد انتهى من كلامه ، وهذا كلام ابن هشام كما
هي العادة في مثل ذلك السياق . وهذا ما فهمه د . يحيى الجبوري « شعر المخضرمين وأثر
الاسلام فيه » ص ٦ « هامش ١ » ، ١٩٨٠ م ، ود . شوقي رياض « شعر السيرة النبوية - دراسة
توثيقية » ص ٢٣٠-٢٣١) وقد جعل ألفرد جليوم هذا التعليق لابن هشام ، إذ وضعه مع غيرها من
الملحوظات التي قالها ابن هشام وفصلها هو عن سائر السيرة في آخر ترجمته لها ، (A.
Guillaume, The Life of Muhammad, Oxford University Press,
1980, P.751, Note no.575).

ألا فازجروا منكم سفيها لتسلموا
 أتشتمني أن كنت أبكي بعبرة
 فإني لبك ما بقيت وذاكـر
 لعمري لقد كانت مرید بمعزل
 فحق مرید أن تجد أنوفهم
 وهبت نصيبي من مرید لجعدر
 عن القول يأتي منه غير مقارب
 لقوم أتاني ودُّهم غير كاذب
 متأثر قوم مجدهم بالجباب
 عن الشر فاحتالت وجوه الثعالب
 بشتهم حيي لوي بن غالب
 وفاءً وبيت الله بين الأخاشب (١)

وقبل أن أتناول هذه الأبيات بالدراسة لمعرفة مدى صحة نسبتها لكعب ،
 يحسن أن أشير إلى أن د. يحيى الجبوري قد ضرب صفحاً عن دراسة شعر ميمونة
 لأسباب من بينها أنه شعر مشكوك في صحته وصحة نسبته (٢) ، ثم عاد فدرسه مع
 الشعر المنسوب لابن الأشرف في الرد عليها (٣) .

أما د. شوقي رياض فقد علّق على رأي ابن هشام الذي ذكر فيه أن هذين
 النصين وأمثالهما مما قال فيه إن « أكثر أهل العلم بالشعر ينكرها لفلان » بقوله: « من
 الواضح أن تعليقات ابن هشام هذه تُغلب الشك في النص الشعري ، ولكن هذا الشك
 لا ينسحب على النص ذاته أو يقدر في صحته وأصالته ، وإنما ينسحب على نسبته
 إلى الذي نسبته إليه ابن إسحاق ، فعباراته تعني أن أكثر أهل العلم بالشعر يعتقدون
 أن النص الشعري من قول هذا القائل الذي ذكره ابن إسحاق ، وأنه قد يكون لأحد
 غيره من الشعراء الذين شهدوا تلك الأحداث ، ولكنهم لا يستطيعون تحديد اسم قائله
 تحديداً دقيقاً » (٤) .

(١) « السيرة النبوية » ، ق ٥٤/٢ .

(٢) انظر : كتابه « شعر المخضرمين وأثر الإسلام فيه » ص ١١٦ (الهامش) .

(٣) السابق ص ١٩٨-١٩٩ .

(٤) « شعر السيرة النبوية - دراسة توثيقية » ص ٢٣١ .

ويبدو لي أن ما ذكره د. شوقي رياض إنما ينطبق على الأبيات المنسوبة لميمونة قبل غيرها من الشعر الذي شكك فيه ابن هشام في السيرة النبوية ؛ ذلك أن من الواضح أن تلك الأبيات إنما هي رد على شاعر بكى قتلى قريش بكاءً حارقاً ، وإغاظته له وشماتته فيه وفي القتلى المبكيين . ويؤكد هذا ما في البيتين الأخيرين من تفصيلات واقعية تصف منظر هولاء القتلى وهم صرعى على الأرض والمسلمون يجرونهم على لحاهم وحواجبهم . ومعروف أن كعباً قد بكى قتلى قريش . وكان تفجعه عليهم رغبةً منه في أن يشعل نار الحقد والانتقام في قلوب القرشيين لكي يعودوا إلى حرب الرسول ﷺ والمسلمين . فالأبيات المعزوة لميمونة يمكن أن تكون رداً على شعر ابن الأشرف . كما أن الأبيات المنسوبة لكعب هي رد على تلك الأبيات ، فهي من بحرهما وقافيتها وفيها نقض لمعانيها ، بالإضافة إلى ذكره دفاع لؤي بن غالب الذي ورد ذكرهم في الأبيات الأولى في معرض الشتم والشماتة . يضاف إلى ما تقدم ما ذكره ابن إسحاق من أن صاحبة تلك الأبيات الأولى هي من بني مرثد ، وفي النقيضة المنسوبة لابن الأشرف ذكر لمريد ثلاث مرات بوصفهم قوم الشخص الذي تردُّ هي عليه .

لكن السؤال الذي يطرح نفسه هو : هل ذلك الشخص المريدي امرأة ، بغض النظر عن أن تكون هذه المرأة هي ميمونة أو غيرها ؟ ذلك ما يجعل الباحث يحтар: إن أول بيت في الرد المنسوب لابن الأشرف يتجه إلى ذلك الشخص باعتباره رجلاً لا امرأة :

ألا فازجروا عنكم سفيها لتسلموا عن القول يأتي منه غير مقارب

ولقد فسّر محققو السيرة «السفيه» هنا بأنه هو الشاعرة قائلة الشعر السابق ، وقالوا إنه قد ذُكر لأنه حمل على معنى الشخص ، والشخص يذكر ويؤنث (١) . وهذا فيما

(١) ابن هشام « السيرة النبوية » ، ق ٥٤/٢ (هامش ١) . وقد تابعهم في هذا د. يحيى الجبوري في

كتابه: « شعر المخضرمين » ، ص ١٩٨-١٩٩ (الهامش) .

أرى تفسيراً غير مقنع ، وبخاصة أن صاحب النقيضة قد مضى في تذكير ذلك الشخص طوال مخاطبته له في هذا البيت وفي البيت الذي يليه

كذلك فإني أتساءل : هل كانت هناك نساء مسلمات في بدر ، فضلاً عن أن يكن من بلي؟ ذلك أن البيت الأخير من أبيات المقطوعة الأولى يصف جرّ قتل قريش فوق لحاهم وحوابهم وكان قائله قد شاهد ما فعل بهم عقب انتهاء المعركة .. ولكن قد يقال إن تلك المرأة سمعت ما حدث لهؤلاء القتلى عند جرّهم لدفنهم في القليب أو أنها تخيلت ذلك تخيلاً . لكن هل هذا هو الذي كان ؟ هذان سببان يجعلاني أتوقف عن تعضيد نسبة الأبيات إلى ميمونة .

أما الأبيات الأخرى فإن من الواضح أنها ردُّ على ابن الأشرف من بكاء على قتلى المشركين في بدرٍ وشماتته - كما تقدم - به . وعلى ذلك فمن الممكن أن تكون لابن الأشرف ، وهذا ما تميل نفسي إليه . لكن في البيت الأخير منها شيئاً لا بد من النظر فيه ، وهو إشارة قائلة إلى المسجد الحرام على أنه « بيت الله » . وابن الأشرف يهودي^(١) ، فهل يمكن أن يقرَّ يهوديُّ بأن المسجد الحرام هو بيت الله ؟ إن هذا غير مستبعد منهم ؛ فإن اليهود لا يزالون أن يلجأوا إلى الكذب والخبث والتظاهر بما ليس في قلوبهم بغية أن يصلوا إلى أغراضهم الدنيئة . ولم يكن ذلك غريباً عنهم فقد فعلوا ما هو أوغل من ذلك في الخبث والكذب ، إذ زعموا أن قريشاً على الهدى ، والمسلمين على الضلال ، وذلك ليحرضوهم على الثبات على وثنياتهم وكفرهم فلا يدخلوا في دين

(١) انظر ديوان حسان بن ثابت « تحقيق د. وليد عرفات ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٧٤م ، ٢/٣٠٩ ،

والديوان نفسه ، تحقيق د. سيد حنفي حسنين ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ،

١٣٩٤هـ/١٩٧٤م ، ص ١٥٥ .

التوحيد ، وهو مسجله القرآن الكريم عليهم في قوله تعالى : ﴿ ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلاً ﴾ (١) .

أخلص من هذا إلى القول إنني أرى أن النصين قد قيلا عقب بدر ، وأستبعد أن يكون النص الأول من نظم امرأة ، وأحسب أنه لرجل من بني مرید . أما النص الثاني فالراجع أنه لكعب ، إذ لا أرى مسوغاً لنفيه عنه بعد الأدلة التي سقتها أنفا . أي أنني أوافق ماجاء في كلام ابن هشام بالنسبة للشعر الأول وأخالفه فيما جاء فيه عن الآخر . والله أعلم .

نقيضتا حساك وابن الزبهرى

ذكر ابن إسحاق في سيرته قصيدة لابن الزبهرى على روي العين مكونة من سبعة عشر بيتاً ، وبعدها نقيضة لها على بحرهما ورويها عزاها لحسان ، ثم جاء ابن هشام فقال إن « بعض أهل العلم بالشعر ينكرهما لحسان وابن الزبهرى » (١) .

فأما بالنسبة للقصيدة المنسوبة لابن الزبهرى فيظهر أنها قد قيلت بعد انتصار الكفار في أحد ، حيث يقول الشاعر فيها :

ألا ذرفت من مقلتيك دمــــوعُ	وقد بان من حبل الشباب قطوعُ
وشطط بمن تهوى المزارُ وفرقت	نوى الحى دار بالصبيب فجوع
وليس لما ولئى على نى حرارة	وإن طال تذراف الدموع رجوع
فذرُ ذا ، ولكن هل أتى أم مالك	أحاديث قومي والحديث يشيعُ
ومجنّبنا جرّداً إلى أهل يثرب	عناجيج منها مثلد ونزيعُ
عشية سرنا في لهام يقودنا	ضرور الأعدى للصديق نفوع
نشد علينا كل زغف كأنها	غدير بضوج الوادين نقيع
فلما رأونا خالطتهم مهابةُ	وعاينهم أمر هناك فظيع
وودوا لو ان الأرض ينشق ظهرها	بهم وصبور القوم ثم جزوع
وقد عريت بيض كأن وميضها	حريق ترقي فى الأباء سريع
فغادرن قتلى الأوس غاصبة بهم	ضباع وطير يعتفين وقوعُ
وجمع بني النجار في كل تلعة	بأبدانهم من وقعهن نجيعُ

(١) « السيرة النبوية » ق ١٤١/٢ - ١٤٣ .

ولولا علو الشعب غادرن أحمداً ولكن علا والسّم هري شُرُوعُ
 كما غادرت في الكر حمزة ثاويماً وفي صدره ماضى الشبابة وقيعُ
 ونعمان قد غادرن تحت لوائه على لحمه طير يجفّن وقوعُ
 بأحدٍ وأرماح الكماة يُردنهم كما غال أشتان الدلاء نُزوعُ (١)

ولكن هل هي لابن الزبعرى حقا ؟ .

إن الشعر الذي وصلنا لابن الزبعرى قليل . وقد نظرت في هذا الشعر فبتين
 أن هناك تشابهاً بينه وبين القصيدة التي في السيرة . وذلك على النحو التالي :

(أ) تبتدىء القصيدة بالوقوف على الأطلال ، وقد تكرر هذا في شعر ابن
 الزبعرى (٢) .

(ب) جاء في البيت الرابع من القصيدة عبارة « فذر ذا » . ووجدت في شعر ابن
 الزبعرى قوله : « فاترك تذكر ما مضى من عيشة » (٣) . فالشاعر هنا
 والشاعر هناك قد تنكبا الفعل « دع » الشائع في هذا السياق واستخدما فعلاً
 آخر هو « ذر » و « اترك » .

(ج) ورد في البيتين العاشر والحادي عشر من القصيدة ذكر السيوف ، وفي شعر
 ابن الزبعرى تكرر ذكرها في ثلاثة نصوص (٤) .

(١) « السيرة النبوية » : ق ١٤١/٢ - ١٤٢ .

(٢) انظر : « شعر عبدالله ابن الزبعرى » ، د. يحيى الجبوري ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط٢ ،

١٤٠١هـ / ١٩٨١م ، ص ٢٩ ، ٣١ .

(٣) السابق ، ص ٢٠ .

(٤) السابق ، ص ٣١ ، ٤٣ ، ٤٤ .

(د) في قصيدتنا كلام عن زحف جيش الكفار إلى المدينة ، وقد أشار ابن الزبير إلى ذلك مرة (١) ، وإلى زحف جيش المسلمين إليهم مرة أخرى (٢).

(هـ) في هذه القصيدة يذكر الشاعر أنهم كانوا سيقضون على الرسول ﷺ لولا أن علا في الشعب ، وفي قصيدة ابن الزبير نراه يقول إن قريشاً والأحزاب ظلوا شهراً وعشراً قاهرين محمداً (٣) .

(و) كذلك مرّ في الأبيات التي أوردناها من القصيدة قبل قليل تصوير جثث المسلمين وقد أكلتها الضباع والطيور ، وهذا المعنى قد ورد في شعر ابن الزبير ، حيث يقول عن غزوة الخندق :

لولا الخنادق غادروا من جمعهم قتلى لطير سغبٍ وذئاب (٤)

ولكن هذا التشابه ليس من الكثرة بمكان ، فهل نستطيع في ضوءه الجزم بنسبتها لابن الزبير ، أو ترجيح ذلك على الأقل ؟

إذا استصحبنا هذه الملاحظات معنا ونحن نقرأ في السيرة وشرح نهج البلاغة هذه القصيدة (٥) نجدها منسوبة لابن الزبير ، فضلاً عن ورود أحد أبياتها في «لسان العرب» منسوية له ، كما أن أحداً لم ينسبها لغيره فيما نعلم ، وإن شك ابن هشام فيها إنما كان عن بعض أهل العلم بالشعر ، كل ذلك يرجح لدينا نسبتها لابن الزبير .

(١) « شعر عبدالله بن الزبير » ، ص ٣٠ .

(٢) السابق ، ص ٣١ .

(٣) السابق ، ص ٣٠ .

(٤) السابق ، ص ٣٠ .

(٥) انظر ابن أبي الحديد « شرح نهج البلاغة » ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، ط الحلبي ،

القاهرة ، ١٩٦٢م ، ١ / ٢٧٧ - ٢٧٨ .

أما القصيدة المنسوبة لحسان في الرد على ابن الزبير التي يقول ابن هشام إن بعض أهل العلم بالشعر ينكرها لحسان (١) فإنها مذكورة في ديوانه بجميع مخطوطاته (٢) ، إضافة إلى أن فيها عدة سمات أسلوبية تؤكد نسبتها له ، وهذه السمات هي :

(أ) أنه ذكر في مطلعها « أم الوليد » . وكان حسان يكتئب «أبي الوليد» (٣) ، وقد تغنى باسم هذه المرأة مرة أخرى في شعره ، وذلك في قوله :

هلا سألت ، هداك الله ، ما حسبي
أم الوليد ، وخير القول للواعي (٤)
وأغلب الظن أنها امرأته .

(ب) ثم إنه قد ابتدأ قصيدته بالوقوف على الأطلال ، وذلك متكرر في شعره (٥) .

(ج) أنه ورد في البيت الرابع « فدع ذكرذا » . وهذا التخصص قد تردد على نحوٍ أو آخر في شعره عدة مرات (٦) .

(١) « السيرة النبوية ، ق ١٤٢/٢ .

(٢) انظر « ديوان حسان » ، (ط . د . حسنين ، ص ٣١٤ في تخريجه للقصيدة رقم (٦) .

(٣) انظر : د . يحيى الجبوري « شعر عبدالله بن الزبير » ، ص ١٩ ، ود . احسان النص « حسان بن

ثابت ، حياته وشعره » ، دار الفكر ، دمشق ، ط ١ ، ١٩٨٥ م ، ص ٢٩ . ووليد الأعظمي « شاعر

الإسلام حسان بن ثابت - دراسة أدبية تاريخية » مكتبة المنار ، الكويت ، ١٣٨٢ هـ / ١٩٦٢ م ،

ص ٢٤ ، و « ديوان حسان » ، (ط . د . عرفات) ٤٤٢/١ ، ٥٢٠ ، ٣٦٠/٢ .

(٤) عبدالرحمن البرقوقي « شرح ديوان حسان بن ثابت الأنصاري » ، دار الأندلس ، بيروت ،

١٩٨٠ م ، ص ٣١١ .

(٥) الديوان (ط . البرقوقي) ، ص ٥٧ ، ٧٠ ، ٢٩٠ ، ٣٦٣ ، ٣٦٩ ، ٣٨٥ ، ٤١١ ، ٤٤٨ ، ٤٧٤ مثلاً .

(٦) السابق ، ص ٥٨ ، ٦٧ ، ٧١ ، ٢٥٥ ، ٢٤٠ ، ٣٨٦ ، ٤٣٨ .

(د) وفي البيت السابع من القصيدة فخر ببني النجار ، وحسان منهم ، وهو في شعره يذكرهم ويشيد بهم (١) .

(هـ) كما أن الشاعر في البيت الثامن يذكر دفاع بني النجار عن الإسلام ونصرتهم للرسول ، وهذا أيضا مما يوجد له نظائر كثيرة في شعره (٢) ، على عكس كعب بن مالك وعبدالله بن رواحة (٣) .

(و) ويذكر البيتان الأخيران أن مصير شهداء المسلمين في الجنة ، وأن قتلى المشركين في النار ، وهذا المعنى قد تكرر عنده (٤) .

(ز) والقصيدة من بحر الطويل . وهذا البحر هو أكثر البحور الشعرية استعمالاً عند حسان ، فقد أحصى د. محمد طاهر درويش له على هذا البحر اثني عشر وستمئة بيتاً ، يليه بحر الكامل ، الذي عدَّ له فيه خمسة وستين وثلاثمئة بيتاً (٥) ، والرياح شبهها في قصيدة لحسان حيث يقول :

أقامت به بالصيف حتى بدا لها نشأص إذا هبت له الريح أرزما (٦)
فذكر الصيف والريح أيضا .

(١) السابق ، ص ١٢٠ ، ٢٢٠ ، ٢٣٣ ، ٢٤٠ ، ٣١٩ ، ٣٩٧ ، ٤٣٨ ، ٤٥٩ .

(٢) السابق ، ص ٦٢ ، ٧٢ ، ١٣٧ ، ١٣٨ ، ٢٠٧ ، ٢٦٨ ، ٣٠٢ ، ٣٤٤ ، ٣٧١ ، ٣٨٤ ، ٤١١ ، ٤٣١ ، ٤٤٥ ، ٤٣٩ .

(٣) انظر : د. محمد طاهر درويش « حسان بن ثابت » ، ص ٣٥٢ ، ٣٥٣ .

(٤) السابق ، ص ٢٣٦ ، ٢٤٢ ، ٢٣٤ ، ٣١٠ ، ٣٤٦ ، ٣٨٧ ، ٤٨٥ .

(٥) انظر : السابق ، ص ٥٢ .

(٦) « ديوانه » ، (ط. البرقوقي) ، ص ٤٢٣ .

نفسهما

كذلك فالقصيدة المنسوبة لابن الزبيرى ، وهي من الوزن والقافية أنفسهما ،

قد هاجمت بني النجار قوم حسان ، فمن الطبيعي - والقصيدة التي نحن بصددتها من البحر والقافية أنفسهما . وتدافع عن بني النجار وتشيد بهم - أن تكون لحسان .

لكل هذا أرى أن هذه القصيدة أقرب ما تكون لحسان بن ثابت ، وأن إنكار

بعض أهل العلم بالشعر لا يسوغ القول بعدم نسبتها إليه ، وذلك لعموم الحكم .

مرثية جسان الجائية

في حمزة

هناك قصيدة في السيرة على روى الحاء مكونة من ثلاثة وأربعين بيتاً في رثاء حمزة وشهداء أحد نسبها ابن إسحاق إلى حسان رضي الله عنه ، بينا يقول ابن هاشم إن « أكثر أهل العلم بالشعر ينكرها لحسان » وهي ليست موجودة في ديوانه رضي الله عنه ، ولم يضمنها البرقوقي فيه . أما د. سيد حنفي حسنين ود. وليد عرفات فقد وضعها في الزيادات وهي على هذا النحو :

يا مي قومي فاندبُنْ	بسُحَيْرَةَ شَجْوِ النوائِح
كالحاملات الوقر بالـ	تُقَلِّل المَلَحَاتِ الدوالِح
المُعْـوَلات الخامشـا	تُوجِـوه حُرَّاتِ صِحائِح
وكان سيل دموعها الـ	أَنْصَابُ تُخْضَبُ بالذبائِح
ينقُضُنْ أشعاراً لهـن	هناك باديسة المسائِح
وكانها أذئاب خيـل	بالضُحى شُـمُسِ رِوامِح
من بين مشـزورٍ، ومـجـ	زورٍ يُذَعُ ذَعُ بالـبـوارِح
بيكين شـجوا مسابـا	ت كدُّ حتهـن الكـوادِح
ولقد أصاب قلوبهـا	مَجْلُ له جُـبُّ قـوارِح
إذا أقصد الحدِثـان مـنْ	كنا نرجى إذ نُشـايِح
أصحابَ أحمـد غالـهم	دهر أَلَمَ له جـوارِح

من كان فارسنا وحا
 يا حمز ، لا واللله
 لُنَاخ أَيْتَام وَأَضْيَاءُ
 وَلَمَّا يَنْوِبُ الدَّهْرُ فِي
 يافارسنا يامدْرهنا
 عنا شديداً الخطو
 ذكرتني أسد الرسو
 عنا وكان يُعد إذ
 يعلو القماقم جهرة
 لا طائش رعمش ولا
 بحر فليس يُغيب جا
 أودي شباب أولى الحفا
المطعمون إذا المشا
 لحم الجلال وفوقه
 ليدافعوا عن جارهم
 له في لشبان رزئناهم
 شُم ، بطارقة ، غطا
 المشترون الحمم دبالأم^س وال إن الحمدرابح

المطعمون
 ص ١٦٧
 كيرة

مينا إذا بُعث المسالِح
 لا أنساك ماصراً اللقائح
 وأرمللة تلامح
 حرب لحرب وهي لاقح
 يا حمز قد كنت المصامح
 ب إذا ينوب لهن قادح
 ل ، وذاك مدْرَهْنَا المنافح
 عُمد الشريفون الجحاجح
 سَبَطُ اليدين أغر واضح
 نو علة بالحممل أنح
 را منه سَيِّبُ أو منادح
 نَّظْ والثقيلاون المراجح
 تى ما يصففن ناضح
 شحمه شُطْبُ شِرايح
 مارام ذو الضغْن المكاشح
 أنهم المصباح
 رفة خضارمة ، مسامح
 وال إن الحمدرابح

والجامزون بلجمهم
 من كان يرمى بالنوا
 ما إن تزال ركابُبه
 راحت تبارى وهو في
 حتى تئوب له المعاي
 يا حمز قد أوجدتني
 أشكو إليك وفوقك التُّربُ المَكُورُ والصَّفائِحُ
 من جنـدل نُلقيـه فـو
 في واسع يحشـونه
 فعزأونا أننا نقـو
 من كان أمسى وهو عمـا
 فليأتنا فلتـبـكـعـينا
 القائلين الفاعلين
 من لا يزال ندى يديه
 يوماً إذا ما صاح صائح
 قر من زمان غير صالح
 يرسي من في غير صحاح
 ركب صـدورهم رواشـح
 لي ليس من فوز السـفـائح
 كالعود شذبه الكوافـح
 قك إذ أجاد الضـرح ضـارح
 بالترب سـوئـة المـاسـح
 ل وقولنا بـرح بوارح
 أوقع الحدثنان جانـح
 يناه لها كانا النوافـح
 نوي السـمـاحة لسـمـاحة والمـادح
 له طـوال الدهر مائـح (١)

(١) « السيرة النبوية » ، ق ١٥١/٢ - ١٥٥ . وقد سها د . سيد حنفي حسنين فأسند إلى ابن هشام

القول بأن « بعض » أهل العلم بالشعر ينكرها لحسان (ديوان حسان ، بتحقيقه ، ص ٣١) ،

ولكنه عاد بعد ذلك فنقل كلام ابن هشام على وجهه الصحيح (ص ٢٧٤ ، الهامش) .

وقبل أن نحلل هذه القصيدة لمعرفة مدى صحة نسبتها لحسان أرى أنه ينبغي التوقف أمام بعض الملاحظات المهمة التي تتعلق بها ، وهي :

(أ) أن القصيدة على وزن مرثية أمية بن أبي الصلت في قتل المشركين في بدر ^{وإلا} ^{ورويبه} وهي المرثية التي مطلعها :

أَلَا بَكَيْتِ عَلَى الْكِرَامِ بَنِي الْكِرَامِ أَوْلِي الْمَسَادِحِ
كَبُّكَ الْحَمَامِ عَلَى فَرَوِ عِ الْإِيكَ فِي الْغُصْنِ الْجَوَانِحِ
يَبْكِينَ حَرَى مَسْتَكِينَاتٍ يَرْحُنُ مَعَ الرِّوَائِحِ
أَمْثَالَهُنَّ الْبَاكِيَاتِ الْمَعُولَاتِ مِنَ النِّوَائِحِ (١)

وهذه الملاحظة لم أجد أحدا ممن رجعت إليهم في أثناء إعداد هذا البحث نبه إليها.

(ب) على أن الأمر لا يقف عند هذا الحد ، بل هناك مشابهة لاتخطئها العين في الألفاظ والعبارات والمعاني . وإن نظرة إلى أبيات مطلي القصيدتين ترينا بعضاً من هذه المشابهات : فكلتا القصيدتين تبدأ بفعل أمر يطلب فيه الشاعر ممن يخاطبه البكاء على موته ، وثمة ذكر للنائحات في كلتا المجموعتين من الأبيات . كما أن كلمتي « المعولات » و « النوائح » موجودتان هنا وهناك .

(١) القصيدة موجودة في السيرة ق ٣١/٢ . وفي ديوان الخنساء أيضاً مرثية من البحر والقافية

تفسير أنفسهما مطلعها :

يا عين ، جودي بالدموع المستهلات السوافح

وكثير من ألفاظ قوافيها على وزن « مفاعل » أو « فواعل » . كما أن هناك عدة كلمات ومعانٍ مشتركة بينها وبين مرثيتنا . انظر : « انيس الجلساء في شرح ديوان الخنساء » عناية « لويس شيخو اليسوعي » ، المطبعة الكاثوليكية للأباء اليسوعيين ، بيروت ، ١٨٩٦م ، ص ٢٥ .

(ج) وإذا مضينا في تقصى وجوه التشابه وجدنا أن معظم ألفاظ القافية في القصيدتين على وزن «مفاعل / فعالل ...» . ليس هذا فقط ، بل هناك ألفاظ واحدة متقاربة في الشُعْرَيْن ، مثل « صالح / الصفائح / النوائح / ججاجح / صائح / مادح - ممداح / رامح - روامح / مراجح / اللوائح - اللقائح - لاقح» .

(د) استخدم الشاعر كلمة (بطارقة) وصفاً لقتلى المشركين في بدر وشهداء المسلمين في أحد .

(هـ) وكذلك وقف كلام الشعارين عند ذكر شجاعتهم في الحرب وأريحتهم ، وإفنائهم أموالهم على الضيوف وطالبي المعروف .

(و) وأيضاً هناك القوافي الداخلية في بضعة أبيات من كلتا القصيدتين .

وهذا يدل على أن صاحب القصيدة الثانية ربما وضع نصب عينيه مرثية ابن أبي الصلت وهو ينظم شعره ، ولعله لما رأى الرسول ﷺ قد نهى عن إنشاء قصيدة أمية (١) أراد بوعي أو بغير وعي أن يضع قصيدة على وزنها وقافيتها وألفاظها ومعانيها ولكن في رثاء شهداء المسلمين لتحل محلها ويكتب لها الانتشار والسيروة ، مما يدعو إلى نسبتها إليه .

وليس في مرثية حمزة فيما عدا البيت الثامن عشر أي شيء إسلامي ، بل على العكس إن فيها تشبيها مأخوذاً من تعبيرات جاهلية ، وهو تشبيه الدموع التي تسح من أعين النوائح على حمزة ورفاقه رضوان الله عليهم بالدماء التي تُخضَبُ بها النَّصَبُ:

(١) انظر بروكلمان « تاريخ الأدب العربي » ، ١١٣/١ ، وديحيى الجبوري « شعر المخضرمين »

ص ١٨٤ ، و« ديوان أمية بن أبي الصلت » تحقيق د. عبد الحفيظ السطلي ، ص ١٣٥-١٣٦ .

وكان سيل دموعها الـ أنصابٌ تُخَضَّبُ بالذبايحُ

فضلا عن الإشارة عقب ذلك إلى نقض النادبات شعورهن :

ينقُضن أشـعاراً لهـن ————— ن هناك بادية المسائح

وربما كان ذلك راجعاً إلى أن هذه أول مرة يندب فيها المسلمون قتلاهم ، فقد كانت أحد أول هزيمة للمسلمين وثاني معركة يخوضونها بعد بدر التي انتصروا فيها انتصاراً مبيناً ، زيادةً على أن مقتل شهداء المسلمين كان أمراً في غاية الشناعة ، إذ مثل المشركون بجثثهم وبخاصة حمزة رضي الله عنه ، فقد بقرت هند بطنه واستلبت كبده ومضغتها ، وجذعت أنفه وأذنيه وجعلت منهما أقرطاً لها (١) كل ذلك جعل النسوة يفعلن في ندبه ما فعلن مما أشار إليه البيت السابق ، ولم يكن النوح قد حُرِّم بعد في الإسلام . إنما حُرِّم بعيد ذلك (٢) .

ولقد بلغ حزن الرسول ﷺ على عمه وأخيه في الرضاع مبلغاً شديداً حتى

أنه أقسم في غمرة آلامه إن أمكنه الله بالمشركين ليمثلن بثلاثين وفي رواية « بسبعين ^{سكى} » منهم لولا أن نزل القرآن عليه يهدى من غيظه ، ويبين له أنه « إن عاقب فليعاقب بمثل ما عوقب به » . كما أنه ﷺ حين مر في رجوعه بدار من دور الأنصار وسمع البكاء والنواح على قتلاهم ذرفت عيناه الشريفتان وقال : « لكن حمزة لابواكي له » ، مما جعل سعد بن معاذ وأسيد بن حضير يعودان فيأمران نساءهم أن يتحزمن ثم يذهبن فيبيكين على حمزة (٣) .

(١) انظر : ابن هشام « السيرة النبوية » ق ٩١/٢ . وابن سيد الناس « عيون الأثر » ٢٦/٢ ، ٣٥ .

(٢) ابن هشام « السيرة النبوية » ، ق ٩٢/٢ فما بعدها .

(٣) عروة بن الزبير « مغازي رسول الله ﷺ » تحقيق د. محمد مصطفى الأعظمي ، مكتبة التربية

العربي لنول الخليج ، الرياض ، ١٤٠١هـ / ١٩٨١م ، ص ١٧١ .

ومما نلاحظه على القصيدة أنها تطلب من « مي » أن تندب حمزة رضوان الله عليه . وهذا أمر مفهوم في ضوء ماقلناه في الفقرة السابقة . ولكن من « مي » هذه ؟ أهي امرأة عادية من نساء المسلمين ؟ (١) ، أم هي إحدى النابات ؟ (٢) أم هو مجرد اسم من الأسماء يُراد به النساء عموماً ؟

وقد ورد اسم حمزة في القصيدة ثلاث مرات ، كما سبق القول ، لكن القصيدة ليست في رثائه رضوان الله عليه وحده ، بل فيه وفي رفاقه من شهداء ذلك اليوم ، رضي الله عنهم أجمعين . وهذه الملحوظة سوف أعود إليها لاحقاً .

كذلك تتحدث القصيدة في الأبيات السادس والثلاثين والسابع والثلاثين والثامن والثلاثين عن دفنه رضي الله عنه . وهذه أيضاً سأعود إليها فيما بعد .

ونتساءل بعد هذا من الذي نظم هذه القصيدة ؟ لقد أوردها ابن إسحاق كما نعلم لحسان رضي الله عنه ، وقال ابن هشام إن أكثر أهل العلم بالشعر ينكرها له .

إن شعر حسان إذا تركنا هذه القصيدة جانبا لا يعرف اسم « مي » ، الذي بدأت به هذه المرثية ، كذلك فإن هذه القصيدة تخلو من التهديد والوعيد ، ومن هجاء المشركين وسباب هند ، ومن محاولة تحويل الأنظار عن انتصار بدر ، على عكس ما نجد في شعر حسان ، إنها ذات حس نسائي واضح بما فيها من حسرة منكسرة . وأيضاً فإن القصيدة تدخل في موضوعها مباشرة ، إذ تخلو من المقدمة الطللية ، كما أن الشاعر لا يخاطب في بدايتها نفسه أو عينه طالباً منها البكاء على

(١) هكذا يقول د. سامي مكي العاني « دراسات في الأدب الإسلامي » منشورات دار المعرفة ، بغداد ، ط ٢ ، ١٩٦٢م ، ص ١٢٣ .

(٢) انظر : د. حسين جمعه « الرثاء في الجاهلية والإسلام » دار معد ، دمشق ، ط ١ ، ١٩٩١م ، ص ٢٩٧، ٥٦ .

المرثي ، كما أن كثيراً من ألفاظ هذا الشعر لا وجود لها في شعر حسان ، وفوق ذلك فإن القوافي الداخلية تكاد تنعدم في شعر حسان الذي لم يشك أحد في نسبته إليه ، ثم إن القافية هنا غريبة على قوافي حسان .

وأكثر من ذلك ، فإن اسم « حمزة » يُرخم في المرات الثلاث التي ورد فيها الأبيات الثالث عشر ، والسادس عشر ، والخامس والثلاثون .

لهذا فإنني أستبعد أن يكون حسان هو صاحب هذه القصيدة ، وأرى أنها لإحدى نساء أهل بيته ، أو لإحدى الشواعر النوادب على لسان قريبة له لصيقة به ، مستوحية في نظمها مرثية ابن أبي الصلت (١) ودليلي على ذلك هو البيتان السادس عشر والسابع عشر ، اللذان يقولان :

يا حمز ، قد أوجدتني كالعود شذبه الكوافح
أشكو إليك وفوقك التراب المكور والصفائح
إذ لا يتصور أن يقول هذا الكلام إلا شخص تربطه بالشهيد صلة نسب كالزوجية .

ومهما يكن من أمر فليس من شك أن القصيدة في حمزة ورفاقه الشهداء ومن هنا كان غريباً أن يأتي المستشرق البريطاني (الفرد جيوم) فيدعي أن المرثية إنما هي في الحسن والحسين لا في حمزة . معتمداً في زعمه هذا على أن القصيدة في البيت الحادي والثلاثين تصف الزمان الذي قُتل فيه حمزة رضي الله عنه هذه القنلة الغادرة الدنيئة الشنيعة بأنه « زمان غير صالح » ، ثم يستغرب متسائلاً : «

(١) وكذلك مرثية الخنساء إن صح أنها لها ، وتكون الأنوثة في الحالتين هي السبب الذي دفع باكية حمزة إلى استلهاً الخنساء أيضاً .

كيف يمكن أن يوصف زمان الرسول بأنه غير صالح ؟ « ويرد على نفسه قائلاً : »
لا بد أن هذا نذب مقنّع للحسن والحسين ، وإن الكلام في الأبيات السابقة بصيغة
الجمع لا يمكن أن يكون المقصود به حمزة « (١) .

وهذا كما نرى كلام متهافت لاقيمة له ، فاسم حمزة كما ذكرنا سابقاً قد
تردد مراراً في القصيدة ، والقصيدة قد رويت على أنها فيه وفي رفاقه لا شك في
ذلك ، إنما الشك هو في قائلها ليس إلا . أما الكلام بصيغة الجمع في القصيدة فهو
في حمزة ورفاقه جميعاً . وقد لاحظت أن (جليوم) قدم للقصيدة بقوله : « وقال
حسان بن ثابت يبكي حمزة » (٢) ، على حين أنه في السيرة التي بين يدي غير ذلك ،
إذ يقول ابن هشام : « ... وقال حسان بن ثابت يبكي حمزة بن عبدالمطلب ومن
أصيب من أصحاب رسول الله ﷺ يوم أحد » (٣) . وأغلب الظن أن هذا هو الذي
ساقه إلى هذا الغلط ، فإنه لما فهم أن القصيدة في رثاء حمزة دون غيره ، استغرب
أن يأتي الكلام في بعض أبياتها بصيغة الجمع .

ثم إن في القصيدة إشارة إلى دفن حمزة رضي الله عنه ، والحسين رضي
الله عنه قطعت رأسه وحملت على سنى الرمح إلى دمشق .

وأخيراً لماذا يلجأ الشاعر الشيعي في رأي جيوم إلى هذه التورية فيذكر
حمزة وشهداء أحد وهو يريد الحسن والحسين ؛ ونحن نعلم أن الشيعة كانوا يرثون
آل البيت رثاءً صريحاً في كل العصور ، وفي كثير من الأحيان رثاءً تحدياً وتعرض
للسيف ؟ ولو افترضنا أن الأمر رغم ذلك كله هو كما يقول (جيوم) فلماذا لم يذكر
ابن هشام ذلك ، وهو قد كتب ما كتب في عهد العباسيين لا الأمويين ؟

(1) A. Guillaume, The Life Of Muhammad, P. 417 (Foot-Note 2).

(٢) السابق ، الصفحة نفسها .

(٣) ابن هشام « السيرة النبوية » ، ق ١٥١/٢ .

مفهوم
السيرة
نوفال
١٧
١٨
١٩
٢٠
٢١
٢٢
٢٣
٢٤
٢٥
٢٦
٢٧
٢٨
٢٩
٣٠
٣١
٣٢
٣٣
٣٤
٣٥
٣٦
٣٧
٣٨
٣٩
٤٠
٤١
٤٢
٤٣
٤٤
٤٥
٤٦
٤٧
٤٨
٤٩
٥٠
٥١
٥٢
٥٣
٥٤
٥٥
٥٦
٥٧
٥٨
٥٩
٦٠
٦١
٦٢
٦٣
٦٤
٦٥
٦٦
٦٧
٦٨
٦٩
٧٠
٧١
٧٢
٧٣
٧٤
٧٥
٧٦
٧٧
٧٨
٧٩
٨٠
٨١
٨٢
٨٣
٨٤
٨٥
٨٦
٨٧
٨٨
٨٩
٩٠
٩١
٩٢
٩٣
٩٤
٩٥
٩٦
٩٧
٩٨
٩٩
١٠٠

شجر

ابن رواحة أو كعب في بكاء حمزة

أورد ابن إسحاق في السيرة قصيدةً لامية من ستة عشر بيتاً في بكاء حمزة

رضي الله عنه، ونسبها لعبدالله بن رواحة رضي الله عنه، وهذه القصيدة هي:

وما يُغني البكاء ولا العويل	بَكَتْ عَيْنِي وَحَقَّ لَهَا بكاها
أحمزة ذاكم الرجل القتييل	على أسد الإله غداة قالوا
هناك وقد أُصيب به الرسول	أُصِيبَ المسلمون به جميعاً
وأنت الماجد البرُّ الوصُول	أبا يَعْلَى لك الأركان هُدَّتْ
مُخَالِطِهَا نعيم لايزول	عليك سلام ربك في جنان
فكل فعالم حَسَنَ جميل	ألا يا هاشم الأخيار صبرا
بأمر الله ينطق إذ يقول	رسولُ الله مصطبرٍ كريم
فبعد اليوم دائلة تدول	ألا مَنْ مُبْلِغٌ عَنِّي لُؤْيَا
وقائعنا بها يُشفي الغليل	وقبل اليوم ما عرفوا وذاقوا
غداة أتاكم الموت العجـيل	نسيتم ضربنا بقليب بدر
عليه الطير حائمة تجول	غداة ثوى أبو جهل صريعاً
وشيبة عضه السيف الصقيل	وعتبة وابنه خراً جميعاً
وفي حيزومه لدنُ نبيل	ومتـركنا أمـيةً مُجَلِّباً
ففي أسيافنا منها فلول	وهام بني ربيعة سائلوها
فأنت الواله العبرى الهبُول	ألا ياهند فـابـكي لاتملي
بحمزة إن عزكم ذليل	ألا ياهند لا تُبـدى شـماتاً

بيد أن ابن هشام حدثنا أن أبا زيد الأنصاري أنشده إياها لكعب بن مالك (١) وقد أورد «ابن منظور» خمسة أبيات منها في اللسان ونسبها لابن رواحة أو لكعب بن مالك، ثم أضاف أن ابن بري ذكر أن النحاس صحح القصيدة في «طبقات الشعراء» لكعب بن مالك (٢). كما أننا نجدها منسوبة إلى حسان رضي الله عنه في الحماسة البصرية (٣)، وأعتقد أنه لاقيمة لهذه النسبة لأن الحماسة متأخرة عن الديوان، فأما أنها لحسان فقد كفانا ديوانه مؤونة البحث في ذلك؛ إذ هي غير موجودة فيه. ويبقى أن نعرف من خلال دراستنا التوثيقية لهذه القصيدة ما إذا كانت تنسحب على شعر ابن رواحة أو شعر كعب رضي الله عنهما.

ومما ينبغي ذكره أن د. شوقي رياض علق على كلام ابن هشام الذي ذكر فيه أن أبا زيد الأنصاري قد رواها لكعب قائلًا: «ومن الواضح أن ذكر ابن هشام لرواية أبي زيد قد أكسب نسبة هذه النصوص (يقصد هذه القصيدة ونصين آخرين في السيرة) لكعب قوة توثيقية تجعلنا نطمئن إلى صحتها لسببين واضحين: فأبو زيد من علماء الرواية الثقات المشهورين، وإلى جانب ذلك هو أقربهم وأدواهم بشعر الأنصار لأنه أنصاري منهم» (٤). ثم يختم تعليقه بهذه الكلمات: «ومع ذلك فإن ابن هشام لا يؤكد صحة نسبته (أي نسبة أبي زيد الأنصاري) ولا ينفي نسبة ابن إسحاق، ويترك الباب مفتوحاً لمن يريد التحقيق» (٥).

(١) «السيرة النبوية»، ق ١٦٢/٢ - ١٦٣.

(٢) انظر: «اللسان» مادة «بكي».

(٣) انظر: البصري، صدر الدين علي بن أبي الفرج «الحماسة البصرية»، عالم الكتب، بيروت

(مصورة عن طبعة دائرة المعارف العثمانية)، ٢٠١/١.

(٤، ٥) «شعر السيرة النبوية - دراسة توثيقية»، ص ٢٤١.

وقد حاولتُ أن أتحقق من نسبة هذه القصيدة ، وأعرف أيُّ الشاعرين هو صاحبها، ولم أجد أمامي إلا الرجوع إلى ديوانيهما .

لقد وجدتُ أن شعر ابن رواحة الإسلامي هو أضعف من هذه القصيدة، بخلاف شعر كعب، إضافة على أن شعر ابن رواحة في الإسلام قليل قصير النفس، وكثير منه من الرجز ومشطوره، أما كعب فقصائده بوجه عام أطول نفساً، وليس في ديوانه رجز تقريباً!، كذلك وجدت في شعر كعب عدداً من الألفاظ والتعبيرات والصور والأساليب التي وردت في هذه القصيدة، على حين لم أجد من ذلك في شعر ابن رواحة إلا النزر اليسير، فمثلاً بكاء (العين) قد تكرر عند كعب(١)، ومثله ذكر بني هاشم(٢)، وكذلك ذكر الصبر(٣).

ويتردد الفعل « سأل » كثيراً في ديوان كعب خاصة أخبار المعارك أو مناقب قوم الشاعر(٤)، وقد استخدم اسم الإشارة البعيد وفي ذيلة حرف الخطاب لجماعة الذكور مرتين(٥)، كما استخدم في القصيدة المصدر الميمي مضافاً إلى «نا» الفاعلين «متركنا» (في البيت الحادي عشر) وهذا ما استخدمه كعب بن مالك أيضاً في قوله

(١) انظر : « ديوان كعب بن مالك » ، دراسة وتحقيق سامي مكي العاني ، مكتبة النهضة ، بغداد ، ط١ ، ١٣٨٦هـ - ١٩٦٦م ، ص ١٧٣ ، ١٨٧ ، ٢١٢ ، ٢٤٨ ، ٢٦٠ . وقد ورد ذكره في مطلع القصيدة التي بين يدينا .

(٢) السابق : ص ١٧٣ ، ١٩٠ ، ٢٦٢ (مرتين) . وقد ورد في القصيدة في البيت السادس .

(٣) السابق : ١٨٧ ، ١٩٣ ، ٢٤٢ ، ٢٦١ ، ٢٧٤ ، ٢٧٩ . وهو في القصيدة في البيت السابع منها .

(٤) السابق : ص ١٧٢ ، ١٧٤ ، ٢١٨ ، ٢٢٣ ، ٢٢٨ ، ٢٦٨ ، ٢٧٤ (مرتين) ، ٢٧٥ ، ٢٧٧ ، ٢٧٩ . وقد ورد هذا

الفعل في القصيدة في البيت الرابع عشر .

(٥) السابق : ص ٢٠٦ ، ٢٤٥ . وهو في القصيدة في البيت الثاني منها .

«مجالدنا»(١)، وصورة «هد الأركان» في البيت الرابع من القصيدة قد تكرر في شعر كعب أيضا ثلاث مرات(٢)، وإذا كانت «ألا» الاستيضاحية قد تكررت في القصيدة أربع مرات، فإن هذه الأداة مستخدمة هي أيضا في شعر كعب استخداماً غير قليل(٣)، ووردت عبارة «ألا أبلغ» في القصيدة، وهي من العبارات التي وجدتها قد تكررت في شعر كعب(٤)، وقد تنبه لهذه السمة الأسلوبية د.سامي مكي العاني أيضا(٥).

كما وجدت أن تكرار قصيدتنا في أبياتها الأخيرة للأسماء يقابله الشيء نفسه في شعر كعب(٦).

ومن سمات شعر كعب أيضا تكرار اللفظ أو العبارة(٧)، ويشبهه تكرار عبارة «ألا ياهند» في البيتين من القصيدة.

وبناء على هذا، مضافاً إليه نسبة أبي زيد القصيدة لكعب وتصحيح النحاس إياها لهذا الصحابي الجليل رضوان الله عليه، فإنني أرجح أن تكون صحيحة النسبة إلى كعب رضي الله عنه.

(١) « ديوان كعب بن مالك » : ص

(٢) السابق : ص ١١٦ ، ١١٧ ، ١٨٩ .

(٣) السابق ، (عدة مرات ، ٢١٥ ، ٢٢٢ ، ٢٤٢ ، ٢٢٦ ، ٢٨١) .

(٤) السابق : ص ١٩٢ ، ٢١٩ (مرتين) ، ٢٤٢ ، ٢٥٤ ، ٢٥٥ ، ٢٨٤ .

(٥) انظر السابق : ص ١٢٨ - ١٢٩ .

(٦) السابق : ص ١٧١ ، ١٧٦ ، ١٧٧ ، ١٨٨ ، ١٩١ ، ٢١١ - ٢١٢ ، ٢٢٠ - ٢٢١ ، ٢٨٥ .

(٧) السابق : ص ٢٢٤ ، ٢٢٨ ، ٢٦٤ ، ٢٨١ مثلاً .

رثاء صفية لحمزة

ذكر ابن إسحاق في «السيرة النبوية» أثناء كلامه عن غزوة أحد وما قيل فيها

من شعر: «وقالت صفية بنت عبدالمطلب تبكي أباها حمزة بن عبدالمطلب:

بناتُ أبي من أعجمٍ وخبيير؟	أسائلة أصحاب أحدٍ مخافة
وزيرُ رسول الله خيرٌ وزير	فقال الخبير: إن حمزة قد نُوي
إلى جنةٍ يحيا بها وسرور	دعاه إله الحق ذو العرش دعوة
لحمزة يوم الحشر خير مصير	فذلك ما كنا نرجي، ونرتجي
بكاءٍ وحزنا مَحْضَرِي ومسيرِي	فوالله لا أنساك ما هبت الصبا
ينود عن الإسلام كل كفور	على أسد الله الذي كان مدرها
لدى أضبع تعتادني ونُسور	فياليت شلوى عند ذاك وأعظمي
جزى الله خيراً من أخٍ ونصير	أقول وقد أعلى النعي عشيرتي

ولم يعترض ابن هشام على ذلك (١).

إلا أننا نجد الشطرة الثانية من البيت الرابع وما بعد ذلك من أبيات مع اختلاف طفيف في بعض الألفاظ قد وردت مع ثلاثة أبيات وشطرة قبلها في ديوان حسان على أنها له هكذا:

لدى البأس مغوار الصباح جسور	تُسائل عن قرم هجانٍ سَمِيدِع
بعيد المدى في النائبات صبور	أخي ثقة يهتز للعرف والندى

(١) «السيرة النبوية»، ق ١٦٧/٢.

فقلت لها : إن الشهادة راحة
 فإن أباك الخير حمزة فاعلمي
 دعاه إله الخلق ذو العرش دعوةً
 إلى جنة يرضى بها وسرور (١)
 ورضوانُ ربِّ يا أُمَامَ غفور
 وزير رسول الله خيرُ وزير
 الخ.

والواقع أن الأبيات التي في السيرة تشبه إلى حد كبير شعر صفية لأمور
 منها:

(أ) وضوح الطابع النسائي عليها، وبخاصة قولها: «بنات أبي».

(ب) تساؤلها عن مصير حمزة، مما ينم عن أن قائلة الشعر لم تحضر المعركة، ولم
 تعرف على وجه اليقين ماذا حدث له رضوان الله عليه، ثم لاتهديد هناك ولا
 وعيد. وكانت صفية قد أقبلت تنظر إليه حينما علمت بخبر استشهاده، لكن
 النبي ﷺ قال لابنها الزبير بن العوام: «القها فأرجعها لا ترى بأخيها» ثم لما
 بلغ رسول الله عليه الصلاة والسلام أنها أبدت صبراً واحتساباً سمح لها
 برويته، فأنته فنظرت إليه واسترجعت واستغفرت له (٢).

(ج) أن آخر بيت في هذا الشعر يقول :

أقول وقد أعلَى النَّعِيَّ عَشِيرَتِي جزي الله خيراً من أخٍ ونصير
 وهو ما ينطبق على طبيعة العلاقة بين صفية وحمزة رضي الله عنهما.

(د) أن البيت الذي قبل ذلك ، ونصه :

ألا ليت شُلُوي يوم ذاك وأعظمي إلى أضعب تعتادني ونُسور

(١) الديوان ، (ط البرقوقى) ، ص ٢٤٢ ، و«الديوان» ، ط (د . حسنين) ، ص ٢١٨-٢١٩ ،

و(ط . د . عرفات ، ١٣٢/١ - ١٣٤) وقد أوردها د . حسين جمعة لحسان معتمداً على ماجاء في

الديوان، انظر كتابه « الرثاء في الجاهلية والإسلام » ، ص ١٣٩-١٤٠ ، ١٩٨ .

(٢) ابن هشام « السيرة النبوية » ، ق ٩٧/٢ .

أشبهه في صياغته وحرارته أن يكون قد قيل ساعة الفاجعة لا بعدها بسنوات
كما تقول القصة التي ورد فيها الشعر المنسوب لحسان، وذلك حين قدمت أمانة
مع الرسول من مكة بعد تأديته عمرة القضاء وأخذت تسأل عن موضع قبر
أبيها (١). ومثله البيت التالي:

فوالله لا أنساك ما هبت الصبا بكاءً وحرناً محضري ومسيرى

(هـ) من المؤكد أن صفية شاعرة ذائعة الصيت، ولا يمكن أن تمر عليها حادثة مقتل
أخيها حمزة دون أن تقول فيها شعراً.

وعلى هذا فينتبين لنا أن هذه الأبيات قريبة الشبه بشعر صفية، واختلطت
بأبيات لحسان على وزنها ورويها ضاع جزء منها لاندرى كم كان عدد أبياته، وبقي
منها الأبيات الثلاثة والشطرة التي أشرنا إليها. وقد ذكر د. يحيى الجبوري أبيات
السيرة ونسبها - كما فعل ابن إسحاق - إلى صفية (٢).

على أن المسألة لاتقف عند هذا الحد، فإن «الفرد جليوم» مترجم السيرة
النبوية إلى الإنجليزية يقول تعليقاً على الأبيات المنسوبة لصفية، بعد أن أشار إلى أنها
في ديوان حسان مع بعض الاختلاف، «إن من الواضح أنها نتاج عصر متأخر» (٣)،
أي أنه ينفي نسبتها عن حسان وصفية رضي الله عنهما، وهذا - فيما أرى - تعسف
واضح، فلا يكفي أن تنبت في ذهن أي باحث فكرة فيسارع بذكرها في بحثه ذكر
المستوثق... إلخ. ثم على أي أساس كان نفيه هنا؟ وقصارى القول أن هذه الأبيات
قيلت عقب استشهاد حمزة، وأن صفية أخته هي قائلة هذا الرثاء، ومن هنا فلا معنى
للقول إنها «نتاج عصر متأخر».

(١) اللوامين في المواضع السابقة .

(٢) « شعر المخضرمين » ، ص ١١٢ - ١١٣ .

(٣) A. Guillaume, The Life of Muhammed, p.425 footnote 2.

تعزية أبي الحكم بن سعيد لأخته

في شماس

يوجد ضمن الشعر الذي أورده ابن إسحاق في السيرة في رثاء شهداء أحد
رضي الله عنهم وأرضاهم أبيات أربعة قالتها نعم في بكاء زوجها الشهيد شماس بن
عثمان، هي:

يا عين ، جودي بفيض غير إبساس	على كريم من الفتيان أباس
صعب البديهة ميمون نقيبته	حمال ألوية ركاب أفراس
أقول لَمَّا أتى الناعى له جَزَعاً	أودى الجواد وأودى المطعم الكاسى
وقلتُ لما خَلَّتْ منه مجالسه	لا يُبعد الله عنا قرب شماس

ثم يذكر ابن إسحاق أن أخاها أبا الحكم بن سعيد بن يربوع قد أجابها
يعزيها بقوله:

اقننى حياءك فى ستر وفي كرم	فإنما كان شماس من الناس
لاتقتلي النفس إذ حانت منيته	في طاعة الله يوم الروع والباس
قد كان حمزة ليث الله فاصطبري	فذاق يومئذ من كأس شماس (١)

ولانجد لابن هشام أي تعليق على نسبة هذه الأبيات إلى أبي الحكم، غير أن
ابن عبد البر قد ذكر البيت الأول والثالث مع بعض الاختلاف في ألفاظ الأخير، ونسبهما

(١) ابن هشام « السيرة النبوية » ، ق ١٦٨/٢ .

إلى حسّان يعزّي أخت شماس فيه (١). وأشار ابن سيد الناس إلى صنيع ابن عبدالبر هذا، ولكن بعد أن أورد الأبيات الثلاثة كلها منسوبةً إلى أخي نعم، متابِعاً في ذلك ماجاء في السيرة على ما يبدو (٢). كما أورد ابن حجر البيتين الأول والثالث منسوبين لحسان يرثي شماساً ويعزي فيه اخته (٣) وفي موضع آخر ذكر الأبيات الثلاثة معزوةً لأبي سنان ^{ابن} حُرَيْث يعزي من قال ابن حجر عنها: «كأنها كانت زوجته» يقصد زوجة شماس (٤).

وقد وجدت أن البرقوقي لم يضيف شيئاً من هذه الأبيات الثلاثة إلى ديوان حسّان. أمّا د. سيد حنفي حسنين فقد أضاف البيتين الأول والثالث مع القصائد والمقطوعات والأبيات التي لم ترد في مخطوطة الديوان الأم معتمداً في إضافته لهما على «السيرة» و«الاستيعاب». فأما «الاستيعاب» فلا جدال فيه. إنما المشكلة في «السيرة»، إذ إنني لم أجدهما فيها منسوبين لحسّان بل لأخي نعم (٥). أمّا د. وليد عرفات فقد نقلهما عن «عيون الأثر» مع إشارة ابن سيد الناس فيه إلى أن «أبا عمرو» (٦) قد نسبهما

(١) انظر « الاستيعاب » ، ق ٧١١/٢ .

(٢) انظر « عيون الأثر » ، ٤٩/٢ - ٥٠ .

(٣) انظر « الإصابة » ، ٣٥٧/٣ .

(٤) السابق : ١٩٤/٧ .

(٥) البيتان وردا منسوبين لحسان عند محققي السيرة ٣٦٦/١ - ٣٦٧ (هامش ٣) (أثناء ترجمتهم

لشماس). لكن هذا رأي المحققين لا كلام ابن إسحاق ولا ابن هشام. ومن الغريب أنهم بهذا يخالفون ماجاء في السيرة نفسها، وكان المفروض أن يشيروا إلى هذا التناقض.

(٦) هكذا قال د. وليد عرفات ، والصواب «أبو عمر» على عكس تصحيحه للكنية. ويبدو أنه لم يتنبه أن

المقصود بها ابن عبدالبر الذي نقل عنه ابن سيد الناس ذلك . انظر كتابه: «عيون الأثر»، ٣٠/٢.

٥٠ . ولا أدري على أي شيء اعتمد د. عرفات في ذلك التصحيح ! ؟

لحسان. وقد وضع د. عرفات هذين البيتين مع الزيادات التي لوجود لها في مخطوط الديوان (١).

والآن نتساءل: هل قال حسان هذين البيتين؟ إن ابن إسحاق لم يذكرهما له كما بينا، ولم يعترض عليه ابن هشام مما يدل على أنه أقر صنيعه. والسيرة النبوية هي أقدم المصادر التي ذكرت الأبيات. أما صاحب «الاستيعاب» فإنه من علماء القرن الخامس الهجري، وأما ابن حجر فمن علماء القرن التاسع الهجري، أي هما بعدهما بوقت طويل.

ومن ناحية أخرى فإنني لا أفهم كيف يواتي حسانا نفسه لمخاطبة امرأة ملتاعة ليست من نساء بيته ولا هي من الأنصار أصلاً (٢) بقوله: «اقنى حياك في ستر وفي كرم»، مقللاً من شأن شماس على النحو التالي: «إنما كان شماس من الناس»، وضارباً لها المثل من استشهاد حمزة، وكان حمزة لم يبكه الرجال والنساء - ومنهم حسان نفسه - بكاءً مرأً مفاجئاً. لقد أبلى شماس في يوم أحد بلاءً عظيماً وذنبٌ بسيفه عن الرسول عليه الصلاة والسلام من كل الجهات حتى إن الرسول ﷺ كان «لا يرمي ببصره يمينا ولا شمالاً إلا رأى شماساً في ذلك الوجه يذب بسيفه عنه، حتى غشي رسول الله القوم فترس (أي شماس) بنفسه دونه حتى قُتل، كما أنه كان قريباً لأم سلمة زوجة رسول الله عليه الصلاة

(١) ديوان حسان (ط. د. عرفات)، بتحقيقه، ٥٢٤/١.

(٢) كان شماس من المهاجرين، من بني مخزوم، وقد استشهد رضي الله عنه بأحد كما نص

على ذلك ابن هشام. انظر «السيرة النبوية»، ق ١٢٢/٢.

والسلام(١). فهل يعقل أن يكون كلام حسّان عنه بشكل يبدو وكأنه يقلل من شأنه،

وبخاصة أنه كما قلنا ليس من أهل بيته بل ليس من أهل المدينة كلها ؟

إن مثل هذا الكلام إنما يصح صدوره من شخص قريبٍ للشهيد والرائية،

وليس هناك أولى بنسبة هذه الأبيات إليه من أخي الرائية الملتاعة، التي اختلف في

قربتها للشهيد: أهى زوجته كما جاء في السيرة أم أخته كما جاء في مصدر آخر ؟ ،

وعلى هذا الأساس فإنني أرى أن نأخذ بما جاء في السيرة من أنها زوجته، لأنه

لاداعي هنا لأن نخالف المصدر الأقدم إلى مصدر متأخر عنه.

(١) انظر : « عيون الأثر » ، ٥/٢ ، وكذلك ماجاء في كلام محققي سيرة ابن هشام ، ق ٣٦٦/١ ،

(هامش ٣)، الذي يبدو أنه مأخوذ عن «عيون الأثر» وقد أورد الأبيات لأبي الحكم بن سعيد

ديحيى الجبوري «شعر المخضرمين وأثر الإسلام فيه»، ص ١١٤ - ١١٥ ، ود. صلاح الدين

الهادي «الأدب في عصر النبوة والراشدين» ، ط ٢ ، ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م ، ص ٢٧١ (د.ش).

رثاء هند بعض عورتها من أحد

أما الأبيات المنسوبة في السيرة لهند حين انصرافها مع قومها من أحد وهي:

رجعت وفي نفسي سلاسل حجة	وقد فاتني بعض الذي كان مطلبي
من أصحاب بدر من قريش وغيرهم	بني هاشم منهم ومن أهل يثرب
ولكنني قد نلت شيئاً ولم يكن	كما كنت أرجو في مسيري ومركبي

والتي ذكر ابن هشام أن «بعضهم ينكرها لهند» (١) فتعليقي عليها هو أنها قريبة من الحالة النفسية لهند بنت عتبة في ذلك الموقف، إذ كانت قد أقبلت تريد الثأر من كل من لوع قلبها على أهلها، ولكنها لم تظفر إلا بحمزة، الذي يدل لو كها كبده وجدعها أنفه وأذنيه وتقرطها بها على مدى ما كان في قلبها من حقد متلظ لم يهدأ رغم النكسة التي حاقت بالمسلمين وسقوط ذلك العدد الضخم من الشهداء منهم حمزة رضي الله عنه. ولم يكن في قريش من كان حريصاً على الانتقام مثلها ولا ملتاعاً لوعتها.

وإذا كان ابن هشام يقول إن بعضهم ينكرها لهند، فمعنى ذلك أن الأغلبية من الثقة لا اعتراض لديها على نسبتها لها. وعبارته بعد ذلك: «والله أعلم» تنبئ أن في قلبه شيئاً من هذا الإنكار، فإنه لا يقول هذه العبارة عادةً بعد إيراد رأي المنكرين قلّ عددهم أو كثر. وعلى ذلك فليس أمامنا إلا متابعة الأكثرية والقول معهم بأنها لهند تطبيقاً منا للنقد الخارجي في اعتماد ترجيح نسبة الأشعار إلى قائلها.

(١) «السيرة النبوية»، ق ١٦٨/٢.

شعر خبيب حين أريد صلبيه

أورد ابن إسحاق في السيرة عشرة أبيات ذكر أن خبيب بن عدي قالها «
حين بلغه أن القوم قد اجتمعوا لصلبيه » ، وعقب ابن هشام على ذلك بأن « بعض أهل
العلم بالشعر ينكرها له » (١) ، وإليك هذه الأبيات:

لقد جمع الأحزاب حولي وألبوا	قبائلهم واستجمعوا كل مجمع
وكلهم مبدى العداوة جاهد	عليّ لأنني في وثاق بمصنيع
وقد جمعوا أبناءهم ونساءهم	وقربيت من جذع طويل مُمْنَع
إلى الله أشكو غربتي ثم كُربتي	وما أُرصد الأحزاب لى عند مصرعي
فذا العرش صبرني على ما يراد بي	فقد بضَعوا لحمي وقد ياس مطمعي
وذلك في ذات الإله وإن يشأ	يُبارك على أوصال شلو ممزَع
وقد خيروني الكفر والموت دونه	وقد هملت عيناى من غير مجزع
ومأبى حذار الموت إنى لميت	ولكن حذاري حَجْم نار مَلْفَع
فوالله ما أرجو إذا مت مسلماً	على أي جنب كان في الله مصرعي
فلست بمبدٍ للعدو تخشعاً	ولا جزعاً إنى إلى الله مرجعي

هكذا دأب ابن هشام دون تحديد لبعض أهل العلم بالشعر هؤلاء ، ولاذكر
للمسوغات التي بنوا عليها حكمهم هذا ، مما يترك الباحث في حيرة ، ومع ذلك فعليه

(١) « السيرة النبوية » ، ق ١٧٦/٢ ، وابن عبد البر « الاستيعاب » ، ق ٤١١/٢ .

الأبياس ، بل يحاول قدر إمكانه أن يفتح لنفسه ولو ثغرة يمكن أن يتسلل من خلالها بصيص من الضوء . وسبيلنا هو تحليل النص ذاته ، لا لتقييم مقارنة بين ما فيه من سمات أسلوبية ونصوص أخرى لخبيب بغية أن نعرف هل ينتمي للشخص نفسه الذي قالها أو لا (لأننا لا نعرف لخبيب أي شعر آخر) ، بل لنحاول أن نستشف من خلال الجو النفسي الذي يسود الأبيات هل يمكن أن تكون صادرة عن شخص في مثل الظروف التي أحاطت بخبيب حين مقتله .

على أن عدم وجود شعر آخر لخبيب معروف يثير التساؤلات : هل يمكن لمن لم يسبق له ، فيما يبدو ، أن قال شعراً أن تصدر عنه هذه الأبيات القوية الشجية الرائعة ؟ وثمة سؤال آخر يبدو لي مهماً أيضاً ، وهو : هل يمكن أن يكون بالإنسان في مثل هذا الظرف العصيب مواتياً لنظم الشعر ؟ إن الأمر الطبيعي أن ينصرف في هذه الحالة إلى الدعاء والصلاة كما فعل خبيب فعلا على ما جاء في السيرة (١) . أما أن يقول شعراً ، وبخاصة إذا لم يسبق له نظم الشعر ، فهو ما يبدو لنا غريباً .

على أن الباحث من ناحية أخرى لا يستطيع أن يتجاهل في الأبيات هذه اللقطات العفوية الواقعية التي تنبئ بأن صاحبها قد عاش الموقف ، وليس مجرد شخص علم بالقصة فنظم فيها شعراً ونحله خبيباً . لقد ذكرت الأبيات أن الأحزاب ألّبت قبائلهم حول خبيب رضي الله عنه ، وأشارت إلى قيده ، وصورت ازدحام النساء والصبيان للفرجة عليه ، ووضعت الجذع الذي أحضروه إليه وربطوه به ، وقصت تمزيقهم لحمه :

قبائلهم واستجمعوا كل مَجْمَعٍ
وقُرِبَتْ من جذع طويلٍ مُمْتَعٍ
فقد بضَعُوا لحمي وقدياس مطمعي

لقد جَمَعَ الأحزاب حولي وألبوا
وقد جَمَعُوا أبناءهم ونساءهم
فذا العرش ، صبرني على مايراد بي

(١) ابن هشام « السيرة النبوية » ، ق ١٧٣/٢ .

وإلى جانب هذه اللقطات العفوية الواقعية ، نذكر أيضا الاضطراب النفسي والخوف الذي كان يحاول التسلسل إلى قلب خبيب رضي الله عنه ، ممأ يشى به الدعاء في البيت الأخير من الأبيات المارة لتوها وقوله فيه إن أمله في النجاة قد ضاع ، وكذلك إشارته في البيت التالي إلى هملان عينيه ، وإن أكد أن ذلك عن غير جزع :

وقد خيروني الكفر والموت دونه وقد هملت عيناى من غير مجزَع
 إن مثل هذا الإضطراب والخوف ليس من السهل على غير من خاض تلك
 التجربة أن يعبر عنهما بمثل هذه القوة والبراعة .

ثم إن هذه الروح الإيمانية الصلبة التي تغلبت في النهاية على الاضطراب والخوف اللذين غزيا نفس خبيب في بداية الأمر ، يصعب أن يمتلكها أحد من غير صحابة رسول الله رضي الله عنهم ، الذي غرس في قلوب أتباعه إسلام نفوسهم لله وقضائه وقدره في إيمان وإخبات عجيبين يقدمان الآخرة على الأولى :

فوالله ما أرجو إذا متّ مسلما على أي جنب كان في الله مصرعي
 فلست بمبد للعدوّ تخشعوا ولا جزعاً إني إلى الله مرجعي

كما أن ابن شهاب الزُّهري ، وهو شيخ ابن إسحاق أورد لخبيب منها بيتين هما البيت السادس والبيت قبل الأخير (مع بعض الاختلاف في ألفاظه) (١) ، ومثله في ذلك ابن سيد الناس الذي روى الخبر من طريق البخاري باسناد يرتفع إلى أبي هريرة رضي الله عنه (٢) .

(١) انظر : كتابه « المغازي النبوية » ، تحقيق د. سهيل زكار ، دار الفكر ، دمشق ، ١٤٠١هـ - ١٩٨١م ،

ص ٦٨ .

(٢) « عيون الأثر » ٥٧/٢ - ٥٨ ، وانظر: البخاري « صحيح البخاري » ، كتاب المغازي ، باب غزوة

الرجيع ، عالم الكتب ، بيروت ، ط ٥ ، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م ، ٢٢٩/٥ - ٢٣١ .

ولا يمكن إغفال هذه الأبيات ؛ لأنها تحتل أهمية خاصة ، حيث تتعلق بالصمود الذي يجب أن يسري في القلوب المؤمنة ، ويستولي على النفوس المطمئنة ، والحق أن هذه الأبيات استوقفتني كثيراً ، لأنها تتحدث عن منعطف تاريخي هام في حياة أولئك القوم الذين استجابوا لداعي الحق والنور ، مما دفعني إلى التنقيب في كتب الأحاديث والطبقات والسير للوقوف على الظروف التاريخية المحيطة بمقتل خبيب رضي الله عنه (١) ، والأبيات المنسوبة إليه فخرجت بما يلي :

ما كان من أمر زوجة عقبة بن الحارث التي كانت ترقب خبيباً وتنقل إلينا أدق التفاصيل عن حياته وسيرته وبخاصة أيامه الأخيرة التي قضاها سجيناً في بيتها ، يضاف إلى ذلك دعاء خبيب الذي يتردد صداه في الأسماع إلى يومنا هذا في أكثر الأعمال قداسة وهو « اللهم أحصهم عدداً واقبلهم بديداً ولا تغامر منهم أحداً » ، وفي ضوء ماتقدم فإننا نتساءل: ألا يمكن أن يكون خبيب قد تصور مشهد مقتله فانطلق لسانه بقول ذلك الشعر، فتلقفته تلك المرأة ونقلته إلينا؟ ثم ألا يكون الذي نقل إلينا ذلك الدعاء هو الشخص نفسه الذي حمل إلينا تلك الأبيات وكان عيناً للمسلمين هناك ولكنه يكتم إيمانه؟ وفوق هذا وذاك فإن هناك شعراء أنطقتهم الأحداث عرفوا بأصحاب القصيدة الواحدة ، ولعل خبيباً أحد هؤلاء !

وقد شك ابن هشام فيها بقوله : « وبعض أهل العلم بالشعر ينكرها لخبيب » (٢) ، ويؤيده في ذلك الدكتور يحيى الجبوري ، الذي ضرب صفحاً عن هذه

(١) انظر خبر مقتله وظروف ذلك في : ابن هشام « السيرة النبوية » ، ق ١٧٦/٢ - ١٧٧ ، وابن

عبدالبر « الاستيعاب » ، ٤٤٠/٢ - ٤٤٢ ، وابن سيد الناس « عيون الأثر » ، ٥٦/٢ - ٦٠ ،

والبخاري « صحيح البخاري » ، ٢٢٩/٥ - ٢٣١ .

(٢) « السيرة النبوية » ، ق ١٧٦/٢ - ١٧٧ .

الأبيات ، لشكه في صحتها وصحة نسبتها إليه (١) ، كما أن الدكتور إحسان النص قد شك في نسبتها لخبيب - أيضاً - (٢) ولكن الذي أرجحه في ضوء الاعتبارات السابقة أن تكون الأبيات صحيحة النسبة إليه ، خاصة إذا أخذنا في الاعتبار أن أكثر العلماء الأثبات يرويها له - كما ذكر ذلك ابن هشام - ، إضافة إلى أن الذين نقلوا إلينا خبر مقتله رضي الله عنه ومنهم البخاري في صحيحه قد أوردوا بيتين منها منسوبين إلى خبيب (وإن كان في الفاضل بعض الاختلاف) . والله أعلم .

ذكر المصنف

(١) « شعر المخضرمين وأثر الإسلام فيه » ، ص ١١٦ (هامش ١) .

(٢) « حسان بن ثابت ، حياته وشعره » ، ص ١٨٩ - ١٩٠ .

شعر حسان في خبيب حين صلب

أورد ابن إسحاق خمسة أبيات على روي القاف لحسان بن ثابت في رثاء
خبيب بن عدي حين صلبه كفار مكة ، هي :

سحا على الصدر مثل اللؤلؤ الفلق	مابال عينك لا ترقا مدامعها
لا فـشـل حين تلقاه ولا نزق	على خبيب فتى الفتيان قد علموا
وجنة الخلد عند الصور في الرفق	فأذهب خبيب جزاك الله طيبة
حين الملائكة الأبرار في الأفق	ماذا تقولون إن قال النبي لكم
طاغ قد أوعث في البلدان والرفق(١)	فيم قتلتهم شهيد الله في رجل

وقد عقب ابن هشام عليها تعقيبين : الأول بعدها مباشرة ، ونصه : «تركنا
مابقي منها لأنه أقذع فيها » . والآخر بعد أبيات ستة أخرى نسبها ابن إسحاق له ،
قال فيه : « وبعض أهل العلم بالشعر ينكرها (أي ينكر المقطوعتين) لحسان » (٢) .
فأما بالنسبة للتعقيب الأول فقد رجعتُ إلى ديوان حسان في أشهر طبعته ،
ووجدت أن هذه الأبيات الخمسة يليها ثلاثة أبيات أخرى هي :

أبا إهاب ، فبيِّن لي حديثكمُ أين الغزال مُحَلَّى الدرِّ والورقِ

(١) « السيرة النبوية » ، ق ١٧٧/٢ .

(٢) السابق : ق ١٧٨/٢ .

لا تذكرن إذا ما كنت مفتخرأً أبا كثيبة ، قد أسرفت في الحمق
ولا عزيزاً فإن الغدر منقصة إن عزيزا دقيق النفس والخلق (١)

ومن الواضح أنه ليس فيها أي إقذاع على الإطلاق ، وهذا يدفعنا إلى
التساؤل عن مدى دقة كلام ابن هشام ، إذ لو كان هناك إقذاع محذوف لأشار إليه
صانع الديوان . ^{هؤلاء} وما نحن قد رأينا أبياتاً في الديوان ليست موجودة في السيرة ،
ولكن ليس فيها إقذاع . وليس أمامنا إلا افتراضان : إما أن يكون ابن هشام غير
دقيق ، وإما أنه كان هناك أبيات أخرى غير هذه الأبيات الثلاثة فيها إقذاع . ويقفز
إلى أذهاننا بسرعة السؤال التالي : ولم لم ترد هذه الأبيات في الديوان ، وجامع
الديوان كما هو واضح لا يقيم لاعتبار الإقذاع حساباً؟ (٢) ثم لماذا لم يذكر ابن
هشام الأبيات الثلاثة الموجودة في الديوان عقب الأبيات الخمسة التي أبقى عليها ؟

هذا بالنسبة للتعقيب الأول . أما التعقيب الآخر فالملاحظ أنه في كثير من
تعقيباته المشابهة ، يفتقر إلى التحديد ؛ إذ السؤال هو : من بعض أهل العلم بالشعر
هؤلاء ؟ ولماذا ينكرون هذه الأبيات ؟ وإذا كانوا ينكرونها لحسان ، فلمن من الشعراء

(١) « ديوان حسان » ، (ط . البرقوقي) ، ص ٢٤٧ ، و (ط . حسنين) ، ص ٣٠٧ ، و (ط . د . عرفات) ،
٢١٣/١ .

(٢) رغم هذه التساؤلات فإن د. شوقي رياض يأخذ كلام ابن هشام عن حذفه لبعض الأبيات المقذعة
من هذه المقطوعة مأخذ التسليم ، إذ يورده مع ما يشبهه من كلام ابن هشام كشواهد على
ما صنعه من « حذف » الأشعار المقذعة » انظر كتابه : « شعر السيرة النبوية - دراسة توثيقية » ، ص
٢٢٤ « ويلحظ أن د. شوقي رياض يتخذ من ورود ستة أبيات في الديوان بعد الأبيات التالية في
السيرة للأبيات التي نحن بصددنا الآن دليلاً على صدق كلام ابن هشام ، مع أن هذه الأبيات
الستة التي يشير إليها هي أيضاً تخلص من الإقذاع . فكيف لم ينتبه إلى ذلك مع وضوح الأمر؟ .

ينسبونها ؟ أم تراهم يقولون بأنها مصنوعة ومنحولة له ؟ فمن نحلها إذن ؟ وما دليلهم على ذلك ؟

إن الرد على ذلك هو أن هذه الأبيات موجودة في الديوان ، إضافةً إلى أن إنكار « بعض » أهل العلم بالشعر ، ليس له كبير وزن في مقابل موافقة « أكثر » أهل العلم بالشعر على نسبتها لحسان . لكننا نستغرب أن يتوجه حسان في البيتين الرابع والخامس من هذه المقطوعة إلى الكفار على النحو التالي :

ماذا تقولون إن قال النبي لكم حين الملائكة الأبرار في الأفق :
 فيما قتلتم شهيد الله في رجل طاغٍ قد أوعث في البلدان والطرق
 وكأنه يخاطب قوماً يؤمنون بالرسول واليوم الآخر والحساب ، فضلاً عن أن اللهجة اللينة التي يصنعها في مخاطبتهم لا تتناسب مع ما نعرفه من طبيعة حسان العنيفة في هجاء الكفار .. ! ولا مع ذلك الموقف الغادر الذي وقفوه من خبيب ، وتلك القتلة الشنيعة التي قتلوه بها ، وإن كان لحسان مع ذلك بيت يشبه هذين البيتين إلى حدٍ كبير قاله ضمن أبيات يهجو بها عتبة بن أبي وقاص حين أصاب الرسول عليه الصلاة والسلام في أحد وهذا البيت هو :

فهاً ذكرت الله والمنزل الذي تصير إليه عند إحدى البوائق (١)

(١) « السيرة النبوية » ، ق ٨١/٢ . وقد ذكر عقب هذه الأبيات أنه حذف منها بيتين أقذع حسان فيهما . وقد رجعت إلى ديوان حسان (ط . البرقوقي) ، ص ٣٤٧-٣٤٨ ، و (ط . د . حسنين) ، ص ١٥٧-١٥٨ ، و (ط . د . عرفات) ، ١/١٦٢ فوجدت بيتين بعد هذه الأبيات وليس فيهما أي إقذاع بأي معنى . وهذا يدفعنا مرة أخرى إلى التساؤل عن مدى دقة كلام ابن هشام ، اللهم إلا إذا قلنا إن رواية ابن إسحاق لهما كان فيها إقذاع .

ولا نعرف أحداً من علماء الشعر قد أنكر هذا البيت أو المقطوعة التي ورد فيها . وعلى هذا فيبقى الأمر محصوراً في دائرة الاستغراب .

ولعلّ مما يعضد وثاقة هذه الأبيات ذلك الملمح البكائي الذي نجده في البيت الأول منها :

ما بال عينيك لا ترقا مدامعها سحاً على الصدر مثل اللؤلؤ القلق ؟
والبكاء عند حسان يتكرر في مراثيه .

وفي السيرة مقطوعة أخرى في رثاء خبيب تنسب لحسان ، وهي :

يا عين ، جودي بدمع منك منسكب	وابكي خبيبا مع الفتيان لم يؤب
صقرا توسط في الأنصار منصبه	سمح السجية محضا غير مؤتشب
قد هاج عيني علي علأت عبرتها	إذ قيل : نص إلي جذع من الخشب
يا أيها الراكب الغادي لطيته	أبلغ لديك وعيدا ليس بالكذب
بنى كهيبة ، إن الحرب قد لقت	محلوبها الصاب إذ تمرى لمحتلب
فيها أسود بني النجار تقدمهم	شهبُ الأسنة في معصوب لجب

وقد علق ابن هشام عليها وعلى القصيدة السابقة بأن « بعض أهل العلم بالشعر ينكرهما لحسان » (١) ، « وقد تركنا أشياء قالها حسان في أمر خبيب لما ذكرت » (٢) . وقد فسرت هذه العبارة الأخيرة بأن ابن هشام قد حذف ما في هذه المقطوعة من أبيات مقذعة ، مثلما فعل مع السابقة ، فيقول د. شوقي رياض بعد أن ذكر هذا النص : « يعني بذلك أنه ترك أبياتا منها لإقذاعه فيها ويؤيد ذلك أن هذه القصيدة وردت في ديوان حسان زائدة ستة أبيات عما رواه ابن هشام » (٣) .

(٢٠١) « السيرة النبوية » ، ق ١٧٧/٢ - ١٧٨ .

(٢) « شعر السيرة النبوية - دراسة توثيقية » ص ٢٢٤ .

ومن يتصفح ديوان حسان في طبعاته الشهيرة الثلاث : البرقوقي و د. ليد عرفات و د. سيد حنفي حسنين ، يلحظ أن هذه الأبيات - التي قيل إنها محذوفة - موجودة في الطبعتين الأخيرتين مكونة مع الأبيات الستة المذكورة في السيرة نصاً واحداً (١) ، وإن كانت في طبعة د. سيد حنفي قد ذُكرت - رغم ذلك - مرة ثانية مستقلة في موضع آخر (٢) . أما في طبعة البرقوقي فإن أبيات السيرة موجودة فيها قطعة مستقلة (٣) ، ومثلها في الاستقلال الأبيات الزائدة في طبعتي د. سيد حنفي و د. ليد عرفات ، التي وردت عند البرقوقي قبل أبيات السيرة (٤) . هذه الملحوظة الأولى .

والمحوظة الثانية أن تلك الأبيات الزائدة ليس فيها إقذاع البتة رغم أن د. شوقي رياض قد اتخذ وجودها في الديوان مع أبيات السيرة برهاناً على ما قال ابن هشام عن إقذاعها . وهذا يجعلنا نتساءل من جديد عن مدى نصيب كلام ابن هشام في هذه المسألة من الصواب أو من الدقة على الأقل .

ونلاحظ ثالثاً أن لكل من المقطوعتين في طبعة البرقوقي تقديماً لا صلة بينه وبين تقديم الأخرى ، إذ نراه يقدم للأبيات التي ارتأى ابن هشام حذفها قائلاً : « وقال للحارث بن عامر وكان فيمن سرق غزال الكعبة » (٥) . ثم يسوق بعد ذلك - في خمس صفحات - قصة سرقة هو وبعض فتيان قريش غزال الكعبة ، أما الأبيات

(١) انظر : الديوان (ط . البرقوقي) ، ص ١٠٩ - ١١٠ ، (ط . عرفات) ، ٢١٣/١ ، (ط . د. حسنين) ، ص ٢٢٥ - ٢٢٦ .

(٢) « ديوان حسان » ، (ط . د. حسنين) ، ص ٢٢٥ - ٢٢٦ ، ولكن ينقصها البيت الأخير هذه المرة .

(٣) « ديوان حسان » ، (ط . البرقوقي) ، ص ١٠٩ - ١١٠ .

(٤) السابق ، ص ١٠٨ .

(٥) السابق ، ص ١٠٣ .

الواردة في السيرة فإنه مهد لها بهذه الكلمات : « وقال يرثي خبيب بن عديّ الأنصاري » (١). وهذا ما يفهم منه أن المقطوعتين نسان مستقلان قليلا في مناسبتين مختلفتين ولغرضين متباينين . ومما يعضد هذا الفهم أن الأبيات التي في هجاء الحارث بن عامر موجودة مرة أخرى مستقلة في طبعة د. سيد حنفي كما سبق القول .

وبالرجوع إلى النصين نجد ، بالإضافة إلى اختلاف الموضوع ، أن المقطوعة التي تتحدث عن سرقة الحارث غزال الكعبة تتوجه إليه بالخطاب على أنه حي . وعلى هذا فمن الصعب جدا النظر إليها على أنها تكمل الأبيات التي في رثاء خبيب ، لأن الحارث هذا كان قد مات قبل ذلك بزمن طويل، وأخذت قريش خبيبا من أسريه لتقتله

به . وهذه الأبيات هي : **وَرَكْتُ**

يا حار ، لقد كنت لولا ما رميت به لله درك في عز وفي حسب
جلت قومك مخزاةً ومنقصة ما إن يجال له حي من العرب
يا سالب البيت ذي الأركان حليته أد الغزال ، فلن يخفى لمستلب
... الخ .

ويبدو - والله أعلم - أن هذه الأبيات قد قيلت عندما علم حسان بخروج الحارث بن عامر مع قريش إلى بدر لمناصرتهم في حريهم الرسول ﷺ والمسلمين في مقابل سكوتهم عنه ونسيانهم قصة الغزال الذي سرقه من الكعبة ، فلا يطالبونه به ولا يشنعون عليه بسببه (٢) .

(١) « ديوان حسان » ، (ط البرقوقي) ، ص ١٠٩ .

(٢) اقرأ قصة خروجه إلى بدر داخل قصة سرقة الغزال في « ديوان حسان » (ط . البرقوقي) ،

ص ١٠٨ ، و (ط د . حسنين) ، ص ٢٩٣ .

ويرجح هذا أن الذي قتل الحارث بن عامر هو خبيب بن إساف (١) لا خبيب بن عدي كما يفهم من عبارة الديوان الموجزة التي تذكر أن قاتله هو « خبيب » دون تحديد (٢)، فيتوهم القارئ أن المقصود هو خبيب بن عدي لورود هذه العبارة في تقديم الأبيات التي يرثى بها حسان خبيبا بن عدي ويهجو الحارث بن عامر ، أي أنه لا علاقة بين خبيب بن عدي والحارث ، وهذا يسوغ ورود هجاء الثاني مع رثاء الأول في مقطوعة واحدة .

وعلى هذا فنحن إذن ، فيما ترجح ، أمام نصين لحسان مستقلين : نص في رثاء خبيب بن عدي ذكر ابن هشام أن بعض أهل العلم بالشعر ينكره لحسان ، وهذا النص هو الذي يتصل بدراستنا هذه . ونص في هجاء الحارث بن عامر لا علاقة لنا به .

فإذا بدأنا دراسة النص الرثائي لنعرف مدى صحة نسبته إلى حسان فإننا نجد عبارة ابن هشام كعادته مبهمة ، لا تخبرنا بأسماء هؤلاء « البعض » ولا تذكر حيثيات حكمهم بإنكاره .

ورغم أن الأبيات موجودة في الديوان ، وأن البعض من أهل العلم بالشعر -على عهد ابن هشام - ينكر نسبتها إلى حسان ؛ فإنني سأخضع الأبيات للدراسة من جهة أسلوبها ومعانيها لأرى ما إذا كانت تنسب له أم لا .

(١) انظر: ابن هشام « السيرة النبوية » ٧٠٩/١ ، وديوان حسان ، (ط.د. عرفات) ، ٣٧٠/١-٣٧١ (الهامش).

(٢) الديوان (ط.د. عرفات) ، ٣٧٠/١ ، و (ط.د. حسنين) ، ص ٢٢٤-٢٢٥ . وقد نُص في تقديم هذه الأبيات في الديوان (ط.د. عرفات) ، ١٣٥/١ أن الذي قتله هو خبيب بن عدي ا .

وأول شيء نلاحظه فيها بكاء الشاعر ، وهذه سمة حسانية في عدد من مرثياته (١) . كذلك فإن الربط السببي العفوي بين هيجان العبرات وصلب خبيب على جذع من الخشب يدل على تعاقب للعلم بصلب خبيب ، كما أن استخدام كلمة « قيل » على أن الصلب قد تم بعيداً عن المسلمين فلم يشاهدوه بل سمعوا به سماعاً ، كل ذلك يقوى الاقتناع بأن هذه القصيدة قد قيلت في ذلك الوقت ولم تُصنَع بعد ذلك وتُنحَل لِحسان .

وإن من ملامح الشعر الحساني تكرار ذكر الأنصار ، وبخاصة في مجال الفخر والمديح والرياء . وهو ما نراه في البيت الثاني .

وفي البيت الثاني أيضاً نجد كلمة « صقر » في مجال ذكر المناقب والإشادة بها . وهذه الكلمة ليست من الكلمات الشائعة في شعر تلك العصور على حسب علمي بذلك . فإذا علمنا أن هذه الكلمة ، برغم شيوعها في شعر تلك الفترة ، قد تكررت عند حسان عدة مرات ، كان ذلك - بلا ريب - مسوغاً آخر يجعلنا نرجح نسبتها إلى حسان . وهذه هي الأبيات التي قابلتني في ديوان الشاعر وفيها هذه اللفظة :

أنا الزائرُ الصقْرَ ، ابنُ سلمى ، وعنده أبيُّ ونعمانُ وعمرُ ووافدُ (٢)

له خيل مجنبة تعادى بفرسان عليها كالصقور (٣)

(١) انظر ديوان حسان ، (ط . البرقوقي) ، ص ١٥١ ، ١٥٨ ، ٢٣٨ ، ٢٤٤ ، ٤٧٠ مثلاً وغيرها .

(٢) السابق ، ص ١٧٠ .

(٣) السابق ، ص ٢٧٩ .

لقد غضبتُ جهلاً سَلِيمٌ وطاشت بأحلام كثيرٍ عُنُورُها
لئامُ مساعيها ، كذوبٌ حدِيثُها قليلٌ غناها حين يُنْعَى صُقُورُها (١)

وأنا الصقر عند باب ابن سلمى يَوْمَ نَعْمَانِ فِي الْكُبُولِ مُقِيمٌ (٢)

متى تسألني عنّا تنبني بأننا كرام وأنا أهل عزٍ مُقَدَّمٌ
وأنا عرائينُ صُقُورٍ مصالتُ نهزُ قناةً مَنَّتُها لم يوصمُ (٣)

وقوله في البيت الرابع : « أبلغ لديك ... » يكثر مثله في شعر حسان كما في

الشواهد الآتية وغيرها :

ألا أبلغ أبا سفيان عنى فأنت مجوَّفٌ ، نخبٌ ، هواءُ
بأن سيوفنا تركتك عبداً وعبد الدار سادتها الإمامُ (٤)

أبلغ أبا الضحاك أن عروقه أعيت علي الإسلام أن تتمجدا (٥)

أبلغ ماوية بن حرب مألكا ولكلُّ أمرٍ يُستَرَادُ قَرَارُ (٦)

(١) ديوان حسان ، (ط . البرقوقي) ، ص ٢٨٨ .

(٢) السابق : ص ٤٣٣ .

(٣) السابق : ص ٤٥١ .

(٤) السابق : ص ٦٣ .

(٥) السابق ، ص ٢٠٣ .

(٦) السابق ، ص ٢٧٦ .

أبلغ بني عمر بأن أخاهم ——— شراه امرؤ قد كان للشر لازما (١)

أيا راكبا ، إما عرضت فبلّغنْ على النَّأي مني عبْدَ شمسٍ وهاشما

هلا أمرتم حين حان هجينكم بثتم سوى حسان إن كان شاتما (٢)

أيا راكبا ، إما عرضت فبلّغنْ عبد المدانِ وجُلُّ آل قيسانِ

قد كنتُ أحسب أن أصلي أصلكم حتى أمرتم عبدكم فهجاني (٣)

ومما نجده أيضا في الأبيات التي نحن بصدد تطيلها ونجده أيضا بكثرة

لافته في شعر حسان التهديد بالانتقام في البيت الخامس والسادس (٤) ، كما نجد

في البيت الأخير الفخر ببني النجار ، وحسان كما نعرف منهم ، وقد تكرر في شعره

الافتخار العنيف بهم (٥) ، ومن أجل هذا كله فإنني أرى أن الأبيات لحسان ، وأن

إنكار « بعض أهل العلم بالشعر » نسبتها له دعوى لا دليل عليها .

(١) ديوان حسان ، (ط . البرقوقي) ، ص ٤٥٧ .

(٢) السابق ، ص ٤٦٦ - ٤٦٧ .

(٣) السابق ص ٤٨٠ . وهناك أمثلة أخرى كثيرة في : ص ١١١ ، ١٢٨ ، ١٦٢ ، ١٦٣ ، ١٨٢ ، ٢٤١ ،

٢٩٠ ، ٣٤٠ ، ٣٥٣ ، ٣٧٣ ، ٤٧٧ ، ٤٨١ ، ٤٨٦ وغيرها .

(٤) السابق ، ص ٦٠ ، ٧٨ ، ٩٤ ، ١٣٠ ، ١٣٢ ، ١٦٩ ، ٢٤٠ ، ٢٦٦ ، ٢٧٧ ، ٣٤٠ ، وغيرها .

(٥) السابق ، ص ٢٦٠ .

شعر حسام في بكاء خبيب وأصحابه

في سيرة ابن هشام أبيات ذكر ابن إسحاق أن حسانا قد بكى فيها خبيبا
وأصحابه ، وعدتها خمسة أبيات ، وهي :

صلى الإله على الذين تتابعوا	يوم الرجيع فأكرموا وأثيبوا
رأس السرية مرثد وأميرهم	وابن البكير إمامهم وخبيب
وابن لطارق وابن دثنة منهم	واقاه ثم حمامه المكتوب
والعاصم المقتول عند رجيعهم	كسب المعالي وإنه لكسوب
منع المقادة أن ينالوا ظهره	حتى يجالد . إنه لنجيب

وفيها يقول ابن هشام : « وأكثر أهل العلم بالشعر ينكرها لحسان » (١).

وألحظ على هذه القطعة أنها نظم لا شعر ، فإن الشاعر يحاول الوصول إلى

القافية بإكمال البيت كيفما اتفق ، وتكاد أسماء الشهداء (أن تستغرق الأبيات ، وليس
ثمة فرصة لظهور الشعرية والتعبيرات التي يمكن أن نحاول مضاهاتها بأسلوب
حسان في جميع قصائده لكي نعرف عن طريق التحليل الأسلوبية أهي له أم لا ؟

ومن ناحية أخرى ، هناك اضطراب في موسيقى قافية البيت الثاني ، إذ إن

« خَبِيبٌ » لا تتسق موسيقياً مع « أثيبوا » و « مكتوبٌ » ... إلخ ، إلا إذا حرقنا نطق
هذا الاسم وجعلناه « خَبِيبٌ » . على أنه ليس هذا هو الاسم الوحيد في الأبيات

(١) « السيرة النبوية » ، ق ١٨٣/٢ ، ويذكر ابن هشام أن في البيت الأخير رواية أخرى ، « حتى
يجدل إنه لنجيب » .

الذي لحقه الاضطراب ، فإن « طارق » قد مُنِع من الصرف لا لشيء غير الضرورة الشعرية نفسها وكذلك « ابن الدُّنَّة » ، الذي سَكُنَتْ ثاؤه وفتحت نونه ، وصوابه « الدُّنَّة » بكسر الثاء وتشديد النون مع فتحها (١) .

إن هذه الصبغة النظمية للقطعة تجعلني أشك في أن يكون حسان هو صاحب هذه الأبيات ، التي ليس لها أي حظ من الشعرية ، ولا تستحق أن يقف الباحث أمامها لولا حاجتنا إلى معرفة مدى صحة نسبتها لحسان .

وقد سبق أن أشرت إلى مقاله د. وليد عرفات عن السمات التي يمكن التعرف عن طريقها على النصوص الشعرية المزيفة (٢) فمعظم هذه السمات - كما نرى - موجودة في هذه الأبيات ، وهو ما يعضد النتيجة التي توصلت إليها .

(١) انظر ضبط الاسم في : ابن حزم « جمهرة أنساب العرب » ، تحقيق : عبدالسلام هارون ، دار

المعارف بمصر ، ١٣٨٢ هـ - ١٩٦٢ م ، ص ٣٥٧ ، وابن هشام « السيرة النبوية » ، ١٦٩/٢ .

(٢) وذلك أثناء دراستي لقصيدة الحارث بن هشام في بكاء أخيه عمرو بن هشام (أبي جهل) ، ص ٣٧ .

بِالْيَةِ حَسَانُ فِي رِثَاءِ الرَّسُولِ ﷺ

ورد في سيرة ابن هشام مرثية في الرسول عليه الصلاة والسلام منسوبة

لحسان بن ثابت نصها :

منيرٌ ، وقد تعفو الرسوم وتهمد
بها منبر الهادي الذي كان يصعد
وربع له فيه صلى ومسجد
من الله نور يستضاء ويوقد
أتاها البلى فالآي منها تجدد
وقبرا بها واره في الترب ملحد
عيون ومثلاها من الجفن تسعد
لها مُحْصِيًّا - نفسى فنفسى تباد
فظلّت لآءِ الرسول تعدد
ولكن لنفسي بعد ما قد توجد
على طلل القبر الذي فيه أحمد
بلاد ثوى فيها الرشيد المسدد
عليه بناء من صفيح منضد
عليه وقد غارت بذلك أسعدُ
عشية علوه الثرى لا يوسد
وقد وهنت منهم ظهور وأعضد
ومن قد بكته الأرض فالناس أكمد

بطيبة رسم للرسول ومعهد
ولا تمتحي الآيات من دار حرمة
وواضح آثار وياقي معالم
بها حجرات كان ينزل وسطها
معارف لم تطمس على العهد أيها
عرفت بها رسم الرسول وعهده
ظللتُ بها أبكي الرسول فأسعدت
تَذَكَّرْنَ آلاءَ الرسولِ - وما أرى
مفجعة قد شفاها فقد أحمد
وما بلغت من كل أمر عَشِيرَهُ
أطالت وقوفا تذرّف العين جهدها
فبوركت يا قبر الرسول وبوركت
وبورك لحد منك ضمن طيباً
تهيل عليه الترب أيدٍ وأعينُ
لقد غيبوا حلما وعلما ورحمة
وراحوا بحزن ليس فيه نبيُّهم
يكون من تبكى السموات يومه

رزية يوم مات فيه محمد !؟
 وقد كان ذا نور يغور وينجد
 وينقذ من هول الخزايا ويرشد
 معلم صدق إن يطيعوه يسعدوا
 وإن يحسنوا فالله بالخير أجود
 فمن عنده تيسير ما يتشدد
 دليل به نهج الطريقة يقصد
 حريص على أن يستقيموا ويهتدوا
 إلى كنف يحنو عليهم ويمهد
 إلى نورهم سهم من الموت مقصد
 يبكيه حقُّ المرسلات ويحمد
 لغيبة ماكانت من الوحي تعهد
 فقيده يبكيه بلاطٌ وغرقه
 خلاء له فيه مقام ومقعد
 ديار وعرضات وربُّع ومولد
 ولا أعرفنك الدهر دمعه يجمد
 على الناس منها سابغ يتغمد
 لفقد الذي لا مثله الدهر يوجد
 ولا مثله حتى القيامة يفقد
 وأقرب منه نائلاً لا ينكد
 إذا ضن معطاء بما كان يتلد
 وأكرم جدا أبطحيا يسود
 دعائم عز شاهقات تشيد

وهل عدت يوماً رزية هالك
 تقطع فيه منزل الوحي عنهم
 يدل على الرحمن من يقتدى به
 إمام لهم يهديهم الحق جاهدا
 عفو عن الزلات يقبل عذرهم
 وإن ناب أمر لم يقوموا بحمله
 فبيننا هم في نعمة الله بينهم
 عزيز عليه أن يجوروا عن الهدى
 عطوف عليهم لا يثني جناحه
 فبيناهم في ذلك النور إذ غدا
 فأصبح محموداً إلى الله راجعا
 وأمست بلاد الحرم وحشاً بقاعها
 قفاراً سوى معمورة اللحد ضافها
 ومسجده فالموحشات لفقده
 وبالجمرة الكبرى له ثم أوحشت
 فبكي رسول الله ياعين عبدة
 ومالك لا تبكين ذا النعمة التي
 فجودي عليه بالدموع وأعولي
 وما فقد الماضون مثل محمد
 أعف وأوفى ذمة بعد ذمة
 وأبذل منه للطريف وتالد
 وأكرم صيتا في البيوت إذا انتمى
 وأمنع ذروات وأثبت في العلا

وأثبت فرعا في الفروع ومنبتا
رباه وليدا فاستتم تمامه
تناهت وصاة المسلمين بكفه
أقول ولا يلقى لقولي عائب
وليس هواي نازعا عن ثنائه
مع المصطفى أرجو بذاك جواره
وعودا غذاه المزن فالعود أغيد
على أكرم الخيرات رب ممجد
فلا العلم محبوس ولا الرأي يفند
من الناس إلا عازب العقل مبعد
لعلي به في جنة الخلد أخلد
وفي نيل ذاك اليوم أسعى وأجهد

وهذه القصيدة ليست موجودة في ديوان حسان . وقد وضعها د. سيد حنفي
حسنين ضمن النصوص التي لم ترد في النسخة الأم من مخطوطات الديوان (١) . أما
د. وليد عرفات فقد ذكر أنها موجودة في « السيرة » و « الروض الأنف » ، إلى جانب
طبعتي العناني والبرقوقي للديوان (٢) ، اللتين من الواضح أنهما أضافتا إلى المثبت
في مخطوط الديوان نصوصاً أخرى جمعها من مصادر أخرى ، وإن لم ينصاً
عليها !..

وقد ذكر د. سيد حنفي حسنين أن هذه القصيدة قد « رواها أبو زيد
الأنصاري في سيرة ابن هشام » (٣) ، كما نصّ د. شوقي ضيف على أنها من رواية
هذا العالم ، وإن لم يشر إلى السيرة (٤) .

وإذا رجعنا إلى سيرة ابن هشام فسنجد بالفعل إشارة إلى أن راويها هو
أبو زيد الأنصاري ، بيد أن ما يلفت الانتباه هو أننا نجد في تقديمها هذه العبارة :

(١) « الديوان » (ط / د. حسنين) ص ٣٧٧ - ٣٨٠ .

(٢) « الديوان » (ط / د. عرفات) ١ / ٤٥٥ - ٤٥٧ .

(٣) « الديوان » (ط / د. حسنين) ص ٣٧٧ (الهامش) .

(٤) انظر « العصر الإسلامي » ، ص ٨٣ .

«وقال حسان ابن ثابت يبكي رسول الله ﷺ ، فيما حدثنا ابن هشام عن أبي زيد الأنصاري» . ومعنى ذلك أن القصيدة لم تكن في سيرة ابن إسحاق ، ولم يصفها ابن هشام بنفسه ، إنما فعل ذلك شخص ثالث لا نعرف عنه شيئاً ، ومن الغريب أننا نجد عبارة (فيما حدثنا ابن هشام) قد تكررت في السيرة عدة مرات باللفظ نفسه ، أو بلفظ قريب منه (١) فلم تثر استغراب محققي سيرة ابن إسحاق وابن هشام ولم تستوقفهم ، كما أن تحقيقاتهم ليس فيها أية إشارة أو تعليق يزيل ما اكتنفها من غموض ، بل إن (الفرد جيوم) لم يجد في هذه الكلمات ما يستدعي الوقوف عندها فترجمها كما هي ، وإن كان قد نقلها إلى نهاية الكتاب مع سائر ما قاله ابن هشام . كما أنه فصل كلام ابن هشام عن عمل ابن إسحاق وجمعه على حدة في آخر السيرة وسماها سيرة ابن إسحاق .

وعلى أية حال ، فالقصيدة كما هو واضح حظيت بالقبول ، إذ هي موجودة في السيرة . معزوة إلى أبي زيد الأنصاري عن طريق ابن هشام ، كما أنها ظهرت في طبقات الديوان في العصر الحديث ، إلى جانب أن د. شوقي ضيف لم يجد فيها شيئاً . إلا أن د. وليد عرفات له رأي آخر ، إذ قال في نهاية تخريجه لها : « والأرجح أن القصيدة لشاعر متأخر زار الحرم » (٢) ، ولكنه لم يحاول أن يوضح السبب الذي جعله يقول هذا الحكم ، وأماً وصفه له بأنه « متأخر » فيعني - فيما يبدو - أنه شاعر جاء ما بين وفاة حسان رضي الله عنه وزمن أبي زيد وابن هشام . أي أنه متأخر عن العصر الذي نظمت فيه هذه القصيدة .

(١) انظر : مثلاً ١/١٨٦ ، ٤٤/٢ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٧ (هامش ٢) .

(٢) ديوان حسان بن ثابت (ط د. عرفات) ، ٤٥٧/١ . كذلك يبدو حسان النص وكأنه يشك في نسبة هذه القصيدة لحسان قائلًا إنها طويلة طولاً لم نعهده في شعر حسان ، انظر : كتابه «حسان بن ثابت - حياته وشعره» ، ص ١٩٣ .

من هنا ، ورغم الملاحظات التي أبديناها على حكم د. عرفات ، أصبح لزاماً علينا أن ننظر في القصيدة لنرى مدى مصداقية نسبتها إلى حسان رضي الله عنه .
وبالنظر في القصيدة يمكن الخروج بالملاحظات التالية :

أولاً : في البيت الأول وردت كلمة « معهد » . وقد حاولت أن أجد استخداماً لهذه الكلمة عند حسان في المقدمات الطللية لبعض قصائده فلم أعثر على شيء من ذلك .

ثانياً : استخدم الشاعر كلمة « رسم » وهذه الكلمة تعني ما بقي لأهل الديار بعد رحيلهم عنها من أبعاد أو أحجار قدر وما شابه ذلك . فهل يمكن أن يستخدم حسان هذه الكلمة للدلالة على بيوت زوجات الرسول ومسجده ، وهي ما تبقى من الرسول بعد وفاته ﷺ ؟

ثالثاً : يقول حسان (في البيت الخامس) إن هذه المعارف التي خلفها الرسول قد « أتاها البلى » (وإن كان قد استدرك بأن « الآي منها تجدد ») فأي بلى قد أصاب بيوت الرسول ومسجده في عصر حسان ؟

رابعاً : في البيت السادس نرى الشاعر يقول :

عرفتُ بها رسم الرسول وعهده وقبرا بها واراها في الترب ملحد
مما يوحي بأنه لم يكن يعرف من قبل هذه الأشياء ، لكنه استطاع التعرف عليها عندما زارها .!.. فهل يصدق هذا على حسان وقد كان من أهل المدينة ومن الصحابة المقربين من رسول الله عليه السلام وأكبر شعرائه وأشدهم التصاقاً به ؟ (١)

(١) علق الدكتور سيد حنفي على هذا البيت قائلاً : « يظهر أن حسان نظم هذه القصيدة بعد وفاة الرسول بمدة » ، حسان بن ثابت شاعر الرسول ، سلسلة أعلام العرب / ١٩٦٣م ، ص ١٩٢ =

خامساً : في البيت يتحدث حسان عن القبر فنتساءل كيف يمكن أن يرى القبر وهو في حجرة عائشة وليس عليه أي شيء يوحي بأنه قبر . ومن الغريب وصفه له في البيت الثالث عشر بأن « عليه بناء من صفيح منضد » .

سادساً : يخبرنا الشاعر في البيت أنه بعد أن عرف رسم الرسول وعهده وقبره ظل يبكيه ، وهذا يوحي بأن تلك كانت المرة الأولى التي بكى فيها رحيله ﷺ . ويؤكد هذا وصفه القبر بأنه « طلل » ، ونحن نعرف أن حساناً كان في المدينة عند وفاته عليه السلام ، ولا شك أنه شهد دفنه ، فإذا كان قد بكى - وهو ما لا بد أن يكون - فقد فعل ذلك ساعة الفاجعة لا بعدها . والبيت الرابع عشر يوحي بأن قائله قد شاهد الدفن ، إذ يقول :

تهيل عليه التراب أيدٍ وأعين عليه ، وقد غارت بذلك أسعدُ
وهو ما يبدو أنه تناقض .

ثم يعود الشاعر بعد ذلك إلى التعبير بما يفهم منه أنه لم يكن بين الذين حضروا دفنه ﷺ ، بل هو مجرد شخص غريب عن الأمر إذ يتحدث عن انصراف الدافنين وانكسارهم وبكائهم وشعورهم بالمصيبة بضمير الغائبين يقول :

لقد غيبوا علما وحلما ورحمته عشية علوه الثرى لا يؤسدُ
وراحو بحزن ليس فيهم نبيهم وقد وهنت منهم ظهور وأعضد
يبكون من تبكي السماوات يومه ومن قد بكته الأرض ، فالناس أكمد

= (بالهامش) . ولكن هذا توجيه غير مقنع، إذ ما الذي حدث في حياة حسان لقبر الرسول وبيوته ومسجده ومنبره وحتى لو قبلنا هذا جدلاً فما الذي يدفعه إلى معاودة رثائه ﷺ بعد هذه المدة؟

تقطع فيه منزل الوحي عنهم وقد كان ذا نور يغور وينجد
 إمام لهم يهديهم الحق جاهداً معلّم صدق إن يطيعوه يسعدوا
 فبيناهم في نعمة الله بينهم دليل به نهج الطريقة يقصد
 فبيناهم في ذلك النور إذ غدا إلى نورهم سهم من الموت مقصد
 الخ .

سابعاً : ليس في القصيدة أية إشارة إلى الأنصار كما هي العادة في أكثر شعر حسان في الرسول ﷺ .

ثامناً : ثم إنني أجد من الصعب علي أن أصدق أن حسانا يمكن أن يخطر في باله أن يقول في ثنائه على الرسول عليه الصلاة والسلام :

أقول ولا يلقى لما قلت عائب من الناس إلا عازب العقل مبعّد
 إذ لا نتصور أن أحداً يمكن أن يعيب حسانا على ذلك الرثاء .

تاسعاً : يبدو لي أن تركيب جملة « أرى » في البيت التالي فيه ركاكة وتهافت لا يتفق ونظم حسان .

يذكرن ألاء الرسول ، وما أرى لها محصياً نفسي ، فنفسي تبدد
 يقصد : « وما أرى نفسي لها محصياً » ، ولكنه قدم وأخر فنشأت تلك الركاكة.

إن هذه الملاحظات تبعث على عدم الإطمئنان لنسبة هذه القصيدة (كلها أو على الأقل الأبيات التي هي محل الملاحظة) إلى حسان رضي الله عنه ، وتجعلنا نرى في كلام د. وليد عرفات وجهة ، إذ الكلام في بعض أبيات القصيدة كما رأينا يفيد

أن قائلها لم يكن من أهل المدينة ولا كان حاضراً دفن الرسول ﷺ ، وأن زيارته إنما تمت في وقت متأخر ، وإن لم نستطع تحديد الفترة الزمنية التي تنتمي إليه هذه القصيدة ، أما لماذا قال د. وليد عرفات عن هذا الشاعر إنه قد زار الحرم فمن المؤكد أن ذلك يعود - كما اتضح من الدراسة التوثيقية - إلى أن الشاعر يصف تلك الأماكن الطاهرة وصف الذي زار يثرب ورآها ووقف عندها لأول مرة .

ولكننا من ناحية أخرى أمام نص في سيرة ابن هشام يقول فيه كاتبه إن ابن هشام قد حدثه بهذه القصيدة نقلاً عن أبي زيد الأنصاري . غير أننا كما قلت لا نعرف من الذي كتب ذلك ، وعليه لانستطيع أن نحدد مدى الأطمئنان الذي ينبغي أن نوليه هذا الكلام ؛ ولعل أحد النساخ قد أضافه إلى السيرة . أو لعلها إشارة إلى راي آخر للسيرة. إننا نعرف أن ابن هشام كان يحذف أشياء من شعر حسان هي موجودة في الديوان، أما أن يروى هو في السيرة شعراً لا وجود له في الديوان فهذا شيء نادر جداً (١) .

وفي ضوء ما سبق نستطيع القول : إن حساناً قد نظم بعض أبيات هذه القصيدة، ثم أضيفت إليها بعد ذلك أبيات أخرى (٢).

(١) وهناك قصيدة أخرى أضافها ابن هشام إلى السيرة ، وهي لكعب بن مالك . انظر «السيرة»، ٤٤٥/١ . وقد أشار إلى ذلك د. شوقي رياض في كتابه « شعر السيرة النبوية - دراسة توثيقية»، ص ٢٥٠ .

(٢) ممن نسبوا هذه القصيدة لحسان دون أن يبدو أي قدر من الشك في ذلك : السهيلي في الروض الأنف، ٢٨٧/٢ ، والعصامي « سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي » ، المطبعة السلفية ، ٢٣٤/٢ - ٢٣٦ ، وأبوالفدا ابن كثير في « البداية والنهاية » ، ط ١ ، مطبعة السعادة ١٩٣٢ م ، ٢٨٠/٥ .

أما د. سيد حسنين فله رأي مختلف بخصوص هذه المرثية ، إذ يرى فيها دليلاً على أن شعر حسان في رثاء الرسول ﷺ قد ضاع من ديوانه ، أي أنه يرى لها من الثقل ما يجعله يتخذها أساساً يبني على تصوره لها في السيرة ذلك الحكم. ويؤكد هذا قوله أن الذي رواها هو « أبوزيد الأنصاري الراوي الثقة » (١).

(١) د. سيد حنفي حسنين « حسان بن ثابت شاعر الرسول » ، ص ١٩٠ - ١٩١ . ولكن يلاحظ أن الدكتور نكر أن هذه القصيدة موجودة في « مغازي ابن إسحاق » ، وهو خطأ ؛ إذ هي في « سيرة ابن هشام » لا في « مغازي ابن إسحاق » ، ليس ذلك فقط ، بل إنها من إضافات ابن هشام وليس من كلام ابن إسحاق أصلاً ؟ وفضلاً عن هذا فإن ابن هشام لم يروها لنا بنفسه ، وإنما رواها ذلك الشخص المجهول الذي أخبرنا أنه قد رواها له ابن هشام عن أبي زيد الأنصاري، كما بينا . وهناك خطأ آخر يتصل بهذه المسألة وقع فيه د. نشأت العناني ، الذي ادعى أن د. سيد حنفي حسنين قال إن هذه القصيدة لم يروها رواة الديوان ولا أبوزيد الأنصاري، على حين أن د. سيد حنفي قال : « لم يروها رواة الديوان ورواها أبوزيد الأنصاري ». انظر : د. نشأت العناني « مرثي الرسول عقب وفاته » ، ط ١ ، ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م ، ص ١٨٥ . ومع هذا فقد عاد د. العناني في الصفحة التي تلي ذلك وأورد كلام د. سيد حنفي على وجهه الصحيح ! ، ولعل خطأ غير متعمد .

مرثية حسان الرائية في الرسول ﷺ

في سيرة ابن هشام مرثية رائية مكونة من ثمانية أبيات في الرسول عليه السلام منسوبة لحسان رضي الله عنه . وهذه هي :

نَبُّ الْمَسَاكِينِ أَنْ الْخَيْرِ فَارْقَهُمْ	مَعَ النَّبِيِّ تَوَلَّى عَنْهُمْ سَحْرًا
مَنْ ذَا الَّذِي عِنْدَهُ رَحْلِي وَرَاحِلَتِي	وَرَزَقَ أَهْلِي إِذَا لَمْ يُؤْنَسُوا الْمَطْرَا
أَمْ مَنْ نَعَاتِبُ لَانْخَشَى جِنَادَعَهُ	إِذَا اللِّسَانَ عَتَا فِي الْقَوْلِ أَوْ عَثْرَا ؟
كَانَ الضِّيَاءُ وَكَانَ النُّورُ نَتْبَعَهُ	بَعْدَ الْإِلَهِ وَكَانَ السَّمْعُ وَالْبَصْرَا
فَلَيْتَنَا يَوْمَ وَارَوْهُ بِمَلْحَدِهِ	وَعَيَّبُوهُ وَأَلْقَوْا فَوْقَهُ الْمَدْرَا
لَمْ يَتْرِكِ اللَّهُ مَنَا بَعْدَهُ أَحَدَا	وَلَمْ يَعِشْ بَعْدَهُ أَنْثَى وَلَا ذَكَرَا
ذَلَّتْ رِقَابُ بَنِي النَّجَارِ كَلِمَهُ	وَكَانَ أَمْرًا مِنْ أَمْرِ اللَّهِ قَدْ قُدِّرَا
وَاقْتَسَمَ الْفِيءُ دُونَ النَّاسِ كُلَّهُمْ	وَبَدَدُوهُ جَهَارًا بَيْنَهُمْ هَدْرَا (١)

وابن هشام هنا لا يعلق على هذه الأبيات بما يفيد أنه لم يبلغه عن أحد من العلماء الثقات أي شك فيها . وهي موجودة في الديوان ، إلا أنه قد قدم لها بهذه الكلمات : « قال يرثيه عليه السلام . وليست في كتاب أبي عمرو ولا رواها ابن

(١) « السيرة النبوية » ، ق ٦٧٠/٢ - ٦٧١ . وقد وردت في الديوان مع تغيير في بعض الألفاظ طفيف . انظر ديوانه ، (ط د . حسنين) ، ص ٢١٠ ، و (ط د . عرفات) ، ٤٢١/١ .

الأعرابي . قال العدوي : أحسبها مصنوعة « (١) . ومن هنا حام الشك حولها ، ولزم من ثمّ دراستها لتجلية وجه الحق فيها .

والدارس لهذه الأبيات بغية توثيقها لا يسعه أن يهمل ماجاء في المصادر الموثقة من أن ابن هشام لم يبلغه أي شك فيها . وهذه نقطة تحسب لصالحها . كذلك فإنه إذا كان قد جاء في الديوان أنها ليست في كتاب أبي عمرو ولا رواها ابن الإعرابي ، فإن ابن سعد قد نسب الرواية لأبي عمرو الشيباني (٢) .

فعدنا روايتان : إحداهما تدعى أن ابن الأعرابي لم يروها ، والأخرى تدعى أنها من روايته . ومعنى ذلك أن نفي رواية ابن الأعرابي لها غير قوي . ثم لنفترض أن ابن الأعرابي لم يروها ، ألم يروها غيره ؟ هذه الأبيات قد وردت في عدة مصادر مبكرة . في السيرة النبوية والديوان وفي « طبقات ابن سعد » كما رأينا ، وفي « الروض الأنف » (٣) . وهذا دليل قوي على صحة نسبتها لحسان ، أما قول العدوي : « أحسبها مصنوعة » فلنا عليه تعقيب : وهو أنه لم يذكر لنا الأسباب التي دفعته إلى الظن بأنها مصنوعة ، ولا من صنعها . ثم إن قوله : « أحسب » يفتقر إلى قوة الاقتناع ، فهو مجرد ظن ليس إلا .

فإذا أخذنا في فحصها من الداخل ، واستقرأنا أهم سماتها الأسلوبية فإننا نلاحظ الآتي :

(أ) فبالنسبة للكلمة « نبّ (بنئُ) » التي وردت في أول بيت ، نجد أن هذا الفعل قد ورد عند حسان بضع مرات (٤) .

(١) ديوانه ، (ط . د . حسنين) ، ص ٢١٠ ، و (د . عرفات) ، ٤٢١/١ .

(٢) « الطبقات الكبرى » (ط . دار صادر) ، بيروت ، ٣٢١/٢ .

(٣) السهيلي « الروض الأنف » ، ٣٧٩/٢ .

(٤) ديوانه (ط البرقوقي) ، ص ٢٣٨ ، ٢٥٢ ، ٤٥١ .

(ب) وصف الرسول عليه الصلاة والسلام في البيت الرابع بأنه « ضياء ونور » هو معنى قد تكرر في شعر حسان ، إذ قال عنه إنه سراج مستنير ، وشهاب يستضاء به ، وكضياء البدر ، ومثل الهلال ، وإنه نور أضاء ، وإنه مصباح الدجى ، وسراج منير ، وكالقمر المنير ... إلخ (١) .

(ج) قوله « السمع والبصر » تكرر وفق الترتيب نفسه في مقطوعة أخرى لحسان (٢). كما أنه وصف النبي عليه الصلاة والسلام في مرثية أخرى له بأنه كان الضياء لناظره (٣)، وهو المعنى نفسه الوارد في هذا البيت .

(د) كلمة « ملحد » في البيت الخامس ، بمعنى القبر ، قد وردت في ديوان حسان مرتين : مرة بالصيغة نفسها (٤) ، ومرة على وزن « مفعول » (ملحود) (٥).

(هـ) أن التمني في البيت نفسه والبيت الذي يليه وقد تكرر بمعانٍ متشابهة في بعض مرثي حسان مثل قوله : « ليتني غُيِّبْتُ قبلكَ في بقيع الغرقد » (٦) ، يا ليتني لم أولد » (٧)، و « يا ليتني صبَّحتُ سُمَّ الأسود (٨) ، وقوله :

(١) ديوانه (ط البرقوقي) ، ص ١٣٥ ، ١٣٧ ، ١٣٨ ، ١٥٤ ، ١٥٥ ، ١٥٧ ، ٢٦٩ ، ٢٧٩ .

(٢) السابق ، ص ٢٥٨ .

(٣) السابق ، ص ٢٢١ .

(٤) السابق ، ص ١٥٤ .

(٥) السابق ، ص ١٩١ .

(٦) السابق ، ص ١٥٣ .

(٧) السابق ، ص ١٥٣ .

(٨) السابق ، ص ١٥٣ .

ألا ليت شلوي يوم ذاك وأعظمي إلى أضبع ينتبني ونسود (١)
 وقريب من ذلك قوله في رثائه ﷺ :

من شاء بعدك فليمت فعليك كنت أحاذر (٢)

(و) وردت عبارة : « ... أنثى ولا ذكرا » بالتركيب نفسه عند حسان أيضاً (٣).

(ز) ذكر بني النجار الوارد في البيت السابع هو من السمات التي تميز شعر حسان - كما أشرت إلى ذلك سابقاً - .

(ح) كما أن الشكوى في هذا البيت من ذلة بني النجار بعد وفاته ، نجدها في رثائية لحسان في النبي ﷺ ، وإن كان قد أبدل بني الأنصار ببني النجار ، وذلك في قوله :

ضاقت بالانصار البلاد فأصبحت سوداً وجوههم كلون الإثمد (٤)

(ط) تسهيل الهمزة في قوله : « وكان أمرا من أمر الله » في البيت له مشابهة في شعر حسان ، وذلك في قوله : « كفرتم بالقرآن » (٥) و « لأنبؤكم » (٦) ، و « ويل أم شعثاء » (٧) ، و « لو ان اللؤم ... » (٨) و « ضاقت بالانصار » (٩).

(١) ديوانه (ط. البرقوقي) ، ص ٢٤٣ .

(٢) السابق ، ص ٢٢١ .

(٣) السابق ، ص ٢٨٢ .

(٤) السابق ، ص ١٥٤ .

(٥) السابق ، ص ٢٥٠ .

(٦) السابق ، ص ٢٥٢ .

(٧) السابق ، ص ٣٢٣ .

(٨) السابق ، ص ٣٣٢ .

(٩) السابق ، ص ٣٥٤ .

(ي) عبارة « أمر الله » تكررت عدة مرات في ديوان حسان ، وكلها في مقام الموت (١).

(ك) الشطرة الأخيرة من البيت مقتبسة من قوله تعالى : « وكان أمر الله قدرا مقدورا ». وفي شعر حسان الاسلامي اقتباسات غير قليلة من القرآن الكريم (٢) .

لهذا كلُّه أرجح أن الأبيات لحسان . عدا البيت الثاني الذي يقول فيه :

من ذا الذي عنده رحلي وراحلتي ورزق أهلي إذا لم يؤنسوا المطرا

فإن في نفسي شيئا منه : فحسان لم يكن في الإسلام من الشعراء المتجولين

الذين يسيرون وراحلهم وينتجعون هذا وذاك من المدوحين . ثم إنني لم ألاحظ أنه قد

قال هذا المعنى في شعر آخر له . بل إنه افتخر مرارا بأن عشيرته تطعم الضيوف

والمحتاجين . كما كان افتخاره ، فيما يتعلق بالرسول عليه السلام ، أنهم قد آوه ونصروه . ومع ذلك فقد قال يرثيه عليه السلام في شعر آخر له : ^{كسوة}

يا أفضل الناس ، إنني كنتُ في نهر أصبحتُ منه كمثل المفرد الصادي (٣)

على أية حال ، فعدم الاطمئنان إلى بيت واحد لا يطعن في سائر المقطوعة .

(١) ديوانه (ط . البرقوقي) ، ص ٧٣ ، ٧٨ ، ١٥٤ . وكذلك ص ٣١٥ ولكن هكذا : « أمر الذي يقضي الأمور » .

(٢) السابق ، ص ٦٨ ، ٦٩ ، ١٣٤ ، ١٣٥ ، ١٣٦ ، ١٥٨ ، ١٩٩ ، ٢٠٦ ، ٢١٩ ، ٢٣٧ ، ٢٤٢ ، ٢٥٠ ، ٢٥٥ ، ٣٢٨ ، ٣٥٦ ، ٣٧٦ ، ٣٨٨ ، ٤٤٠ ، ٤٦٧ مثلاً .

(٣) السابق ، ص ٢٥٦ .

رثاء

سالم (أو صفية) للرسول ﷺ

أورد المبرد (٢٨٥ هـ) قصيدة بائية من تسعة عشر بيتاً في رثاء الرسول ﷺ ، ذكر أن أستاذه الرياشي قد أنشده إياها لرجل من غطفان من بني عبدالله كانت له صحبة ، قُتل يوم جُلُولاء ، يقال له « سالم » . وهذه هي القصيدة :

أفـاطم بكـي ولا تـسـأـمـي	لـصـبـحـك ما طـلـع الكوكب
فـقـد هـدت الأـرض لما ثوى	وأـي البـبـرـية لا يـنـكـب
فـمـالـي بـعدك حـتى المـما	ت إلا جـوى داخـل مـنـصـب
جـوى حـل بـين الحـشا والشـغـاف	فـخـيم فـيـه فـما يـذهـب
فـيـاعـين ويـحـك ل تـسـأـمـي	ومـا بـال دـمـعـك لا يـسـكـب
وقـد بان مـنـك الـذي تـعـلـمـي	مـن وضاقت بـك الأـرض والمـذهـب
ومـن ذا - لك الـويل - بـعد الـرسـول	يـبـكى مـن النـاس أو يـنـدب
فإن تبكـه تبك خـير الأنام	كـثـير الفـواضـل لا يـجـدب
وإن تبكـه تبك سـهـل الجـنا	ب مـحـض الضـرائب لا يـؤشـب
وإن تبكـه تبك نور البـلا	د ضـخـم الدـسـيعة لا يـحـسب
وإن تبكـه تبك خـير الأنام	سـرـيـعا سـوابـله مـخـصـب
وإن تبكـه تبك واري الزناد	صـدوق المـقـالـة لا يـكـذب
وتبكي الـرسـول وحقـت له	شـهـود المـديـنة والغـيب
وتبكي له الصم ، صم الجبال	وشـرق المـديـنة والمـغـرب
وتبكيه شعـثاء مـضـرورة	إذا حـجب النـاس لا تـحـجب

ويبكيه شيخ أبو ولدة تطيف بعقوته أشيب
ويبكيه أهل النهى والحجى من الناس والطارق الأخبب
ويبكيه ضيف جفاه الصديق ونو النسب الداخل الأقرب
ويبكيه شعث خماص البطون أضربهم زمن أنكب (١)

وفي الوقت نفسه فإن ابن سعد أورد بعض أبياتها منسوبة إلى صفية بنت
عبدالمطلب عمة النبي ﷺ ، وهي :

أفأطم بكى ولا تسأمي بصبحك ماطلع الكوكب
هو المرء يبكى وحق البكاء هو الماجد السيد الطيب
فأوحشت الأرض من فقده رأي البـرية لاينكبا
فمالي بعدك حتى المما ت إلا الجوى الداخل المنصب
فبكي الرسول وحققت له شهود المدينة والغيب
لتبكيك شمطاء ضرورة إذا حجب الناس لا تحجب
ليبكيك شيخ أبو ولدة يطوف بعقوته أشهب
ويبكيك ركب إذا أرملا فلم يلف ماطلب الطلب
وتبكي الأباطح من فقده وتبكيه مكة والأخشب
وتبكي وعيرة من فقده بحزن ويسعددها الميثب
فعييني مالك لاتدمعين وحق لدمعك يستسكب (٢)

(١) المبرد « التعازي والمراثي » ، تحقيق محمد الديباجي ، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق ،

١٣٩٦ هـ - ١٩٧٦ م ، ص ٣١٣ - ٣١٤ .

(٢) « الطبقات الكبرى » ، ٢/٣٢٨ ، وانظرها كذلك في : النويري « نهاية الأرب في فنون الأدب » ،

وزارة الثقافة والارشاد القومي (نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب) ، ٤٠٤/١٨ .

والسؤال بعد هذا كله لمن هذه القصيدة ؟ أهي لسالم الغطفاني أم لصفية رضي الله عنهما ؟

إن هناك ملاحظات عدة ينبغي الأخذ بها قبل الإجابة عن هذا السؤال وهي :

أولاً : أن رواية المبرد للأبيات جاءت متأخرة لأنها من طريق الرياشي (٢٧٥هـ) على حين أن رواية ابن سعد لها ترتفع إلى شيخه محمد بن عمر الواقدي (٢٠٧هـ).

ثانياً : أن الشاعر الذي عزا الرياشي إليه القصيدة لا نعرف من نسبه إلا أن اسمه سالم وأنه من بني غطفان ، ولا نعرف هل له شعر آخر أو لا . أما صفية فهي من الشهرة بمكان ، ومعروف أن لها أشعاراً أخرى .

ثالثاً : أن هذا الشاعر ليس من أهل المدينة ، أي أنه لم يكن قريباً من النبي ﷺ ، أما صفية فهي من أهل بيته بل هي عمته ، وهي أم الزبير بين العوام أحد الصحابة الأذنين من النبي وأحد العشرة المبشرين بالجنة .

رابعاً : أن ابن سعد محدث ثقة ، وله كتاب في طبقات الصحابة والتابعين ، أما الرياشي فهو لغوي راوية للشعر وأيام العرب (١) وعليه فإن ابن سعد أخرى بأن يكون أعلم منه بأخبار الصحابة وأشعارهم .

هذا عن الإطار الخارجي للقصيدة والشخصيتين اللتين تتنازعان نسبتها . فإذا ما انتقلنا إلى النص الشعري من داخله تبين لنا الآتي :

أولاً : تتوجه القصيدة في البيت الأول إلى فاطمة في ألفة . وهذا لا يتأتى عادة إلا من شخص قريب منها ، ليس بينه وبينها ستر من أستار الكلفة . وهذا قمين أن يقع من صفية التي كانت بمثابة الجدة لفاطمة رضي الله عنهما .

(١) المبرد « التعازي والمراثي » ، ص ١٩ (الهامش) .

ثانيا : يقول البيتان الثالث والرابع مخاطبين النبي عليه الصلاة والسلام
(بعد وفاته) :

فما لي بعدك حتى المما ت إلاجوى داخل ، مُنْصِبُ
جوى حل بين الحشا والشغاف فخيّم فيه فما يذهبُ

وهذا كلام لا يُتخيلُ صدوره إلا من شخص كان حميم الصلاة بالرسول
الكريم عليه الصلاة والسلام ، وأين هذا من سالم رضي الله عنه الذي كان أكثر ما
قيل عن صلته بالنبي إنه « كانت له صحبة » (١) ، بتكثير وتجهيل لهذه الصحبة ؟

وفي البيتين اللذين يليان ذلك نقرأ :

فيا عين ، ويحك لا تسأمي وما بال دمعك لا يسكُبُ
وقد بان منك الذي تعلميـــــــن وضاقَت بك الأرضُ والمذهبُ
وهو ما نفهم منه أن قائلهما كان كثير الرؤية للرسول ﷺ ، وهذا يصدق
بطبيعة الحال على صفة دون الغطفاني رضي الله عنه .

ثم إن الأبيات التي تلي ذلك تأخذ في تعداد مناقب النبي عليه الصلاة
والسلام فتذكر له أنه « كثير الفواضل ، سهل الجناب ، محصن الضرائب ، نور البلاد
، ضخم الوسيعة ، مُخْصِب ، واري الزناد ، صدوق المقالة » ، وأنه قد حق أن تبيكه «
شعثاء مضرورة » لم تكن تُحْجِي عنه ، و « أبو ولادة أشيب » و « الطارق الأخب » و «
ضيف جفاه الصديق » و « ذو النسب الأقرب » و « شُعْتُ خماص البطون أضر بهم

زمن ، أنكبُ » ومثل هذا الرثاء لا يصدر إلا عن واحد من أهل المرثي قريب منه كصفية فإن النبي ﷺ هو بالنسبة إليها ابن أخيها قبل أن يكون رسولاً ، وصفاته الشخصية تسبق في وعيها صفاته نبياً مرسلأً ، و لصفية وأخواتها رثاء في أبيهن عبدالمطلب ، رواه ابن إسحاق في السيرة عن محمد بن سعيد بن المسيب ، يجرين فيه هذا المجرى (١) .

وفي ضوء ماتقدم ، فإنني أميل إلى أن هذه القصيدة هي لصفية رضي الله عنها لا لذلك الصحابي الغطفاني رضي الله عنه ، وأن الاختلاف في عدد أبياتها وفي الفاظها كان بفعل الرواة وهو أمر غير مستبعد ، خاصة إذا أخذنا في الاعتبار أن أكثر الشعر الذي وصل إلينا إنما كان عن طريق الرواية الشفوية .

رثاء متمم بن نويرة لأخيه مالك

أوردت الدكتورة ابتسام الصقار عشرة أبيات لمتمم بن نويرة في رثاء أخيه
مالك ، ونصها :

لقد لامني عند القبور على البكاء
أمن أجل قبر بالملأ أنت نائح
فقال : أتبكي كل قبر رأيت
فقلت له : إن الشجا يبعث الشجا
ألم تره فينا يقسم ماله
فأخر آيات مناخ مطية
فلما استوى كالبدر بين شعوبه
بعيني قطامي تأوب مرقبا
أطفنا به نستحفظ الله نفسه
رثير قطا القناء في كل ليلة

رفيقي لتذراف الدموع السوافك
على كل قبر أو على كل هالك
لقبر ثوى بين اللوى فالكدادك
فدعني فهذا كله قبر مالك
وتأوي إليه مرملات الضرائك
ورحل علافي على متن حارك
وأمت بهاديها فجاج المهالك
فبات به كأنه عير فارك
تقول له : مصاحبا غير هالك
إذا حن فحل الشول وسط المبارك (١)

إن ما يمكن قوله إنني وجدت هذه الأبيات جميعها أو بعضها منسوبة لمتمم

(١) بن نويرة في رثاء أخيه مالك وذلك في مصادر عدة (٢) .

(١) « مالك ومتمم ابنا نويرة اليربوعي » ص ١٢٥ - ١٢٧ .

(٢) انظر : أبو تمام « الحماسة » تحقيق د. عبدالله عبدالرحيم عسيلان ، جامعة الإمام محمد بن

سعود الإسلامية ، ١٤٠١ هـ ، ص ٧٩٧ ، والمبرد « التعازي والمراثي » ، ١٣٩٦ هـ - ١٩٧٦ م ، ص =

إلا أن أبا محمد الأعرابي الملقب بالأسود الغندجاني (٤٣٠ هـ) نفى نسبة هذا الشعر إلى متمم بن نويرة وأكد أنه لابن جذل الطعان الفراسي (شاعر جاهلي) يرثي أخاه مالكا ، وقال إن أبا عبدالله النمري قد توهم أنه ليس في العرب سوى متمم ومالك ابني نويرة ممن أبنا أخاه ورثاه (١) ، ثم أورد أبيات عشرة تختلف ثلاثها الأولى عن البيتين الأولين في القصيدة المنسوبة لمتمم وبيتها الرابع ، وإن شابه الثالث في تلك القصيدة في شطرته الأولى وفي تركيب الجملة في شطرته الثانية ، فإنه يختلف عنه في أن الموضوعين اللذين يقع قبر مالك بينهما هما موضعان آخران غير هذين المذكورين في القصيدة المعزوة لمتمم إضافة إلى أن البيت الأخير في هذه لا وجود له في القصيدة المنسوبة إلى ابن جذل الطعان .

والناظر في الأبيات المنسوبة إلى ابن جذل الطعان يجد أن الشاعر في الأبيات الأربعة الأولى ، وهي :

ورملة قرئى عن يمين الشنابك	ثنى الحزن أرمام غشينا بمنشد
بجثوته بيني وبين الشوابك	فأسعدت أبكي مالكا وكأنه
سلي وبك شجوه غير ضاحك	ولاصحبي لم يبك ، والناس ضاحك
لرمس مقيم بالملا والدوانك	وقال : أتبكي كل رمس رأيتـه

٨٨ ، وابن عبدربه « العقد الفريد » ٦٣/٣ ، والأصفهاني ابن داود « الزهرة » ٦٦/٢ ، والقالى « الأمالي » ١/٢ .

(١) انظر « إصلاح ماغلط فيه أبو عبدالله النمري » ، تحقيق : د. محمد علي سلطاني ، منشورات معهد المخطوطات العربية ، الكويت ، ط ١ ، ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م ، ص ٩٤ ، فما بعدها ، وكذلك « الحماسة » لأبي تمام ، تحقيق د. عبدالله بن عبدالرحيم عسيلان « ٢٩٠/١ .

قد ذكر أنه في ذلك المكان (الشنابك) « أتاه النعي بموت أخيه فأنشأ يبكيه وكان معه صاحب لم يشاركه ما هو فيه من أحزان ودموع ، بل أنكر عليه أنه كلما رأى قبراً بكى أخاه . وهو أمر غريب ، إذ لا يُعقل أن ينكر صاحب على صاحبه بكاءه على أخيه عند علمه بخبر موته . وكذلك فإنه لا يقال لمن يبكي أخاه أول علمه بموته « إنك تبكي أخاك كلما رأيت قبراً من القبور » ، لأن هذا يقتضي أن يكون قد مضى على علمه بوفاة أخيه وقت طويل وأن يكون قد مرَّ على قبور كثيرة وبكى عند كل قبر منها ، ولم يحدث شيء من هذا في حال ابن جذل الطعان على ما أخبرنا هو نفسه في هذه الأبيات . أما عن حالة متمم فمعروف عنه أنه كان كثير البكاء على أخيه ، وهذا أمر يشهد به شعره الذي سلم لنا من يد الزمن وقامت الباحثة ابتسام مرهون الصفار بجمعه من المظان المختلفة . ويشهد به أيضاً ضيق زوجته بكثرة بكائه على هذا الأخ (١) . إن في الأبيات المنسوبة إليه ما يدل على أنها قد نُظمت بعد وفاة أخيه بزمن ، وأنه قد تكرر منه البكاء ، ومن ثم فلا معنى لإنكار المنكرين عليه ، بخلاف الأمر في حالة ابن جذل الطعان .

ثم إن مالك بن نويرة قد دُفِن في المِلا ، على ما تشير إليه الكلمة التي قُدِّم بها لهذه الأبيات ، إذ تقول : « ولما قدم متمم العراق وأقبل لا يرى قبراً إلا بكى عليه قيل له : يموت بالملا ، وتبكي أنت على قبر بالعراق » ، وهذا الموضع يقع في بلاد بنى أسد كما يقول البكري ، وهو الموضع الذي قتل فيه مالك (٢) .

(١) انظر كتابها : « مالك ومتمم ابنا نويرة اليربوعي » ، ص ٢١ - ٢٣ ، ١٢٨ ، وأبو عبيد البكري

«معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع » ، تحقيق : مصطفى السقا ، لجنة التأليف

والترجمة والنشر ، القاهرة ، الطبعة الأولى ، ١٣٦٦ هـ - ١٩٤٧ م ، ٢ / ٥٥٤ - ٥٥٥ .

(٢) السابق ، ٢ / ٥٥٤ .

وبالمثل فإن « الدكادك » هو أيضا مكان ، في ديار بني أسد ، على ما يقول البكري (١) . على أننا نلاحظ أن أسماء المواضع في القصيدة المنسوبة لابن جذل الطعان تختلف عن هذه المواضع ما عدا « الملا » .

ولعل في عبارة « نستحفظ الله نفسه » ، التي وردت في البيت قبل الأخير من الأبيات المنسوبة لمتهم ، والبيت الأخير في تلك القصيدة المنسوبة لابن جذل الطعان ما يدل على أن البيت قد قيل في الإسلام ، إذ من الصعب التسليم بأن جاهليا يمكن أن تطوف بذهنه تلك الفكرة .

كذلك نلاحظ أن من الأبيات التي وردت في الشعر المنسوب لجذل الطعان قوله:

فأسعدت أبكي مالكا وكأنه بجثوته بيني وبين الشـوابك

ونحن نعرف أن الرسول ﷺ قد نهى عن الإسعاد (٢) ، ولعل في هذا ما يؤكد نسبة البيت لشاعر جاهلي لا إسلامي .

من هذا كله نخرج بأن الأبيات الثلاثة الأولى في الشعر المنسوب لابن جذل الطعان هي في الغالب له وربما البيت الرابع أيضا ، وإن كان في النفس شيء من ذكر « الملا » فيه ، وهو كما عرفنا من المواضع الموجودة في ديار بني أسد . أما البيت قبل الأخير في الشعر المنسوب إلى متمم (وهو الأخير في ذلك المعزوف إلى ابن جذل الطعان) فأحرى أن يكون لمتمم .

وتبقى الأبيات المشتركة الأخرى ، وهذه لا أستطيع عن طريق التحليل العقلي والأسلوبي والتاريخي الجزم لهذا أو ذاك ، أو الترجيح فيها ، لأنه ليس فيها شيء مميز

(١) معجم ما استعجم ، ٢/٥٥٤ .

(٢) انظر : النسائي « سنن النسائي » ، كتاب الجنائز ، باب « النياحة على الميت » مطبعة مصطفى

البابوي الحلبي بمصر ، ط ١ ، ١٣٨٠ هـ - ١٩٦٤ م ، ٤/١٤ .

أستطيع أن أنكىء عليه في هذا المجال . ولكنني في الوقت ذاته لا أستطيع أن أتجاهل تكرر نسبتها إلى متمم في المصادر التي سبقت الإشارة إليها .

ويظهر لي أن متمم بن نويرة كان يعرف أبيات ابن جذل الطعان ، فنسج على منوالها عن قصدٍ أو دون تنبه . وهذا قد تكرر في الشعر العربي القديم منه والحديث على السواء ، كما هو الحال في أحد الأبيات الذي ورد في كل من معلقتي امرئ القيس وطرفة ، وكما في الياثية التي رثى بها عبد يغوث الشاعر الجاهلي نفسه والياثية التي رثى بها مالك بن الريب نفسه . ولا ننسى في هذا المجال المعارضات أيضاً .

وقد أشارت إلى شيء من ذلك د . ابتسام مرهون الصفار ، إذ قالت : « إن اتفاق مطلع القصيدة التي رواها ابن الأعرابي لابن جذل الطعان مع الأبيات المنسوبة لمتمم بن نويرة لا يعدّ دليلاً قاطعاً في نفي نسبة الأبيات إليه ، إذ الاتفاق في البحر والقوافي والأغراض بين قصائد معينة مشهور وكثير في القصائد الرثائية ، كقصيدة أبي ذؤيب الهذلي العينية وعينية متمم مثلاً » (١) .

ونحن نرجح أن الشعر المنسوب لمتمم هو له ، وأنه لاعتماده الوزن والقافية أنفسهما وتشابهه في بعض العبارات والتراكيب مع ما رجّحنا نسبته من أبيات إلى ابن جذل الطعان قد جعل الأسود الغندجاني ينسب تلك الأبيات لهذا الأخير .

(١) « مالك ومتمم ابنا نويرة اليربوعي » ، ص ١٦٠ . هذا ولا نعرف أحداً غير الغندجاني في هذا ينفي نسبة ذلك الشعر عن متمم بن نويرة . وقد جرى الباحثون في العصر الحديث ممن رجعت إليهم على نسبتها لمتمم ومن هؤلاء بشرى الخطيب في « الرثاء في الشعر الجاهلي وصدر الإسلام » ، ص ٢٩٠ ، ود . حسين جمعة في كتابه « الرثاء في الجاهلية والإسلام » ص ٢٧ ، ود . سامي مكي العاني في « دراسات في الأدب الإسلامي » ص ١٣٠ - ١٣١ .

رثاء

جزء بن ضرار لعمربن الخطاب رضي الله عنه

وردت أبيات ستة على روي القاف المكسورة في رثاء عمر بن الخطاب رضي
الله عنه ذاتعة الصيت والشهرة ، وهي :

جزى الله خيراً من أميرٍ وباركت يد الله في ذاك الأديم الممزق
فمن يسع أو يركب جناحي نعامة ليدرك ما قدمت بالأمس يسبق
قضيت أموراً ثم غادرت بعدها بوائق في أكمائها لم تفتق

وقد اختلف العلماء حول قائلها ، مترددين ما بين الشماخ بن ضرار وأخويه
ومزرد وجزء ، وحسان والجن . كما أن منهم من قال إنها لامرأة ، دون أن يذكروا
اسمها .

فمن الذين رووها للشماخ من القدماء أبو تمام (١) ، والنمري (٢) ،
والمرزوقي (٣) ، والتبريزي (٤) .

(١) « الحماسة » ، تحقيق د. عسيلان ، ص ٥٤٠ - ٥٤١ .

(٢) الغندجاني « إصلاح ما غلط فيه أبو عبد الله النمري » (ط / د . سلطاني) ص ١١١ .

(٣) « شرح ديوان الحماسة » (ط / أمين وهارون) ١٠٩٠ / ٣ - ١٠٩٣ .

(٤) « شرح ديوان الحماسة » تحقيق محمد محي الدين عبدالحميد ، المكتبة التجارية الكبرى ،

القاهرة ، ١٣٥٨ هـ - ١٩٣٩ م ، ١٠٧ / ٣ - ١٠٩ . وممن أوردها له من الباحثين المعاصرين

بلاشير « تاريخ الأدب العربي » ص ٥٠٣ ، وبشرى الخطيب « الرثاء في الشعر الجاهلي

وصدر الإسلام » ص ٢٩٠ - ٢٩١ ، ود. سامي العاني « دراسات في الأدب الإسلامي »

أما ملزرد فقد عزاها له - كلها أو بعضها / أبو رياش (١) ، والجاحظ (٢) .
ونسبها لجزء ابن سلام (٣) ، وابن دريد (٤) ، وأبو الفرج الأصفهاني (٥) ،
والغندجاني (٦) ، وابن حجر (٧) .

وجعلها ابن عبدربه لحسان (٨) ، أما الجاحظ والزمخشري فذكرا رواية
تنسبها للجن (٩) .

وورد بيت منها ، هو البيت الرابع ، ونصه :

أبعد قتيل بالمدينة أظلمت له الأرض تهتز العضاة بأسوق ؟
منسوبا من قبل الخوارزمي لامرأة لم يسمها (١٠) .

-
- (١) التبريزي « شرح ديوان الحماسة » ٦٥/٣ - ٦٦ .
(٢) « البيان والتبيين » ، ٣٦٤/٣ .
(٣) « طبقات فحول الشعراء » ، ١٣٣/١ .
(٤) « الاشتقاق » تحقيق عبدالسلام هارون ، مطبعة السنة المحمدية ، القاهرة ، ١٩٥٨ م ، ص
٢٨٦ .
(٥) « الأغاني » ٩٨/٨ .
(٦) « إصلاح ما غلط فيه أبو عبدالله » (ط د . محمد سلطاني) ص ١١١ - ١١٢ .
(٧) « الإصابة في تمييز الصحابة » ، تحقيق علي البجاوي ، دار نهضة مصر ،
القاهرة ، (د . ت) ، ٥٣٥/١ .
(٨) « العقد الفريد » ، ٢٨٤/٣ .
(٩) « الحيوان » تحقيق عبدالسلام هارون ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي ، القاهرة ، ط ٢ ،
ن/٢١-٢٢ ، « الفائق في غريب الحديث » تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم وعلى محمد
البجاوي ، عيسى البابي الحلبي وشركاه ، ط ٢ ، (د . ت) ، ١٣٤/١ .
(١٠) « شروح سقط الزند » لجنة إحياء آثار أبي العلاء المعري ، دار الكتب المصرية ، القاهرة ،
١٩٤٥-١٩٤٨ م ، ٦٦٨/٢ .

فأما أن الجن قد قالتها فهي نسبة لا قيمة لها ، وبخاصة أنه جاء في إحدى الروايات التي تنسبها لهم أنهم قالوها قبل موته بأيام ، لأنه لا يعلم الغيب إلا الله سبحانه (١).

كما أن الأبيات غير موجودة في ديوان الشماخ . إنما وضعها محقق ديوانه د. صلاح الدين الهادي في ملحقاته ، وهو نفسه يرفض القول بأنها للشماخ (٢) ، وقد حاولت أن أجد بينها وبين شعر الشماخ أي شبه أسلوبية فلم أجد ، فعلى حين أننا نجد أسلوب الشماخ بدوياً جافياً وعرأ في معظمه ، وهو ما لاحظته ناقد مبكر كابن سلام (٣) ، فإن أسلوب الأبيات سهل بسيط . كذلك فإن معظم شعر الشماخ في وصف حيوان الصحراء ، ولا يوجد فيه من الرثاء إلا أربعة أبيات ليس فيها أي أثر

(١) ممأ يشار إليه في هذا السياق أن الدكتور طه حسين قد أخذ تلك الرواية التي تنسب هذه الأبيات للجن وأعطاهما أكثر من حجمها ، مدعياً أن القائلين بها قد تحدثوا في شيء من السخرية والإنكار بأن الناس قد أضافوا هذا الشعر إلى الشماخ ابن ضرار . انظر « في الأدب الجاهلي » ، ص ١٣٧ . وقد ردّ عليه الشيخ محمد الخضر رداً علمياً ، وبين مخالفته لواقع الأمر وأن إضافة الأبيات للجن إنما جاءت في « طبقات ابن سعد » (الاجباري المؤرخ) ، الذي ليس من المقتنعين بأن الشعر للجن ولم يتحدث في شيء من الإنكار والسخرية بأن الناس قد أضافوا هذا الشعر للشماخ ، انظر: محمد الخضري بك « محاضرات في بيان الأخطاء العلمية والتاريخية التي اشتمل عليها كتاب في الشعر الجاهلي » ، ص ٣٦ .

(٢) « ديوان الشماخ بن ضرار الذبياني » ، حققه وشرحه د. صلاح الدين الهادي ، دار المعارف ، القاهرة ، ص ٤٥١ (بالهامش) ، وانظر د. صلاح الدين الهادي « الشماخ بن ضرار الذبياني - حياته وشعره » ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٦٨ م ، ص ١٥٢ ، ٢٦١ .

(٣) انظر « طبقات فحول الشعراء » ، ١/١٣٢ .

إسلامي كما لاحظ ذلك د. صلاح الدين الهادي (١) . بل إنه لا يوجد في شعره كله أي معنى إسلامي . فكيف يمكن أن نتصور صدور هذا الرثاء المنكسر ذي المعاني الإسلامية القوية منه ؟ ليس ذلك فقط ، بل إنه لم يرد في شعره أي ذكر أو حتى إشارة إلى أية شخصية إسلامية مشهورة عدا مرة واحدة عارضة لعثمان رضي الله عنه (٢) .

كما أنه يكثر عند الشماخ التشبيه بـ « كما » (٣) ، و « كأن » (٤) ، واستعمال واو « رب » (٥) ، وورد في شعره « فلماً / ولأ » (٦) و « إذا ما » (٧) و « ألا الاستفتاحية » على حين أننا لا نجد شيئاً من ذلك في الأبيات التي هي محل دراستنا .

(١) « ديوان الشماخ » ، ص ٤٥٦ (الأبيات / ٥ - ٨) ، وانظر كتابه : « الشماخ بن ضرار

الذبياني - حياته وشعره » ، ص ٢٦٢ - ٢٦٣ .

(٢) السابق ، ص ١٢٢ .

(٣) ديوانه ، ص ١١٩ ، ١٢٩ ، ١٦١ ، ١٨٠ ، ١٨٢ ، ١٨٦ ، ١٩٤ ، ٢٧٧ ، ٢٨٨ ، ٤٣٦ ، ٤٥٤ ، ٤٥٦ .

(٤) السابق ، ص ٦٨ ، ٨٦ ، ٩٢ ، ٩٣ ، ١١٢ ، ١٣٠ ، ١٣٤ ، ١٣٦ ، ١٣٧ ، ١٣٨ ، ١٤٤ ، ١٥١ ، ١٥٢ ، ٢٢٤ ، ٢٢٥ (مرتين) ، ٢٣٠ ، ٢٢٨ ، ٣٩٩ ، ٤٠٠ ، ٤٠٥ ، وهي كثيرة .

(٥) السابق ، ص ٦٧ ، ٨٠ ، ٨٢ ، ٨٣ ، ٨٤ ، ١٧٤ (مرتين) ، ٢١٢ ، ٢١٤ ، ٢٢٥ ، ٢٤٣ ، ٢٩٤ ، ٣١١ ، ٣١٣ ، ٣٢٠ ، ٤٤٦ .

(٦) السابق ، ص ١٣٢ ، ١٤٥ ، ١٥٧ ، ١٦٧ ، ١٧٨ ، ١٧٩ ، ١٨٥ ، ١٩٠ ، ١٩٧ ، ٢٤٢ ، ٢٢٥ ، ٣٠٢ ، ٤٤٥ .

(٧) السابق ، ص ١٥٢ ، ١٩٢ ، ٢١٤ ، ٢٢٣ ، ٢٢٦ ، ٢٢٩ ، ٢٤٧ ، ٢٤٩ ، ٣١٤ ، ٣٣٤ ، ٣٣٦ ، ٤٤٤ ، ٤٦٣ .

أي أنه لا يوجد شيء في شعر الشماخ يشبه ما في هذه الأبيات ، ولا في الأبيات أياً من سمات أسلوبه . فضلاً عن أن العلماء القدماء من نفي نسبتها له أيضاً (١) ، وعلى هذا فإنني لا أرى أنها له .

أما مَنْ نفي أن يكون مزرد هو صاحبها (٢) ، فأراني أتفق معه في ذلك ، فقد كان مزرد هجاءً شريراً لم يعف حتى قومه ولا ضيوفه من ذلك (٣) ، فكيف يسهل علينا أن نتصور صدور هذا الرثاء الحزين المنكسر الجياش منه ؟ يضاف إلى ذلك أن ديوانه (٤) يخلو من الرثاء . ثم إن المعاني الإسلامية عنده ضعيفة خافته . كما أن في شعره بعض الملامح الأسلوبية التي لا وجود لصداها في الأبيات التي نحن بصددنا ، مثل التشبيه بـ « كأن » الكثير نسبياً عنده ، وهذه التراكيب التالية : « ما فعل ... حتى ... » (٥) ، و « متى يكن ... يكن ... » (٦) ، و « إذا ما ... » (٧) .

وأما نسبتها لجزء فليس بين أيدينا شعر له عدا شطرة واحدة من الرجز (٨) ،

(١) انظر : ديوانه ، ص ٤٤٨ - ٤٥١ (الهامش) .

(٢) « ديوان الشماخ » ، ص ٤٤٨ (الهامش) .

(٣) انظر : صلاح الدين الهادي « الشماخ بن ضرار الذبياني - حياته وشعره » ، ص ١٢٤ - ١٢٥ .

(٤) « ديوان مزرد بن ضرار الغطفاني » ، تحقيق خليل إبراهيم العطية ، مطبعة أسعد ، بغداد ، ٢٥ ، ٢٦ ، ٥٥ .

(٥) السابق ، ٢٣ ، ٢٨ ، ٣٦ ، ٤٥ .

(٦) السابق : ٢٣ ، ٢٨ ، ٣٦ ، ٤٥ .

(٧) السابق : ٤١ (مرتين) ، ٤٦ ، ٥٨ .

(٨) انظر : « البيان والتبيين » ، ٣٤/٤ .

بل لا نعرف عنه شيئاً ذا بال (١) . ومع ذلك فهناك من نسبوا إليه الأبيات منذ وقت مبكر كابن سلام ، كما أشرنا سابقاً . ومما يزيدنا اطمئناناً أن جزءاً هو الوحيد - فيما يذكر الدكتور صلاح الدين الهادي - الذي لم ينف نسبتها إليه أحد (٢) ، كما أن رأي ابن سلام وغيره ممن نسبوها لجزء لا يمكننا تجاهله بسهولة . ولعل ابن سلام كان مصيباً فيما ذهب إليه خاصة وأن د . صلاح الدين الهادي يميل إلى نسبتها لجزء (٣) إضافة إلى ذلك أن نتائج تحليلاتي الاسلوبية السابقة اتفقت مع الرأي القائل بنفي نسبة الأبيات عن الشماخ أو مزرد .

على أنني أرجح أن تكون هذه الأبيات لجزء ، أما من يرى نسبتها لحسان بن ثابت فيكفي في الرد عليه ، أنها لم ترد في أي من مخطوطات ديوانه ولم يعزها له غير ابن عبد ربّه .

وأما المرأة التي قيل إنها رثت عمر ببيت من هذه الأبيات فهي مجهولة لا نعرف عنها شيئاً . كما أنه لم يرد لها إلا بيت واحد . ومن هنا يصعب علينا محاولة توثيق النص إثباتاً لها أو نفيه عنها ، صحيح أن في الأبيات انكساراً وسهولةً . لكن هل هذا وحده يكفي للقول بأنها لأمرأة ؟

أخلص من هذه الدراسة والتحليل لتلك القصيدة إلى القول بأنني أرجح أن تكون هذه الأبيات لجزء .

(١) انظر : المعلومات الضئيلة التي أوردها عنه ابن حجر في « الإصابة » ٥٣٥/١ . نقلاً عن المزرباني « معجم الشعراء » تحقيق عبدالستار أحمد فراج ، دار إحياء الكتب العربية ، عيسى الطلي ، القاهرة ، ١٣٧٩هـ - ١٩٦٠م .

(٢) « ديوان الشماخ » ٤٤٨ (الهامش).

(٣) السابق ، ص ٤٥١ (الهامش) .

رثاء حسان لعثمان رضي الله عنه

في ديوان حسان بن ثابت رضي الله عنه قصيدة قصيرة من عشرة أبيات
نونية في رثاء عثمان ، نصها :

من سره الموت صرفا لا مزاج له
مستحقي حلق الماذى قد سفعت
بل ليت شعري وليت الطير تخبرني
ضحوا بأشمط عنوان السجود به
لتسمعن بكاء في دياركم
وقد رضيت بأهل الشام زافرة
إني لمنهم وإن غابوا وإن شهدوا
ويها ، فدى لكم أمى وما ولدت
شدوا السيوف بثني في مناطقكم
لعلكم أن تروا يوما بمغبطة
فليات مأسدة في دار عثمانا
فوق المخاطم بيض زان أبدانا
ماكان شأن علي وابن عفانا
يقطع الليل تسبيحا وقرآنا
الله أكبر ياآثار عثمانا
وبالأمير وبالإخوان إخوانا
حتى المات سميت حسانا
قد ينفع الصبر في المكروه أحيانا
حتى يحين بها في الموت من حانا
خليفة الله فيكم كالذى كانا (١)

وليس غريباً أن يرثي حسان عثمان بن عفان رضي الله عنهما هذا الرثاء وقد
قُتل تلك القتلة الشنيعة التي نعرفها ، ولم يرحم المتمردون شيخوخته وضعفه ومسالمته
وانكبابه على المصحف ، ساعة هجومهم عليه بالسيوف وبخاصة أن النبي ﷺ كان
قد آخى بينهما عقب الهجرة . من هنا لا نجد من شك في نسبة هذا الرثاء إلى عثمان

. إنّما الكلام في بعض أبيات القصيدة فقط : فابن الأثير يقول إن أهل الشام قد زادوا فيها بيتاً وإنه لم يرد لذكره وجهاً ، وهو البيت الثالث الذي يُلْمَزُ فيه عليّ (١) ، وكان الشاعر يتهمه بالتواطؤ على عثمان .. أو على الأقل الرضا بما حدث له . أما ابن عبد البر فإنه لا يقتصر على بيت واحد بل يرى أن أهل الشام قد زادوا في المرثية أبياتا لم ير لذكرها وجهاً (٢) ، وإن كان لم يحدد تلك الأبيات .

وإذا كان ابن عبد البر لم يذكر الأبيات ، فإن الدكتور سيد حنفي حسنين حددها بقوله : « وقد حاول الأولون أن يستغلوا هذا الشعر في صفتهم فأضافوا إليه على لسان حسّان أبياتا تشير إلى مكانتهم وتحمل عليّ ابن ابن طالب مسؤولية قتل عثمان . وهذه الأبيات هي :

وقد رضيت بأهل الشام زافرة وبالأميـر وبالإخوان إخوانا
إني لمنهم وإن غابوا وإن شهدوا حتى الممات وما سميتُ حسانا
ويهاً فدى لكم أمى وما ولدت قد ينفع الصبر في المكروه أحيانا « (٣)
والملاحظ أن الدكتور حسنين لم يُشِرْ أبداً إلى البيت الذي يلْمَزُ علياً .

(١) انظر : « ابن الأثير » الكامل ، ٧٧/٣ ، وانظر كذلك « ديوان حسان » (ط د . عرفات) ، ٩٢/٢ .
(٢) « الاستيعاب » ، ق ٢٩٢/٢ . وانظر كذلك « ديوان حسان » ، (ط د حسنين) ، ص ٢١٥ ، وأيضاً « ديوان حسان » ، (ط د . عرفات) ، ٩٢/٢ ، ود . سامي مكى العاني ، دراسات في الأدب الإسلامي ، ص ٢٧٤ . حيث يقول إن شعر حسان قد استغل سياسياً إلى درجة كبيرة ، وإن الأمويين استغلوا مرثيته في عثمان وزادوا فيها أشعاراً مملوءة غيظاً على قتلة عثمان ، وإن ابن عبد البر قد نبه إلى ذلك .

(٣) ديوانه ، (ط د . عرفات) ، ٩٦/١ .

والآن ما القول في هذه الدعوى ؟

لقد قلتُ ليس من المستبعد أن يرثي حسان عثماناً رضي الله عنهما ، ويتألم له ألماً شديداً ، ولكن هل يمكن أن يتهم علياً ؟

لقد روى أبو الفرج الأصفهاني لقاءً - لا ندري مبلغ صحة روايته - بين علي رضي الله عنه من جهة ، وحسان والنعمان بن بشير وكعب بن مالك من جهة أخرى ، سألوه فيه عن عثمان رضي الله عنه : هل قُتل ظالماً أم مظلوماً ؟ فرد عليهم بأن عثمان قد استأثر فأساء الأثرة ... ، وأنهم لم يرضوا بما قال فأمرهم أن يخرجوا عنه فلا يجاوروه في المدينة ، فتركوها من يومهم قاصدين معاوية ، الذي كافأ كلًّا منهم مكافأة ضخمة . كما وصفهم أبو الفرج بأنهم كانوا عثمانية (١) .

ويذكر الطبري أن حساناً وكعباً والنعمان بن بشير ونفراً آخرين معهم امتنعوا عن بيعة علي لأنهم كانوا عثمانية (٢) .

ونحن لانصدق ما رواه أبو الفرج لما عرف عنه من التشبيح المقيت إضافة إلى أن الروایتين للخبر فيهما بعض الاختلاف إذ يذكر أبو الفرج أن كعباً حين كلم علياً ناداه بإمارة المؤمنين على حين أن الطبري يذكر أنهم امتنعوا عن بيعته ، ناهيك أن في رواية الطبري لهذا الخبر رجلاً مجهولاً (شيخ من بني هاشم) (٣) ولا يمكن أن نصدق أن حساناً كان يشير إلى علي رضي الله عنه بأصابع الاتهام ولا يمكن أن نسلم بحال أن لعلي دوراً في قتل عثمان أياً كان هذا الدور ؟ إن هناك رواية أخرى

(١) « الأغاني »

(٢) انظر : « تاريخ الطبري » ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار المعارف ، مصر ،

١٩٦٣م ، ٤/٤٢٩ - ٤٣٠ .

(٣) السابق ، ٤/٤٢٩ .

تذكر أن علياً وحساناً وكعباً كانوا ضمن من ذهبوا إلى الثوار من المصريين قبل أن يدخلوا المدينة ليقصوهم ، وأن علياً قد نجح في ذلك (١) . فكيف يصح أن يتهمه حسناً بمواطاة الثوار على ما صنعوه بعثمان رضي الله عنه ؟ ولو أن حسناً اتهم علياً في هذه الأبيات فكيف لم تحمل لنا الروايات أن أحداً من أنصار عليٍ قد ردَّ عليه وفند اتهامه له رضي الله عنه ؟

ثم إن البيت الذي يشكك في عليٍ لا يتلاءم مع أبيات القصيدة أينما وضعناه فيها، إذ هو يبدأ بـ « بل » ، وهي للإضراب ، وليس في الأبيات ما يمكن أن يُضرب عنه حسناً ، وبخاصة أنه يعود بعد ذلك ليستأنف ما كان يتحدثُ فيه من قبل ، بما يعني أنه أُضرب عن الكلام في موضوع ثم عاد إليه بعد بيت واحدٍ وكأنه لم يضرب عنه .

كذلك فإن الأبيات كلها تستخدم ضمير جمع الغائبين ، وهذا البيت يبدو نشازاً بينها بحديثه عن غائب مفرد لا علاقة له بالضمائر السابقة عليه أو اللاحقة به .

كما إن في هذا البيت تمنياً من الشاعر أن تنبئه الطير بما كان من شأن علي مع عثمان . فهل يمكن أن يصدر هذا المعنى عن حسان ؟ صحيح أن هناك إشارة في إحدى قصائده إلى أن أهل الحبيبية لما قوضوا خيامهم بغية الرحيل نعب الغراب ومرت الطير (بارحة) (٢) . لكن ذلك جاء في قصيدة جاهلية ، أما رثاء عثمان فهو من شعره الإسلامي بطبيعة الحال ، وليس من السهولة علياً أن أتصور ارتداد حسناً بعد كل تلك المنافحة العظيمة التي نافحها عن الإسلام ، إلى تلك الاعتقادات

(١) انظر « تاريخ الطبري » ، ٣٥٩/٤ .

(٢) « ديوان حسان » ، (ط البرقوقي) ، ص ٧٥ .

الخرافية الجاهلية ! وأيا كان الأمر فإنه لم يسند إلى الطير هنا إلا النعيب والمرور
(على يسار الشخص) وهذا هو نص كلامه:

وفي الطير بالعلياء إذ عَرَضْتُ لَنَا وما الطير إلا أن تمرّ وتنعبا
ومما يلفت النظر أن حسناً قد رثى عثمان بأشعار أخرى لم يرد في أي منها
شيء فيه مساس بعلي رضي الله عنه .

ثم إنه - كما تقول الرواية التي أوردناها عن أبي الفرج أنفا - قد لحق
بمعاوية في الشام ، فهل كان يسكت عن عليّ فلا يعاود اتهامه ثانية هناك ؟

وقد حاولت أن أعثر عند حسّان على عبارة « ما (كان) شأن فلان ... ؟ »
فلم أجده استخدم كلمة « شأن » في تركيب كهذا وإنما وجدته استخدم « ما بال »
عدة مرات (١).

أما عبارة « ليت شعري » فهي رغم كونها عبارة عامة عند الشعراء لم أجدها
عنده إلا في موضعين اثنين (٢) . ما يمكن أن يُضرب عنه حسّان ، وبخاصة أنه يعود
بعد ذلك ليستأنف ماكان .

من أجل هذا فإنني لا أطمئن إلى القول بأن حسناً هو قائل هذا البيت .

وقد وجدت وليد الأعظمي عند استشهاده بتلك الأبيات حذف منها البيت الذي
يتهم علياً (٣) وربما استند إلى ما جاء في البرقوقي من أن البيت مدسوس على
حسان كما قدمنا .

(١) « ديوانه » ، (ط البرقوقي) ، ص ٢٨٦ ، ٢٨١ ، ٣٣٩ ، ٣٤٦ ، ٢٤٢ .

(٢) السابق ، ص ٩٧ ، ٢٤٣ .

(٣) انظر : كتابه « شاعر الإسلام حسان بن ثابت الأنصاري » ص ٢٠٦ .

أما الأبيات التي يذكر فيها أهل الشام فإننا نلاحظ كلمة « الأمير » مقصوداً بها معاوية ، ولم يكن معاوية في ذلك الحين قد أفصح عن رغبته في إمارة المسلمين ، ولم تكن هذه المسألة مطروحة علي بساط المناقشة بين معسكره ومعسكر علي ، فكيف نكرها حسناً في هذا الوقت المبكر ؟

وإنني لأتساءل أيضاً هل يُعقل أن يستخدم حسناً عبارة « خليفة الله » أيا كان المقصود بها عنده ؟ خاصة وقد نهى أبو بكر رضي الله عنه قوماً عن استخدام خليفة الله عندما بايعوه ، وقال لا تقولوا خليفة الله ولكن خليفة رسول الله ... الخ .

لقد عُرف أبو بكر وعمر وعثمان وعلي بأنهم خلفاء رسول الله لا « خلفاء الله » فمن أين لحسان هذا المصطلح ؟ أغلب الظن أن هذا كلام من لا يعبهون بحق أو باطل . ولا أحسب حسناً كان من هؤلاء مهما قيل عن تفضيله أهل الشام على المدينة .

من هنا فإنني لا أجد في نفسي ميلاً إلى نسبة هذه الأبيات لحسان رضي الله عنه (١) .

(١) ومع ذلك فلا بد من الإشارة إلى أن كلمة « زافرة » (بمعنى : الجماعة الناصرة) ، التي وردت في

هذه الأبيات قد وردت عند حسان مجموعة ، وذلك في قوله :

وحى حلال لا يكمش سربهم لهم من وراء القاصيات زوافراً

(ديوانه ، طبعة البرقوقى ، ص ٢٧٢) ، لكن السؤال هو : هل يكفي ورود هذه الكلمة مرة واحدة

في شعر آخر لحسان لنقض الاعتراضات التي سبقتها ، وبالذات عندما نعرف أن نسبة الشعر

الذي ورد فيه هذه الكلمة تتردد بين حسان وسعد بن الحصين أحد بني الحارث من بني الخزرج

(انظر ديوانه ، (ط . د . حسنين) ، ص ٣٠٣ ، وكذلك (ط . د . عرفات) ، ١ / ١٩٤ ، ١٩٥ .

رثاء حسان أو كعب العثمان

في ديوان حسان أبيات خمسة على النون المكسورة في رثاء عثمان ونصها:

يا للرجال لدمع هاج بالسِّنِّ لقد عَجِبْتُ لِمَن يَبْكِي عَلَى الدَّمَنِ
إني رأيتُ أمينَ الله مضطهداً عثمان رهناً لدى الأجداث والكفنِ
ياقاتل الله قوما كان شأنهمُ قتلَ الإمامِ الأمينِ المسلمِ الفطنِ
ماقاتلوه على ذنبِ ألمِ به إلا الذي نطقوا بوقاً ولم يكنِ
إذا تذكَّرتُه فاضت بأربعةٍ عيني بدمعٍ على الخدينِ مُحْتَنِنِ (١)

وقد وردت الأربعة الأبيات الأولى مع شيء من الاختلاف في كل واحد منها ضمن أبيات ثمانية منسوبة لكعب بن مالك في رثاء عثمان أيضاً . وهذه هي الأبيات الثمانية :

يا للرجال لأمرٍ هاج لي حَزْناً لقد عَجِبْتُ لِمَن يَبْكِي عَلَى الدَّمَنِ
إني رأيت قتيلَ الدار مضطهداً عثمان يُهدَى إلى الأجداث في كَفَنِ
ياقاتل الله قوما كان أمرهمُ قتلَ الإمامِ الزكيِّ الطيبِ الرُدنِ
ماقاتلوه على ذنبِ ألمِ به إلا الذي نطقوا زوراً ولم يكنِ
قد قتلوه وأصحابِ النبي معاً لولا الذي فعلوا لم نُبَلِّ بالفتنِ
قد قتلوه نقياً غير ذى أُبنِ صلى الإله على وجهٍ له حسن

(١) ديوانه ، (ط . البرقوقي) ، ص ٤٧٠ .

قد جمعَ الحلم والتقوى لعصمه مع الخلافة أمرا كان لم يشن
 هذا به كان رأى في قرابته لـ — لم يحظَ شيئا من الدنيا ولم يخُن (١)
 فكيف نفسر هذا التشابه ؟

لقد ورد هذا الشعر منسوباً لحسان في ديوانه الذي صنعه ابن حبيب
 (٢٤٥هـ)، وكان حافظاً صدوقاً أكثر الأخذ عنه أبو سعيد السكري (٢). أما الأبيات
 الثمانية المنسوبة لكعب فقد جاءت الأربعة الأولى منها عند ابن عبد البر (٤٦٣هـ) كما
 أشار إلى ذلك محقق الديوان (٣)، وجاءت الثلاثة الباقية عند الماقي (٤٧١هـ) (٤). وبما
 أن محمد ابن حبيب متقدم زمنياً، إضافة إلى ما تميز به من حفظ وصدق فإن روايته
 تلك قد تعزز نسبة الأبيات لحسان رضي الله عنه ولكني لم أقف عند ذلك بل حاولت
 أن أستعين بالتحليل الأسلوبي لهذه الأبيات (*) فوجدت أن تركيب الاستغائة « يال ... »
 الوارد في البيت الأول من الأبيات قد جاء في شعر كعب مرة واحدة (٥) وفي شعر
 حسان خمساً (٦).

(١) « ديوان كعب بن مالك الأنصاري »، تحقيق سامي مكي العاني، مكتبة النهضة، بغداد،

ط ١، ١٣٨٦هـ / ١٩٦٦م، ص ٢٨٢ - ٢٨٣.

(٢) ابن خلكان « وفيات الأعيان »، ص

(٣) انظر « ديوان كعب بن مالك »، ص ٢٨٢ (الهامش) وقد رجعت إلى « الاستيعاب » (ط)

البيجاوي) فلم أجدها فيه ولعلها في طبعة أخرى.

(٤) « التمهيد والبيان في مقتل الشهيد عثمان »، ص ٢٠٥.

(*) الإحصاءات التي أوردتها هنا أو في أي موضع آخر من الرسالة هي إحصاءات تقريبية.

(٥) ديوانه، ص ٢٨٢.

(٦) ديوانه، (ط. البرقوقي)، ص ١٤٣، ٢٦١، ٣٠٩، ٣٥٣، ٤٣٢.

أمّا قوله (لدمع هاج) أو المعنى (هيّج شيء ما أحزان الشاعر) الذي ورد في البيت الأول أيضا ، فلم أجد له ذكراً في شعر كعب ، ولاحظت تكرره عند حسان ثلاث مرات (١).

ومعنى العجب الذي ورد في الشطرة الثانية من البيت الأول أيضاً في قول الشاعر « لقد عجبت ... » ورد عند كعب مرتين (٢) ، وفي ديوان حسان ثلاثاً (٣) .
 ودخول « يا » الندائية على الجملة الموجود في البيت الثاني من الشعر الذي نحن بصددده لاحظته في ديوان كعب مرتين ، وكلتاهما في قوله : « يالهدف نفسي » (٤) ،
 وفي شعر حسان سبع مرات (٥) .

وبينما وردت عبارة « صلى الله على ... » عند كعب مرة (٦) فقد وردت عند حسان مرتين (٧) .

وقد يتعجل بعض فيقول إن تفوق ورود هذه العناصر الأسلوبية في شعر حسان عنه في شعر كعب يرجع على الأقل نسبتها للأول إلا أنه ينبغي التنبيه هنا إلى أن شعر حسان الموجود بين أيدينا أضعاف شعر كعب . ومع هذا ، فإن هيجان عواطف الشاعر والدعاء على الخصوم هما معنيان لم ألاحظهما في شعر كعب . فهل

(١) ديوانه (ط البرقوقي) ، ص ١١٠ ، ٣٦٩ ، ٤٣٦ .

(٢) ديوانه ، ص ٢٠٠ ، ٢١٠ .

(٣) ديوانه ، (ط . البرقوقي) ، ص ١١٧ ، ١٢٢ ، ٢٥٨ .

(٤) ديوانه ، ص ٢٣٨ ، ٢٨٤ .

(٥) ديوانه ، (ط البرقوقي) ، ص ٩٧ ، ١٥٣ (مرتين) ، ١٥٤ ، ٢٤٠ ، ٤١٣ ، ٤١٩ .

(٦) ديوانه ، ص

(٧) ديوانه (ط البرقوقي) ، ص

ص ٢٠٠ ، ٢١٠
 ص ١١٧ ، ١٢٢ ، ٢٥٨
 ص ٢٣٨ ، ٢٨٤
 ص ٩٧ ، ١٥٣ (مرتين) ، ١٥٤ ، ٢٤٠ ، ٤١٣ ، ٤١٩

هما كافيان لحسم نسبة الأبيات لحسان أو حتى ترجيحها له على الأقل ؟ ربما كان من الممكن المجادلة في ذلك . فإذا أُضيف إليهما عامل الزمن المتمثل في تقدم ابن حبيب راوي ديوان حسان على ابن عبدالبر وابن علي المالقي اللذين وصلتنا الأبيات منسوبةً لكعب عن طريقهما ، فقد يصح القول بترجيح نسبتها إلى حسان . وربما نظم كعب أبياتاً في رثاء عثمان من البحر نفسه وعلى الروى ذاته ، وكانت أبيات حسان عالقة في ذهنه فجاءت مرثيته مشبهةً لمرثية حسان في صورها ومعانيها وعباراتها ، أو ربما كان الشبه بين المرثيتين منحصراً في البحر والقافية ثم شاعت معظم أبيات كعب ، وتداخلت بفعل الراوة مع مرثية حسان ، فحصل فيهما شيء من التحوير أو العبث بقصد أو دون قصد ، وهذا هو ما انتهيت إليه بشأن نسبة هذه القصيدة المشككة .

رثاء أبي الأسود الدؤلي لعلي

جاء في ديوان أبي الأسود الدؤلي هذه الأبيات الستة يرثي بها علي بن أبي

طالب رضي الله عنه وموجهاً الكلام فيها إلى معاوية بن أبي سفيان :

ألا أبلغ معاوية بن حرب فلا قرّت عيون الشامتينا
أفي شهر الصيام فجعثمونا بخير الناس طراً أجمعينا
قتلتم خير من ركب المطايا وخيسها ومن ركب السفينا
ومن لبس النعال ومن حذاها ومن قرأ المثاني والمئينا
إذا استقبلت وجه أبي حسين رأيت البدر راق الناظرينا
لقد علمت قريشٌ حيث كانت بأنك خيرهم حسباً وديننا (١)

وقد ورد هذا الشعر أيضاً ، في الديوان الذي صنعه السكري ، في الديوان

الذي جمعه ابن جني ، منسوباً لأبي الأسود (٢) ، وفي مصادر متعددة أخرى (٣) .

(١) ديوان أبي الأسود الدؤلي « صنعة أبي سعيد الحسن السكري ، تحقيق محمد حسن آل

ياسين ، دار الكتاب الجديد ، بيروت ، ط ١ ، ١٩٨٤م ، ص ١١٧-١١٨ .

(٢) السابق ، ص ١١٨ (هامش ٢) .

(٣) انظر : ابن جرير الطبري « تاريخ الرسل والملوك » ، ١٥٠/٥ ، أبو الفرج « الأغاني »

٣٢٩/١٢ ، القفطي « إنباه الرواة في أنباء النحاة » تحقيق أبو الفضل إبراهيم ، دار الكتب

المصرية ، القاهرة ، ط ١ ، ١٣٦٩هـ - ١٩٥٠م ، ١٩/١ .

لكن محقق الديوان ، الأستاذ محمد حسن آل ياسين ذكر في تخريج الأبيات
- بعد أن أورد المظان التي وجدها فيها - أنها تنسب في بعض المصادر لأم الهيثم
بنت العريان (١) .

إذن ففي نسبة هذا الشعر شيء من الخلاف ، وعلينا محاولة الوصول إلى
رأي حول تصحيح هذه النسبة وأول شيء أحب أن أنبه إليه هو أن الأستاذ المحقق لم
يذكر لنا تلك المصادر التي تنسب الأبيات إلى أم الهيثم بنت العريان النخعية . وينبغي
أن ننبه أيضا إلى أنه يقول إنها « نسبت في بعض المصادر » ، وهي عبارة تفيد
التقليل ، إلى جانب التجهيل ، وذلك في مقابل تلك المصادر التي تنسبها إلى أبي
الأسود والتي هي من أمهات كتب التراث في الأدب واللغة والتاريخ (٢) . أمّا ابن
عبدالبر فقد قال : « وأكثرهم يرويها لأم الهيثم بنت العريان النخعية » (٣) ولكنه لم يبين
لنا من هم هؤلاء ، ورأيه هذا يذكرنا ببعض آراء ابن هشام إذ يجعلنا في حيرة إزاء
هذه العبارة الغامضة .

كما أن لأم الهيثم بنت الأسود النخعية قصيدة على البحر نفسه والروى في
رثاء على بن أبي طالب ، تزيد على عشرين بيتا . وردت في « مقاتل الطالبين » (٤) ،
مطلعها :

(١) « ديوان أبي الأسود الدولي » ص ١١٨ (هامش ٢) .

(٢) يمكن الرجوع إلى أسماء المصادر جميعها التي ذكرتها لأبي الأسود في تخريجها في
الديوان ص ١١٨ (هامش ٢) ، ففيها إلى جانب مامر ، « مناقب آل أبي طالب » لابن
شهر آشوب ، المطبعة الحيدرية ، النجف ، ١٣٧٦هـ - ١٩٥٦م ، ٩٧/٣ ، « الاستيعاب » لابن
عبدالبر ، ١١٣٢/٣ .

(٣) « الاستيعاب » ، ١١٣٢/٣ .

(٤) أبو الفرج الأصفهاني « مقاتل الطالبين » ، تحقيق السيد أحمد صقر ، دار إحياء الكتب
العربية ، مطبعة عيسى الحلبي ، القاهرة ، ١٣٦٨هـ / ١٩٤٩م ، ص ٤٣ ، ٤٤ .

ألا ياعين ، ويحك فاسعدينا ألا تبكي أمير المؤمنين ؟
 وفيها ثلاث أبيات من هذه الأبيات الستة ، وهي :

رُزْنَا خَيْرَ مَنْ رَكِبَ الْمَطَايَا وَخَيَّسَهَا وَمَنْ رَكِبَ السَّفِينَا
 وَمَنْ لَبَسَ النِّعَالَ وَمَنْ حَذَاهَا وَمَنْ قَرَأَ الْمَثَانِي وَالْمُنِينَا
 أَفِي شَهْرِ الصِّيَامِ فَجَعْتُمُونَا بِخَيْرِ النَّاسِ طَرِ أَجْمَعِينَا ؟

بيد أن هذا المصدر هو من المصادر المتأخرة ، ولا ننسى أن الموجود في هذه القصيدة من الأبيات المنسوبة لأبي الأسود في الديوان إنما هو ثلاثة أبيات (١) . وأغلب الظن أنها تداخلت مع أبيات هذه القصيدة لاتفاقهما في البحر والروى ، وكونهما في رثاء على بن أبي طالب ، وتقارب نبرتيهما .

لقد كان أبو الأسود من خاصة علي رضي الله عنه ، وكان عند وفاته والياً له على البصرة (٢) ، وأكثر شعره شعر مناسبات ، فليس من المقبول في ضوء هذا ألا يرثى علياً..!

وكان السكري جامع الديوان ثقة دينا صادقاً ، وقد عمل شعر جماعة من الفصحاء (٣) ، ومثله لن تجوز عليه نسبة هذا الشعر لأبي الأسود إن لم يكن هو صاحبه

(١) ومع ذلك ففي « مناقب آل أبي طالب » نجد أبياتاً أخرى من هذه القصيدة مع تلك الأبيات الثلاثة منسوبة لأبي الأسود ٩٧/٣-٩٨ ، بيد أن شهر آشوب عالم متأخر إذ هو من أهل القرن السادس ولا يعتمد عليه كما يعتمد على السكري وغيره من المحققين الأثبات .

(٢) « ديوان أبي الأسود الدولي » ، ٧ - ٨ .

(٣) السابق : ١٨ - ١٩ .

فعالاً . ويعزز هذا الاستنتاج أن صنعة السكري في هذا الديوان تضم ما عمله ثعلب وأبو عمرو(١)، وهما من العلماء الموثوق بهم في هذا المجال . كما أن صنيعة في هذا الديوان متقدم، فهو أسبق في ذلك من ابن جني .

هذا من ناحية النقد الخارجي. أما النقد الداخلي فقد استطعت أن أرصد مايلي:

(أ) عبارة « ألا أبلغ ... » الواردة في أول الأبيات تكررت في شعر أبي الأسود كاملة أو بدون « ألا » تكرراً يلفت النظر (٢) .

(ب) وفي البيت الأول أيضاً يقابلنا قوله « معاوية بن حرب » . ويكثر عند أبي الأسود كثرة نسبية ذكر اسم الشخص مع اسم أبيه أو قبيلته (٣) .

(ج) كذلك نجد الشاعر ذكر اسم عليّ بكنيته « أبي الحسن » . وفي ديوان أبي الأسود نظائر غير قليلة لهذه الكنية (٤) .

فهذه ثلاث سمات مشتركة بين هذه الأبيات وشعر أبي الأسود ، وهي مما يعضد نسبتها إليه . ولكن قد يطرح سؤال هنا وهو : أين حدة لسان أبي الأسود التي نجدها في بعض أشعاره الأخرى ؟ ، وللإجابة عنه أقول إن أبا الأسود أحس أن الأمر قد خرج من الهاشميين إلى أعدائهم من البيت الأموي ، فاكتفى بهذا الرثاء الحزين . ومع ذلك فإن في الأبيات الثلاثة الأولى ما يفهم

(١) ديوان أبي الأسود ، ص ١٨ ، ٢٥ - ٢٦ .

(٢) السابق ، ص ٤٥ ، ٦٥ ، ٦٧ ، ٨١ ، ٨٣ (مرتين) ، ١٣٨ مثلاً .

(٣) السابق ، ص ٥٤ ، ٧٨ ، ٨٢ ، ٨٦ ، ١٠١ ، ١٢٥ ، ١٤٠ ، ١٥١ ، ١٥٥ (مرتين) ، ١٦٢ .

(٤) السابق ، ص ٤٨ (مرتين) ، ٦١ ، ٦٥ ، ٦٦ ، ٦٧ ، ٧٥ ، ٨٧ ، ٩٢ ، ١٠٩ .

منه توجيه الاتهام إلى معاوية بن أبي سفيان وأنصاره . وربما كانت مؤامرة الخوارج لم تتضح بعد حينذاك ، فظن بعض شيعة علي أن اغتياله رضي الله عنه هو من تدبير معاوية (١) . وعلى أية حال فحدة لسان أبي الأسود إن كانت مفقودة في هذه الأبيات فقد عوض عنها هذا التوجه القوي الجري إلى معاوية .

(١) ومع ذلك ، فقد أورد ابن عبد البر مطلع هذه الأبيات على النحو التالي:
ألا قل للخوارج أجمعينا فلا قرّت عيون الشامتينا
انظر : « الاستيعاب » ، ١١٣٢/٣ .

الفصل الثاني

« الدراسة الموضوعية »

- الرثاء والرؤية الإسلامية .
- النقائض وفن الرثاء .
- الرثاء ودعوى ضعف الشعر .

الرتاء والرؤية الإسلامية

كان عرب الجاهلية بوجه عام مشركين ، وكانوا لا يؤمنون إلا بالحياة الدنيا ولا يعتقدون في بعث ولا حساب ولا جنة أو نار . وكانوا يرون أن الموت نهاية كل حي ، وأن الذي يهلكهم هو الدهر ، ذلك الدهر الذي لا يعفى أحداً حتى الملوك والوعول الممتنعة في فلل الجبال والأسود والنسور والحيات ذات البأس وطول العمر (١) . قال تعالى حكاية عنهم : ﴿وقالوا : ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا ، وما يهلكنا إلا الدهر﴾ (٢) ، ﴿وقال الذين كفروا أنذا كنا تراباً وأبأؤنا أننا لمخرجون * لقد وعدنا هذا نحن وأبأؤنا من قبل . إن هذا إلا أساطير الأولين﴾ (٣) ، ﴿وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه ، قال : من يحيى العظام وهي رميم﴾ (٤) ، ﴿وقالوا إن هذا إلا سحر مبين * أنذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أننا لمبعوثون * أو أبأؤنا الأولون﴾ (٥) ، ﴿وقالوا يا ويلنا هذا يوم الدين * هذا يوم الفصل الذي كُنتم به تكذبون﴾ (٦) ، ﴿إن هؤلاء ليقولون * إن هي إلا موتتنا الأولى وما نحن بمنشرين * فأتوا ببائنا إن كنتم صادقين﴾ (٧) .

(١) انظر ابن رشيقي، العمدة، ١٥٠/٢ .

(٢) الجاثية : الآية (٢٤) .

(٣) النمل : الآيتان (٦٧-٦٨) .

(٤) يس : الآية (٧٨) .

(٥) الصافات : الآيات (١٥-١٧) .

(٦) الصافات : الآيتان (٢٠-٢١) .

(٧) الدخان : الآيات (٣٤-٣٦) .

ويقول د. مخيمر صالح إن قول الجاهليين بأن الدهر أو الأيام هي التي تهلك الإنسان هو تفسير جاهلي بسيط يتناسب مع معتقداتهم التي لم تكن تعرف الرقي ، إضافة إلى أنه مما يستغرب عدم إسنادهم الموت إلى الآلهة (١).

ويلحظ الباحث نفسه أن الشاعر الجاهلي لم يقف طويلاً ليتأمل في ظاهرة الموت، بل أسلم نفسه لها كحقيقة واقعة رغم مرارتها (٢).

وإذا كان هناك منهم من كان يعتقد في حياة بعد الموت فقد كانت فكرتهم عن هذه الحياة - في الغالب - غامضة وقائمة على الأوهام والخرافات، إذ كان منهم من يتصور أن الروح بعد الموت تلازم جسد صاحبها في قبره، ومنهم من اعتقد أنها تسبح في العالم المجهول، ومنهم من كان يظن أنها تحل في الشجر والحجر أو تستقر في الأماكن المهجورة والآبار القديمة (٣).

أما من مات منهم قتيلاً فقد كان اعتقادهم أن روحه تتحول إلى طائر يرفرف فوق قبره ويظل يصيح ويصرخ مطالباً بأخذ الثأر له ممن قتله، قائلاً: اسقوني،

(١) انظر كتابه: « رثاء الأبناء في الشعر العربي »، مكتبة المنار، الزرقاء، الطبعة الأولى ١٩٨٢م، ص ١٠٢ .

(٢) انظر: السابق ، ص ١٠١ ، وانظر أيضا: د. السيد عبدالقادر عويضة « أثر الإسلام في الشعر في عصر الرسول والخلفاء الراشدين »، مطبعة الأمانة ، القاهرة ١٤٠٨هـ - ١٩٨٧م، ص ٥٧ .

(٣) انظر: د. جواد علي « المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام »، ط ١ ، دار العلم للملايين، بيروت ، مكتبة النهضة ، بغداد ، ١٩٧٠ م ، ١٣٢/٦ - ١٣٦ فمابعدا ، محمود شكري الألويسي « بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب » تحقيق: محمد بهجت الأثري ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ٣/٣ ود. أنور أبوسويلم « دراسات في الشعر الجاهلي »، دار الجيل ، بيروت ، ودار عمار ، عمان ، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٧م، ص ٤١-٤٢ .

اسقوني، ولا يهدأ ويطمئن في قبره - كما يزعمون - إلا إذا أخذ له بالثأر من قاتله ويسمى هذا عندهم بالهامة أو الصدى (١).

ويربط بعض الباحثين بين هذه العقيدة وما يرد أحيانا في الرثاء الجاهلي من الدعاء للقبر بالسقيا، على اعتبار أن الماء قد يكون عوضا عن سقيا الدم الذي تطلبه الهامة وتصيح من أجله (٢). لكن فات هذا الباحث أن هذا الدعاء ليس مقصوراً على الموتى الذين سقطوا قتلى، بل هو للموتى أياً كانت ميّتهم، وعلى أية حال فليس في هذا التفسير غلوٌ ما قاله عن هذه الظاهرة في الرثاء الجاهلي من أنه لا يستبعد «أن يكون الدعاء بسقيا القبور بقايا تراث ديني قديم كان أصلاً طقساً سحريا يمارس على عظام الموتى التي استخدمها العرب في استدعاء المطر» (٣)، إذ الواقع أن مقولته هذه تفنقر إلى التوثيق والشواهد ولا تقوم إلا على ظنون وأوهام، وإلا فأين الدليل؟ .

(١) انظر: المسعودي «مروج الذهب» تحقيق محمد محي الدين عبدالحميد، القاهرة، ١٩٦٦م، ١٣٢/٢، ود. جواد علي «المفصل في تاريخ العرب»، ١٣٩/٦، ود. محمد مصطفى هدارة «الأدب العربي في العصر الجاهلي» دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، ١٩٨٥م، ص ٢٥، وبشرى محمد علي الخطيب «الرثاء في الشعر الجاهلي وصدر الإسلام»، ص ٣٩-٤٠، ود. أنور أبوسويلم «دراسات في الشعر الجاهلي»، ص ٤٢-٤٣، ٤٩، ود. صالح آدم بيلو «تيارات عقديّة وثقافية في الأدب الجاهلي»، مطابع الصفا، مكة، ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م، ص ٣٠.

(٢) د. أنور أبوسويلم «دراسات في الشعر الجاهلي»، ص ٤٨ - ٥١.

(٣) السابق، ص ٤٩.

ولعل الأقرب إلى المنطق أن نقول إن ذلك راجع إلى قسوة المناخ وسيادة الجفاف في بلاد العرب فكان الماء والدعاء للآخرين بالسقيا من أهم ما يمكن أن يهديه الشاعر الجاهلي إليهم ، ولأنه لم تكن هناك حكومة تنظم العلاقات بين القبائل والأفراد وتفرض عليهم النظم لم يكن أمام أهل القتيل إلا أن يثأروا له بأيديهم، وإلّا ضاعت كرامتهم وهيبتهم، واجترأت القبائل الأخرى عليهم في ذلك المجتمع الذي كان على كل إنسان فيه أن يدافع عن نفسه بالظفر والناب حتى لا يضيع تحت الأرجل، ومن هنا تخيل الجاهلي أن روح قتلاه تظل -كما سبق القول- ترفرف حول قبره تصيح طالبة الثأر.

أمّا محاولة د. أنور أبوسويلم الربط بين ظاهرة الثأر في المجتمع الجاهلي وأمر الإله فهي محاولة لا أساس لها على الإطلاق، إذ لا برهان على ما يقول ، وأما البيت الذي استند إليه وهو:

كيف العزاء ولا تزال خريدة تبكي ربيعة غادة عطبول ؟

لا يعد دليلاً، إذ الكلام فيه عن المذلة لا عن الثأر(١) ، ناهيك عن أنه بيت يتيم لم يستطع الباحث أن يورد غيره، أما الشاهدان الآخران اللذان أتى بهما فلا علاقة لهما بالموضوع(٢).

وقد كانت النساء في الجاهلية يخمشن وجوههن ويمزقن جيوبهن حزناً على موتاهن(٣)، إلى أن جاء الإسلام فحرم هذا كما هو معروف.

(١) دراسات في الشعر الجاهلي ، ص ٥٦ .

(٢) السابق ، ص ٥٥ - ٥٦ .

(٣) انظر : أمثلة من الشعر الجاهلي على هذا عند د. يحيى الجبوري « الشعر الجاهلي

-خصائصه وفنونه» ، ط ٣ ، ص ٣١١ فما بعدها ، ويشرى الخطيب « الرثاء في الشعر

الجاهلي وصدر الإسلام » ، ص ٥١ - ٥٢ .

وكان الشعراء ييكون موتاهم، ويعددون في كثير من الأحيان مناقبهم ويغالون فيها، وكانوا يركزون من بين هذه المناقب على البياض، الذي كان يعد عندهم علامة على النبل وأصالة المجد وعلى الكرم وبخاصة مع الأرامل واليتامى، وعلى الشجاعة في الحرب، والوقار ورجاحة العقل، وما إلى ذلك (١).

وهذه كما ترى صفات جسمية وخلقية، وإن كانت الصفات الخلقية والنفسية هي الغالبة، وقد تناول النقاد العرب القدامى الصفات التي ينبغي أن يذكرها المادح والرائي، فرأى قدامة بن جعفر أنه ينبغي على الشاعر ألا يذكر إلا الخصال التي ينفرد بها البشر، كالعقل والشجاعة والعدل والعفة، ويهمل ما هو مشترك بينهم وبين جنس الحيوان بوجه عام (٢). يقصد بذلك الصفات الجسمية والشكلية، أما ابن رشيق فإنه وإن قدم الخصال الخلقية والنفسية - وهي الخصال التي تميز البشر عن سائر جنس الحيوان - يفسح في المديح والرثاء بعض المكان للصفات الجسمية والعرضية، كالجمال والوجاهة وسعة الدنيا وكثرة العشيرة، ويعلن خلافه في هذه النقطة مع قدامة بن جعفر (٣). ويتفق رأي كل من الأمدي وابن سنان الخفاجي مع رأي ابن رشيق، فيقرران أن الصفات الجسمية الجميلة في الإنسان تبرز الخصال الخلقية التي يتمتع

(١) انظر بشرى الخطيب «الرثاء في الشعر الجاهلي وصدر الإسلام»، ص ٣١٣-٣١٤.

و.د. مصطفى الشورى «شعر الرثاء في العصر الجاهلي»، الدار الجامعية، بيروت،

١٩٨٣م، ص ١٥٧-١٩٣.

(٢) انظر: «نقد النثر»، مطبعة الجوائب، القسطنطينية، ١٣٠٢هـ، ص ٢٠.

(٣) انظر: «العمدة»، ١٠٨/٢.

بها، فالوجه الجميل - كما قال - يزيد في الهيبة، والنفوس قد جبلت على الميل إلى الوجوه الحسان (١).

ويجري في هذا الاتجاه أيضاً ابن طباطبا العلوي، الذي ذكر من الصفات الشكلية المتعاورة في المديح صفات الخلق والجمال والبسطة (٢).

وفي رأينا أن العبرة في مدى توفيق الشاعر في انتقاء الصفات والخصال التي يمدح أو يرثي بها، فلا يذكر للرجل ما يغض من رجولته، وصلابته، ولا يورد للمرأة ما يخرج بها عن أنوثتها ورقتها، ويركز على الصفات التي تلائم شخصية الممدوح أو المرثي، فإذا كان حاكماً فإن الملائم له في هذه الحالة هو العدل والسهر على شئون الرعية والحرص على مصلحة الأمة، وما يناسب ذلك من الصفات الشكلية كالوقار وقلة الكلام فيما يفيد مهابة حركاته وإيماءاته، وإن كان كاتباً كان الأليق الحديث عن سعة ثقافته وعمق فكره وجمال أسلوبه وتفننه في أدبه وما يشاكل ذلك من أناقة الملابس وظرف الحديث، وأهم من هذا كله عندى ألا يمدح أو يرثي إلا من كان يستحق المديح أو الرثاء أصلاً أي أن يتسم بالصدق والموضوعية. وألا ينافق أو يكذب فيما يقول.

وكان الشعراء الرثاء كثيراً ما يشركون الطبيعة في التأثر والحزن على موت من يرثونه، فالجبال تُزلزل، والنجوم تنكسف، والأرض تُحمل، وقد يشركون مع الطبيعة أيضاً ما تركه الميت خلفه من متاع كفرسه وسلاحه (٣)، وإذا كان الرائي والمرثي هما

(١) انظر: الأمدي «الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري»، تحقيق: السيد أحمد صقر، دار المعارف بمصر، ١٣٨٠هـ - ١٩٦١م، ٣٦٨/٢، فما بعدها، ابن سنان الخفاجي «سرّ الفصاحة»، تحقيق علي فودة، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٣٢م، ص ٢٥٠.

(٢) انظر كتابه: «عيار الشعر»، تحقيق الحاجي وسلام، المكتبة التجارية، القاهرة، ١٩٥٦م، ص ١٢.

(٣) انظر: د. يحيى الجبوري «الشعر الجاهلي - خصائصه وفنونه» ص ٣٢٠-٣٢١.

الشخص نفسه - في رثاء النفس - فإن الشاعر قد يتساعل عما سيحدث بعد وفاته، أو قد يوصي أهله بما يجب أن يفعلوه به وبأشياءه بعد أن تصيبه مصيبة الموت من معاملة لجسمه وتكفينه والنواح عليه بطريقة معينة (١).

ومما لفت أنظار النقاد القدامى دور الحيوانات الوحشية في قصائد الرثاء التي تتعرض لها، فقد لاحظ الجاحظ أن «من عادة الشعراء إذا كان الشعر مرثية أو موعظة أن تكون الكلاب هي التي تقتل بقر الوحش، وإذا كان الشعر مديحاً أن تكون الكلاب هي المقتولة، ليس على أن ذلك حكاية عن قصة بعينها» (٢)، وهذا يشبه ما يسمّى في النقد الحديث بـ«المعادل الموضوعي»، إذ يختار الإنسان من مشاهد الطبيعة وأحداثها ما يتوافق مع الموضوع الذي يتناوله والجو الذي يرسمه.

وجاء الإسلام فكان من عقائده الرئيسة الإيمان بالحياة الآخرة، وأن الموت جسرٌ يصل بين الحياتين، وأن الله قد أعدَّ بعده جنّةً وناراً على الإنسان أن يعمل جهده على الفوز بالأولى والنجاة من الأخرى، فليس الموت إذن هو نهاية المطاف كما كان الجاهليون يعتقدون، وعلى المسلم أن يتذرع بالصبر إذا حلت مصيبة الموت بأحدٍ من أحبّابه، فكلنا لله وكلنا إليه راجعون، والصبر ثوابه عظيم، أما إذا سقط المسلم المجاهد في معركةٍ في سبيل الله فهو شهيد له أعلى منازل الكرامة في الجنة، ومها يكن من أمر فلا نواح على الموت ولا شق للجيوب أو لطم للخدود، إن القلب ومشاعره،

(١) د. يحيى الجبوري «الشعر الجاهلي - خصائصه وفنونه»، ص ٣٢١-٣٢٦.

(٢) «الحيوان»، ٢٠/٢، وانظر: مصطفى عبد اللطيف جياووك «الحياة والموت في الشعر

الجاهلي»، منشورات وزارة الإعلام العراقية، ١٩٧٧م، ص ٢٩٧ وما بعدها.

والعين ودموعها، بين أصابع الرحمن جل وعلا، ولا حرج على المسلم أو المسلمة أن يحزنا وتبكي منهما العيون، تنفيساً عن ألم الحزن؛ وتعبيراً عن الحب الذي في قلبهما لموتاهما، من ذلك ما قاله الرسول ﷺ عند موت ابنه إبراهيم: «إن العين تدمع، والقلب يحزن، ولا نقول إلا ما يرضي ربنا، وإننا لفراقك يا إبراهيم لمحزونون» (١). بيد أن النواح وعبارات السخط وبث الجزع، وكثرة الشكوى، وعدم الرضا بالقضاء والقدر، كل ذلك محرمٌ على المسلم، إذ المطلوب منه أن يكون نبيلاً في أحزانه، وأن يتجلد عند وقوع المصائب به.

كذلك أقام الإسلام دولة ذات نظام تشريعي يعاقب المعتدي وينصف المظلوم؛ فمن قُتل اقتصر الشارع له أو أخذت الدية لأوليائه من قاتله، ومن ثم فلا تآر ولا انتقام، وعلى أية حال، فلم يعد المسلم يؤمن بخرافة الهامة والصدى.

وفي بكاء المسلم ميتاً عزيزاً عليه أخذت تبرز خصال نفسية وأخلاقية لم يكن للجاهلي بها عهد، فهو يذكر الإيمان والجهاد في سبيل الله والشهادة والعدل والتقوى والعبادة... إلخ.

والآن كيف انعكس هذا وذاك في رثاء المخضرمين؟

فأما المخضرمون المشركون فلا يتوقع أن يظهر في شعرهم أثر الدين الجديد الذي لم يكونوا يؤمنون به، وأما المخضرمون المسلمون فمن الطبيعي أن ينعكس في رثائهم الدين الجديد بما جاء به من رؤية جديدة وعقائد وقيم وأفكار، لكن هناك عدداً من الباحثين يقولون غير ذلك، إذ يزعم نفر من المستشرقين أن الإسلام الثقافي لم يجد

(١) البخاري «صحيح البخاري»، كتاب الجنائز، باب قول النبي (ﷺ): «إنا بك

طريقه إلى قلوب المسلمين الأوائل فقد كان شعرهم خالياً من الصور الإسلامية، وأنه إنما وجد طريقه إلى القلوب في العصر العباسي الأول (١)، ومن هؤلاء المستشرق الألماني كارل بروكلمان، الذي ادعى أن الإسلام لم يؤثر تأثيراً عميقاً في شعراء العرب، فقد سلك شعراء العصر الأموي دون مبالاة مسالك أسلافهم الجاهليين، وأن روح الإسلام حقا لم تسد إلا بعد ظهور العباسيين (٢)، والمستشرق غوستاف فون غرونبادم، الذي قال إنه «قد مضى وقت طويل بين اعتناق الغرباء للإسلام واستعمالهم الأفكار والاستعارات والإشارات الإسلامية» (٣).

ويقرر الأستاذ أحمد الشايب أن صياغة الشعر في صدر الإسلام كانت على العموم صياغة جاهلية، وأن الأسلوب جاهلي خالص عند بعض الشعراء كالحطيئة، والخنساء، وكعب بن مالك، وعبدالله بن رواحة، وشعراء مكة وشواعرها أيضاً (٤).

(١) انظر: عمر فروخ «تاريخ الأدب العربي» دار العلم للملايين، بيروت، ط٤، ١/٢٥٩، ود. يوسف محي الدين أبوهلالة «الشعر والدعوة في عصر النبوة» دار العاصمة، الرياض، ١٤٠٨هـ، ص ٥٨.

(٢) د. محمود حسن زيني «دراسات في أدب الدعوة الإسلامية» نادي مكة الثقافي، ١٤٠٠هـ، ص ١٤٤، وقد رجعت إلى بروكلمان «تاريخ الأدب العربي» لعلني أعتز على رأيه فلم أجده هناك، ولعل أستاذنا قد نقله من مؤلف آخر أو مقالة لبروكلمان.

(٣) «دراسات في الأدب العربي» ترجمة إحسان عباس وآخرين، دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٥٩م، ص ٤٠.

(٤) انظر: كتابه «تاريخ الشعر السياسي إلى منتصف القرن الثاني» دار القلم، بيروت، ص ١١٧-١١٨.

كما يقول د. محمد محمد حسين عن شاعر الرسول ﷺ حسان بن ثابت رضي الله عنه إنه قد ظل جاهلياً في صميمه بعيداً عن التأثر الصادق بالإسلام حتى في رثائه للرسول ﷺ ، وتبرز في شعره ظاهرتان هما عصبية اليمانية، وفتور عاطفته وتكلفه فيما يمسّ النواحي الإسلامية (١)، فإذا كان هذا هو رأيه في شاعر الرسول ﷺ الأول فكيف يكون ذلك الرأي فيمن عداه من شعراء عصره؟.

ويدعي د. محمد عبدالعزيز الكفراوي أن الإسلام حين جاء لم يؤثر في الشعر العربي شيئاً، اللهم إلا مفردات أو شبه مفردات اقتبسها من القرآن الكريم حسان بن ثابت وإخوانه من شعراء الرسول ﷺ في ردودهم على شعراء قريش (٢).

على أنه قد وضعت دراسات عن شعر المخضرمين المسلمين أثبت أصحابها بالشواهد الكثيرة أن مقولة عدم تأثر الشعر بالإسلام في عهد النبوة والخلافة الراشدة أو ضعف ذلك التأثر هي مقولة لا أساس لها من الصحة (٣).

(١) انظر: كتابه «الهجاء والهجاءون في الجاهلية» مكتبة الآداب بالجاميز ، القاهرة، ١٩٤٧م، ص ٢٠٧، ٢٠٨.

(٢) انظر كتابه: الشعر العربي بين الجمود والتطور» مكتبة نهضة مصر، ط ٢، ١٣٧٨هـ - ١٩٥٨م، ص ٣٨.

(٣) من هذه الدراسات ما كتبه د. يحيى الجبوري عن «شعر المخضرمين»، ود. شوقي ضيف في كتابيه: «العصر الإسلامي» و«التطور والتجديد في العصر الأموي»، ود. النعمان عبدالمتعال القاضي في «شعر الفتوح الإسلامية»، ود. سامي مكي العاني في كتابه «الإسلام والشعر»، ود. السيد عبدالقادر عويضة في بحثه عن «أثر الإسلام في الشعر في عصر الرسول والخلفاء»، ود. عبدالله الحامد في «الشعر الإسلامي في صدر الإسلام» ... الخ.

وحتى بروكلمان نفسه - في الكتاب ذاته الذي ادعى فيه دعواه - قد ناقض هذه الدعوى بإبرازه أثر الإسلام الجلي في شعر لبيد مثلاً (١)، مما لاحظته أستاذنا د. محمود حسن زيني وأخذه عليه (٢).

وبطبيعة الحال لم يكن الشعراء جميعهم في ذلك العصر سواء ، من حيث انعكاس أثر الإسلام في شعرهم، كما أشار إلى ذلك بعض الباحثين، مثل كارلوناينو (٣)، وعمر رضا كحالة (٤)، وعباس الجراري (٥).

ومع هذا كله فسوف نتريث أمام شعر الرثاء في عصر صدر الإسلام ، لنرى مدى تأثيره بما جاء به الإسلام والقرآن من معتقدات وقيم وأفكار ومصطلحات وتعبيرات وصور.

(١) التأثير في المعتقدات والأفكار

غني عن البيان أن بعض الشعراء المخضرمين منهم من كافراً ، ومنهم مَنْ كان مسلماً ، وإن كان انتهى الأمر بالكفار إلى أن دخلوا في الإسلام إذا استثنينا من مات منهم على كفره ، فما الذي نجده عند هؤلاء وأولئك؟

فالحارث بن هشام بن المغيرة في رثاء قتلى المشركين في بدر نجده يستغيث

(١) انظر كتابه : « تاريخ الأدب العربي » ، ١ / ١٤٥ .

(٢) انظر : كتابه « دراسات في أدب الدعوة الإسلامية » ، ص ١٤٦ - ١٤٧ .

(٣) انظر كتابه : « تاريخ الآداب العربية » ، دار المعارف ، ط ٢ ، ص ١٠٤ .

(٤) انظر كتابه : « الأدب العربي في الجاهلية والإسلام » ، المطبعة التعاونية ، دمشق ،

١٣٩٢ هـ - ١٩٧٢ م ، ص ٨٦ .

(٥) انظر كتابه : « من أدب الدعوة الإسلامية » ، الدار البيضاء ، ١٩٧٤ م ، ص ٣٨ .

بقومه، وهذه دعوى جاهلية، ويذكر الآلهة وتوارثهم إياها من آبائهم، وهذه هي المرة الوحيدة التي يقابلني فيها في شعر المخضرمين المشركين ذكر الآلهة:

ألا يا القومي للصبابة والهجر وللحزن مني والحرارة في الصدر
 فيأل لؤي ذببوا عن حريمكم وألهة لا تتركوها لذئ الفخر
 توارثها أبؤكم وورثتم أواسيها والبيت ذا السقف والستر
 ويدعوهم إلى الثأر :

لعلكم أن تثأروا بأخيكم ولا شيء أن لم تثأروا بذوي عمرو (١)

وتعزو بشرى محمد علي الخطيب ذكر الآلهة هنا والحث على الدفاع عنها إلى تأثير التيار الإسلامي، حيث إن هذه الفكرة لم ترد في أي رثاء جاهلي (٢) ولكنها كانت موجودة في الحياة العامة آنذاك، وسواءً أصحت ملحوظتها الأخيرة عن الرثاء الجاهلي أم لم تصح، فورود هذا المعنى في مثل هذا السياق أمر طبيعي، ذلك أن بدرأ كانت أول معركة بين عقيدة الآلهة المتعددة وعقيدة الإله الواحد بعد مجيء الإسلام، وكما أن المسلمين كانوا يذكرون التوحيد ويتحاضون على الجهاد في سبيله فها هو الحارث بن هشام يحض قومه أيضا على الدفاع عن شركهم ووثنياتهم، لكننا لم نجد هذا المعنى في أي نص رثائي للمخضرمين المشركين بعد ذلك.

وفي قصيدة أخرى قالها الحارث أيضا في المناسبة ذاتها نراه يمدح قتلى المشركين بأنهم «مصاليت بيض» وبأنهم شجعان يقتحمون الحرب لايبالون بالموت،

(١) « السيرة النبوية » ، ق ٣٥٨/٢ ، والقصيدة في المصدر نفسه ، ق ١٠/٢ - ١١ .

(٢) « الرثاء في الشعر الجاهلي وصدر الإسلام » ص ٢٦٧ .

وبالكرم أيام المحن ، والثبات على دين الآباء، ويقرر أن الموت قتلاً هو خير ألوان الموت، ويتهم المسلمين بعقوق قومهم وخروجهم على دينهم ولحاقهم بقوم غرباء استبدلوهم بأهلهم:

مصاليت بيضٍ من لؤي بن غالبٍ مطاعين في الهيجا مطاعيم في المحلِ
أصيبوا كراماً لم يبيعوا عشيرة بقوم سواهم نازحي الدار والأصل
عقوقا وإثماً بينا وقطيعة يرى جوركم فيها نوو الرأي والعقلِ
فإن يك قوم قد مضوا لسبيلهم وخير المنايا ما يكون من القتل
فلا تفرحوا أن تقتلوهم فقتلهم لكم كائن خبلاً مقيماً على خبلٍ (١)

وثمة أبيات ميمية لعبدالله بن الزبيري في بكاء قتلى المشركين في بدر، وفيها نجد الشاعر يركّز في رثائه لأولئك القتلى على بياض وجوههم التي يقول إنها تبرق مثل البدر في الليلة الظلماء ، وعلى عراقة أصلهم ومجادتهم، وليس في هذا من جديد، إنما الذي يلفت النظر هو هذا البيت الذي يختتم به الأبيات:

حيّاً الإله أبا الوليد ورهطه رب الأنام وخصمهم بسلام (٢)
حيث يدعو لهم بأن يحييهم الله رب الأنام وأن يخصهم بالسلام، ولا أنكر أنني وجدت مثل هذا البيت في شعر المخضرمين المشركين .

(١) ابن هشام « السيرة النبوية » ، ق ١٢/٢ .

(٢) انظر الأبيات في « السيرة النبوية » ، ق ١٦/٢ فما بعدها .

ومن قصيدة يائية لطالب بن أبي طالب يبكي فيها أصحاب القليب نجده
ينسب هلاكهم إلى الدهر:

ألا إن كعباً في الحروب تخاذلوا وأرداهمُ ذا الدهرُ واجترحوا ذنباً
ويستثير أهل مكة أن يهبوا ويأخذوا بثأرهم من الخوزج:

فوالله لا تنفك نفسي حزينة تملأ حتى تصدقوا الخزج الضرباً (١)
ويرثي ضرار بن الخطاب أبا جهل فيصفه بأنه خير الناس طراً ، وهو معنى شائع في
رثاء الجاهليين:

فبلغ قريشا أن خير نديها وأكرم من يمشي بساقٍ على قدم
ثوى يوم بدرٍ رهنَ خوصاء رهنها كريمُ المساعي غيرُ وغدٍ ولا برم
ويوصي أهله بالصبر وعدم الجزع والثبات في وجه الموت، الذي يقول إنه مكرمة لهم:

فلا تجزعوا آل المغيرة ، واصبروا عليه ، ومن يجزع عليه فلم يك
وجئوا فإن الموت مكرمة لكم وما بعده في آخر العيش من ندم (٢)

وهناك خصلة أخرى مدح بها المخضرمون المشركون قتلاهم في بدر، هي
شربهم الخمر وندامهم عليها واستماعهم القنيات ، يقول أبو بكر بن الأسود بن شعوب
الليثي:

(١) « السيرة النبوية » ، ق ٢٦/٢ - ٢٧ .

(٢) السابق ، ق ٢٧/٢ - ٢٨ .

فماذا بالقليب قليب بدرٍ من القينات والشرب الكرام
...

وأصحاب الكريم أبي علي أخى الكاس الكريمة والندام
ويسخر من فكرة البعث والنشور التي جاء بها الإسلام، ويذكر الهامة الصدى
متسائلاً في استنكار كيف يمكن أن تكون لهما حياة بعد موت صاحبهما، وكان هذا
الشاعر ممن أسلم ثم ارتد ولحق بالمشركين فقال :

يخبّرنا الرسول لسوف نحيا وكيف لقاءً أصداء وهام ؟ (١)
وثمة مناقب أخرى يرثي بها أمية بن أبي الصلت أولئك القتلى، وهي أنهم
كانوا يغشون الملوك ويصادقونهم، ويكثرون من الأسفار في الفلاة غير خائفين:
دُعْمُوصُ أَبْوَابِ الْمَلُوكِ وَجَائِبُ الْخُرُقِ فَاتِحُ
وَأَنَّهُمْ كَانُوا يَفْعَلُونَ مَا يَقُولُونَ وَلَا يَأْمُرُونَ إِلَّا بِالْخَيْرِ:

القائلين الفاعلين — أمرين بكل صالح (٢)
وذلك إلى جانب صفات الكرم والشجاعة والنبيل، التي ينهى تعدادها بالحضّ العنيف
على الثأر من المسلمين.

وتصف هند بنت عتبة أباهما، الذي سقط قتيلاً في معركة بدر بأنه كان لهم
«جبلأراسياً»:

وكان لنا جبلأراسياً جميل المرأة كثير العشب (٣)

(١) انظر: الشعر وخبر ارتداده في «السيرة النبوية»، ق ٢٩/٢.

(٢) السابق، ق ٣١/٢.

(٣) السابق، ق ٣٨/٢.

وفي أبيات أخرى لها في الموضوع نفسه تذكر الدهر، وتتهمه بأنه هو الذي يريبهم ويسوؤهم وتقول إن أحداً لا يمكنه أن يغلبه:

يريب علينا دهرنا فيسوؤنا ويأتي فما نأتي بشيء يغالبه (١)

وتبكي هند بنت بن أثاثة عبيدة بن الحارث بن المطلب فتصفه - ضمن ماتصفه به - بأنه كان غيائاً للأرامل واليتامى، طراق ليل ، ملتمساً للقري :

عبيدة فابكيه لأضياف غربة وأرملة تهوي لأشعث كالجدل

وبكيفة للآيتام والريح زفرة وتشبيب قدر طالما أزيدت تغلي

لطارق ليلٍ أو للتمس القري ومُستنجح أضحي لديه على رسل (٢)

وقد لاحظت أن بعض الراثين كان يذكر القرابة والرحم بين القتلى وقاتليهم، من مثل قول هند بنت عتبة في رثائها لأبيها المقتول في بدر:

تداعى له رهطه غدوة بنو هاشم وبنو المطلب

يذيقونه حد أسيافهم يعلونه بعدما قد عطب (٣)

وقول قتيلة في بكائها للنضر بن الحارث مخاطبة الرسول ﷺ :

فالنضر أقرب من أسرت قرابة وأحقهم إن كان عتق يُعتق

ظلت سيوف بني أبيه تنوشه لله أرحام ، هناك تُشقق (٤)

(١) « السيرة النبوية » ، ق ٣٩/٢ .

(٢) السابق ، ق ٤١/٢ - ٤٢ .

(٣) السابق ، ق ٣٨/٢ .

(٤) السابق ، ق ٥٢/٢ .

وهذا أمر غريب ، فالذين قطعوا الأرحام هم اولئك المشركون، الذين قاموا بإخراج المسلمين من ديارهم واستيلائهم على ممتلكاتهم، والتأمر على قتله ﷺ ، وهامهم أولاء قد تنادوا لحربهم، فما الذي كانوا يريدونه ؟ وهل المسلمون هم المومنون؟ وفي البيتين التاليين يذكر كعب بن الأشرف في بكائه قتلى بدر أنهم إذا كانوا قد ماتوا فإن الموت هو نهاية الملوك والأشراف والرؤساء أيضاً.

قُتِلَتْ سِرَاةُ النَّاسِ حَوْلَ حِيَاضِهِمْ لَا تَبْعِدُوا ، إِنْ الْمَلُوكُ تُصْرَعُ
كَمْ قَدْ أَصِيبَ بِهِ مِنْ أَبْيَضِ مَاجِدٍ ذِي بَهْجَةٍ يَأْوِي إِلَيْهِ الضَّيْعُ (١)

وقد ظلت النار مستعرة في قلوب المشركين وأنصارهم حتى ظفروا بالمسلمين يوم أحد وقتلوا منهم كثيراً من أبطالهم وعلى رأسهم حمزة أسد الله وأسد رسوله ﷺ ، فأعلن شعراؤهم أنهم بما أصابوه من المسلمين قد شقوا غيظ نفوسهم وأخذوا يشمتون بهم . قال ضرار بن الخطاب الفهري:

فِيَالَيْتَ عَمْرَأَ وَأَشْيَاعَهُ وَعَتَبَةَ فِي جَمْعِنَا السُّورِجِ
فِيَشْفُوا النَّفُوسَ بِأَوْتَارِهَا بِقَتْلِي أَصِيبَتْ مِنَ الْخَزْرِجِ
وَقَتْلِي مِنَ الْأَوْسِ فِي مَعْرِكٍ أَصِيبُوا جَمِيعاً بِذِي الْأَضْوَجِ
وَمَقْتَلِ حَمْزَةَ تَحْتَ اللَّوَاءِ بِمَطْرِدِ مَارِنِ مَخْلَجِ
وَحَيْثُ أَنْتَنِي مَصْعَبُ ثَاوِيَا بِضَرْبَةِ ذِي هَبَّةٍ سَلْجَجِ
بِأُحْدِ وَأَسْيَافُنَا فِيهِمْ تَلَهَّبُ كَاللَّهَبِ الْمَوْهِجِ (٢)

(١) « السيرة النبوية » ، ق ٥٢/٢ .

(٢) السابق ، ق ١٤٠/٢ ، وانظر قصيدة مثلها لابن الزبير في « السيرة النبوية » ، ق ١٤١/٢

١٤٢ - يشمت فيها بقتلى المسلمين في أحد أيضاً، وإن كان ابن إسحاق قد سها

فذكر أنه يبكي فيها القتلى!

وفي شعر غزوة الخندق يصف جبل بن جوال الثعلبي قتلَى اليهود قائلاً:

وقد كانوا ببلدتهم ثقالا كما ثقلتُ بِمِيطَانِ الصَّخُورِ

مشيراً إلى رجاحة عقولهم ووقارهم واعتماد الناس عليهم في ملّات الأمور، ويخفت
بعد ذلك صوت الشُّرك؛ إذ سرعان ما تدخل الجزيرة في دين الله.

التأثر بالألفاظ والمعاني والصور الإسلامية :

فإذا انتقلنا إلى رثاء المخضرمين المسلمين فماذا نجد؟

يقول كعب بن مالك في بكاء حمزة سيد الشهداء ورفاقه في أحد رضي الله

عنهم:

وقتلاهم في جنان النعيم كراماً المداخل والمخرج

بما صببروا تحت ظل اللواء لواء الرسول بندي الأضج

...

فما برّوحوا يضربون الكمأة ويمضون في القسطل المرهج

كذلك حتى دعاهم مليك إلى جنة دوحاة المولج

فكلهم مات حرّ البلاد على مكة الله لم يخرج

كحمزة لما وقى صادقاً بندي هبة صارم سلاجج

...

ونعمان أوفى بميثاقه وحنظلة الخير لم يُحنج

أولئك لا من يرى منكم من النار في الدرك المرتج (١)

(١) « السيرة النبوية »، ق ١٣٨/٢ - ١٣٩.

وهذه من المرثيات الأوائل في صدر الإسلام ، ومع ذلك فإن الطابع الإسلامي واضح على تمامه هنا ، إذ كرر الشاعر ذكر أن الجنة مثنوى من سقط من شهداء المسلمين ، وقابل بينها وبين النار التي ألقى فيها قتلى المشركين ، كما كرر الإشارة إلى الوفاء بالعهد والميثاق الذي كان يأخذه الرسول ﷺ على أتباعه أن يبذلوا مهجهم وأموالهم في سبيل الله وينصروا دين الله في كل حال ، كذلك فإن كعباً رضي الله عنه يصور موت هؤلاء الشهداء بأنه استجابة منهم لدعاء ملك السموات والأرض إياهم دخول الجنة:

كذلك حتى دعاهم ملك إلى جنة دوحه الموالج
ويذكر بقاء الروح بعد موت صاحبها:

ونعمان أوفى بميثاقه وحظالة الخير لم يُحنج
عن الحق حتى غدت روحه إلى منزل فاخر الزبرج
وهاو ذا حسان رضي الله عنه وفي أول مرثية له في شهداء المسلمين يرد بها على ابن الزبير في شماتته بهم يقول :

وقل إن يكن يوم بأحدٍ يعده سفيه فإن الحق سوف يشيع
فقد صابرت فيه بنو الأوس كلهم وكان لهم نكرٌ هناك رفيع
وحامى بنو النجار فيه وصابروا وما كان منهم في اللقاء جزوع
أمام رسول الله لا يخذلونه لهم ناصر من ربهم وشفيع
وفوا إذ كفرتم ياسخين بريكهم ولا يستوي عبدٌ وفى ومضيع

بهن نُعزُّ اللهَ حتَّى يُعزَّنَا وإن كان أمر ياسخينَ فظيع
 فلا تذكروا قتلى وحمزة فيهم قتيلٌ ثوى لله وهو مطيعُ
 فإن جنان الخلد منزلة له وأمرٌ الذي يقضي الأمور سريعُ
 وقتلاككم في النار أفضلُ رزقهم حميمٌ معاً في جوفها وضريع (١)

فيذكر الكفر والإيمان ، والجنة والنار ، ونصر المسلمين لربهم حتى ينصرهم ويعزهم ، وأن ماعليه المسلمون هو الحق الذي لا بدُّ أنه سيشتيع وينتصر على الباطل والكفر ، ويشيد بمصابرتهم ، وهو متأثر في هذا كله بما جاء به الدين الجديد من معانٍ وقيمٍ ، ومتأثر كذلك بالأسلوب القرآني فكيف يقال إن معاني حسان ظلت جاهلية في شعره الإسلامي ؟ إن هذا النص الذي يعدُّ من أوائل نصوص الرثاء الإسلامي على الإطلاق ، ينقض هذا الادعاء بقوة .

ومن مرثيته اللامية ، وهي في حمزة أيضاً ، قوله رضوان الله عليه :

(١) « السيرة النبوية » ، ق ١٤٢/٢ - ١٤٣ . وفي هذه القصيدة - كما نرى - هجوم على المشركين ، بل لحسان قبل ذلك في انتصار بدر أشعار يرد فيها على المشركين ويدافع عن الإسلام ونبيه عليه السلام ، مما يدل على أن دويد عرفات لم يكن دقيقاً حين أرخ لاتجاه حسان إلى الدفاع عن الدين الجديد ورسوله بما بعد حادثة الإفك (في المقدمة الإنجليزية لديوان حسان ، نقلاً عن الدكتور عبد الجبار المطليبي في مقاله « حسان بن ثابت في معايير النقد » ، مجلة المورد ، العدد الرابع : المجلد التاسع ، ١٩٨٠ م ، ص ٣٠٦ . وقد أشار د . عبد الجبار المطليبي إلى شعر له يجيب به ضرار بن الخطاب قبل الهجرة ، وإن كان غير متأكد من نسبته إليه ولا من إسلامه حينذاك (انظر مقالته السابقة ، ص ٣١٥) ، ولا جدال في أنه رضي الله عنه قد نافع عن النبي والإسلام منذ بدر على الأقل .

مالَ شهيداً بينَ أسيافكم شئتَ يداً وحشيٍّ من قاتلِ

...

صلى عليه الله في جنَّة عالية مكرمة الداخلِ

وكان في الإسلام ذا تدرأ يكفيك فقد القاعد الخازلِ

...

غداة جبريلُ وزيرٌ لهُ نعم وزيرُ الفارسِ الحاملِ (١)

حيث تقابلنا معاني الشهادة وصلاة الله على موتى المسلمين، والجنة، ونصرة جبريل للمجاهدين في سبيل الله، وقبل هذا كله الإشارة إلى الإسلام، الذي كان حمزة ورفاقه من المجاهدين يقفون تحت رايته يدافعون عن الحق:

أبيض في الذروة من هاشم لم يمرّ دون الحقِّ بالباطلِ

ولكعب مرثٍ أحرّ في حمزة نورد منها هذه الأبيات ، وهي تدور على المعاني

الإسلامية، التي نحن بصددِها، وغيرها، كمدحه بني هاشم بأن فيهم النبوة:

قرم تمكّن في نؤابة هاشم حيث النبوة والندى والسودُ

...

عمُّ النبي محمدٍ وصفِيه ورد الحِمَامَ ، فطاب ذاك الموردُ

وأتى المنية معلماً في أسرة نصرُوا النبي ومنهم المُستشهدُ

...

(١) « السيرة النبوية » ، ق ١٥٦/٢ .

وببئر بدر إذ يردُ وجوههم جبريلُ تحت لوائنا ومحمدُ

...

شتان من هو في جهنم ثاوياً أبدأً ومن هو في الجنان مخدُ (١)

وفي أبيات له يصفه بأنه «أسد الله» ، يقول مخاطباً بنت عبدالمطلب:

ولا تسأمي أن تطيلي البكا على أسد الله في الهزة

ويقول إن قتاله كان في سبيل الله، وكانت غايته رضا الله تعالى ورسوله عليه

الصلاة والسلام:

يريد بذاك رضا أحمدٍ ورضوان ذي العرش والعزة (٢)

وهذا كله جديد في ميدان الرثاء .

ومن رثائية أخرى يصفه كذلك بـ«أسد الإله»:

على أسد الإله غداة قالوا: أحمزة ذاكم الرجل القتلُ

وأنه « برُّ » : « وأنت الماجد البرُّ الوصول » ، ويدعو له بالسلام من الله حيث

هو في جنان الخلد:

عليك سلام ربك في جنان مخالطها نعيمٌ لا يزولُ

ويذكر الوحي وأنه من عند الله وأن الرسول ﷺ مصطبر في تبليغه للناس

وفي الجهاد دونه:

(١) « السيرة النبوية » ، ق ١٥٧/٢ - ١٥٨ .

(٢) السابق ، ق ١٥٨/٢ .

رسولُ الله مُصطَبِرٌ كريمٌ بأمرِ الله ينطقُ إذ يقولُ (١)
 وحول هذه المعاني وأشباهاها يدور بكاءٌ صافية على أخيها رضوان الله
 عليهما:

فقال الخبير إن حمزة قد ثوى وزيرُ رسولِ الله خيرُ وزيرٍ
 دعاه إله الحق ذو العرش دعوةً إلى جنّة يحيا بها وسرورٍ
 فوالله لا أنساك ماهبت الصبأ بكاءً وحنناً محضرى ومسيرى
 على أسد الله الذي كان مدرها يذود عن الإسلام كل كفورٍ
 ...

أقول وقد أعلى النعيّ عشيرتي جزى الله خيراً من أخٍ ونصير (٢)
 وفي رثاء ابن رواحة لنافع بن بُديل بن ورقاء، الذي استشهد عند بئر معونة،
 نجده يقول :

رحم الله نافع بن بُديل رحمة المبتغى ثواب الجهاد
 صابر صادق وفيّ إذا ما أكثر القومُ قال قول السّداد (٣)
 ذاكراً الجهاد، وهذه تسمية جديدة ومعنى جديد ، وثواب الجهاد، وهو جديد أيضاً؛ إذ
 لم يعد المحارب يقاتل عصبية وحميةً وفخراً ورياءً وسمعةً، بل أصبح هذا القتال جهاداً
 في سبيل الله يبتغي الثواب عليه من الله سبحانه.

(١) « السيرة النبوية » ، ق ١٦٢/٢ - ١٦٣ .

(٢) السابق ، ق ١٦٧/٢ .

(٣) السابق ، ق ١٨٨/٢ . وهذان البيتان قد رُويَا مع بيت ثالثٍ لحسان . انظر ديوانه (ط د وليد
 عرفات)، ١٣٦/١ .

ويذكر الوحي وأنه من عند الله ، والرسول ﷺ مصطبر عليه ، ويؤكد في بكائه على خبيب بن عدي أن القتل مكرمة، وهو معنى قريب مما جاء عند الحارث بن هشام من أن الموت قتلاً هو خير ألوان الموت ، ولكنه يصيغ ذلك المعنى صبغة إسلامية ؛ إذ يربطه بالجنة التي يحور إليها الشهداء :

صبرا خبيبُ ، فإن القتل مكرمة إلى جنان نعيم يرجعُ النفسُ (١)

ويدعو له في أبيات أخرى بأن يجزيه الله الجنة ويمتعه بالصور العين جزاء مالقي من أذى وتعذيب في سبيل الله .

فأذهب خبيب ، جزاك الله طيبةً وجنة الخلد عند الحور في الرفق (٢)

وهو دعاء إسلامي صرف، ومعنى لم يكن يعرفه الجاهليون .

وفي رثائه لخبيب ورفاقه من أبيات أخرى يشير إلى أن الموت، وكل شيء يقع لنا في هذه الحياة، قدر إلهي مكتوب، وهذه عقيدة لم يكن للجاهلين بها عهد، قال:

وابنُ لطارق وابن دثنة منهمُ وافاه ثم حمّامه المكتوبُ (٣)

ويرثي حسان بعد غزوة الأحزاب سعد بن معاذ رضي الله عنه فيأتي بمعنى جديد مستمد من الإسلام، وهو أن قتلى المسلمين قد أثروا الحياة الآخرة والجنة على الدنيا، لقد كان الجاهليون إذا أثنوا على موتاهم قالوا إنهم قد أقبلوا على الموت ليكسبوا الحمد (يعنى أنهم يبتغون السمعة بين الناس والمجد الدنيوي). أما الإسلام

(١) ديوان حسان ، (ط د. عرفات) ، ٢٢٧/١ .

(٢) « السيرة النبوية » ، ق ١٧٧/٢ .

(٣) السابق ، ق ١٨٣/٢ .

فقد استبدل بهذا الهدف هدفاً آخر أسمى وأنبيل، هو شراء الآخرة بالأولى ، وهاهو ذا الشاعر المسلم يبرز هذا المعنى الجديد في نسق شعري رائع :

فإن كان ريب الدهر أمضاك في الألى شـرـوا هذه الدنيا بجناتها الخـد
فنعم مصير الصادقين إذا دُعوا إلى الله يوماً للوجاهة والقصد (١)

وفي عينيته في سعدٍ يبرز فكرة القضاء والقدر وأن كل شيء إنما هو بمشيئة الله تعالى سبق في علمه وتقديره، لا عبث فيه ولا مصادفة، إذ هو مالك الملك:

ونعلم أن الملك لله وحده وأن قضاء الله لا بدّ واقع (٢)

وعقيدة القضاء والقدر من العقائد التي من شأنها أن تعين المؤمن على مصابه، وتربطه بربه سبحانه، وتجعل لحياته معنى.

ومن المهم أن نشير إلى قول حسّان في رثائه لجعفر بن أبي طالب رضي الله عنه بعد استشهاده في غزوة مؤتة : إنه «خير البرية»، وهو معنى كان الجاهليون يستعملونه في مدحهم لموتاهم، إلا أن حسّاناً قد أضاف إليه بعداً إسلامياً نقله من حال إلى آخر، إذ احترز فقال إن جعفرأ «خير البرية»، ولكن «بعد محمد»، الذي هو خير المخلوقات جميعاً، إنسهم وجنهم، ﷺ . وهذه فكرة لم تكن لتخطر بذهن الجاهلي ولا كان المخضرم المشرك يرضى أن يسلم بها، وإلا لآمن بمحمد ﷺ بطبيعة الحال. قال حسّان:

بعد ابن فاطمة المبارك جعفر خير البرية كلّها وأجلّها
رُزءاً وأكرمها جميعاً مُحْتدأً وأعزّها متظلماً وأذلّها

(١) « السيرة النبوية » ، ق ٢٧٠/٢ .

(٢) السابق ، ق ٢٧١/٢ .

للحق حين ينوب غير تتحلُّ كذبا وأغمرها يدا وأقلها
 فحشاً وأكثرها إذا ما تجتدي فضلاً وأبذلها ندى وأدلها
 عالخير بعد محمد ، لا شبهة بشرُّ يعدُّ من البرية جلها (١)
 كما وصف جعفرأ في هذه الأبيات بوصف إسلامي جديد إذ قال إنه حبُّ

النبي:

ولقد بكيتُ ، وعزَّ مهلكُ جعفرِ حبُّ النبي على البرية كلها
 وهو وصف كرره في مرثية أخرى لجعفر ورفيقه، ولكنه في تلك المرة كان في
 زيد بن ثابت ، الذي اشتهر فعلاً بأنه «حبُّ رسول الله». قال:

حين ولوا وغادروا ثم زيُّداً نعم مأوى الضريكِ والماسورِ
 حبُّ خير الأنعام طراً جميعاً سيّد الناس حبه في الصدور (٢)
 وحين تحضر ليبدأ الوفاة نراه يحذر ابنتيه، اللتين يتخيلهما بعد موته وقد
 أخذتا تندبانه وتنوحان عليه، من أن تسرفا في مديحه بما ليس فيه أو تخمشا
 وجهيهما أو تحلقا شعرهما، وهذا كلُّه مناقض لما كان يحدث في الجاهلية:

تمنى ابتئى أن يعيش أبوهما وهل أنا إلا من ربيعة أو مضر
 ونائحتان تندبان بعاقلي أخوا ثقة لا عين منه ولا أثر
 فقوما فقولا بالذي قد علمتا ولا تخمشا وجهاً ولا تحلقا شعره (٣)

(١) «الديوان» (ط د.عرفات) ، ٣٢٣/١ .

(٢) ديوان حسان (ط د.عرفات) ، ٢٩٥/١ . ونراه - رضوان الله عليه - يصف أبا بكر أيضا
 في رثائه له بأنه «حب رسول الله» انظر «الديوان» (ط د.عرفات) ، ١٢٥/١ .

(٣) «شرح ديوان لبيد» ، ص ٢١٣ .

وعند انتقال الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى يرثيه المسلمون في لوعة عارمة،
ومن بين رثاته ﷺ حسّان بن ثابت، الذي يقول:

جزعاً على المهديّ أصبح ثاويها ياخير من وطىء الحصى تبعد
...

بأبي وأمي من شهدت وفاته في يوم الاثنين النبيّ المهتدى
...

نوراً أضياء على البرية كلّها من يهدّ للنور المبارك يهدّد
ياربّ فاجمعنا معاً ونبينا في جنة تُنبي عيون الحُسدِ
في جنة الفردوس واكتبها لنا ياذا الجلال وذا العلاء والسؤدد
والله أكرمنا به وهدي به أنصاره في كل ساعة مشهد
صلى الإله ومن يحفّ بعرشه والطيبون على المبارك أحمد
فرحت نصارى يثرب ويهودها لما توارى في الضريح المُلحدِ (١)

فيصفه عليه الصلاة والسلام بأنه المهديّ وأنه نور هدى الله به عباده سبيل
السلام، ويدعو الله أن يجمعه مع رسول الله ﷺ في جنة الخلد، ويذكر في إيمان
وشعور بالمنة أن الله سبحانه قد أكرمهم به ﷺ ، ويصلي عليه كما أمر الله سبحانه في
قرآنه : ﴿ إن الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا
تسليماً ﴾ (٢) . ولايفوته أخيراً أن يشير إلى شعور أعداء الإسلام تجاه وفاة نبيه ﷺ ،
وهو شعور الغبطة والسرور، إذ ظن هؤلاء الكفار أن الدين قد انتهى بموت الرسول ﷺ

(١) « الديوان » (ط د. عرفات) ، ٢٦٩/١ - ٢٧٠ .

(٢) الأحزاب ، الآية (٥٦) .

، وغفلوا عن أنه إذا كان محمد قد مات فالذي خلق محمداً واصطفاه رسولاً وأنزل عليه وحيه حيُّ لا يموت، وهو سبحانه حافظ الدين وناصره، وناشر ضيائه في العالمين.

وهذه الأبيات خير رد على الدكتور محمد محمد حسين، الذي رأى أن رثاء حسان للنبي ﷺ إنما هو بكاء رجل على ماضع من رزقه ورزق عياله (١)، إن الدكتور هنا يشير إلى قصيدته في رثاء المصطفى ﷺ ومطلعها :

نَبُّ الْمَسَاكِينِ أَنْ الْخَيْرِ فَارِقَهُمْ مَعَ النَّبِيِّ تَوَلَّى عَنْهُمْ سَحْرًا
مَنْ ذَا الَّذِي عِنْدَهُ رِحْلِي وَرَاحِلَتِي وَزَرَقَ أَهْلِي إِذَا لَمْ يُوْنَسُوا الْمَطْرَا (٢)

وواضح أنه ليس فيها ما يدل على فتور العاطفة الدينية عنده رضي الله عنه، إذ إن شخصية الرسول - عليه السلام - كانت متعددة الجوانب، فهو نبي مرسل، عادل وحاكم، وقائد عسكري، وإنسان رحيم كريم. فإذا بكى حسان حرمانه من كرمه ﷺ فماذا في هذا؟ ولعل الدكتور - وهو يعيب على حسان هذا الرثاء في حق الرسول عليه الصلاة والسلام - قد وضع نُصْبَ عينيه رأي ابن رشيق من أن هذا الرثاء وماشابهه مما عيب في رثاء الملوك والرؤساء ويصلح أن يكون في عامة الناس (٣)، ومهما يكن من أمر فليس هذا هو الرثاء الوحيد الذي قاله حسان في النبي عليه الصلاة والسلام، وقد انتهينا - منذ سطور خلت - من أبيات له فيه ﷺ تتوهج فيها العاطفة الإسلامية، فلماذا أهملها الدكتور محمد حسين؟ ولماذا أهمل قصيدة حسان الدالية الأخرى التي مطلعها:

(١) انظر كتابه « الهجاء والهجاون في الجاهلية » ، ص ٢٠٧ .

(٢) « السيرة النبوية » ، ق ٦٧٠/٢ .

(٣) انظر: العمدة ، ١٤٧/٢ ، ١٥٢ ، ١٥٣ .

ما بال عيني لاتنامُ كأنما كحلت مآقيها بكحل الأرمَدِ
جزعاً على المهديّ أصبح ثاوياً ياخير من وطىء الحصى لاتبَعُدِ (١)

التي يذكر فيها شفاعة الرسول عليه الصلاة والسلام لأُمَّته ، وانتسابه إلى الخليل إبراهيم عليه السلام، وأن الله سبحانه قد استنقذهم بمحمد من حفرة النار، إذ حمل إليهم الحق والإيمان، ويدعو له فيها أن يجزيه الله عن ذلك خير الجزاء وأن يبعثه الله مقاماً محموداً ، وغير ذلك من القصائد التي تحمل رؤى إسلامية .

كذلك ليس على حسان من بأس إذا رثى النبي ﷺ فذكر قلقه على مصير قومه بني النجار بعده ﷺ (٢)، فهذه مشاعر بشرية لم تكن مقصورة عليه فحسب.

ومع هذا فإن الدكتور محمد محمد حسين يرى أن مراثي حسان للرسول ﷺ تمثل القمة في التمكن الفني والتدفق العاطفي . ليس هذا فحسب بل يرى أن الجديد في شعر حسان تطويعه وتيسيره للتعبير عن هذه المعاني الإسلامية (٣).

وإذا كان الجاهليون في تعزيتهم عند فقد موتاهم يذكرون أن الموت لايعفي أحداً حتى الملوك - كما بينا من قبل - فإن عبدالله بن أنيس في رثائه للنبي ﷺ يحُرر هذه الفكرة بحيث تصبح إسلامية، بل زاد فعبر عن الموت بقبض الله للروح، وهو معنى إسلامي صرف:

(١) ابن هشام « السيرة النبوية » ، ق ٢ ص ٦٦٩ - ٦٧٠ ، و « الديوان » (ط . د . عرفات) ، ص ٢٦٩ - ٢٧٠ .

(٢) انظر : مقاله د . محمد محمد حسين في كتابه « الهجاء والهجاون في الجاهلية » ، ص ٢٢٦ .

(٣) انظر : السابق ، دار النهضة العربية ، بيروت ، ط ٢ ، ١٣٨٩ هـ - ١٩٧٠ م ، ص ٢٣٤ ، ٢٣٨ . ويبدو لي أنه عدل عن آرائه في مراثي حسان للرسول ﷺ ، وأعاد النظر في بعض فصول كتابه كما يتضح ذلك في المقدمة ص ٣ .

وقد قبض الله النبيين قبله وعادُ أُصيبت بالرُّزَى والتبابعُ (١)

وفي هذه القصيدة يتعرض ابن أنيس بقوة إلى قضية من يخلف الرسول ﷺ ، ويوصي المسلمين بالمسارعة إلى معالجة أمر الخلافة قبل استفحالها، ويقترح ثلاثة أسماء هي علي والصدّيق وعمر رضوان الله عليهم ، رافضاً من عداهم، ومؤكداً على أن الخلافة ينبغي ألا تخرج من قريش، راداً بهذا على ماكان الأنصار يتطلعون إليه، مما أشرنا إليه من قبل:

فيا ليت شعري : من يقوم بأمرنا ؟	وهل في قريش من إمام ينازع ؟
ثلاثة رهطٍ من قريش همُّهم	أزمة هذا الأمر ، والله صانعُ
عليّ أو الصدّيق أو عمرُ لها	وليس لها بعد الثلاثة رابعُ
فإن قال منا قائل غير هذه	أبيننا وقلنا : الله راءٍ وسامعُ
فيا لقريش ، قلدوا الأمر بعضهم	فإن صحيح القول للناس نافعُ
ولا تبطنوا عنها فواقاً ، فإنها	إذا قُطعت لم يُمنَ فيها المطامعُ

وهذا جديد في الرثاء، إذ لم يقتصر الشاعر على البكاء والتأبين، بل تناول قضية عامة من قضايا السياسة المنوطة بها مصلحة الأمة، وهو ما يعني أن الشاعر لا تستغرقه العاطفة، بل يظل عقله يقظان يفكر في قضايا أمته الإسلامية.

ومن المعاني الجديدة التي ألمُّ بها رثاءُ الرسول عليه الصلاة والسلام انقطاع الوحي بموته. قال أبوسفیان بن الحارث :

(١) ابن سعد « الطبقات الكبرى » ، دار صادر ، بيروت ، (د . ت) ، ٢ / ٣٢١ .

فقدنا الوحي والتنزيل فيه يروح به ويغلو جبرئيل

...

نبيّ كان يجلو الشكّ عنا بما يُوحى إليه وما يقول (١)

وفي هذا الإطار يدور كعب بن مالك حين قال :

ألا أنعي النبي إلى من هدى من الجن ليلة إذ تسمعونا

لفقد النبي إمام الهدى وفقد الملائكة المنزلينا (٢)

وفي أبيات منسوبة لعاتكة بنت عبدالمطلب نجد البيت التالي:

أم من لوحي الله يُترك بيننا في كل ممسى ليلة أو في غدٍ؟ (٣)

وتتضح المعاني الإسلامية في الأبيات التالية رغم قلتها ومنها استثناءؤه النبي

عليه الصلاة والسلام مما بيننا أنه من الجديد الذي أتى به الإسلام ، يقول:

إذا تذكرت شجوا من أخي ثقة فأنكر أخاك أبا بكر بما فعلا

خير البرية أتقاها وأعدلها إلا النبي وأفأها بما حملا

والثاني الصادق المحمود مشهده وأول الناس منهم صدق الرسول

وثاني اثنين في الغار المنيف وقد طاف العدو به إذ صعّد الجبلا

عاش حميداً لأمر الله متّبعا بهدي صاحبه الماضي وما انتقلا

(١) ابن قدامة المقدسي « التبیین في أنساب القرشيين » ، تحقيق محمد نايف الديلمي، ط

المجمع العلمي العراقي، ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م، ص ٨٦ ، وابن عبدالبر « الاستيعاب » ،

١٦٧٦/٤ .

(٢) ابن شهر آشوب « مناقب آل أبي طالب » ، ٢٩/١ .

(٣) ابن سعد « الطبقات الكبرى » ، ٢٤٩/٢ .

وكان حب رسول الله ، قد عملوا ، من البرية لم يعدل به رجلا (١)

وينبغي التنبيه هنا إلى أن حساناً يستخدم كلمة (أخ) في نسق تعبيرى جديد إذ يعنى بها الأخوة الإسلامية ، وهذا المفهوم الواسع للأخوة من الجديد الذي أتى به الإسلام، كذلك نجده يستخدم في وصفه لأبي بكر الصديق رضي الله عنه مصطلحاً إسلامياً هو (خير البرية) وإن كان لا يغيب عن ذهنه أن يلجأ إلى هذا الإحتراز اللطيف (إلا النبي) (٢) والمعاني الإسلامية واضحة في نعته له بالتقى والعدل، وأنه أول من أسلم من الرجال، وأنه كان صاحب النبي عليه الصلاة والسلام في الغار، وأنه كان ملازماً لسنته صلى الله عليه وسلم ومنهجه في سلوكه وسياسته أمور المسلمين، وأنه كان يحب الرسول ﷺ ولا يعدل بحبه أحداً إذ كان الرسول ﷺ أيضاً

(١) ديوانه (ط. د. عرفات) ، ١٢٥/١ ، وأبو الخطاب القرشي « جمهرة أشعار العرب »، تحقيق د. محمد علي الهاشمي ، جامعة الامام محمد بن سعود الإسلامية ، ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م ، ١٥٠/١ . حيث ذكر أبو الخطاب أن حساناً قال معظمها في حياة الصديق رضي الله عنه . وقد أخذ بهذا الرأي د. محمد مصطفى هدارة ، انظر كتابه: «دراسات في الشعر العربي» ، دار المعرفة الجامعية، ٤٦/١ .

(٢) وهذا الاحتراز احترزته أيضا عاتكة بنت زيد في رثائها لزوجها عبدالله بن أبي بكر الصديق، الذي استشهد في حصار الطائف في عهد النبي عليه الصلاة والسلام، وإن كانت قد أضافت إلى النبي ﷺ أبابكر أيضا ، قالت :

رُزئت بخير الناس بعد نبيهم وبعد أبي بكر ، وما كان قصراً

ابن عبدالبر « الاستيعاب » ، ١٨٧٨/٤ ، وكذلك فعلت أم الهيثم بنت الأسود النخعية في رثاء على بن أبي طالب رضي الله عنه:

أفي شهر الصيام فجعثمونا بخير الناس طرا أجمعينا

ومن بعد النبي فخير نفس أبو حسن وخير الصالحينا

أبو الفرج الأصفهاني « مقاتل الطالبين » ، ص ٤٣ ، ٤٤ .

يحبه ويقربه (ولو كنت متخذاً خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً..) كل هذه القيم التعبيرية الجديدة ماهي إلا انعكاسات قوية يتردد صداها في هذا الشعر في ضوء ذلك الحب العميق الذي غرسه ﷺ في أصحابه .

وعندما يرثي حسان عمر فإنه يذكر الفضائل الإسلامية والقيم المثلى ومن بينها تلاوته للقرآن الكريم ، وهذه هي المرة الأولى التي تقابلني فيها هذه الفضيلة في رثاء إسلامي ، كما يصفه بطاعة الله وبمعرفة جوانب الحق وأبعاده فقد كان رضي الله عنه يلقب بـ(الفاروق) . يقول:

وفجّعنا فيرز ، لادر دره ، بأبيض يتلو المحكمات منيب

مطيع لأمر الله ، بالحق عارف بعيد الأنام عنده لقريب (١)

وفي رثائه لعثمان رضي الله عنه يذكر من فضائله تهجده بالتسبيح وتلاوة القرآن، إلى جانب كثرة صلاته وسجوده:

ضحوا بأشمط عنوان السجود به يقطع الليل تسبيحا وقرآنا (٢)

ويصف حسان عثمان في رثائه بأنه «أمين الله» ويلقبه بـ«الإمام» ، وهذا وذاك من جديد الرثاء الإسلامي:

إني رأيت أمين الله مضطهدا عثمان رهناً لدى الأجداث والكفن

ياقاتل الله قوماً كان شأنهم قتل الإمام الأمين المسلم الفطن (٣)

(١) ديوانه (ط. د. عرفات) ، ٢٧٣/١ .

(٢) السابق ، ٩٦/١ .

(٣) السابق ، ٣١٩/١ .

كما يذكر لقب «خليفة الله» إذ يقول مخاطباً جند الشام، حاثاً لهم على الثأر لعثمان:

لعلكم أن تروا يوماً بمغبطة خليفة الله فيكم كالذي كانا (١)
ولعلّ الوزن هو المسؤول الأول عن عدوله عن التسمية الإسلامية «خليفة رسول الله» إلى «خليفة الله» التي استنكرها أبوبكر رضي الله عنه.

وكذلك نجد الشاعر يستخدم بعض مصطلحات إسلامية كـ (أصحاب النبي) و(باب المسجد)، وهذه من صميم لغة الإسلام الجديدة .

وكأن أصحاب النبي عشيةً بَدُنْ تُنَحَّرُ عند باب المسجد (٢)
وهذا كله من أثر الإسلام كما نرى .

وترثي عاتكة بنت زيد زوجها الزبير بن العوام فتقول لقائله ابن جرموز:

والله ربك إن قتلت مسلماً حطت عليك عقوبة المتعمد (٣)

فهي تستفزع قتله رضي الله عنه لأنه مسلم ، وهذا أيضاً من جديد الرثاء الإسلامي، كما أنها تذكر الحكم الفقهي والعقوبة المنتظرة لمثل هذه الحالة، وهذه الإشارة أيضاً من جديد الرؤية الإسلامية.

وعندما يموت عبدة بن الطبيب يوصي أولاده بـ «تقى الإله» وهي فضيلة إسلامية.

(١) «ديوان حسان» (ط. د. عرفات) ، ٩٦/١ .

(٢) السابق ، ١١٨/١ .

(٣) انظر : ابن عبد البر «الاستيعاب» ، ١٨٧٩/٤ ، وابن قدامة المقدسي «التبيين في أنساب

القرشيين» ، ص ٢٨٣ .

أوصيكمُ بتقوى الإله فإنه يعطي الرغائب من يشاء ويمنع (١)

وفي رثاء أبي الأسود الدؤلي لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه يبرز مصطلح «أمير المؤمنين» نراه يمدح علياً رضي الله عنه بما اشتهر به من براعته في القضاء ، وبأنه كان حريصاً على جماعة المؤمنين وإقامة حدود الله، وكان من الحكام المتواضعين الرحماء برعييتهم، وذكر شهر الصيام ، وأشار إلى قراءة علي رضي الله عنه القرآن الكريم وحرصه على نشر العلم :

ألا ياعين ، ويحك فاسعدينا ألا تبكي أمير المؤمنين ؟
ومن لبس النعال ومن حذاها ومن قرأ المثاني والمئينا
...

يقيم الدين لا يرتاب فيه ويقضي بالفرائض مستبينا
ويدعو للجماعة من عصاه وينهك قطع أيدي السارقينا
وليس بركاتم علماً لديه ولم يُخلَق من المتجبرينا
...

أقي شهر الصيام فجعمونا بخير الناس طرا أجمعينا
ومن بعد النبي فخير نفس أبو حسن وخير الصالحينا (٢)

وواضح - مما عرضناه من شعر - أثر الإسلام في معاني الرثاء عند شعراء المسلمين، والفضائل التي كانوا يذكرونها لموتاهم وشهدائهم ، وهو أثر بارز شديد الوضوح.

(١) انظر : د. يحيى الجبوري « شعر عبدة بن الطبيب » ، ص ٤٥ .

(٢) ديوان أبي الأسود الدؤلي ، تحقيق محمد حسن آل ياسين ، ص ١١٧ - ١١٨ .

ومن الأثر الإسلامي في شعر الرثاء الذي نظمه الشعراء المسلمون في تلك الفترة ما نلاحظه من خلال متابعتنا للشعر من اقتباس لآيات ومعانٍ من القرآن الكريم. وإن كان هناك بعض الرثاء الإسلامي لم تظهر فيه هذه الروح الإسلامية أو تكاد لا تظهر. من ذلك أبيات كعب بن مالك - رضي الله عنه - التي يبكي فيها عبيدة بن الحارث إثر موته من مصاب رجله يوم بدر، والتي مطلعها:

أيا عين ، جودي ولا تبخلي بدمعكِ حقا ولا تنزري (١)

فليس فيها أثر إسلامي يُذكر، ولعل ذلك راجع إلى قلة أبياتها أو قلة ما وصلنا منها، إذ هي خمسة أبيات فقط، كما أنّها قد نظمت في وقت مبكر من إسلام أهل المدينة، الذين منهم كعب رضي الله عنه، فإنه لم يكن قد مرّ على دخولهم في الإسلام إلاّ شهور، فربّما يكون كعب لم يتهياً تماماً للتخلص من طريقة الرثاء القديمة.

تأثير الآيات القرآنية :

إذا أمعنا النظر فيما بين أيدينا من شعر رثائي وجدنا التأثير القرآني قد بدأ يظهر فيه ، ولم يكن تأثيره قوياً في بداية الأمر ، فالآيات القرآنية تستوحى من بعيد في غالب الأحيان، وبالمعنى في معظم الحالات لا باللفظ، وفي حالة الاقتباس اللفظي لانجد الآية كما هي بل يكتفي الشاعر عادة بلفظة أو لفظتين، فمثلاً يقول كعب بن مالك في رثائه لحمزة رضي الله عنهما :

(١) ابن هشام «السيرة النبوية»، ق ٢٤/٢، و«ديوان كعب بن مالك»، تحقيق د. سامي

وقتلاهم في جنان النعيم كرام المداخل والمخرج
وفي هذا البيت نجد عبارة «جنان النعيم»، التي لا توجد في القرآن على هذا
النحو، بل بلفظ «جنات النعيم» (١).

ويقول الشاعر أيضا من القصيدة نفسها:

ونعمان أوفى بميثاقه وحظالة الخير لم يُحنج (٢)
حيث نجد صدى لقوله تعالى ﴿الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون
الميثاق﴾ (٣)، وهو كما ترى استيحاء لمعنى الآية العام أكثر منه اقتباساً لألفاظها،
ففي الآية قيمتان: «الوفاء بالعهد، وعدم نقض الميثاق»، فجاء الشاعر وألف منهما شيئاً
واحداً هو «الوفاء بالميثاق».

ويقول أيضا:

أولئك لا مَن ثوى فيكم من النار في الدرك المرتج
فقد يكون إشارة إلى قوله تعالى: ﴿إن المنافقين في الدرك الأسفل
من النار﴾ (٤).

كذلك يبدو لي أن كلمة «صابر» في بيتي حسان التاليين (٥):

(١) ورد هذا اللفظ في القرآن الكريم سبع مرات .

(٢) ابن هشام «السيرة النبوية»، ق ١٣٨/٢، ١٣٩ .

(٣) الرعد، الآية (٢٠) .

(٤) النساء، الآية (١٤٥) .

(٥) من قصيدته التي يرد بها على عبدالله بن الزبير في شماتته بقتلى المسلمين، والتي
مطلعها:

أشاقك من أم الوليد ربوع بلاقع مامن أهلن جميع

ابن هشام «السيرة النبوية»، ق ١٤٢/٢ - ١٤٣ .

فقد صابرتُ فيه بنو الأوس كلهم وكان لهم ذكر هناك رفيع
وحامى بنو النجار فيه وصابروا وماكان منهم في اللقاء جزوعُ
مأخوذة من قوله تعالى : ﴿ ياأيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله
لعلكم تفلحون ﴾ (١) . لقد ترددت كلمة « الصبر » في الشعر الجاهلي وشعر
المخضرمين المشركين وبخاصة في الرثاء ، أما « المصابرة » فتبدو لي استعمالاً قرآنياً
متميزاً .

على أن الأمر في البيت التالي من القصيدة ذاتها أوضح ، يقول حسان:

وقتلاكم في النار أفضل رزقهم حميمٌ معاً في جوفها وضريعُ

ومن الواضح أنه استوحى في بيته هذا ثلاث آيات قرآنية معاً ، وهي قوله
تعالى عن أهل الجنة: ﴿ ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيا ﴾ (٢) ، وقوله تعالى عن أهل
النار: ﴿ فالذين كفروا قُطِّعت لهم ثياب من نار يُصَبُّ من فوق رؤوسهم الحميم *
يُصْنَرُ به مافي بطونهم والجلود ﴾ (٣) ، وقوله تعالى في حق أهل النار أيضاً: ﴿ ليس
لهم طعام إلا من ضريع ﴾ (٤) .

ومن قصيدة حسان اللامية التي يرثي بها حمزة سيد الشهداء نقرأ هذا

البيت:

(١) آل عمران ، الآية (٢٠٠) .

(٢) مريم ، الآية (٦٢) .

(٣) الحج ، الآيتان (١٩ ، ٢٠) .

(٤) الغاشية ، الآية (٦) .

صلى عليه الله في جنة عالية مكرمة الداخل (١)
 فيذكرنا بقوله تعالى عن قتلى المؤمنين الذين ماتوا في سبيل الله : ﴿ أولئك عليهم
 صلوات من ربهم ورحمة ﴾ (٢) ، وبقوله تعالى عن نعيم المؤمنين في الجنة : ﴿ وجوه
 يومئذ ناعمة * لسعيها راضية * في جنة عالية ﴾ (٣) .

أما قول الشاعر في القصيدة نفسها عن جبريل عليه السلام :

غداة جبريل وزير له نعم وزير الفارس الحامل

فقد يبدو لأول وهلة أنه ليس فيه شيء قرآني ، إذ لم يوصف جبريل في القرآن الكريم
 بما وصف به هارون على لسان موسى في قوله تعالى : ﴿ واجعل لي وزيراً من أهلي
 * هارون أخي ﴾ (٤) . ذلك أنه يغلب على ظني أن كلمة «وزير» هي من الكلمات التي
 أدخلها القرآن الكريم في الأدب العربي ، ولم يكن الجاهلي قد استخدمها آنذاك ،
 والأنبياء (الذين ينتمي إليهم هارون عليه السلام) والملائكة (الذين منهم جبريل عليه
 السلام) ، كلاهما مقرب من ربه ، مكرم عنده ، فليس هناك غرابة في استخدام صفة
 أحد الفريقين للفريق الآخر .

وكذلك نقف عند قول كعب بن مالك :

وأتى المنية معلماً في أسيرة نصررو النبي ومنهم المستشهد (٥)

(١) « السيرة النبوية » ، ق ١٥٦/٢ .

(٢) البقرة ، الآية (١٥٧) .

(٣) الغاشية ، الآيات (٨ - ١٠) .

(٤) طه ، الآيتان (٢٩ ، ٣٠) .

(٥) « السيرة النبوية » ، ق ١٥٧/٢ .

حيث توجد إشارة تذكرنا بما تردد في القرآن الكريم من نصر المؤمنين للرسول عليه الصلاة والسلام، من مثل قوله تعالى : ﴿ إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذَا أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِي اثْنِينَ إِذْ هَمَّا فِي الْغَارِ ﴾ (١) ، وقوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَنَصَرُوا أَوْلَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ﴾ (٢) ، وقوله تعالى : ﴿ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (٣) ، وقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مَصْدُوقٌ لِمَا مَعَكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِهِ وَتَنْصُرُوهُ ﴾ (٤).

وفي قول الشاعر من القصيدة نفسها:

شِتان من هوفي جهنم ثاويًا أبداً ومن هوفي الجنان مخلدًا
استلهم واضح لما تكرر في القرآن الكريم من المقابلة بين مصير المؤمنين
والكافرين (٥).

ومما بكى به كعب بن مالك حمزة رضي الله عنهما قوله :

يريد بذاك رضا أحمد ورضوان ذي العرش والعزة (٦)

(١) التوبة ، الآية (٤٠) .

(٢) التوبة ، الآية (٧٤) .

(٣) الاعراف ، الآية (١٥٧) .

(٤) الاعراف ، الآية (٨١) .

(٥) انظر مثلاً : الحج ، الآيات (١٩ - ٢٤) ، والنمل ، الآيتان (٨٩ - ٩٠) ، والسجدة ،

الآيات (١٨-٢٠) ، والروم ، الآيات (١٤ - ١٦) ، والزمر ، الآيات (٣٢ - ٣٤ ، ٧١-٧٤) ،

والشورى ، الآيتان (٧ - ٨) ، والزخرف ، الآيات (٦٩ - ٧٧) .

(٦) « السيرة النبوية » ، ق ١٥٨/٢ .

ففي هذا البيت نراه رضوان الله عنه ، يذكر لفظة «الرضوان»، ويسمى الله تعالى بـ«ذي العرش» ويصفه بـ«العزة»، وهذا كله من صميم المعجم القرآني ، قال تعالى : ﴿ أفمن اتبع رضوان الله كمن باء بسخط من الله ومأواه جهنم ﴾ (١) ، ﴿ وفي الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان ﴾ (٢) ، ﴿ قل لو كان معه آلهة كما يقولون إذاً لابتغوا إلى ذي العرش سبيلا ﴾ (٣) ، ﴿ ولايحزنك قولهم إن العزة لله جميعاً ﴾ (٤) ، ﴿ فله العزة جميعاً ﴾ (٥) ، ﴿ سبحان ربك رب العزة عما يصفون ﴾ (٦) .

وأغلب الظن أن وصف ابن راحة لسيد الشهداء بأنه « بَرٌّ » في البيت التالي:

ابن
أبا يَعْلَى ، لك الأركان هُدَّتْ وأنت الماجد البرُّ الوصُول (٧)
هو من تأثير لغة القرآن الكريم، الذي وصف بهذه اللفظة نفسها كلاً من يحيى بن زكريا وعيسى بن مريم، عليهم السلام: ﴿ وبراً بوالديه ولم يكن جباراً عصياً ﴾ (٨)، ﴿ وبراً بوالدتي ولم يجعلني جباراً شقياً ﴾ (٩)، كما تكرر وصفه للمؤمنين بـ«الأبرار».

(١) آل عمران ، الآية (١٦٢) .

(٢) الحديد ، الآية (٢٠) .

(٣) الإسراء ، الآية (٤٢) .

(٤) يونس ، الآية (٦٥) .

(٥) فاطر ، الآية (١٠) .

(٦) الصافات ، الآية (١٨٠) .

(٧) « السيرة النبوية » ، ق ١٦٢/٢ .

(٨) مريم ، الآية (١٤) .

(٩) مريم ، الآية (٣٢) .

وفي قول الشاعر ذاته من القصيدة نفسها:

رسول الله مصطبر كريم بأمر الله ينطق إذ يقول
نراه يشير إلى قوله تعالى : ﴿ وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى ﴾ (١) .

وفي رثاء صفية بنت عبدالمطلب لأخيها حمزة نراها تقول:

فقال الخبير إن حمزة قد ثوى وزير رسول الله خير وزير (٢)
واصفة أخاها الشهيد بأنه كان وزيراً لرسول الله ﷺ ، وهو معنى أقرب إلى الآية
القرآنية التي سبقت الإشارة إليها .

وفي البيت الذي يلي ذلك نراها تصف الله سبحانه وتعالى بأنه ﴿ ذو
العرش ﴾ ، وهو الوصف نفسه الذي وصف به كعب بن مالك مولاه عز وجل ، كما
رأيناها تقول:

دعاه إله الحق نو العرش دعوةً إلى جنة يحيا بها وسرور
وفي هذا البيت أيضاً نجد صدىً قويا لقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ ثم إذا
دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون ﴾ (٣) ، وإن لم يتطابق سياقاً الآية والبيت
تماماً ، فالآية تتحدث عن البعث، والبيت يتحدث عن استشهاد حمزة رضي الله عنه .
بيد أنه في بيت صفية نجد ذكر الجنة، وهي مرتبطة بالبعث .
وفي البيت التالي، وهو من أبيات صفية أيضاً:-

(١) النجم ، الآيتان (٣ - ٤) .

(٢) « السيرة النبوية » ، ق ١٦٧/٢ .

(٣) الروم ، الآية (٢٥) .

على أسد الله الذي كان مدرهاً ينود عن الإسلام كل كفور
تقابلنا عبارة « كل كفور » ، التي وردت بنصها في قوله تعالى عن جهنم : ﴿ ولا يخفف
عنهم من عذابها كذلك نجزي كل كفور ﴾ (١).

وفي قصيدة كعب بن مالك النونية (٢) التي يرد فيها على ضرار بن الخطاب
بعد غزوة الخندق نقراً:

بأن الله ليس له شريك وأن الله مولى المؤمنين
فنتذكر على الفور قوله سبحانه وتعالى : ﴿ ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وأن
الكافرين لامولى لهم ﴾ (٣).

كما نقراً الآيات التالية :

كما قد ردكم فلا شريداً بغيظكم خزايا خائبينا
خزايا لم تنالوا ثم خيرا وكدم أن تكونوا دامرينا
بريح عاصف هبت عليكم فكنتم تحتها متكمهينا

وهي تعكس الآيتين الكريمتين اللتين كانتا قد نزلتا بشأن هذه الغزوة، ونصها: ﴿ ورد
الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا ﴾ (٤) ، ﴿ يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله
عليكم إذ جاءكم جنود فارسنا عليهم ريحاً ﴾ (٥) .

(١) فاطر ، الآية (٣٦) .

(٢) « السيرة النبوية » ، ق ٢٥٦/٢ .

(٣) محمد ، الآية (١١) .

(٤) الأحزاب ، الآية (٢٥) .

(٥) الأحزاب ، الآية (٩) .

وفي قول حسّان بن ثابت من أبيات قالها عقب غزوة الخندق يبكي فيها سعد
(بن معاذ :

على ملة الرحمن وارث جنة مع الشهداء وفدها أكرم الوفد (١)
نجده يسمي شهداء المؤمنين الذين يدخلون الجنة بـ«الوفد»، وهي التسمية نفسها التي
يسمي بها القرآن الكريم جماعة المتقين عند حشرهم : ﴿ يوم نحشر المتقين إلى
الرحمن وفدا ﴾ (٢).

وفي عينيته التي رثى بها سعداً وغيره من شهداء المسلمين يقول:

وفوا يوم بدر للرسول وفوقهم ظلال المنايا والسيوف اللوامع
دعا فأجابوه بحق ، وكلهم مطيع له في كل أمر وسامع (٣)
وفي البيت الأخير نجد صدىً بارزاً لقوله عز من قائل: ﴿ يا أيها الذين آمنوا استجبوا
لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم ﴾ (٤)

كذلك في البيت التالي ، وهو من القصيدة نفسها:-

ونعلم أن الملك لله وحده وأن قضاة الله لا يد واقع
نجده عليه رضوان الله يقتبس قوله سبحانه : « الملك يومئذ لله ﴾ (٥).

وفي رثائه لشهداء مؤتة يقول عن جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه :

(١) « السيرة النبوية » ، ق ٢٧٠/٢ .

(٢) مريم ، الآية (٨٥) .

(٣) « ديوان حسان » (ط . د . عرفات) ، ٢٦٧/١ .

(٤) الأنفال ، الآية (٢٤) .

(٥) الحج ، الآية (٥٦) .



فصار مع المستشهدين، ثوابه جنانٌ وملتفٌ الحدائق أخضرٌ (١) حيث نجد صدىً - وإن لم يكن شديد الوضوح - لقوله عز وجل في تعداد بعض النعم الإلهية على البشر : « وجنات ألفافا » (٢) وقوله سبحانه وتعالى في الكلام عن بعض ألوان النعيم الذي سيحظى به المتقون في الآخرة : « إن للمتقين مفازا * حدائق وأعنابا » (٣) ، لقد أخذ حسناً فيما يبدو معناه من آيتين متباعدتين في سورة واحدة، تتحدث إحداهما عن نعيم الله في الدنيا ، وأخرهما عن نعيم الجنة ، ومن ناحية أخرى فقد حور حسناً في التعبيرين القرآنيين اللذين اختارهما ، ففي الوقت الذي نجد في القرآن الكريم : (ألفافا) يستخدم هو : « ملتفٌ » ، والكلمة التي وردت في القرآن الكريم وصفاً لـ « جنات » يصف بها حسناً « الحدائق » ، وحين يقول القرآن الكريم : « جنات » يجمعها حسناً جمع تكسير : « جنان » ، ثم لا يقف الأمر عند ذلك بل نراه يجمع بين كلمتي « الحدائق » و « الجنان » .

وفي القصيدة نفسها في البيت الخامس عشر نجده يقول : « أولياء الله » ، و « الكتاب المطهر » :

هم أولياء الله أنزل حكمه عليهم وفيهم والكتاب المطهر
فأما العبارة الأولى فقد جاءت بنصها في القرآن الكريم (٤) ، وأما العبارة الثانية فتذكرنا بقوله تعالى عن القرآن الكريم ﴿ في كتاب مكنون * لا يمسه إلا المطهرون ﴾ (٥) ، وقوله تعالى : ﴿ في صحف مكرمة * مرفوعة مطهرة ﴾ (٦) .

(١) « ديوان حسان » (ط . د . عرفات) ، ٩٨ / ١ - ٩٩ .

(٢) النبأ ، الآية (١٦) .

(٣) النبأ ، الآيتان (٣١ - ٣٢) .

(٤) يونس ، الآية (٦٢) .

(٥) الواقعة ، الآيتان (٧٨ - ٧٩) .

(٦) عبس ، الآيتان (١٣ ، ١٤) .

وفي المناسبة نفسها يقول كعب بن مالك من قصيدة لامية (١):

قوم بهم عصم الإله عبادهً وعليهم نزل الكتابُ المنزَّلُ

وكان الشطر الثاني من البيت تنظر إلى قوله تعالى : ﴿ وهو الذي أنزل إليكم

الكتاب مفصلاً ﴾ (٢) ، و ﴿ لقد أنزلنا كتاباً فيه ذكركم ﴾ (٣) .

وفي رثاء لبيد لأخيه أربد نجده يقول في داليتّه مادحاً صفات أخيه الكريمة:

الحارب الجابر الحريب إذا جاء نكيبا وإن يعدُّ يعدُّ (٤)

حيث تذكرنا الجملة الأخيرة في البيت بقوله تعالى : ﴿وان تعوبوا نعدُّ ﴾ (٥) ، وكذلك

بقوله تعالى : ﴿وإن عدتم عدنا ﴾ (٦) ، مع ملاحظة أن الآيتين جاءتا في سياق التهديد ،

الأولى في تهديد كفار مكة ، والثانية في تهديد بني إسرائيل ، أما البيت فهو في

مدح الأخ المقتول بأنه كان مستعداً لعطاء من يجيبه محروبا منكوباً مهما تكرر مجيئه

إليه .

وفي قصيدته العينية في رثاء أخيه أيضا يقول :

وما الناس إلا عاملان : فعامل يتَّبِرُ ما بيني ، وأخر رافعُ

فمنهم سعيدٌ أخذ لنصيبه ومنهم شقيٌّ بالمعيشة مانعُ (٧)

(١) « السيرة النبوية » ، ق ٢٨٦/٢ .

(٢) الأنعام ، الآية (١١٤) .

(٣) الأنبياء ، الآية (١٠) .

(٤) شرح ديوان لبيد ، ص ١٥٨ .

(٥) الأنفال : الآية (١٩) .

(٦) الإسراء ، الآية (٨) .

(٧) « شرح ديوان لبيد » ، ص ١٧٠ .

حيث يقتبس التقسيم الذي في البيت من قوله تبارك وتعالى : ﴿فمنهم شقي وسعيد﴾ (١)، ويستقي الألفاظ نفسها ، وإن كان قد عكس الترتيب فذكر السعيد أولاً ثم ثنى بالشقي ، مع ملاحظة أن سياقي الترتيب يختلفان ، فالشاعر يتحدث عن الدنيا، والآية الكريمة عن الآخرة .

كذلك فمن الواضح أنه في البيت الثاني من البيتين التاليين من القصيدة نفسها:

لعمرك ماتدرى الضوارب بالحصى ولا زاجرات الطير ما الله صانعُ
سلوهنَّ إن كذبتُموني: متى الفتى يذوق المنايا؟ أو متى الغيث واقع؟ (٢)
قد نظم المعنى الوارد في قوله تعالى في الموضوع ذاته: ﴿إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم مافي الأرحام وما تدري نفس ماذا تكسب غدا وماتدري نفس بأى أرض تموت﴾ (٣).

ومثل ذلك قوله في لاميته في رثاء أخيه:

إن تقوى ربنا خير نفل وبإذن الله ريثى وعجل
من هداه سبل الخير اهتدى ناعم البال ، ومن شاء أضل (٤)
الذي استوحى فيه الآيات الكريمة التالية وأخذ من ألفاظها : ﴿وتزودوا فإن خير الزاد

(١) هود ، الآية (١١٥) .

(٢) « شرح ديوان لبيد » ، ص ١٧٢ .

(٣) لقمان ، الآية (٣٤) .

(٤) « شرح ديوان لبيد » ، ص ١٧٤ .

التقوى ﴿ (١) ، ﴿بيدك الخير ﴿ (٢) ، ﴿من يهده الله فهو المهتدى ومن يضلل فلن تجد له
ولياً مرشداً ﴿ (٣) .

وفي المرثية الدالية المنسوبة لحسان في النبي ﷺ يقابلنا تعبير « جنة الفردوس » ، وهو أحد تعبيرات المعجم القرآني التي دخلت منه إلى اللغة العربية والأدب العربي ، إذ لم يكن هذا التعبير معروفاً للجاهليين ، ففي القرآن الكريم : ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نُزُلًا ﴿ (٤) ، وقد أخذها الشاعر مع تغيير «جنات» (بالجمع) إلى «جنة» (بالإفراد) استجابة لموسيقى البيت ، وهذا هو نصه:

في جنة الفردوس واكتبها لنا يا ذا الجلال وذا العُلا والسؤدد (٥)

وفي البيت الثامن عشر من القصيدة نفسها يقول الشاعر:

صلى الإله ومن يحفُّ بعرشه والطيبون على المبارك أحمد

وهو المعنى الوارد نفسه في قوله جل شأنه : ﴿إن الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليماً ﴿ (٦) ، مع التنبيه إلى اختلاف صيغة الفعل في الآية عنها في البيت ، ففي الآية جاء الفعل مرة مضارعاً وذلك عند نسبة الصلاة إلى الله سبحانه وملائكته ، ومرة فعلٌ أمرٌ (وذلك عند نسبتها إلى المؤمنين) ،

(١) البقرة ، الآية (١٩٧)

(٢) آل عمران ، الآية (٢٦) .

(٣) الكهف ، الآية (١٧)

(٤) الكهف ، الآية (١٠٧) .

(٥) « ديوان حسان » (ط . د . عرفات) ، ص ٢٦٩ .

(٦) الأحزاب ، الآية (٥٦) .

في حين جعل الشاعر الأمر كله خبيراً ، مستخدماً صيغةً واحدة هي صيغة الماضي ، كذلك استبدلت القصيدة لفظة «الإله» بلفظة «الله»، وتحولت «الملائكة» إلى «من يحف بعرشه»، وأصبحت «الذين آمنوا» «الطيبون»، وأصبحت أيضاً كلمة «النبي» «المبارك أحمد» أي أن الشاعر لم يقتبس الآية كما هي ، بل أضفى على التعبير بعض التلوينات الخاصة.

وفي الأبيات الرائية المنسوبة له في رثاء المصطفى ﷺ نجد البيت السابع يجري هكذا:

ذلت رقاب بني النجار كلهم وكان أمراً من أمر الله قد قدراً (١)
حيث نلاحظ في الحال تأثير الآية القرآنية: ﴿وكان أمر الله قدراً مقدوراً﴾ (٢).

ونقرأ في أبياته الدالية في رثائه عليه الصلاة والسلام :

بالله ما حملت أنثى ولا وضعت مثل النبي رسول الرحمة الهادي (٣)
فنتذكر قوله عز من قائل : ﴿ وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه ﴾ (٤) ، رغم اختلاف السياقين ، فالعبارة في البيت قد أتت في سياق القسم، وهي في الآية الكريمة وردت في سياق الكلام عن شمول العلم الإلهي المطلق .

وجديرٌ بنا أن نشير إلى أن الشاعر استخدم صيغة الماضي، واستخدم القرآن الكريم المضارع، وأن القرآن الكريم قد زاد الأمر تأكيداً باستعماله «من» قبل كلمة «أنثى».

(١) « ديوان حسان » (ط د . عرفات) ، ٤٢١/١ .

(٢) الأحزاب ، الآية (٣٨) .

(٣) « ديوان حسان » (ط د . عرفات) ، ٢٧٢/١ .

(٤) فصلت ، الآية (٤٧) .

كذلك فإن قول حسان في الأبيات نفسها عن الرسول ﷺ :

مصدقاً للنبيين الألى سلفوا وأبذل الناس للمعروف للحادي
 يذكرنا بتلك المعاني القرآنية التي وردت في سياق الآيتين الكريمتين : ﴿ ولما جاءهم
 رسول من عند الله مصدق لما معهم ﴾ (١)، ﴿ وهذا كتاب أنزلناه مبارك مصدق الذي
 بين يديه ﴾ (٢) .

وفي القصيدة الرائية المنسوبة إليه نجد هذا البيت :

يبكون من تبكي السماوات يومه ^{الذي} ومن قد بكته الأرض فالناس أكمد (٣)
 حيث نجد التأثير قوياً بين المعنى والعبارة في البيت ، ونظيرهما في قوله
 تعالى: ﴿ فمابكت عليهم السماوات والأرض وماكانوا منظرين ﴾ (٤) ، رغم اختلاف
 السياقين، فالآية تتحدث عن هلاك فرعون وملته ، والبيت يتحدث عن انتقال الرسول
 ﷺ إلى الرفيق الأعلى، مما ترتب عليه اختلاف التعبير، فبينما تنفي الآية بكاء السماء
 أو الأرض على فرعون وملته دالة على حقارة شأنهم وهوانه على الله عز وجل ، نجد
 الشاعر يؤكد أن السماوات والأرض تبكيان على الرسول ﷺ مشاركة للمسلمين في
 أحزانهم عليه وتعبيراً عن عظيم شأنه ﷺ وفداحة المصاب به . ومما يزيد المعنى
 جمالاً ورونقاً استخدام الشاعر للفعل المضارع في «تبكي السماوات والأرض يومه»،
 إيحاءً باستمرار هذا البكاء وعدم انقطاعه.

وفي القصيدة نفسها يقول الشاعر في حق النبي عليه الصلاة والسلام :

(١) البقرة ، الآية (١٠١) .

(٢) الأنعام ، الآية (٩٢) .

(٣) « السيرة النبوية » ، ق ٦٦٧/٢ .

(٤) الدخان ، الآية (٢٩٠) .

عزيز عليه أن يجوروا عن الهدى حريص على أن يستقيموا ويهتدوا
حيث اتكأ الشاعر بقوة على قول الحق تبارك وتعالى : ﴿ لقد جاءكم رسول من
أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم ﴾ (١) ، مع بعض
التلوينات التي اقتضاها وزن القصيدة وقافيتها .

وفيها أيضا نجد الشاعر يقول عن المصطفى ﷺ :

ربّاه وليداً فاستتم تمامه على أكرم الخيرات ربُّ محمد
مما يذكرنا بقوله تعالى في سياق آخر هو سياق امتنان فرعون على موسى عليه
السلام، وبأنه هو الذي ربّاه ورعاه سنين عدّة : ﴿ قال ألم نربك فينا وليداً ولبثت فينا
من عمرك سنين ﴾ (٢) ، وكان الشاعر إنما يردُّ من طرف خفي كلام فرعون، إذ يجعل
الله سبحانه وتعالى هو المرئي ، وكأنه يشير أيضاً إلى قوله سبحانه وتعالى ، في شأن
موسى : ﴿ ولتصنع على عيني ﴾ (٣) ، فصنع الله موسى على عينه وتربيته سبحانه
وتعالى محمداً وليداً معنيين مترادفان .

وفي رثاء حسّان للنبي ﷺ نجد البيت التالي:

أنت الذي استنقذتنا من حفرةٍ من يهو فيها هواه يبدع (٤)
وهو المعنى نفسه في قوله تعالى يمتن على المسلمين إرسال محمد عليه الصلاة

(١) التوبة ، الآية (١٢٨) .

(٢) الشعراء ، الآية (١٨) .

(٣) طه ، الآية (٣٩) .

(٤) الاشيلي « الذخائر والأعلاق » ، ص ٢٢٢ .

والسلام إليهم : ﴿ وكنتم على شفا حفرةٍ من النار فأنقذكم منها ﴾ (١) ، مع بعض التحويرات التي لاتخفى .

ومما يُنسب إلى فاطمة رضي الله عنها وأرضاها في رثاء أبيها عليه الصلاة والسلام:

اغْبِرْ أَفَاقَ السَّمَاءِ، وَكُوِّرَتْ شَمْسُ النَّهَارِ، وَأَظْلَمَ الْعَصْرَانُ (٢)

وفيه نجد هذه العبارة : « كُوِّرَتْ شَمْسُ النَّهَارِ » ، التي تحتذي قوله تعالى في وصف يوم القيامة : ﴿ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴾ (٣) ، إيحاءً بأن الكون قد اختل نظامه بموته ﷺ وأن القيامة قد قامت، والرائية هنا اشركت الطبيعة في أحزانها والامها لتصور لنا في دقة متناهية عظم هول الفاجعة وأثرها على النفوس .

ومما ورد منسوباً إلى صافية في رثاء الرسول ﷺ هذان البيتان :

خُلِقْنَا عَالِيًا وَدِينًا كَرِيمًا وَصِرَاطًا يَهْدِي إِلَيْهِ سَوِيًّا

وَسِرَاجًا يَجْلُو الظُّلَامَ مَنِيرًا وَنَبِيًّا مَسْرُودًا عَرَبِيًّا (٤)

اللذان اقتبس أولهما من قوله تعالى على لسان إبراهيم عليه السلام مخاطباً أباه :

﴿ اتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ﴾ (٥) ، على حين اقتبس الآخر من قوله تعالى عن

رسوله عليه الصلاة والسلام : ﴿ وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا ﴾ (٦) .

(١) آل عمران ، الآية (١٠٣) .

(٢) السهيلي « الروض الأنف » ، ٢٨٠/٢ .

(٣) التكوير ، الآية (١) .

(٤) الإشبيلي « الذخائر والأعلاق » ، ص ٢٢٤ .

(٥) مريم ، الآية (٤٣) .

(٦) الأحزاب ، الآية (٤٦) .

وفي هذه المرثية تقابلنا أيضا صورة تكوير الشمس لفقد النبي ﷺ :

إن يوما أتى عليك ليوم كُورَت شمسه وكانت جليا (١)
ومن أبيات منسوبة للفاروق رضي الله عنه في رثاء النبي ﷺ نقرأ هذا البيت:

ليت السماء تفتُرت أكنافها وتناثرت فيها النجوم الطلُعُ (٢)
الذي يضع نصب عينيه قوله تعالى في وصف يوم القيامة : ﴿ إذا السماء انفطرت * وإذا الكواكب انتثرت ﴾ (٣) ، مع استبدال «تفتُرت» بـ«انفطرت» و«تناثرت» بـ«انتثرت» و«النجوم» بـ«الكواكب» .

ومن مقصورة لكعب بن مالك في رثائه ﷺ نجد البيت التالي:

وكان بشيرا لنا منذرا ونورا لنا ضوؤه قد أضاء (٤)
الذي يردد ماجاء في قوله تعالى : ﴿ وما أرسلناك إلا مبشرا ونذيرا ﴾ (٥) وأشباهه .

وفي أبيات رثائية في النبي ﷺ تُنسب لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه نقرأ البيت التالي في وصف حالة المسلمين بعد وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام:

وضاق فضاء الأرض عنهم برحبه بفقد رسول الله إذ قيل : قد قضى (٦)

(١) الاشبيلي « الذخائر والأعلاق » ، ص ٢٢٤ .

(٢) العصامي « سمط النجوم العوالي » ، ٢٣٣/٢ .

(٣) الانفطار ، الأيتان (١ - ٢) .

(٤) ديوانه ، ص ١٧٣ .

(٥) الإسراء ، الآية (١٠٥) ، والفرقان ، الآية (٥٦) .

(٦) ابن شهر آشوب « مناقب آل أبي طالب » ، ٢٠٧/١ .

حيث اقتبس الشاعر قوله تعالى في سياق وصف الحالة النفسية للمسلمين في مبتدأ غزوة حنين، التي انتثر فيها عقد معظمهم عند الصدمة الأولى ثم عادوا إلى التجمع والالتفاف حول الرسول ﷺ ، وحملوا على المشركين حتى تم لهم النصر المؤزر عليهم في نهاية اليوم : ﴿ ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين ﴾ (١) .

وفي رثاء حسّان لأبي بكر رضي الله عنهما يقول عن الصديق:

وثاني اثنين في الغار المنيف ، وقد طاف العدو به إذ صعّد الجبلا (٢)
وهذا المعنى ترديد لصدى الآية القرآنية الكريمة : ﴿ إذ أخرجهم الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار ﴾ (٣) .

وفي رثائه لعثمان رضي الله عنه نقراً :

ونسوا وصاة محمد في صهره وتبدلوا بالعزّ دار بوار (٤)
حيث أخذ الصحابي الشاعر قوله تعالى : ﴿ ألم تر إلى الذين بدلوا نعمه الله كفروا وأحلوا قومهم دار البوار ﴾ (٥) ، مع بعض التحوير ، وإن كان القرآن قد حدّد دار البوار في الآية التي تلي ذلك بأنها « جهنم » .

(١) التوبة ، الآية (٢٥) .

(٢) ديوان حسان (ط . د . عرفات) ، ١ / ١٢٥ .

(٣) التوبة ، الآية (٤٠) .

(٤) ديوان حسان (ط . د . عرفات) ، ١ / ٣١١ .

(٥) إبراهيم ، الآية (٢٨) .

وفي القصيدة نفسها نقرأ قول الشاعر في البيت السادس عشر:

حاشا بني عمرو بن عوفٍ ، إنهم كُتبتُ مضاجعهم مع الأبرار
حيث نسمع صدى قوله عز وجل على لسان المؤمنين يبتهلون إلى ربهم أن «توفنا
مع الأبرار» (١) ، مع الأخذ بعين الاعتبار أن الشاعر قد عبّر عن الوفاة الواردة في
الآية بهذه الكناية: «كُتبتُ مضاجعهم»، وأن التعبير القرآني هو تعبير دعائي ، بينما
نجد أن تعبير الشاعر هنا خير لادعاء.

وفي رثائه لعثمان رضي الله عنه ، من أبيات آخر ، يقابلنا قوله عنه وعن

قاتليه:

فكف يديه ثم أغلق بابـه وأيقن أن الله ليس بغافل

...

فكيف رأيتَ الله ألقى عليهمُ الـ العداوة والبغضاء بعد التواصل (٢)

ففي الشطر الثانية من البيت الأول نجد الشاعر قد استوحى معنى الآية القرآنية
الكريمة : «ولاتحسنين الله غافلاً عما يعمل الظالمون» (٣) ، كما نجد في
البيت الآخر تأثراً جلياً بقول الحق تبارك وتعالى في شأن اليهود : «وألقينا بينهم
العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة» (٤) ، بعد تغيير شبه الجملة «بينهم» إلى «عليهم»
وزيادة عبارة «بعد التواصل» ، التي تفيد المقابلة والمقارنة بين حال المسلمين قبل مقتل
عثمان وبعده.

(١) آل عمران ، الآية (١٩٣) .

(٢) « ديوان حسان » ، (ط . د . عرفات) ، ١ / ٥١١ ، « التبيين في أنساب القرشيين » ، ص ٥٢ .

(٣) إبراهيم ، الآية (٤٢) .

(٤) المائدة ، الآية (٦٤)

ويرثى عثمان رضي الله عنه برائية يخاطب فيها زيدا أحد بني النجار:

وإن لي حاجةً يا زيد أذكرُها —————
لم أقض منها إلى ما قومنا وطرا (١)

مذكرا بالآية الكريمة في حق زيد بن ثابت ، وزواجه بزینب بنت جحش ، وطلاقه إياها رضي الله عنه وعنهما وتزوج الرسول عليه الصلاة والسلام بها كما قال تعالى : ﴿ فلما قضى زيد منها وطراً زوجناكها ﴾ (٢) ، ورغم اختلاف السياقين كما هو واضح فإن اسم «زيد» المذكور في الآية والبيت يقرب بينهما ، وإن كان المراد مع ذلك زيدين مختلفين . وأعتقد أن الذي أوحى للشاعر بهذا الاقتباس هو هذا الاسم المشترك .

وفي البيت التالي لكعب بن مالك في رثاء الشهيد عثمان رضي الله عنه مشيراً إلى قتلته:

النار موعدهم بقتل إمامهم عثمان ظهراً في البلاد عفيف (٣)

نجاهه يقتبس قوله تعالى حكاية عن الكافرين في حق النبي ﷺ : ﴿ ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده ﴾ (٤) .

وفي رثاء عبدة بن الطبيب لنفسه نراه يقتبس قوله تعالى : ﴿ وأحضرت الأنفس الشح ﴾ (٥) ، بعد إجراء بعض التحويلات ، في بيته التالي :

(١) « ديوان حسان » (ط . د . عرفات) ، ١٢٣/١ .

(٢) الأحزاب ، الآية (٣٧) .

(٣) ديوانه ، ص ٢٣٩ .

(٤) هود ، الآية (١٧) .

(٥) النساء ، الآية (١٢٨) .

ولهُيُّ من الكسب الذي يغنيكمُ يوماً إذا حضر النفوسَ المطمعُ (١)
 ومما مضى ، سواء ما بيناه من تأثر الشعراء المسلمين بالأفكار الإسلامية أو
 اقتباساتهم واستيحاءاتهم للآيات القرآنية ، يتضح بكل قوة زيف الدعوى التي تزعم
 أن الشعراء المسلمين المخضرمين لم يستجيبوا في شعرهم للجديد الذي جاء به
 الإسلام.

لكن هل يعني ذلك أن رثاء المخضرمين المسلمين قد خلا تماماً من كل أثر
 جاهلي؟

لقد سبق أن أشرنا إلى الصفات والخصال التي كان الرائي الجاهلي يمدح
 بها مرثييه من شجاعة وكرم ومجادة ... إلخ . وهذه الصفات ظل الشاعر في الإسلام ،
 سواء من المخضرمين أو ممن جاؤا بعده في العصر الأموي والعباسي ، يصر على
 ذكرها عند فقد عزيز له ، فهل هذه قيم ومناقب جاهلية؟ بعض الباحثين يرى ذلك ،
 ومنهم بشرى محمد الخطيب ، التي ترى أن حسناً في رثائه التالي لحمزة رضوان
 الله عليه :

الماليُّ الشيزي إذا أعصفت غبراء في ذي السنة الماحل
 التارك القرن لدى قرنه يعثر في ذي الخرص الذابل
 أبيض في الذروة من هاشم لم يمر دون الحق بالباطل (٢)
 يجري على الأسلوب الجاهلي (٣) ، ومثلها في ذلك د. مصطفى الشورى ، الذي يقول
 عن كعب بن مالك في رثائه حمزة رضي الله عنه :

(١) شعر عبدة بن الطبيب ، ص ٤٤ .

(٢) ديوانه (ط د . عرفات) ، ١ / ٣٢١ .

(٣) « الرثاء في الشعر الجاهلي وصدر الإسلام » ، ص ٢٧٥ .

قَرَّمُ تَمَكَّنَ فِي نَوَابَةِ هَاشِمٍ حَيْثُ النَّبُوَّةُ وَالنَّدَى وَالسُّوْدُ
وَالعَاقِرُ الكَوْمَ الجَلَادَ إِذَا غَدَت رِيحٌ يَكَادُ المَاءَ فِيهَا يَجْمُدُ
وَالتَّارِكُ القَرْنَ الكَمِيَّ مَجْدَلًا يَوْمَ الكَرِيهَةِ وَالقَنَا يَتَقَصِدُ
وَتَرَاهُ يَرِفُلُ فِي الحَدِيدِ كَأَنَّهُ نَوَابِدَةُ شَثْنِ البَرَاثِنِ أُرِيدُ

إن « الشاعر لا يختلف في رثائه عن أي شاعر آخر من شعراء الجاهلية يرثي سيداً من سادات قومه، فالشجاعة والشرف كانت من أهم الفضائل التي امتدحوها» (١). وبغض النظر عن أنه قد فاته أن يتنبه إلى ذكر كعب للنبوة في بني هاشم، الذين ينتمي إليهم حمزة رضي الله عنه، فإننا نحب أن نؤكد أن هذه المناقب - وإن رثى بها الجاهليون موتاهم وقتلهم وأكثروا من ذكرها - ليست مناقب جاهلية في ذاتها، بل هي مناقب مطلوبة ومحمودة في كل العصور، وإلا فهل كان ذلك الباحث يتوقع من الشاعر المسلم أن يخالف نظيره الجاهلي فيمدح موتاه بالجبن والضعفة والبخل؟

إن هذه الخصال كانت وما تزال وستظل خصالاً طيبة تهفو إليها القلوب وتمتدحها الألسنة والأقلام، وبدلاً من تسمية هذه الصفات صفات جاهلية فلننقل إنها صفات مشتركة بين الجاهلية والإسلام، أو صفات محايدة لا تنتمي لعصر دون عصر ولا لإطار ثقافي دون آخر، ذلك أنها كما قلت قبل قليل صفات صالحة لكل العصور، والإسلام كما نعرف لم يبلغ كل ما كان عليه الناس في الجاهلية، بل نبذ منها فقط ما كان ضاراً ومنحرفاً، وأبقى على ما كان فيها من مكارم وفضائل، وأي مكارم أكرم من الشجاعة والشرف والكرم؟

إنن فهل يفهم من ذلك أن الرثاء الإسلامي قد خلا من كل أثر جاهلي؟ .

(١) د. مصطفى عبدالشافى الشورى « شعر الرثاء في صدر الإسلام - دراسة موضوعية

في المرثية الحائية المنسوبة إلى حسان في بكاء حمزة رضوان الله عليه يتجه
الشاعر إلى من اسمها «مي» طالبا منها أن تقوم فتندب أسد الله مع نسوة أخريات
يصفهن بـ:

المعولات الخامشات وجوه حُرَّات صحائح
...

ينقضن أشعاراً لهنَّ هناك بادية المسائح
وكانها أذنباب خبي بل بالضُّحا شمس روامح (١)

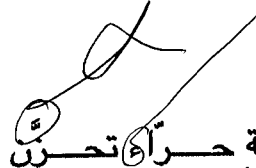
فالإعوال وخمش الوجوه ونقض الشعور على هذا النحو العنيف الذي يصوره
البيت الأخير مما نفاه الإسلام ونبذه ضمن مانبذه من أعمال الجاهلية . صحيح أن
موت حمزة رضي الله عنه كان فاجعة مأساوية شنيعة ، وربما لم يكن النهي عن ندب
الموتى بهذه الصورة قد حدث بعد ، إلا أن ذلك لا يغير شيئاً من حقيقة أن هذا أسلوب
الجاهلية في بكاء الموتى ، ولعل حساناً رضي الله عنه اختار هذه الصورة الجاهلية
لأن فيها تصويراً بليغاً لفداحة المصاب بفقد حمزة رضي الله عنه وأثر ذلك على
النفوس ، ولم يكتف بهذا بل إنه عندما أراد أن يصور دموع أولئك النسوة شبيهاً
بالأنصاب الملطخة بالدماء ، وهي صورة منتزعة من قلب الإطار الوثني في الجاهلية ،
قال :

وكان سيل دموعها الـ أنصاب تُخضَب بالذبائـح
وتقول عاتكة بنت زيد في رثاء النبي عليه الصلاة والسلام تصف الباقيات
عليه:

يضربن بالكف حرَّ الوجو ه ، على مصله جادها ثونها (٢)
ومثل ذلك قول كعب بن مالك :

(١) « السيرة النبوية » ، ق ١٥١/٢ - ١٥٥ .

(٢) ابن سعد « الطبقات الكبرى » ، ٩٨/٢ .



وياكية حراً تحزن بالبكا وتلطم منها خدّها والمقلدا (١)

وكذلك قول متمم بن نويرة :

على مثل أصحاب البعوضة فاحمشي، لك الويل، حرّ الوجه، وليبك من بكى (٢)

ويقول ليبيد باكيا على أخيه :

فبرى عظامي بعد لحمي فقدهمُ والدهر إن عاتبت ليس بمعتب (٣)

ناسباً مصيبة موت أخيه إلى الدهر ، وقد كان الجاهليون ينسبون هلاكهم إلى الدهر كما أوضحنا ذلك سابقاً ، واستشهدنا عليه من القرآن الكريم ، ويحدثنا التاريخ أن ليبيداً كان قد دخل في الإسلام قبل موت أخيه ، فإذا صحّ هذا كان رثاؤه السابق أثراً من آثار الفكر الجاهلي لم يستطع الرثاء أن يتخلص منه (٤) ، وعلى أية حال ، فهاهو ذا ليبيد في إحدى مرثيته المشهورة يصدر عن روح إسلامي ، مما يدل على أنه قالها بعد إسلامه (٥) ومطلعها :

بلينا وماتبلى النجوم الطوالع وتبقى الجبال بعدنا والمصانع (٦)

(١) « ديوان كعب بن مالك » ، ص ١٩٨ .

(٢) « مالك ومتمم ابنا نويرة اليربوعي » ، ص ٨٤ .

(٣) « شرح ديوان ليبيد » ، ص ١٥٧ .

(٤) انظر - على سبيل المثال - : شرح ديوان ليبيد ، ص ١٧٢ ، الأبيات رقم ١٨ ، ١٩ ، ٢٠ .

(٥) يعد فؤاد سيزكين ليبيداً من شعراء الجاهلية (انظر كتابه « تاريخ التراث العربي ») ،

ترجمة د. محمود فهمي حجازي ، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م ، ٣٣/٢ ، وكذلك د. محمد عبدالقادر

أحمد (انظر كتابه « دراسات في أدب ونصوص العصر الجاهلي ») مكتبة النهضة

المصرية ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م ، ص ١٧٥) ، وهذا خطأ ، فليبيد شاعر مخضرم ، وهذا من

الشهرة بحيث لا يحتاج إلى إثبات .

(٦) « شرح ديوان ليبيد » ، ص ١٦٨ وما بعدها .

ومن مخلفات الفكر الجاهلي أيضا في شعره قوله:

وليس للناب عدك في نقييرٍ ولاهم غير أصداء وهام (١)

مستخدما « الصدى والهام » دلالة على الموت ، وهي إحدى عقائد الجاهليين:

ثم هاهو ذا متمم بن نويرة في بكائه على أخيه مالك ، الذي قتل في الردة ، وكان متمم مسلماً بلا جدال، وإن كان هناك شك في إسلام أخيه حين قُتل، هاهو ذا يجعل النكبات التي تصيب الناس من صنع الدهر:

ولست إذا ما الدهر أحدث نكبة بالوث زوار القرائب أخضعا

وأكثر من هذا أن يرثي أخاه بأنه:

أغرّ كنصل السيف يهتز للندى إذا اجتزأ القوم القداح وأوقدت لهم نار أيسار كفى من تضجعا

...

والشرب فابكسي مالك ولبهمة وإن تُلغه في الشرب لاتلق فاحشاً شديد نواحيها على من تشجعا على الشرب ذا قارورة متنزعا (٢)

ذاكراً لعبه القمار وشربه الخمر (٣)، رغم تشديد تحريمهما في الإسلام .

(١) « شرح ديوان ليبيد » ، ص ٢٠٩ .

(٢) « مالك ومتمم ابنا نويرة اليربوعي » ، ص ١٦ ، ١٨ .

(٣) التفتت ابتسام الصفار إلى مدح متمم أخاه بحسن منادته على الشراب ، ولكنها لم تلتفت

إلى ما ذكره متمم عن مشاركته في القمار ولا إلى رفضه الصبر (انظر كتابها « مالك

ومتمم ابنا نويرة اليربوعي » ، ص ٤٨) . ومن الغريب أن يعد مصطفى الشورى متمماً

شاعراً مخضرمأ جاهلياً. انظر كتابه « الرثاء في العصر الجاهلي » ، ص ١٨٥ ، ٢٠٥ .

وفي رثاء أحد بني عبدالمطلب لعلي نجده يقول:

والله لو بك لم أدع أحداً إلا قتلتُ لفاتني الوثرُ (١)
مؤكداً أنه لن يهدأ له غيظ إلا إذا ثار لعلي رضي الله عنه ، ويقول إنه لو قتل الناس
جميعاً انتقاماً لعلي ما أحس أنه قد ثار له .

ومن أبيات لأبي ذؤيب في رثاء النبي ﷺ يطالعنا قوله:

ولقد زجرتُ الطير قبل وفاته بمصابه وزجرتُ سعد الأذبح
وزجرت أن نعب المشحج سانحاً متفائلاً فيه بفألٍ أقبح (٢)
وفيه يذكر زجر الطير والتشاؤم بالنعيب وما إلى ذلك مما نهى عنه الإسلام وأبطله .

وهكذا يتبين لنا أن بعض المعاني الجاهلية قد بقيت رواسبها في شعر الرثاء
الإسلامي ، وهذا معلوم بالضرورة ، إذ البشر بشر وليسوا ملائكة ، ولا يعقل أن يترك
كل واحد منهم في كل الظروف ما يكرهه الإسلام أو ينفر منه ، لكن يجب ألا نبالغ في
تقدير حجم هذه البقايا الجاهلية ، فهي قليلة جداً كما رأينا ، إذ إن ما استشهدت به في
الصفحات الماضية هو تقريبا كل ما عثرت عليه ، إضافة إلى كونها مقصورة على قلة
قليلة من الشعراء معظمهم كانوا حديثي عهد بالإسلام .

ولابد هنا من الإشارة إلى أن شعراء صدر الإسلام وإن كانوا قد ذكروا
الدهر وأسندوا إليه المصائب التي تحل بهم فلا أظنهم كانوا يعنون ذلك على الحقيقة
كما يفهم من قول بعض الباحثين ، في تحليله لعينية أبي ذؤيب الهذلي « إن هذا

(١) أبو الفرج الأصفهاني « مقاتل الطالبين » ، ص ٤٥ .

(٢) انظرها في السهيلي « الروض الأنف » ، ٣٧٩/٢ ، وابن الأثير « اسد الغابة » ، ١٨٨/٥ -

الموقف من الدهر المدمر للكائنات هو انعكاس للعقيدة الجاهلية الذاهبة إلى أنه ليس ثمة من حياة سوى الحياة الدنيا(١)، إذ كيف يكون الإنسان مسلماً ويعتقد ذلك حقاً؟ ! لذلك أرى أن هذا الاستخدام لكلمة «دهر» ما هو إلا بقايا تعبيرات جاهلية لا يؤخذ بها على حرفيتها، وربما أراد الشاعر أن يتفادى إظهار السخط على قدر الله فصب ضيقه على الدهر.

وأخيراً فلا بد من الإشارة إلى أن بعض مرثي المخضرمين المسلمين تتضح فيها تلك الفضائل المشتركة الصالحة لكل العصور ، أما تلك المعاني والمناقب التي تختص بالاسلام دون غيره فلا نكاد نجدنا عند بعضهم بتلك الدرجة من الوضوح.

ومن هذا اللون مرثية عبدة بن الطبيب في قيس بن عاصم ونصها :

عليك سلام الله قيس بن عاصم ورحمته ماشاء أن يترحمًا
تحية من ألبسته منك نعمة إذا زار عن شحط بلادك سلماً
فما كان قيس هلكه هلك واحد ولكنه بنيان قوم تهدما(٢)

ففيما عدا دعاءه للميت بالسلام والرحمة من الله لانجد فيها أي أثر إسلامي.

ومثلها أيضا أبيات حريث بن زيد الخيل في أوس بن خالد، الذي قتله رجلٌ بعثه عمر إلى البادية يدعى أبا سفيان ، ولم يكن أوس يحفظ القرآن فأنكر عليه ذلك وضربه ضرباً قاسياً أدى إلى وفاته ، فجاء حريث وقتل أبا سفيان ثم قال :

(١) يوسف اليوسف « مقالات في الشعر الجاهلي » ، دار الحقائق ، الجزائر ، ط ٣ ، ١٩٨٣م ،

(٢) « شعر عبده بن الطبيب » ، صنعة د. يحيى الجبوري ، ص ٧٨ - ٨٨ .

ألا بكر الناعي بأوس بن خالد أخي الشتوى الغبراء والزمن المحل (١)

ولن تجد في أبيات النابغة الجعدي الآتية الذكر في رثاء ابنة محارب أي أثر إسلامي، إذ ليس فيها سوى ذكر فضائله والإشارة إلى أخيه (وَحَوْح) ، الذي فقده قبل موت ابنه، إذ يقول :

ألم تعلمي أنني رزئتُ محارباً	فمالك منه اليوم شيءٌ ولا ليا
فتى كملتُ أخلاقه غير أنه	جواد فما يُبقي من المال باقيا
فتى تمّ منه مايسر صديقه	على أن فيه مايسوء الأعدايا
ومن قبله ما قد رزئتُ بوحوح	وكان ابن أُمي والخليل المصافيا
أشتمُّ طويل الساعدين سميدع	إذا لم يرُح للمجد أصبح غاديا
يُدرُّ العروق بالسنان ويشتري	من الحمد مايبقى وإن كان غاليا (٢)

وكذلك أبيات نهشل بن جري في أخيه مالك ، الذي قُتل مع علي رضي الله

عنه في صفين ، وهي :

أغر كمصباح الدجئة يتقي	قذى الزاد حتى يُستفاد أطايه
يهونٌ وجدي عن خليلي أنسي	إذا شئتُ لاقيت امرءاً مات صاحبه
أخ ماجد لم يُخزنى يوم مشهدٍ	كما سيف عمرو لم تخنه مضاربه (٣)

(١) أبوتمام « الحماسة » ، ٤٠٥/١ .

(٢) السابق ، ٥٢٣/١ .

(٣) السابق ، ٤٢١/١ .

النقائض وفن الرثاء

من خلال استعراضنا لشعر الرثاء في عهد النبوة والخلافة الراشدة نجد أن هناك نقائض شعرية عدة تصور الصراع المتبادل بين الشعراء المسلمين والمشركين سوف نسوق نماذج لها ونحلل ما اقتضت الحاجة إليه .

وقد رأى الدكتور محمد مصطفى هدارة في هذه الأشعار « فناً شعرياً جديداً .. أخذ طريقه إلى أدبنا العربي في عصر الرسول صلوات الله عليه » (١) واعتبرها «الأساس الأول الذي بنيت عليه نقائض جرير والفرزدق والأخطل في العصر الأموي» (٢) ، ويبدو أن رأيه منصف على ما آلت إليه النقائض من الناحية الفنية من نضج وتطور وازدهار ؛ على اني لا أوافقها فيما ذهب إليه لأن النقائض عرفت منذ العصر الجاهلي ، ومن شواهد ما كان من مناقضة بين امرئ القيس وشهاب وعاصم اليربوعيين ، إذ يقول امرؤ القيس :

أبلغ شهاباً ، وأبلغ عاصماً ومالكاً هل أتاك الخبرُ مالِ
أنا تركنا منكم قتلى وجرَّ حى وسبباً يا كالنُّقالي (٣)
فردُّ عليه شهاب بقوله :

لم تسبنا خيأكم فيما مضى حتى استفأنا الحيَّ من أهلٍ ومالِ
ذاك ، وكم كنديةً سوداءً قد تستقبل القومَ بوجه كالجعالِ

والنقيضة التي بين زيد الخيل وبين طفيل الغنوي ، يقول زيد :

(١ ، ٢) « دراسات في الشعر العربي » ، ٣٨/١ .

(٣) « ديوانه » ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار المعارف بمصر ، ط ٣ ، ١٩٦٩ م ، ص

وخيبة من يُغِيرُ على غنيٍّ وباهلة بن أعصر والكلاب
فأجابه طفيل الغنوي :

سمونا بالجياد إلى أعادِ مغاورةً بجدٍّ واعتصابِ
نؤمهم على رعبٍ وشحطِ بقودٍ يطلعن من النقب (١)
والمناقضة التي كانت بين الأحبِّ العدواني وقيس بن منقذ السلولي ، قال
الأحبُّ العدواني:

غداة التقينا بالمحصب من منى فلاقى بنو العنقاء إحدى العظامِ
تركنا بها عوفاً وعبداءً وأقرماً وغبشان سؤراً للنسور القشاعمِ
فأجابه قيس السلولي :

فخرت بيوم لم يكن لك فخره أحاديث طسم ، إنما أنت حالمُ
تفاخر قوماً أطردتك رماحهم أكعبُ بن عمرو ، هل يُجاب البهائم (٢)
وغير ذلك كثير ، وهذه هي النقائض التي تشترك في الوزن والقافية ، وإلا فهناك
نقائض أخرى لكنها لم تكن تلتزم البحر والروي أنفسهما .

(١) « ديوان طفيل الغنوي » ، تحقيق : محمد عبدالقادر أحمد ، دار الكتاب الجديد ، بيروت ، ط ١ ،
١٩٦٨ م ، ص ٩٦ .

(٢) انظر : أحمد الشايب « تاريخ النقائض في الشعر العربي » ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة
١٩٤٦ م ، ص ٦٢ وما بعدها ، د. سامي العاني « دراسات في الأدب الإسلامي » ، ص ١٠٠ ، د.
إحسان النص « حسان بن ثابت - حياته وشعره » ، ص ١٠٢ وما بعدها ، د. صلاح الدين الهادي
« الأدب في عصر النبوة والراشدين » ، ص ٢٧٥ وما بعدها .

ومن هنا يتضح عدم دقة القول بأن النقائض فن إسلامي جديد ، لأن عوامل ظهور النقائض في صدر الإسلام مختلفة عن نظريتها في الجاهلية ، فالنقائض في الجاهلية سببها المعارك القبلية والصراع على الكلاً والمياه والثأر أو المشاحنات الشخصية ، أما في صدر الإسلام فسبب ظهورها ديني (١) لأن الصراع قد تحول من صراع بين القبائل إلى صراع بين الإسلام والوثنية .

ومن النقائض التي دارت رحاها بين الشعراء المسلمين وبين المشركين ما كان في غزوتي بدر وأحد ، اللتين انتصر في أولهما المسلمون فتغنى شعراؤهم بانتصارهم المجيد وسخروا من المشركين وشمتموا بهم ، فرد عليهم شعراء المشركين بشعر من الوزن والقافية أنفستهما ^{من} ينقضون به معانيهم، وتكرر الأمر في أحد، ولكن بصفة معاكسة؛ إذ كان الانتصار في آخر اليوم من نصيب المشركين فأخذوا يتغنون بنيلهم ثأرهم من المسلمين مما دعا شعراء المسلمين إلى الرد عليهم ونقض ما قالوه .

والشاعر الذي ينتمي إلى الفريق المنهزم يرثي ويبكي قتلاه ويعرب عن حزنه وألمه وغيبظه هو وقومه من الهزيمة ولوعة الفقد ، ونظراً لكونه لا يستطيع أن يكابر فيما حل بقومه من هزيمة، يولّي وجهه نحو الماضي فيذكر محامد القتلى ومكارمهم، أو إلى المستقبل يهدد بالثأر، أو كليهما . وهي نظرة مغايرة لما عليه شاعر الفريق المنتصر، الذي يركز كلامه في المقام الأول على الحاضر وانتصاره، وهذا واضح مثلاً من هذين النصين اللذين يُنسب أولهما إلى ابن الزبير أو الأعشى بن زرارة بن النباش، وثانيهما لحسان رضي الله عنه .

(١) انظر - على سبيل المثال - : أحمد الشايب « تاريخ النقائض ، ص ٣١ وما بعدها، ود. سامي العاني « دراسات في الأدب الإسلامي » ، ص ١٠١ وما بعدها، ود. صلاح الدين الهادي « الأدب في عصر النبوة والراشدين »، ص ٢٧٧ وما بعدها، ود. شوقي رياض « شعر النقائض في السيرة النبوية »، مطابع الفرزدق التجارية ، الرياض ، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٧م، ص ٥ وما بعدها.

أما الأول فهو :

ماذا على بدر وماذا حوله
تركوا نبيها خلفهم ومنبها
والحارث الفياض يبرق وجهه
والعاصي بن منبه ذا مرة
تنمي به أعراقه وجدوده
وإذا بكى باكٍ فأعول شجوه
حيا إله أبا الوليد ورهطه
من فتية بيض الوجوه كرام ؟
وابنى ربيعة خير خصم فئام
كالبدر جلى ليلة الإظلام
رُمحا تميما غير ذى أوصام
ومأثر الأخوال والأعمام
فعلى الرئيس الماجد ابن هشام
رب الأنام ، وخصمهم بسلام (١)

أما الآخر فلحسان يرد عليه:

ابك ! بكت عيناك ، ثم تبادرت
ماذا بكيت به الذين تتابعوا
وذكرت منا ماجداً ذا همة
أعني النبي أخا المكارم والندى
فلمثله ولمثل ما يدعوه
وقال أيضا رضي الله عنه :
تبلت فؤادك في المنام خريدة
كالمسك تخلطه بماء سحابة
نُفجُ الحقيبة بوصها متنضد
تسقي الضجيع ببارد بسام
أوعاتق كدم الذبيح مدام
بلهاء غير وشيكة الأقسام (٢)

(١) ابن هشام « السيرة النبوية » ، ق ١٥/٢ - ١٦ .

(٢) السابق ، ق ١٦/٢ .

بنيت على قطن أجم كأنه
 وتكاد تكسل أن تجيء فراشها
 أما النهار فلا أفتر ذكرها
 أقسمت أنساها وأترك ذكرها
 يا من لعاذلة تلوم سفاهة
 بكرت علي بسحرة بعد الكرى
 زعمت بأن المرء يكرب عمره
 إن كنت كاذبة الذي حدثتني
 ترك الأحبة أن يُقاتل بونهم
 تذر العناجيج الجياد بقفرة
 ملأت به الفرجين فارمدت به
 وبنو أبيه ورهطه في معرك
 طحنتهم ، والله ينفذ أمره
 لولا الإله وجريها لتركنه
 من بين مأسور يُشد وثاقه
 ومجدل لا يستجيب لدعوة
 بالعمار والذل المبين إذ رأى
 بيدي أغر إذا انتمى لم يخزّه
 بيض إذا لاقت حديدا صممت

فضلا إذا قعدت مداك رخام
 في جسم خرعبة وحسن قوام
 والليل توزعني بها أحلامي
 حتى تُغيب في الضريح عظامي
 ولقد عصيت على الهوى لؤامي
 وتقارب من حادث الأيام
 عدم لمعتكر من الأصرام
 فنجوت منجى الحارث بن هشام
 ونجا برأس طمرة ولجام
 مر الدموك بمحصد ورجام
 وثوى أحبته بشر مقام
 نصر الإله به نوي الإسلام
 حرب يشب سعيها بضرام
 جزر السباع ودرسنه بحوامي
 صقر إذا لاقى الأسنة حامي
 حتى تزول شوامخ الأعلام
 بيض السيوف تسوق كل همام
 نسب القصار سميديع مقدام
 كالبرق تحت ظلال كل غمام (١)

ففي النص الأول ترى الشاعر المشرك المهزوم لا يستطيع أن يفعل شيئاً سوى الالتفات إلى الماضي والاستغراق في ذكر محامد قتلاه وعدّهم واحداً واحداً والبكاء عليهم وتحيتهم، وماذا يستطيع أن يفعل غير ذلك ؟ !

أما حسناً في الشعر الأول الذي نقض به هذه الأبيات ، فنلاحظ أنه يشمت بعدوه، ويتهكم ببكائه، ويأمره أن يستمر في هذا البكاء، ويدعو عليه أن تكون دموعه دماً، وألا تتوقف أبداً، ثم يحقر تلك المحامد التي ذكرها عدوه لقتلاه، داعياً إياه أن يذكر المحامد الحقيقية، وهي محامد المسلمين ونبیهم المجد ﷺ ، ذي الهمة والأخلاق السمحة، والإقدام الصادق، والمكارم والندى، وأبرّ إنسان أعطى كلمة، فهذه هي المحامد التي تستحق الذكر لا مايقوله زوراً عن قومه(١).

وفي النص الثاني يبديء حسان قصيدته على مهل بمقدمة غزلية يسترسل في وصف محبوبته مظهراً محاسنها متغزلاً في فمها وعجيزتها وسذاجة نفسها وبياض بشرتها وملاستها وكسلها وترفها وحسن قوامها ، مقسماً أنه لن ينساها حتى يموت ، وذلك في سبعة أبيات ، ثم انثنى يتحدث عن حوار دار بينه وبين امرأة تعذله على عدم غناه، فيجيبها بأنها كانت كاذبة فيما تقول ويدعو عليها أن يخزيها الله كما أخزى الحارث بن هشام ، حين فرّ من المعركة أمام المسلمين وترك أخاه وأحبته يصرعون ونجا هو بجلده جنباً منه وهلعاً ، وهي طريقة في التهكم لاذعة، تنم عن هدوء فكر، وراحة بال، ونشوة بالنصر العظيم الذي أحرزه المسلمون في بدر الكبرى .

ومن هذه النقائض نقيضتا ضرار بن الخطاب بن مرداس وكعب بن مالك رضي الله عنه ، يقول ضرار مستنكراً فخر الأوس بانتصارهم في بدر :

(١) انظر : استعراض عبدالرحمن خليل إبراهيم لهاتين النقيضتين في كتابه « نور الشعر في معركة الدعوة الإسلامية أيام الرسول ﷺ » ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر، ١٩٧١ م ، ص

عجبت لفخر الأوس والحين دائر
وفخر بني النجار إن كان معشر
فإن تك قتلى غودرت من رجالنا
وتردى بنا الجرد العناجيج وسطكم
ووسط بني النجار سوف نكرها
فنترك صرعى تعصب الطير حولهم
وتبكيهم من أهل يثرب نسوة
وذلك أنا لاتزال سـيـوفنا
فإن تظفروا في يوم بدر فإنما
وبالنفر الأخيار هم أولياؤه
يُعدُّ أبوبكر وحمزة فيهم
ويدعى أبو حفص وعثمان منهم
أولئك لا من نتجت في ديارها
ولكن أبوهم من لؤي بن غالب
هم الطاعنون الخيل في كل معرك

عليهم غدا والدهر فيه بصائرُ
أصيبوا ببدر كلهم ثم صابر
فإننا رجال بعدهم سنغادر
بني الأوس حتى يشفى النفس مائر
لها بالقنا والدارعين زوافر
وليس لهم إلا الأمانى ناصر
لهن بها ليل عن النوم سامر
بهن دم ممن يحاربين ثائر
بأحمد أمسى جدكم وهو ظاهر
يحامون في اللأواء والموت حاضر
ويدعى على وسط من أنت ذاكر
وسعدُ إذا ما كان في الحرب حاضر
بنو الأوس والنجار حين تفاخر
إذا عدت الأنساب كعب وعامر
غداة الهياج الأطيبون الأكاثر (١)

فأجابه كعب بن مالك قائلاً :

عجبت لأمر الله والله قادر
 قضى يوم بدرٍ أن نلاقي معشرا
 وقد حشدوا واستنفروا من يليهم
 وسارت إلينا لاتحاول غيرنا
 وفينا رسول الله والأوس حوله
 وجمع بني النجار تحت لوائه
 فلما لقيناهم وكل مجاهد
 شهدنا بأن الله لا رب غيره
 وقد عريت بيض خفاف كأنها
 بهن أبدنا جمعهم فتبددوا
 فكب أبوجهل صريعا لوجهه
 وشيبة والتميمي غادرن في الوغى
 فأمسوا وقود النار في مستقرها
 تلظى عليهم وهي قد شب حميها
 وكان رسول الله قال أقبلوا
 لأمرٍ أراد الله أن يهلكوا به
 على ما أراد ، ليس لله قاهر
 بغوا وسبيل البغي بالناس جائر
 من الناس حتى جمعهم متكاثر
 بأجمعها كعب جميعا وعامر
 له معقل منهم عزيز وناصر
 يمشون في الماذي والنقع ثائر
 لأصحابه مستبسل النفس صابر
 وأن رسول الله بالحق ظاهر
 مقابيس يزهيها لعينيك شاهر
 وكان يلاقي الحين من هو فاجر
 وعتبة قد غادرنه وهو عائر
 وما منهم إلا بذى العرش كافر
 وكل كفور في جهنم صائر
 بزبر الحديد والحجارة ساجر
 فولوا وقالوا : إنما أنت ساحر
 وليس لأمر حمه الله زاجر (١)

(١) « السيرة النبوية » ، ق ١٤/٢ - ١٥ .

وفي قصيدته يحاول ضرار أن يخفف من فخر الأوس مؤكدا لهم بأنه إذا كان بعض أبطال قومه قد سقطوا في المعركة صرعى ، فالموت نهاية البشر جميعاً ، ويهددهم بغزوة يغزونهم بها في عقر دارهم ، وقد امتطوا خيولهم وتسلحوا بدروعهم ورماحهم، يجندلون أبطالهم ويجعلون نساءهم مسهّدات يبيكينهم .

ومن الأساليب التي لجأ إليها للتقليل من حرارة الفخر لدى الأوس عزوه انتصار بدرٍ إلى النبي ﷺ وصحبه من القرشيين، أي أنه يريد أن يقول لهم إن قوماً منا نحن القرشيين هم الذين انتصروا علينا لا منكم أيها الأوس ، فلا يأخذكم الفخر لأنكم لم تفعلوا ما يستوجبه، ويرد عليه كعب رضي الله عنه مبيناً له أن الانتصار هم الذين استجابوا لدعوة الإسلام بعد أن رفضها القرشيون وكفروا بها واتهموا رسولها بأنه ساحر، وأن أبا جهل قد صرّع على أيديهم وذهب إلى الجحيم .

وواضح ما في منطق الشاعر المشرك من تهافت ، فإنه لن يغير من الحقيقة شيئاً سواء أكان الانتصار قد شاركوا في هزيمة قريش أم لم يشاركوا ، ففي الحالتين هناك هزيمة لحقت بالقرشيين ، وهذا هو المهم ، ثم إن الانتصار قد شاركوا فعلاً في بدر ، لكن الشاعر المشرك يحاول أن يتجاهل القضية الأساسية ويدخل في أمور فرعية ، متصوراً أنه سيلقي على الحقيقة بظلال قاتمة أو يشق صفوف المسلمين ، ويستميل فريقاً منهم إلى جانبه بإثارة النعرة القومية فيهم ، وهذا هو مدار حوله ردّ كعب ، وهو الحق الذي لا مرأى فيه ، إن المنتصر ليس بحاجة مثل المنهزم إلى التعمية وقلب الحقائق ، فانتصاره يتكلم بلسان مبين !! .

وهناك في بدر وما أعقبها نقائص أخرى يقول ابن هشام إن بعض -أو أكثر- أهل العلم بالشعر يشكّون فيها ، ومنها النقيضتان الرائيّتان ، أولاها :

ألم تر أمراً كان من عجب الدهر
 وما ذاك إلا أن قوما أفادهم
 عشية راحوا نحو بدر بجمعهم
 وكنا طلبنا العير لم نبغ غيرها
 فلما التقينا لم تكن مثنوية
 وضرب ببيض يختلى الهام حدها
 ونحن تركنا عتبة الغي ثاويها
 وعمرو ثوى فيمن ثوى من حماتهم
 جيوب نساء من لؤي بن غالب
 أولئك قوم قتلوا في ضلالهم
 لواء ضلال قواد إبليس أهله
 وقال لهم، إذ عاين الأمر واضحاً
 فإني أرى مالا ترون وإنني
 فقدمهم للحين حتى تورطوا
 فكانوا غداة البئر ألفاً وجمعنا
 وفينا جنود الله حين يمدنا
 فشد بهم جبريل تحت لوائنا
 وللحين أسباب مبينة الأمر
 فحانوا تواص بالعقوق وبالكفر
 فكانوا رهونا للركبية من بدر
 فساروا إلينا فالتقينا على قدر
 لنا غير طعن بالثقفة السمر
 مشهرة الألوان بينة الأثر
 وشيبة في القتلى تجرجم في الجفر
 فشقت جيوب النائحات على عمرو
 كرام تفرعن الذوائب من فهر
 وخلوا لواء غير محتضر النصر
 فخاس بهم ، إن الخبيث إلى غدر
 برئت إليكم مابي اليوم من صبر
 أخاف عقاب الله والله ذو قسر
 وكان بما يخبر القوم ذا خبر
 ثلاث مئين كالمسدمة الزهر
 بهم في مقام ثم مستوضح الذكر
 لدى مأزق فيه مناياهم تجرى (١)

والأخرى:

ألا يا القومي للصبابة والهجر
والدمع من عيني جودا كأنه
على البطل الحلو الشمائل إذ ثوى
فلا تبعدن يا عمرو من ذي قرابة
فإن يك قوم صادفوا منك دولة
فقد كنت في صرف الزمان الذي مضى
فإلا أمت يا عمرو أتركك ثائراً
وأقطع ظهرا من رجال بمعشر
أغرهم ما جمعوا من وشيظة
فيال لؤي ذببوا عن حريكم^{١٦}
توارثها أباؤكم وورثتم
فما لحليم قد أراد هلاككم
وجردوا لمن عاديتهم وتوازروا
لعلكم أن تثأروا بأخبيكم
بمطردات في الأكف كأنها
كان مدب الذر فوق متونها

والحزن مني والحرارة في الصدر
فريد هوى من سلك ناظمه يجري
رهين مقام للركيبة من بدر
ومن ذي ندام كان ذا خلق غمر
فلا بد للأيام من دول الدهر
تريهم هوانا منك ذا سبيل وعر
ولا أبق بقيا إخاء ولا صهر
كرام عليهم مثل ما قطعوا ظهري
ونحن في الصميم في القبائل من فهر
وألهة لا تتركوها لذي الفخر
أواسيها والبيت ذا السقف والسنتر
فلا تعذروه آل غالب من عذر
وكونوا جميعا في التآسي وفي الصبر
ولا شيء إن لم تثأروا بنوي عمرو
وميض تطير الهام بينه الأثر
إذا جردت يوما لأعدائها الخزر (١)

ففي النص الأول يتعجب الشاعر من الكفر الذي قاد القرشيين إلى حتفهم وهم يظنون أنهم يسعون إلى نصر ومجد عظيمين ، قائلاً إن المسلمين لم يكونوا في البداية يريدون غير العير ، لكن قدر الكفار أخرجهم من بلادهم رغم أن عيرهم كانت قد نجت ، وذلك ليجندلهم المسلمون ويقطفوا رؤوس أبطالهم وصناديدهم الذين أخذ الشاعر المسلم يعددهم واحداً واحداً ، فأخذت النائحات يشققن جيوبهن عليهم ، وهو يذكر أن هؤلاء الكفار كانوا يحاربون تحت لواء الضلال ، لواء إبليس الذي أثار فيهم الحمية والنخوة وساقهم إلى بدر ، لكنه عندما احتدم القتال تركهم وغدر بهم قائلاً : ﴿ إني أرى ما لا ترون ، إني أخاف الله ، والله شديد العقاب ﴾ (١) ، أما المسلمون فكان يحارب معهم الملائكة وجبريل ، فتم لهم النصر - وهم قلة - على جحافل الشرك التي بلغت ألفاً ، وهو يشير إلى البئر التي ألقيت جثثهم النجسة فيها بعد أن لقوا منايهم هناك .

والقصيدة كما ترى ممثلة فخرأً وابتهاجاً وتهكماً وشماتةً ، وهذا طبيعي ، فتلك هي مشاعر المنتصر .

أما الحارث بن هشام فيبكي ويسكب الدموع سحاً ، وتاكله الحسرة لفقد أخيه عمرو بن هشام (أبي جهل) ، الذي أخذ يحصي خصاله ، ويتذكر ما ينسبه إليه من بطولات فيما مضى ، ويهدد ويتوعد أنه سيثأر له ويقطع ظهور المسلمين بقتل صنائدهم مثلما قطعوا ظهره بقتل أخيه ، ثم يحرض قومه أن يدافعوا عن حريمهم وألتهم التي ورثوها عن آبائهم ، ويهاجم رسول الله ﷺ ، محذراً القرشيين أن يعذروه ، حاثاً لهم على أن يثأروا لأبي جهل بسيوف بتارة يقطعون بها رقاب المسلمين ، ويصفهم بأنهم أعداؤهم المتكبرون ، الذين أخذتهم عزة الانتصار فتأهوا وشمخوا على القرشيين .

ولكعب بن الأشرف وحسان رضي الله عنه نقيضتان :

الأولى لابن الأشرف وهي :

طحنت رحي بدر لهلك أهله
 قتلت سراة الناس حول حياضهم
 كم قد أصيب به من ابيض ماجد
 طلق اليدين إذا الكواكب أخلفت
 ويقول أقوام أسر بسخطهم
 صدقوا فليت الأرض ساعة قتلوا
 صار الذي أثر الحديد بطعنه
 نبئت أن بني المغيرة كلهم
 وابنا ربيعة عنده ومنببه
 نبئت أن الحارث بن هشامهم
 ليزور يثرب بالجموع وإنما
 يحمى على الحسب الكريم الأروع (١)

والأخرى لحسان رضي الله عنه وهي :

أبكي لكعب ثم علّ بعبرة
 ولقد رأيت ببطن بدر منهم
 فابكي فقد أبكيت عبداً راضعا
 ولقد شفى الرحمن منا سيذا
 ونجا وأفلت منهم من قلبه
 منه وعاش مجدعا لا يسمع ؟
 قتلى تسح لها العيون وتدمع
 شبه الكليب إلى الكليبة يتبع
 وأهان قوما قاتلوه وصرعوا
 شغف يظل لخوفه يتصدع (٢)

(١) « السيرة النبوية » ، ق ٥٢/٢ - ٥٣ .

(٢) السابق ، ق ٥٣/٢ .

فابن الأشرف يبكي قتلى قريش ويحرضها على الانتقام من الرسول ﷺ والمسلمين، وحسأن يدعو عليه بأن يزداد بكاءً ودموعاً ويعيش مجدعاً أصم أبداً الدهر ، ويشببه في بكائه بالجرو الذي يتبع جروه ، ثم يسخر من جبن الحارث بن هشام الذي فر من المعركة هرباً بجلده ، ويتغنى ابن الأشرف باستعداده لحرب الرسول ﷺ والمسلمين ثاراً لأخيه وأبطال قومه الذين جندلوا في بدر (١) .

وينقلب الوضع بعد أحد ، ولانعود نسمع أنات البكاء في شعر المشركين ، بل رنة الفخر والبهجة والشماتة بما وقع للمسلمين ، وهذا واضح في قصيدة هبيرة بن أبي وهب المخزومي ، الذي يبدوها بأبيات غزلية يتحدث فيها عن حبيبته هند (٢) وعتابها له لانشغاله عنها وردة عليها بأن الحرب هي التي شغلته ، ثم يأخذ في الكلام عن تلك الحرب وعن فرسه مطيلاً الوصف فيه هو ورمحه وسيفه وجيوش أنصارهم من قبيلة كنانة ورؤوس القتلى من المسلمين ، ويختمها بالإشادة بكرمهم والنار التي يوقدونها كل ليلة لعابري الصحراء ولن ضل بهم الطريق في ليالي الشتاء القارسة ، ويمتدح جدودهم الذين أورثوهم هذه المكارم .

فنحن نرى أن الشاعر يطيل مقدمته الغزلية ليغيب أعداءه من المسلمين ، ويسترسل في وصف سلاحه وفرسه ليغيبهم أيضاً بذلك ويشمت بهم .

ومن الطريف أن حساناً - رضي الله عنه - يرد عليه قائلاً له : إنكم قد سقتم ماسقتم من الجيوش للقتل ، وكان ينبغي أن تعتبروا بهزيمة بدر ومن قُتلوا فيها وأسروا وسيموا الخسف ، ومعروف أن المسلمين ، وإن انتصروا في البداية فقد انتهى أمرهم إلى الهزيمة بسبب مبارحة الرماة أماكنهم التي حذرهم الرسول ﷺ من مغادرتها ، ومع ذلك يتحدث حسان عن المشركين وكأنهم هُزموا في معركة أحد وقتلوا ،

(١) انظر : عبدالرحمن خليل إبراهيم « دور الشعر في معركة الدعوة الإسلامية أيام الرسول ﷺ » ،

(٢) رأينا حساناً من قبل يبدأ إحدى قصائد الانتصار في بدر بالغزل .

لكنه لا يدخل في تفصيلات ، ولا يتحدث عن جثث هامة ولا رؤوس مفلقة كما فعل هبيرة في قصيدته ، وهو ما يدل على أنه لم يستطع أن يمضي طويلا في خطته الموهمة بأن النصر كان حليف المسلمين ، كذلك فأبياته قليلة ، على عكس قصيدة هبيرة ، لأن مجال القول لم يكن متسعاً أمامه ، إذ المهزوم مضيئةً عليه الآفاق .

وهذان هما نصا النقيضتين ، قال ابن أبي وهب :

مابال هم عميد بات يطرقتني	بالود من هند إذ تعدو عواديها
باتت تعاتبني هند وتعذلني	والحرب قد شغلت عني مواليتها
مهلا فلا تعذليني إن من خلقي	ما قد علمت وما إن لست أخفيها
مساعف لبني كعب بما كلفوا	حمال عبء وأثقال أعانيها
وقد حملت سلاحي فوق مشترف	ساط سبوح إذا تجرى يباريها
كأنه إذ جرى غير بفدفة	مكدم لاحق بالعون يحميها
من آل أعوج يرتاح الندي له	كجذع شعراء مستعل مراقيها
أعدده ورقاق الحد منتخلاً	ومارنا لخطوب قد ألقىها
هذا وبيضاء مثل النهى محكمة	نيطت على فما تبدو مساويها
سقنا كنانة من أطراف ذي يمن	عرض البلاد على ما كان يزجيها
قالت كنانة : أنى تذهبون بنا ؟	قلنا : النخيل فأموها ومن فيها
نحن الفوارس يوم الجر من أحد	هابت معد فقلنا نحن نأتيها
ثُمَّ رُحْنَا كَأْنَا عَارِضُ بَرْدِ	وقام هام بني النجار يبكيها
كَأَنَّ هَامَهُمْ عِنْدَ الْوَعْيِ فُلِقَ	من قيض رُبْدٍ نَفْتَهُ عَنْ أَدَاحِيهَا

أو حنظل زعذعته الريح في غصن
 قد نبذل المال سحاً لا حساب له
 وليلة يصطلي بالفرث جازرها
 وليلة من جمادى ذات أندية
 لا ينبح الكلب فيها غير واحدة
 أوقدت فيها لذي الضراء جاحمة
 أورثني ذاكم عمرو ووالده
 كانوا يبارون أنواء النجوم فما
 بال تعاوره منها سوافيها
 ونطعن الخيل شزراً في مآقيها
 يختص بالنقري المثرين داعيها
 جرباً جمادية قد بت أسريها
 من القريس ولا تسري أفاعيها
 كالبرق ذاكيه الأركان أحميها
 من قبله كان بالثني يغاليها
 دنت عن السورة العليا مساعيها (١)

وقال حسان :

سقتم كنانة جهلاً من سفاهتكم
 أوردتموها حياض الموت ضاحية
 جمعتموها احابيشاً بلا حسب
 ألا اعتبرتم بخيل الله إذ قتلت
 كم من أسير فككناه ؟ بلا ثمن
 إلى الرسول فجدد الله مخزيها
 فالنار موعدها ، والقتل لآقيها
 أئمة الكفر غرتكم طواغيها
 أهل القليب ومن ألقينه فيها
 وجز ناصية كنا مواليها (٢)

وفي نقيضتي ابن الزبيري وحسان اللأميتين نجد الأول يتهم بحسان ويملاً
 فمه بالافتخار بانتصار أحد ، على حين نجد حساناً رضي الله عنه يلتفت إلى الخلف

(١) « السيرة النبوية » ، ق ١٢٩/٢ - ١٣١ .

(٢) السابق ، ق ١٣٢/٢ .

ويتشبهت بذكرى انتصار بدر ، بعد أن سلم في البداية بالهزيمة تسليماً سريعاً مركزاً على أن الأيام دول بين الناس ، منتقلاً إلى شدة وطأة المسلمين على قريش في بداية المعركة ، متحولاً في النهاية إلى انتصار بدر وما أوقعه المسلمون بأعدائهم (١) .

وهاتان هما النقيضتان :

شعر ابن الزبيرى :

ياغراب البين ، أسمع فقل	إنما تنطق شيئاً قد فعل
إن للخير وللشر مدى	وكلا ذلك وجهه وقبيل
والعطيات خساس بينهم	وسواء قبر مثير ومقل
كل عيش ونعيم زائل	وينات الدهر يلعبن بكل
أبلغن حسان عني أية	فقريض الشعر يشفي ذا الغل
كم ترى بالجر من جمجمة	وأكف قعد أترت ورجل
وسرابيل حسان سريت	عن كمة أهلكوا في المنتزل
كم قتلنا من كريم سيد	ماجد الجدين مقدام بطل
صاقد النجدة قرم بارع	غير ملثاك لدى وقع الأسل
فسل المهراس من ساكنه ؟	بين أقحاف وهام كالجل
ليت أشياخي ببدر شهدوا	جزع الخرزج من وقع الأسل
حين حكيت بقباء بركها	واستحر القتل في عبد الأشل

(١) انظر : عبدالرحمن خليل إبراهيم « دور الشعر في معركة الدعوة الإسلامية » ، ص ٣١٢ .

ود صلاح الدين الهادي « الأدب في عصر النبوة والراشدين » ، ص ٢٨٧-٢٩٨ .

ثم خفوا عند ذاكم رقصاً
فقتلنا الضعف من أشرافهم
لا ألوم النفس إلا أننا
بسيوف الهند علو هامهم
رقص الحفان يعلو في الجبل
وعدلنا ميل بدر فاعتدل
لو كررنا لعلنا المفتعل
عللاً تعلوهم بعد نهل (١)

أما شعر حسان ، فهو :

ذهبت يابن الزبيرى وقعة
ولقد نلتم ونلنا منكم
نضع الأسياف في أكتافكم
نخرج الأضياع من أستاذكم
إذ تولون على أعقابكم
إذ شددنا شدة صادقة
بخناطيل كأشهداف الملا
ضاق عنا الشعب إذا نجزعه
برجال لستم أمثالهم
وعلونا يوم بدر بالتقى
وقتلنا كل رأس منهم
كان منا الفضل فيها لو عدل
وكذاك الحرب أحيانا دول
حيث نهوى عللا بعد نهل
كسلاح النيب يأكلن العصل
هربا في الشعب أشباه الرسل
فأجأناكم إلى سفح الجبل
من يلاقوه من الناس يهل
وملأنا الفرط منه والرجل
أيدوا جبريل نصراً فنزل
طاعة الله وتصديق الرسل
وقتلنا كل جحاح رفل

وتركنا في قريش عورة
ورسول الله حقا شاهدا
يوم بدر وأحد ——— آديث المثل
يوم بدر والتنايل الهبل
مثل ما يجمع في الخصب الهمل
نحن لا أمثالكم ولد استها
نحضر الناس إذا البأس نزل (١)

وفي نقيضتي كعب بن مالك وضرار بن الخطاب الفهري يطالعا كعب في قصيدته باكياً شهداء المسلمين وبخاصة حمزة رضوان الله عليه، وإن كان يتعزى بأنهم إلى الجنة صائرون ، بينما قتلى قريش إلى الجحيم يؤولون لامحالة ، ويسمى الزمن بـ«الزمن الأعوج» ويجيء دور الشاعر المشرك للتهكم بكعب ، والشماتة ببيكائه ، كما كان المسلمون من قبل يصنعون مع بكاة شعراء الشرك ، والافتخار بما فعلوه بالمسلمين.

أما نقيضة كعب بن مالك فهي :

نشجت وهل لك من منشج
تذكر قوم أتاني لهم
فقلبك من ذكرهم خافق
وقتلاهم في جنان النعيم
بما صبروا تحت ظل اللواء
غداة أجابت بأسيا فها
وأشياح أحمد إذ شايعوا
وكنت منى تذكر تلجج
أحد آديث في الزمن الأعوج
من الشوق والحنن المنضج
كرام المداخل والمخرج
لواء الرسول بندي الأضوج
جميعاً بنو الأوس والخزرج
على الحق ذي النور والمنهج

فما برحوا يضربون الكماة
 كذلك حتى دعاهم مليك
 فكلهم مات حر البلاء
 كحمزة لما وفى صادقاً
 فلاقاه عبد بني نوفل
 فأوجره حرباً كالشهاب
 ونعمان أوفى بميثاقه
 عن الحق حتى غدت روحه
 أولئك لامن ثوى منكم
 ويمضون في القسطل المرهج
 إلى جنة دوحمة الموج
 على ملة الله لم يحرج
 بذى هبة صار مسلج
 ببرير كالجمال الأدهج
 تلهب في الذهب الموهج
 وحنظلة الخير لم يحنج
 إلى منزل فاخر الزبرج
 من النار في الدرك المرتج (١)

ثم نأتي إلى نقيضة ضرار بن الخطاب :

أيجزع كعب لأشياعه
 ضجيج المذكي رأى إلفه
 فراح الروايا وغادره
 فقولا لكعب يثني البكا
 لمصرع إخوانه في مكر
 فياليت عمرا وأشياعه
 فيشفوا النفوس بأوتارها
 ويبكي من الزمن الأعوج
 تروح في صادر مـحـنج
 يعجع قسرا ولم يحـدج
 وللنىء من لحمه ينضج
 من الخيل ذي قسطل مرهج
 وعتبة في جمعنا السورج
 بقتلى أصيبت من الخرج

وقتلى من الأوس في معرك
 ومقتل حمزة تحت اللواء
 وحيث انثنى مصعب ثاويًا
 بأحدٍ وأسيافنا فيهم
 بكل مجلحة كالعقاب
 فدسناهم ثم حتى انثنوا
 أصيبوا جميعاً بذى الأضوج
 بمطردٍ ، مارن ، مـخلج
 بضربة ذي هبة سلجج
 تلهب كاللهب الموهج
 وأجرد ذي ميعة مسرج
 سوى راهق النفس أو محرّج (١)

وهناك قصيدتان حائتان : إحداهما لأمية بن أبي الصلت ، والأخرى منسوبة
 لحسان ، ولكنهما ليستا نتاج وقت واحد ، إذ الأولى نظمت بعد هزيمة بدر ، والثانية
 بعد هزيمة المسلمين في أحد ، وليست الثانية رداً على الأخرى بل كتاهما بكاء وعويل
 وندب : الأولى ندب لقتلى قريش ، والأخرى ندب لحمزة ورفاقه من شهداء الإسلام .
 والذي جعلني أعهما نقيضتين وإن لم يطلق عليهما هذا المصطلح فيما اطلعت عليه -
 اتفاقهما في الوزن والقافية والمعاني والشعور ، واختلافهما في الموقف العقدي : فأمية
 يمدح المشركين ويبكي قتلاهم ويحرضهم على الثأر من محمد عليه الصلاة والسلام ،
 وحسان يبكي شهداء المسلمين ويتغنى بكارمهم وبطولاتهم ، فقصيدة أمية بن الصلت
 هي :

الأبكييت على الكرا
 كبكا الحمام على فرو
 يبكين حرى مستكيا
 أمثالهن الباكيا
 م بني الكرام أولى الممادح
 ع الأيك في الغصن الجوانح
 نات يرحن مع الروائح
 ت المعولات من النوائح

من يبكهم يبك على
 ماذا ببدر فالعقنق
 فمدافع البرقين فالحنق
 شمط وشبان بها
 ألا ترون لما أرى
 أن قد تغير بطن مكم
 من كل بطريق لبطريق
 دعموص أبواب الملو
 من السرطامة الخلا
 القائلين الفاعليين
 المطعمين الشحم فو
 نُقل الجفان مع الجفا
 ليست بأصفار لمن
 للضيف ثم الضيف بعد
 وهب المئين من المئيين
 سوق المؤبل للمؤب
 لكرامهم فوق الكرا
 كتثاقل الأبطال بالقسط
 خذلتهم فئنة وهم
 حزن ويصدق كل مادح
 ل من مرارية جحاجح
 ان من طرف الأواشح
 ليل مغاوير وحواوح
 ولقد أبان لكل لامح
 ة فهي موحشة الأباطح
 ق نقي القون واضح
 ك وجائب للخرق فاتح
 جملة الملاوثة المناجح
 من الأمرين بكل صالح
 ق الخبز شحما كالأنافح
 ن إلى جفان كالمناضح
 يعفو ولا رح حراح
 (الضيف) والبسط السلاطح
 من إلى المئين من اللواقح
 ل صادات عن بلادح
 م مزية وزن الرواجح
 اس في الأيدي الموائح
 يحمون عورات الفضائح

وكان سيل دموعها الا	انصاب تُخضب بالذبائح
ينفضن اشعاعاً لهن	هناك باادية المسائح
وكانها اذنا ب خي	بالضحى شمس روامح
من بين مشرور ، ومج	زور يذع ذع بالبوراح
يبكين شجو مسابا	ت كدحتهن الكواوح
ولقد اصاب قلوبها	مجل له جلب قوارح
اصحاب احد غالهم	دهر ألم له جوارح
من كان فارسنا وحا	مينا اذا بعث المسالح
يا حمز ، لا والله لا	انساك ما صر اللقائح (١)

ومن النقائض أيضا ما قيل عقب إجلاء بني النضير وقتل كعب بن الأشرف ،
ففي هذه النقائض نجد صوت المسلمين هو الأعلى ، ورنه الابتهاج والفخر والشماعة
واضحة في أشعارهم، وفي المقابل نجد صوت اليهود خفيضاً ذليلاً ، وغيظهم شديداً ،
وكل ما يستطيعونه هو التهديد بالتأثر .

وأسجل هنا نقیضة تنسب إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه هي :

(١) انظر: ابن هشام «السيرة النبوية»، ق ١٥١/٢-١٥٢، «الديوان»، (ط. د. عرفات)، ص ٤٥٠.

عرفت ومن يعتدل يعرف
عن الكلم المحكم الاء من
وسائل تدرس في المؤمنين
فأصبح أحمد فينا عزيزاً
فيأيها الموعده سفاها
ألستم تخافون أدنى العذاب
وأن تصرعوا تحت أسيفه
غداة رأى الله طفيلانه
فأنزل جبريل في قتله
فدس الرسول رسولا له
فباتت عيون له معولات
وقلن لأحمد ذرنا قليلا
فخلامهم ثم قال اظعنوا
وأجلى النضير إلى غربة
إلى أذرعات ردا فى وهم

وأيقنت حقا ولم أصدف
لدى الله ذي الرأفة الأراف
بهن اصطفى أحمد المصطفى
عزيز المقامة والموقف
ولم يأت جورا ولم يعنف
وما آمن الله كالأخوف
كمصرع كعب أبي الأشرف
وأعرض كالجمال الأجنف
بوحى إلى عبده ملطف
بأبيض ذي هبة مرهف
متى ينح كعب لها تذرف
فإننا من النوح لم نشترف
دحورا على رغم الأنف
وكانوا بدار نوي زخرف
على كل ذي دبر أعجف (١)

وقد ردَّ عليها سماك اليهودي بقوله :

إن تفخروا فهو فخر لكم
غداة غدوتم على حتفه
فعل الليالي وصرف الدهور
بقتل النضير وأحلافها
فإن لا أمت نأتكم بالقنا
بكف كمي به يحتمي
مع القوم صخر وأشياعه
كليث بترج حمى غيله
بمقتل كعب أبي الأشرف
ولم يأت غدرأ ولم يخيف
يديل من العادل المنصف
وعقر النخيل ولم تقطف
وكل حسام معاً مرهف
متى يلوق قرنا له يتلف
إذا غاور القوم لم يضعف
أخي غابة هاصر أجوف (١)

وهناك نقيضتان أخريان في الموضوع نفسه ، لكعب بن مالك وسماك اليهودي ، وهما تشبهان النقيضتين السابقتين ، ومدارهما على قافية الراء (٢) .

وقد ذهل في الأمر عباس بن مرداس مادحاً بني النضير بأبيات بائية ، فرد عليه خوات بن جبير ، فعاد مرداس يجيبه ، فرد عليه كعب بن مالك أو عبدالله بن رواحة ، وكل ذلك على قافية الباء (٣) .

ولحسان في يوم بني قريظة هذه الأبيات :

تفاقد معشر نصرُوا قريشاً
هم أوتوا الكتاب فضيعوه
كفرتم بالقرآن وقد أتيتم
فهان على سراة بني لؤي
وليس لهم ببلدتهم نصير
وهم عمى من التوراة بور
بتصديق الذي قال النذير
حريق بالبويرة مستطير (٤)

(١) « السيرة النبوية » ، ق ١٩٨/٢ .

(٢) السابق ، ق ١٩٩/٢ - ٢٠٠ .

(٣) السابق ، ق ٢٠١/٢ - ٢٠٣ .

(٤) السابق ، ق ٢٧٢/٢ .

وقد ردّ عليه جبل بن جوال باكيا النضير وقريظة قائلا :

ألا ياسعد سعد بني معاذٍ لما لقيت قريظة والنضير
 لعمرك إن سعد بني معاذ غداة تحملوا لهو الصبور
 فأما الخزرجي أبو حباب فقال لقينقاع لاتسيروا
 وبدلت الموالي من حضير أسيدا والدوائر فقد تدور
 وأقفرت البويرة من سلام وسعية وابن أخطب فهي بود
 وقد كانوا ببلدتهم ثقالا كما ثقلت بميطان الصخور
 فإن يهلك أبو حكم سلام فلارث السلاح ولا دثور
 وكل الكاهنين وكان فيهم مع اللين الخضارمة الصقور
 وجدنا المجد قد ثبتوا عليه بمجد لاتغيبه البدور
 أقيموا ياسراة الأوس فيها كأنكم من المخزاة عود
 تركتم قدركم لاشيء فيها وقدّر القوم حامية تفور (١)

وبعد هذا الاستعراض للنقائض التي كانت في صدر الإسلام بين المسلمين من جهة والمشركون أو اليهود من جهة أخرى نقف لتتساءل : أيهم أجاد ؟ وأيهم أخفق ؟ ومن كان أقوى عاطفة : المنتصر أم المهزوم ؟

والواقع إن الإجادة والإخفاق وقوة العاطفة يقعان للمنتصر كما يقعان للمهزوم، وإن العبرة في الفن ليست بالانتصار أو الهزيمة ، ولكن بالموهبة وسيطرة الشاعر على أدواته وتوفيقه للحظة الإنتاج المواتية ، وكما رأينا فقد وقعت الجودة في

(١) « السيرة النبوية » ، ق ٢٧٢/٢-٢٧٣ .

أشعار كلا الفريقين وكذلك التقصير ، وكانت العاطفة قوية أحيانا وفاترة أحيانا عند كل من هؤلاء وأولئك ، لكن كان واضحاً من خلال استعراضنا ودراستنا السابقة أن المنتصر يكون صوته أقوى وتكون نفسه مواتية للفخر والشماتة ، على عكس المهزوم ، الذي مهما كابر فإن الواقع والحقائق يكفانه عن التماذي في ذلك ، ولذا يأتي صوته خافتاً واهناً ، وقد كان نصيب المسلمين من الانتصار أكبر ، ولذلك كان علو صوتهم أكبر .

الرتاء

وطعوه ضعف الشعر

لكي يكتمل عقد الدراسة الموضوعية لابد أن نلقي الضوء على المستوى الفني لشعر الرثاء في صدر الإسلام لنرى صحة دعوى من قالوا إن الشعر قد ضعف ولان في ظل الإسلام ، وهي الدعوى التي بدأها الأصمعي عندما قال عن حسان إن شعره قد ضعف في الإسلام بعد أن كان قوياً في الجاهلية، لأن الشعر، كما قال ، إذا دخل في الخير ضعف ولان (١) ، ثم تابعه فيها عدد من النقاد القدامى ، والمحدثين (٢) .

والرثاء في صدر الإسلام غزير كثير منه ما قاله المسلمون ، وآخر قاله المشركون ، ومصادره كثيرة ، لأنه يغطي بضع عشرات من السنين ، وفيه الجيد الذي يرقى من الناحية الفنية ومنه غير ذلك ، على أننا لن ندرس شعر المشركين ، لأنه لا تنسحب عليه دعوى ضعف الشعر ، مادام الذين قالوها جعلوا سببها دخول الشعر في باب الخير، ومن وجهة نظر المسلم فإن رثاء هؤلاء المشركين لقتلاهم الذين صرّعوا في حربهم ضد الإسلام ونبيّه عليه الصلاة والسلام لا يُعد من الشعر الداخل في باب الخير ، وعلى هذا الأساس فإننا سنكتفي هنا بدراسة شعر المخضرمين من المسلمين لنقف على مدى صحة هذه الدعوى .

ولعلّ القصيدة الحائية المنسوبة لحسان في رثاء حمزة رضي الله عنه هي من أقوى القصائد التي نظمها، فجوها عنيف بصورها المتساوية المفجعة التي ترسم لنا

(١) انظر ابن قتيبة « الشعر والشعراء » ، ٢٢٤/١ .

(٢) انظر : المرزباني « الموشح » ، تحقيق الجاوي ، القاهرة ١٩٦٥م ، ص ٨٥ ، وابن عبد البر

« الاستيعاب » ، ٢٤٦/١ ، ومقال عبد الجبار المطلبي السابق « حسان بن ثابت في معايير

النقد » ، ص ٣١٦ وما بعدها .

النائحات النادبات وهن يلطنن وجوههن ، بل يخمثنها خمشاً ، تلك الوجوه التي يصفها الشاعر بأنها « وجوه حُرَّات صحائح » ، وقد نقضن شعورهن أمثال شعور أذئاب الخيول النافرة الرامحة في وجه الرياح الهُوج ، إضافة إلى هذه اللوحة الفظيعة التي تصور قلوبهن:

ولقد أصاب قلوبها مَجْلٌ لـه جَبُّ قـوارح

وهذه اللوحة للدهر الذي يجعله كالصائد صاحب الجوارح يرسلها على من يشاء فتطارده حتى تعقره وتصرعه :

أصحاب أحد غالهم دهرُ أَلْمُ لـه جوارح

ويبتديء عنف الجو في القصيدة ، وتخيم عليها أجواء من الحزن والألم من خلال نوبة الندب التي يتسغرق فيها الشاعر في تعداد صفات الفقيد الكريم في لهجة حرى متفجعة ملتاعة :

من كان فارسنا وحا مينا إذا بُعث المسالِح

وتظهر قوة القصيدة في هذه التوقيعات الموسيقية داخل الأبيات :

كالحاملات الوقـر بالثـ قل الملحـات الدوالِح
المعولات الخامشـشات وجوه حـرات صحـائح

من بين مزور ومـجـ زور يذعـذع بالبـوارح

من كان فارسنا وحا مينا إذا بُعث المسالِح

أودى شـبابُ أولي الحـفا نُظ والثـقـيلون المـراجـح

المطعمون إذا المشـ _____ تي ما يصففهن ناضح

شـم بطارقة غطا _____ رفة خضارمة مسامح

القائلين الفاعلين نوي السماح والمادح (١)

وفي تلك القافية الحائية التي توحى بصحل الصوت وبُحْتَه وتنقلنا إلى جو النواح والعويل المجهدين للحبال الصوتية ، وواضح أن حسناً هنا يصف منظراً يشاهده ، وأبياته تنقل لنا جوً الفاجعة في حينه حاراً ملتهباً .

وأما قصيدته اللامية التي قالها في رثاء حمزة لاترقى إلى مستوى هذه ، ولكنها في الوقت ذاته لاتخلو في بعض أبياتها من قوة وجمال عبارة وحسن سبك وديباجة صافية ، وذلك في الأبيات التي يحصي فيها مناقبه عليه رضوان الله :

الماليء الشئيزى إذا أعصفت غبراء في ذي الشبم الماحل (٢)
... الخ .

وثمة أبيات تتردد نسبتها بينه وبين أخت الشهيد ، ومطلعها :

تسائل عن قرم هجان سيمدع لدى البأس مغوار الصباح جسور

وهي تتوسط ، من حيث القيمة الفنية والقوة الشعرية ، بين القصيدتين

السابقتين ، ولعل خير أبياتها هذان البيتان اللذان ختمت بهما القصيدة :

ألا ليت شعري يوم ذاك وأعظمي إلى أضبع ينتبطني ونسور

أقول وقد أعلى النعي بهلكه جزى الله خيراً من أخ ونصير (٣)

أما قصيدة كعب بن مالك الجيمية في رثاء حمزة فهي قصيدة هادئة الحزن

نبيلته، إذ تركز على إيمانه هو ورفاقه من شهداء أحد ودخولهم الجنة جزاء صدق

(١) ديوانه (ط . د . عرفات) ، ١ / ٤٥٠ - ٤٥٢ .

(٢) السابق ، ١ / ٣٢١ .

(٣) السابق ، ١ / ١٣٣ - ١٣٤ .

بلائهم في سبيل الله، ووفائهم بميثاق الإيمان الذي عقده مع رسول الله ﷺ ، ومع ذلك فلا شك أن هذه الصورة التي رسمها لوحشي وهو يسدد حربته لسيد الشهداء على إيجازها من الصور الرائعة :

كحمة لما وفي صادقاً بذني هبة صارم سلجج
فلاقاه عبد بني نوفل يبربر كالجمل الأدعج
فأوجره حربة كالشهاب تلهب في اللهب الموهج (١)

وأما الأبيات العينية في رثاء النفس لخبيب بن عدي فإنها من القصائد الرائعة التي تميز بها هذا العصر لما تحويه من تماسك رجولي مؤمن في وجه الموت وعدم الاستسلام، ومن أسى كريم وحرارة في التوجه إلى ذي العرش بالدعاء أن يصبر صاحبها على بلواه، وبما يتردد في بعض أبياتها من القوافي الداخلية ، مثل :

وقد جمعوا أبناءهم ونساءهم وقربت من جذع طويل ممنوع
إلى الله أشكو غربتي ثم كربتي وما أرصد الأحزاب لي عند مصرعي

ولنقرأ هذه الأبيات التي تبرز فيها محاسن المقطوعة أفضل من غيرها، وبخاصة آخر بيت فيها، وهو البيت الذي صار من الأقوال السائرة على الألسن :

وذلك في ذات الإله ، وإن يشأ يبارك على أوصال شلو ممزج
فوالله ما أرجو إذا مت مسلماً على أي جنب كان في الله مصرعي (٢)

ولحسان في رثاء سعد بن معاذ ، الذي قتل في غزوة الخندق ، عدة أبيات دالية تقترب من الفنية، ومطلعها:

لقد سفحت من دمع عينيك عبرةً وحق لعيني أن تفيض على سعد (٣)

(١) ديوانه ، ص ١٨٨ .

(٢) ابن هشام « السيرة النبوية » ، ق ١٧٦/٢ .

(٣) ديوانه (ط د . عرفات) ، ٤١٥/١ .

وله في مستواها في سعد ورفاقه أبيات عينية أولها :

ألا يا قوم، هل لما حمّ دافعٌ وهل مامضى من صالح العيش راجعٌ؟ (١)

وأرى أن قصيدة كعب بن مالك في الموضوع نفسه أفضل من هاتين المقطوعتين ، بما فيها من تدفق أفكار وصور، وعاطفة جياشة، وبقايتها النونية المطلقة التي توحى بالزفير الذي يتخلص به المحزون مما يؤوده من شجن ثقيل :

وسائلة تسائل ما لقينا ولو شهدت رأتنا صابرينا
... إلخ القصيدة (٢) .

ولحسان في جعفر بن أبي طالب وشهداء مؤته رضوان الله عليهم قصيدة رائية يلائم فيها بين المقدمة التي تشغل أبياتها الثلاث الأولى ، وموضوع القصيدة الرثائي ، وفيها يلهج لسان حسان بذكر الخصال الفخمة لجعفر وبني هاشم :

تأوبني ليل بيثرب أعسرٌ وهم إذا ما نوم الناس مسهرٌ
... إلخ (٣) .

وهي قصيدة جيدة ، ومثلها جودة أبياته في استشهاد جعفر رضي الله عنه ، ومطلعها:

ولقد بكيت وعزّ مهلك جعفرٍ حبّ النبي على البرية كلها (٤)

وفي مستواها - أو أعلى قليلاً - لامية كعب بن مالك في جعفر وصحبه رضوان الله عليهم، وتبدأ بمقدمة تسح شجناً وأسى :

نام العيون ودمع عينك يهمل سحاً كما وكف الطباب المٌخضِلُ
في ليلة وردت عليّ همومها طوراً أحسنّ ، وتارة أتململ
واعتادني حزن فبت كأنني بببات نعشٍ والسماك موكلٌ

(١) ديوانه (ط . د . عرفات) ، ٢٦٧/١ .

(٢) ديوانه ، ص ٢٧٩ .

(٣) ديوانه (ط . د . عرفات) ، ٩٨/١ .

(٤) السابق ، ٣٢٣/١ .

وكأنما بين الجوانح والحشى مما تأوبنني شهاب مُدْخَلُ
 وَجَدًا عَلَى النَّضْرِ الَّذِي تَتَابَعُوا يوما بمؤتة أُسْنَدُوا لَمْ يَنْقَلُوا
 صَلَّى إِلَهَهُمْ مِنْ فَتِيَّةٍ وَسَقَى عِظَامَهُمُ الْغَمَامُ الْمُسْبِلُ (١)
 ومن الصور الجميلة صورة « اعتذار الزمان » يصف بها كعبُ جَدبِ البلاد،
 وذلك إذ يمدح بني هاشم رهط النبي ﷺ وجعفر رضي الله عنه قائلا:

بيض الوجوه ، ترى بطون أكفهم تندى إذا اعتذر الزمان الْمُحِلُّ (٢)
 وفي عينية ليبد في رثاء أخيه التي مطلعها :

بلينا وماتبلى النجوم الطوالع وتبقى الجبال بعدنا والمصانع
 نطالع عدداً من الصور الإسلامية البارعة في وصف الحياة ومحاولة التهوين
 من شأن الهلاك :

وما الناس إلا كالديار وأهلها بها يوم حلّوها وغدواً بلاقعُ
 وما المرء إلا كالشهاب وضوءه يحور رماداً بعد إذ هو ساطع

...

وما المال والأهلون إلا ودائع ولا بد يوماً أن تـرد الودائع
 ويمضون أرسالا ونخلف بعدهم كما ضمّ أخرى التاليات المشايعُ
 أتجزع مما أحدث الدهر بالفتى وأي كريم لم تصبه القوارع ؟
 ويستوقفنا هذان البيتان :

أليس ورأيي إن تراخت منيتي لزوم العصا تُحْنِي عليها الأصابع
 أَخْبِرْ أَخْبَارَ الْقُرُونِ الَّتِي مَضَتْ أَدَبٌ كَأَنِّي كَلِمًا قَمْتُ رَاكِعُ (٣)

(٢ ، ١) ديوانه ، ص ٢٦٠ - ٢٦١ ، ٢٦٣ .

(٣) « شرح ديوان ليبد » ، ص ١٦٨ وما بعدها .

وفيها يتخيل الشاعر نفسه وقد تقدمت به السن وأضناه الهرم وهما من روائع الشعر بما فيهما من استسلام حزين هاديء لما لا يمكن تجنبه من صروف الدهر، ناهيك عن هذه التفصيلات الحية النابضة، كقبض الشاعر على العصا مطبقاً عليها بأصابعه الواهية... إلخ.

وفي دالية حسان في رثاء المصطفى ﷺ التي أولها :

ما بال عينك لا تنام كأنمنا كُحلت مآقيها بكحل الأرمد ؟ (١)

يتفجع الشاعر لوفاة النبي عليه الصلاة والسلام، ويتمنى من فرط ألمه لو أنه مات قبل النبي ﷺ ، ودُفن قبله في البقيع ، بل يتمنى لو أنه شرب سمّ ثعبان أسود فهلك لتوّه، ولو أن القيامة قامت حتى يستطيع أن يلقي النبي عليه الصلاة والسلام :

جنبي يقيقك التراب ! لهفي ! ليتني	غُيِّبَتْ قبلك فـي بقيع الغرقدِ
أأقيم بعدك بالمدينة بينهم ؟	يا لهف نفسي ! ليتني لم أولدِ
بأبي وأمي من شهدت وفاته	في يوم الاثنين النبي المهتدى
فظللتُ بعد وفاته متبلاً	يا ليتني أُسقيتُ سمَّ الأسودِ
أو حلَّ أمر الله فينا عاجلاً	من يومنا في روحة أو في غد
فتقوم ساعتنا فنلقى طيباً	محضاً ضرائب كريمة المحتد

ونلاحظ تكرار لفظة التلهف وتكرار كلمة «ليتني» التي يتمنى بها أن يموت على صورة من الصور ثم يعود فيتمنى صورة أخرى من صور الموت ، وكل ذلك دليل

(١) انظر : ابن هشام « السيرة النبوية » ، ق ٦٦٩/٢ - ٦٧٠ ، « ديوان حسان » (ط.د.عرفات) ، ٢٦٩/١ - ٢٧٠ .

على مدى الحسرة والألم والتخبط أمام هول تلك الفاجعة .

وفي القصيدة نفسها يعبر حسان عن الخوف من المستقبل على مصير
الأنصار بعد وفاته عليه السلام ويصورهم وقد اسودت وجوههم :

ياويح أنصار النبي ورهطه بعد المغيب في سواء الملحد
ضاقت بالانصار البلاد فأصبحوا سوداً وجوههم كلون الإثمد
وهي كما نرى قصيدة قوية حقاً .

وفي مستواها قوة أبيات عبدالله بن أنيس العينية التي يرثي بها النبي ﷺ ،
ويبدى مخاوفه من وقوع فتنة كبرى إذا لم يتدارك المسلمون الأمر فيولأوا عليهم واحداً
من هؤلاء : علي أو أبي بكر أو عمر رضوان الله عليهم :

تطاول ليلي واعترتني القوارحُ وخطبُ جليل للبليّة جامعُ
غداة نعى الناعي إلينا محمداً وتلك التي تستكّ منها المسامع
فلوردٌ ميتاً قتلُ نفس قتلتها ولكنه لا يدفع الموت دافعُ
لآليت لا أثني على هلك هالك من الناس ما أوفى ثبيراً وفارعُ
ولكنني باكٍ عليه ومُتبعُ مصيبته : « إني إلى الله راجعُ » (١)
... إلخ الأبيات .

وليس كل ما نظم في رثاء النبي عليه الصلاة والسلام يرقى من الناحية الفنية،

(١) انظر : ابن سعد « الطبقات الكبرى » ، ٢ / ٣٢٠ - ٣٢١ .

فهناك لكعب بن مالك شعر فيه ﷺ (١) ، ليس من القوة الفنية بمكان وكذلك الحال بالنسبة لحسان.

ومن أروع المراثي في صدر الإسلام شعر متمم في رثاء أخيه مالك ، ومنها أبياته الرائية التي يُبَكَّتُ فيها قاتل أخيه ويتهمه بأنه أمَّنه باسم الله فلما أمِنَ له غدر به ، وهي أبيات تفيض لوعةً وتحسراً ، ومنها قوله:

نعم القتيل إذا الرياح تناوحت تحت الإزار قتلت يا ابن الأزورِ

أدعوته بالله ثم قتلته لو هو دعاك بدميةٍ لم يَغْدِرِ (٢)

وما أبدع تصوير الأبيات التالية للحزن ، الذي كان يغلب الشاعر وهو يحاول أن يتماسك ويقبض عينيه فتغلبه أشجانه، وتنهل دموعه ويتتابع سيلانها رغماً عنه:

وهيج لي حزناً تذكر مالك فما نمتُ إلا والفؤاد مروعُ

إذا عبرة ورعتها بعد عبرة أبت واستهلَّت عبرة ودموعُ

كما فاض غرب بين أقرنِ قامةٍ يروِّي دياراً ماؤه وزروعُ

جديدُ الكلى واهي الأديم تبينه عن العبر زوراءِ المقام نزوعُ

لذكرى حبيب بعد هدءِ ذكرته وقد حان من تالي النجوم طلوعُ (٣)

ويرسم لنا صورة بديعة لتجاوب مشاعره في جنح الليل مع بكاء الحمام الذي ينكأ جرحه كلما هدأت زادت أشجانه هيجاناً:

(١) انظر: « الطبقات الكبرى » ، ٢٤٧/٢ ، والذخائر والأعلاق ، ص ٢٢٣ ، ومناقب آل أبي

طالب ، ٢٨١/١ ، ومع هذا يقول د. محمد طاهر درويش إنه لم يقف لكعب بن مالك على

شعر له في رثاء الرسول ﷺ (انظر كتابه : « حسان بن ثابت » ، ص ٤٤١) ، مع أن له

فيه ﷺ مراثي عدة .

(٢) « مالك ومتمم ابنا نويرة اليربوعي » ، ص ٩١ .

(٣) السابق ، ص ١٠٢ .

إذا رقات عيناى ذكّرني به — حمامٌ تنادي في الغصون وقوعُ
دعون هديلاً فاحتزنتُ لمالكٍ وفي الصدر من وجدٍ عليه صدوعُ
كأن لم أجالسه ولم أمس ليلة أراه ولم يُصبح ونحن جميعُ (١)
وصدق متمم ، فهكذا الحياة والممات : فقد نكون في سعادةٍ بصحبة الأحياء
خالين من كل هم وقلق، وإذا بالموت يتخطفهم منا، وننظر حولنا فلا نجد لهم أثراً،
وكانهم لم يكونوا ولم يوجدوا !!

ومن ذا الذي يقرأ الأبيات التالية ثم ليهتز كيانه من روعة الفن وعمق الشعور

وبديع التصوير، وهي متمم أيضاً في أخيه:

أرى كل حبل دون حبلك أقطعا أبى الصبر آيات أراها، وإنني
سريعاً إلى الداعي إذا هو أفزعا وقد كان مجذاماً إلى الحرب ركضه
وكنتَ جديراً أن تجيب وتسمعا وإني متى ما أدع باسمك لاتجب
ويحوي الجناح الريش أن يتزعما وكان جناحي إن نهضتُ أقلني
أصاب المنايا رهط كسرى وثبعا وعشنا بخير في الحياة ، وقبلنا
من الدهر حتى قيل لن يتصدعا وكنا كندمانى جزيمة حقة
لطول اجتماع لم نبت ليلة معا (٢) فلما تفرقنا كآني ومالكاً

وهاهو الشاعر يعود في البيت الأخير لمثل ما قاله في آخر بيت من الأبيات

السابقة:

كأن لم أجالسه ولم أمس ليلة أراه ولم يصبح ونحن جميعُ (٣)

ونمضي مع الشاعر في ذكره مناقب أخيه :

(١) « مالك ومتمم ابنا نويرة اليربوعي » ، ص ١٠٣ .

(٢) السابق ، ص ١١٠ .

(٣) السابق ، ص ١٠٣ .

فإن تكن الأيام فرقت بيننا فقد بان محموداً أخي حين ودعاً

فتى كان أحيا من فتاة حيية وأشجع من ليث إذا ما تمتعا (١)

فنكاد ننسى أنفسنا لجمال الفن في هذين البيتين وما في ثانيهما من تصوير

فني رائع إذ وصف الشاعر أخاه بشدة الحياء في أوقات السلم، وجعله في هذه

الصورة فتاة حيية أشد من الحياء نفسه، وفي الصورة المقابلة نجد هذا الأخ الحيي

يتحول حين يستثار إلى أسد هصور يدافع عن كرامته ويحمي عرينه ، ولنواصل

القراءة :

أقول وقد طار السننا في ربابه وجون يسح الماء حين تريعا

سقى الله أرضا حلها قبر مالك ذهب الغواني المدجنات فأمرعا

...

فوالله ما أسقي البلاد لحبها ولكنني أسقي الحبيب المودعا

ويقص علينا متم ملامة إحدى النساء له على ما صار إليه من حزن كاد ~~ال~~

يأتي عليه، وجوابه عليها بأن ذلك أثر الوجد على من فارقه من الإخوة والأحباب :

تقول ابنة العمري: مالك بعدما أراك حديث ناعم البال أفرعا

فقلت لها، طول الأسى، إذ سألتني، ولوعة حزن تترك الوجه أسفعا

وفقد بني أم تداعوا فلم أكن خلافهم أن أستكين وأضرعا

...

وغيرني ماغال قيساً ومالكاً وعمراً وجزءاً بالمشقر المعاً

(١) « مالك ومتمم ابنا نويرة اليربوعي ش ، ص ١١٢ .

ثم يستحلفها ألا تفتاحه في هذا الموضوع ثانية حتى لاتنكأ جراحاته :

قعيدك ألا تسمعيني ملاماً ولاتنكسىء قرح الفؤاد فييجعا

ويمكن القول أن هذا ليس بشعر ، بل هو سحر (إن جاز لنا هذا التعبير).

وهو في صدر الإسلام، فكيف يقال إن الشعر قد ضعف عند مجيء الإسلام ؟

ولحسان مرثية قليلة الأبيات في سليط بن قيس النجاري ، الذي قتل في وقعة

الجرس في قسّ الناطف زمن عمر وفيها نفسٌ حارٌ وعاطفة صادقة ، لكنها ليست في

مجملها بالشعر الرائع، ومع ذلك فإن فيها هذا البيت :

فإني لباكٍ ماحييتُ ، ولو بكسى على الميتِ ميّتٌ جدتُ بالدمع في قبري(١)

وهو بيت عجيب بصورته هذه الرائعة في التعبير عن شدة الحزن واستمرار

البكاء على فقد الهالكين .

ومن قصائد الرثاء في صدر الإسلام عينية أبي نؤيب في أولاده ، تلك

القصيدة العامرة بالفكر العميق ، والشجوة الدفين ، والحكم الغوالي ، واللوحات

التصويرية الرائعة والتي تبدأ كل منها بقول الشاعر: « والدهر لا يبقى على حدثانه » ،

ولست محتاجاً إلى أن أتوقف عندها لأبين مافيه من جمال، فقد سبق إلى تحليلها

عدد من النقاد ومؤرخي الأدب(٢) ، وهناك إجماعٌ على روعتها .

(١) « ديوانه » (ط.د. عرفات) ، ٤٢٢/١ .

(١) من هؤلاء - على سبيل المثال - : د. محمد النويهي في كتابه : « في الشعر الجاهلي -

منهج في دراسته وتقويمه » ، الدار القومية للطباعة والنشر ، القاهرة ، ٦٤٩/٢ .

...

.....

وهناك مقطوعات في رثاء أبي بكر وعمر والزيبر، ولكن ليس في أي منها هذه اللوعة ولا القوة اللتان وجدتهما في رثاء لبيد لأخيه ، ولا في رثاء حسان للرسول عليه الصلاة والسلام ولا في رثاء متمم لأخيه ، ولا في رثاء أبي نؤيب لأبنائه . أما المراثي التي قالها حسان في عثمان فتجلجل بالتهديد بالثأر ، لأن رثاءه له « يفيض حباً ومرارة وحماسة ويشتعل تحريضاً وتهديداً ، وفيه صدق العاطفة ، وإحكام القول وقوة العبارة وإن أكثره لذلك جيد » (١) ، مثل:

أتركتم غزو الدروب وجئتم	لقتال قوم عند قبر محمدٍ ؟
فلبئس هدي الصالحين هويتم	ولبئس فعل الجاهل المتعمد
إن تقبلوا نجعل قرى سردياتكم	حول المدينة كل لدنٍ مُنود
أو تدبروا فلبئس ما سافرتم	ولثل أمر إمامكم لم يهتد
وكان أصحاب النبي عشية	بدنٌ تُنحرُّ عند باب المسجد (٢)

ومثل :

ضحوا بأشمط عنوان السجود به	يقطع الليل تسبيحا وقرآنا
لتسمعن وشيكا في دياركم	الله أكبر ! يا ثارات عثمانا
وقد رضيت بأهل الشام زافرة	وبالأمير وبالإخوان إخوانا
إني لمنهم وإن غابوا وإن شهدوا	حتى الممات وما سُميت حسانا

....

شدوا السيوف بثني في مناطقكم حتى يحين بها في الموت من حانا (٣)

(١) انظر : د. محمد طاهر درويش « حسان بن ثابت » ، ص ٤٤٨ وما بعدها .

(٢) ديوانه (ط . د . عرفات) ، ١١٨/١ .

(٣) السابق ، ٩٦/١ .

وفي مرثية ثالثة نراه يقارن بين من وقفوا مع عثمان رضي الله عنه ومن تخلوا عنه وغدروا به ونسوا وصية رسول الله ﷺ في نوبي قرياه، وتركوه وحيداً يواجه مصيره مع الجموع الهائجة المسعورة، ويهدد كالعادة قتلته بأنهم لن يفلتوا من العقاب ، وكل ذلك في أسلوب متوتر ومشاعر لاهبة تدمم بالغضب :

أوفت بنو عمرو بن عوفٍ نذرها وتلوّنت غدرا بنو النجار
وتخاذلت يوم الصفيظة إنهم ليسوا هنالكُم من الأخيار
ونسوا وصاة محمد في صهره وتبدلوا بالعز دار بـوار
أتركتموه مفردا بمضيعة تنتابه الغوغاء في الأمصار
لهفان يدعو غائباً أنصاره ؟ ياويحكم يامعشر الأنصار
هلا وفيتم عندها بعهدكم وفديتمُ بالسَّمع والأبصار ؟
جيرانه الأدنون حول بيوته غدروا ورب البيت ذي الأستار
إن لم تروا مددا له وكتيبة تهدى أوائل جحفل جرار
فعدمتُ ماولد ابن عمر ومنذر حتى ينيخ جموعهم بصرار

...

لايحبسن المرجفون بأنهم لن يُطلبوا بدماء أهل الدار (١)

ولكعب بن مالك أكثر من مرثية في عثمان رضي الله عنه ، وأرى أن فائيته

وأولها:

يا للرجال للبك المخطوف ولدمعك المترقرق المنزوف (٢)

(١) ديوانه (ط د . حسنين) ، ص ٣١١ - ٣١٢ .

(٢) ديوانه ، ص ٢٢٨ .

أقوى من نوبيته ، التي مطلعها :

يا للرجال لأمر هـاج لي حزنا لقد عجبتُ لمن يبكي على الدمن (١)
ومن رائيته ، التي تبدأ بقوله :

فإن أمسي قد أنكرت جسمي وقوتي وأدركني ما يدرك المرء في العمر (٢)
وهي أشد أثراً وأقوى تأثيراً وأجزل أسلوباً ، فيها يتخيل الجبال وقد هدأها
الخبر الفاجع ، والنجوم قد خضعت ، والشمس قد كسفت ، ويرسم مشهد جنازته وقد
حُمِلَ نعشه فوق الأكتاف ، ثم يدلى في حفرة القبر ، وينطلق فيعدّد فضائله الكريمة
مركزاً من بينها على رحمته باليتيم :

ويح لأمر قد أتاني رائع هدّ الجبال فانقضت برجوف

...

قتل الإمام له النجوم خواضع والشمس بازغمة له بكسوف
يالهدف نفسي إذ تولوا غدوة بالنعش فوق عواتق وكتوف
ولوا ودلوا في الضريح أخاهم ماذا أجنّ ضريحه المسقوف ؟

...

كم من يتيم كان يجبر عظمه أمسى بمنزلة الضياع يطوف
فرجتها عنه برحمتك بعدما كادت وأيقن بعدها بحتوف

(١) « ديوان كعب بن مالك » ، ص ٢٨٢ .

(٢) السابق ، ص ٢١١ .

ما زال يقبلهم ويرأب ظلمهم حتى سمعتُ برنة التلهيف (١)
ومن الرثاء الإسلامي الجيد تلك القصيدة التي رثى بها عبده بن الطبيب
نفسه، فأدخل فيها ألواناً من المعاني، وصوّر فيها ضروباً من المشاعر: فمن تذكر
لماضيه وافتخار بإنجازاته فيه وما تحقق لأولاده بسببها من مجد ، إلى نصائح يتركها
لأولاده يوصيهم فيها بتقوى الله ويحذرهم من التفرق والاستماع لنميمة أناس معينين
نكروهم لهم، إلى تخيل لما يحدث له بعد موته من وضعهم إياه في رمسه وانصرافهم
عنه، وتلاعب الريح بتراب قبره، مشيراً إلى أن هذا مصير كل حيّ : فكل منا يجمع
المال ويسعى ويجتهد، ثم يأتيه الموت فإذا هو قد ترك كل شيء لمن وراءه، كل ذلك في
شعر جياش بالشعور الحارّ والصوّر الممتعة والأسلوب القوي ، وهذه بعض أبيات تلك
القصيدة :

أبنى، إني قد كبرتُ ورا بني بصري ، وفيّ لمصلح مُسْتَمْتَعُ
فلئن هلكتُ لقد بنيت مساعيا تبقى لكم منها مآثر أربع

...

ودعوا الضغينة لاتكن من شأنكم إن الضغينة للقرابنة توضع
واعصوا الذي يزجي النمائم بينكم متنصّحاً . ذاك السّمَامُ المنقَعُ
يُزْجِي عِقَارِبه لِيبعث بينكم حرباً كما بعث العروق الأخدعُ
حرّان لايشفي غليل فؤاده عَسَلُ بماءٍ في الإناء مشعشعُ

(١) « ديوان كعب بن مالك » ، ص ٢٣٨ - ٢٣٩ .

لاتأمنوا قوما يشب صبيهم بين القوابل بالعداوة ينشعُ
فضلت عداوتهم على أحلامهم وأبت ضباب صدورهم لاتنزعُ
قوم إذا دمس الظلام عليهم حدجوا قنافذ بالنميمة تمزعُ

...

ولقد علمت بأن قصري حفرة غبراء يحملني إليها شرجعُ
فبكى بناتي شجوهن وزوجتي والأقربون إلى ثم تصدعوا
وتركت في غبراء يكره وردها تسفي على الريح حين أودعُ

...

إن الحوادث يخترمن ، وإنما عمر الفتى في أهله مستودعُ
يسعى ويجمع جاهدا مستهترا جدا ، وليس بأكل ما يجمع
حتى إذا وافى الحمام لوقته ولكل جنب لا محالة مصرع
نبذوا إليه بالسلام فلم يجب أحداً ، وصم عن الدعاء الأسمع (١)

وانظر إلى الشاعر يتحدث عما يحدث له بعد موته وكأنه يتكلم عما يحدث

لشخص آخر حتى لتظن أنه غير مبالٍ بذلك ، فيقول :

وتركت في غبراء يكره وردها تسفي على الريح حين أودعُ

ويرسم صورة نافذة للنائم محذراً أولاده منها : إنها مرة سم زعاف ، ومرة

عقارب ينجيها هؤلاء الشانئون ، ومرة قنافذ تمزع فهي قنافذ ذات أشواك حادة

لا سبيل إلى التغلب على صاحبها الذي تكور على نفسه وأخفى نقاط الضعف فيه ولم

(١) « شعر عبدة بن الطبيب » ، ص ٤٧ - ٥١ .

يظهر منه إلا تلك الأشواك ، ومرة ضبابٌ معقودةُ الأذنان قد لاذت بجحورها التي
اتخذتها داخل قلوبهم فلا تخرج منها أبداً .

وانظر كذلك إلى تصويره فظاعة البُغْض في قلوب هؤلاء الحاقدين بأنهم لو
خالط قلوبهم عَسَلٌ مشعشع فإن كل الحلاوة التي فيه لن تزيل مرارة الكراهية التي
يكنونها لأولاده :

حرَّان لايشفي غليل فؤاده عسلُ بماءٍ في الإناء مشعشع ؟
ذلك أن هذه القلوب قد نشأت على الكراهية التي غذتْهم وسقتهم بها قوايلهم
وأمهاتهم:

لاتأمنوا قوما يشب صبيهم بين القوايل بالعداوة يُنْشَع

فطغت عداوتهم على عقولهم فليس هناك وسيلة إلى تخليصهم منها:

فضلت عداوتهم على احلامهم ^{وأببر} وأبيت ضباب صدورهم لاتنزعُ

إن هذه التحذيرات التي يوصي بها الأبُ أولاده تكشف عن مدى تمسكه
بالحياة. إن الموت الذي هو مقبل عليه لايشغله أبداً عن الحياة التي سيخلفها وراءه
ويرحل ، إنه يشبه الطفل الذي ينتزعونه من حضن أمه ليمضوا به بعيداً ، لكنه يتشبث
بها وينظر بكل كيانه إليها ويصيح مستغيثاً بها .

ومن الرثاء الجيد تلك الأبيات التي قالتها أم الهيثم بنت الأسود النخعية في
رثاء أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، ومطلعها:

ألا ياعين ، ويحك فاسعدينا ألا تبكي أمير المؤمنين؟ (١)

(١) انظر : أبو الفرج الأصفهاني « مقاتل الطالبين » ، ص ٤٣ - ٤٤ .

ومن هذا الاستعراض السريع نصل إلى أن الرثاء في صدر الإسلام فيه الجيد الذي يرقى إلى مكانة فنية عالية القيمة ، وفيه مادون ذلك ، وهذا ليس أمراً خاصاً به ، بل إن أشعار الجاهلية التي يقاس إليها شعر صدر الإسلام ويحكم عليها في ضوءها هي أيضاً فيها الجيد والرديء ، وقد رأينا في أشعار الرثاء في الفترة التي ندرسها قصائد يندر أن نجد شبيهاً لها في القوة وشدة التأثير ، كحائية حسان في رثاء حمزة ، وبعض مرثي لبيد في أخيه ، ودالية حسان في رثاء الرسول ﷺ ، وبعض من شعر متمم بن نويرة في أخيه مالك ، وعينية أبي ذؤيب في بكاء أولاده ، وعينية عبدة بن الطبيب في رثاء نفسه

وهكذا يتضح لنا أن مقولة ضعف الرثاء في صدر الإسلام غير صحيحة، ففي هذا الشعر - كما رأينا - الجيد والرديء ، ولكن يبقى سؤال بعد وهو لم كان هذا التفاوت ؟ إن هناك لونين من التفاوت : تفاوت بين شاعر وآخر ، وتفاوت كذلك في شعر الشاعر الواحد ، فبالنسبة للتفاوت في الموهبة الشعرية ، فإن الشعراء ليسوا سواء في مواهبهم واستعدادهم الأدبي ، فحسان بن ثابت في شعره - بوجه عام - أقوى موهبة من ابن رواحة وكعب بن مالك ، كما أن الظروف كثيراً ماتعين الشاعر وتبرز موهبته وفنّه ، ولناخذ أبا ذؤيب هنا مثلاً، إنه قد فُجِعَ بموت أولاده الخمسة دفعة واحدة ، فهل يمكن أن يكون حزنه شبيهاً بحزن كعب في رثاء عبيدة بن الحارث الذي استشهد من مصاب رجله يوم بدر (١) .

وبالنسبة إلى التفاوت الفني بين شعر الشاعر الواحد فنحن نعرف أن الجيشان العاطفي والأدبي يختلف من موقف لموقف ، وكذلك تختلف سيطرة الشاعر عليه واستفادته منه، كذلك لا بد أن نأخذ السياق الاجتماعي في الاعتبار ، فاستشهاد

حمزة رضي الله عنه لا يشابه موت رجل عادي ، لقد حمى بنفوذه وسبطوته رسول الله ﷺ قبل الهجرة ، وكان بطلاً صنديداً في غزوة بدر الكبرى ، وفي المعركة التي استشهد فيها ، ولم يقتله خصم له في الحرب مواجهة ، بل غدر به عبد مستأجر سنحت له الفرصة فسدد حريته من بعيد إلى مافوق عانة حمزة رضوان الله عليه ، فسقط البطل الصنديد شهيداً ، فهذه الحادثة أثارت شاعرية حسان فكانت قصيدته الحائية صدى لها ، ومعبرة عن هذه الفاجعة بكل صدق وحرارة عاطفة وأسلوب جزل وجو مأساوي مثير (١) .

ولا يقتصر التفاوت في شعر الشاعر الواحد بين مناسبة وأخرى على المستوى الفني ، بل هناك تفاوت كمي أيضاً ، فحسان وكعب مثلاً يرثيان حمزة - رضي الله عنهم أجمعين - بعدة قصائد ، والشيء نفسه يصدق على رثاء الرسول ﷺ ورثاء عثمان رضي الله عنه ، بينما لانجد لحسان إلا أبياتاً قليلة في أبي بكر وعمر رضي الله عنهما ، وأعتقد أن المواقف مسؤولة إلى حد كبير عن ذلك ، لقد تكلمنا عن ظروف مقتل حمزة رضي الله عنه وشبيه بها ظروف مقتل عثمان رضي الله عنه ؛ الذي قُتل بإيدٍ تنتمي إلى الإسلام ، وكان حين قتل يقرأ القرآن فخضبوا مصحفه بدمه ، ثم إنه كان شيخاً طيب القلب رحيماً كريماً ، وهو من السابقين الأولين إلى الإسلام ، وممن لهم أيادٍ نضرة نبيلة في نصرة الدين ونبيه ﷺ . كل هذا ألهب النفوس وحرك دواعي الشعر أعنف ما تكون عند حسان ، الذي تعاطف مع تلك الحادثة وتفاعل معها وعبر عنها أصدق تعبير .

وإذا نظرنا في رثاء المشركين لقتلاهم في المعارك الأولى بين الإسلام والكفر

(١) انظر قصة استشهاده في ابن هشام « السيرة النبوية » ، ق ٦٩/٢ - ٧٢ ، ٩١ - ٩٣ .

قبل أن يدخل المشركون في دين الله وجدنا منه ما هو جيد، ومنه ما لا يرقى إلى درجة عالية من الناحية الفنية، إن في قصيدة الحارث بن هشام في رثاء أخيه أبي جهل، ومطلعها:

ألا يا قومي للصبابة والهجر — وللحزن منى والحرارة في الصدر (١)

قوة وحرارة، إذ يشتعل فيها الغيظ اشتعالاً، وتتضح فيها العصبية الجاهلية أشد ماتكون، والشاعر فيها يهدد بالانتقام والثأر، كيف لا والقتيل أخوه، وهذه أول معركة بين معسكر الكفر ومعسكر الإسلام، وكانت الوثنية تظن أن النصر في يدها وأنها ليست إلا جولة ويتخلصون من محمد عليه الصلاة والسلام ودين الحق الذي جاء به، فإذا المعركة تتمخض عن هزيمة ساحقة مذلة لهم.

ومثل هذه القصيدة قصيدته في البكاء على قتلى بدر التي تبدأ بقوله:

عجبت لأقوام تغنى سفيهم — بأمر سفاه ذي اعتراض وذي بطل (٢)

وكذلك قصيدة ضرار بن الخطاب الفهري في رثاء أبي جهل، وأولها:

ألا من لعين باتت الليل لم تنم — تراقب نجما في سوادٍ من الظلم (٣)

أما أبيات ابن الزبير في المناسبة نفسها، وبدايتها:

ماذا علقى بدر وماذا حوله — من فتية بيض الوجوه كرام؟ (٤)

فهي فاترة - فيما أرى - ودون المستوى من الناحية الفنية، فهي في جملها تعداد لأسماء قتلى المشركين والاشارة إلى مكائهم، وهذا كل ما هناك.

(١) « السيرة النبوية »، ق ١٠/٢ - ١١ .

(٢) السابق، ق ١٢/٢ - ١٣ .

(٣) السابق، ق ٢٧/٢ - ٢٨ .

(٤) « شعر عبدالله بن الزبير »، ص ٤٦ - ٤٧ .

ومثلها في النهج والضعف أبيات أبي بكر بن الأسود (١) ، وأبيات معاوية بن زهير (٢) في الموضوع ذاته .

ولأميه بن أبي الصلت أكثر من قصيدة في البكاء على قتلى المشركين في بدر، وبينها تفاوت كمي ، فبينما نجد أبياتاً يبكي فيها زمعة بن الأسود ، وقتلى بني أسد ، وهي الأبيات التي أولها:

عين ، بكى بالمسبلات أبا الـ حارث لاتذخري على زمعه (٢)

نرى له قصيدة حائية طويلة في بكاء قتلى بدر والتي ذكرناها في هذا الفصل وأشدنا بها وأبرزنا مافيه من روعة وصدق عاطفة وكأنها نقيضة لقصيدة حسان الحائية في رثاء حمزة رضي الله عنه، وهي قصيدة يصدق عليها كثير مما قلناه في حائية حسان ، ومطلعها:

ألا بكيتِ على الكـرا م بني الكرام أولى المـادح ؟ (٤)

ومن الرثاء الرائع المشهور ماقالته قتيلة بنت الحارث في النضر، وقد بلغ من شدة تأثيره ماروى أن النبي عليه الصلاة والسلام قال: «لو بلغني شعرها قبل أن أقتله لعفوت عنه» (٥) .

أما رثاء كعب بن الأشرف لقتلى المشركين ، وتحريضه قريشاً على النبي ﷺ ، فشعر تتباين فيه القوة والضعف .

(١) « السيرة النبوية » ، ق ٧٥/٢ ..

(٢) السابق ، ق ٣٤/٢ - ٣٦ .

(٣) ديوانه ، ص ٤١٧ - ٤١٨ .

(٤) السابق ، ص ٣٤٥ - ٣٥١ .

(٥) ابن عبد البر « الاستيعاب » ، ٤/١٩٠٥ .

وينبغي أن أشير قبل أن أنهي هذا المبحث إلى أن شعر المشركين في مجال الرثاء يبدو فيه الضعف والقوة مع أنه موجهٌ كله إلى الشر ، مما يرد على دعوى القائلين بضعف الشعر الإسلامي ، لأنه دخل في باب الخير خاصة إذا أخذنا في الاعتبار أن قضية دعوى ضعف الشعر في عصر صدر الإسلام التي ردها الباحثون كثيراً إنما كان منشؤها سوء فهم لمقولة الأصمعي ولعل دراستنا السابقة قد ساعدت في الكشف عن عدم صحتها .

الفصل الثالث

« الدراسة الفنية »

- بناء القصيدة .

- لغة الشعر .

- الصورة الفنية .

- الموسيقى .

بناء القصيدة

تكشف قراءة الشعر العربي القديم أن البناء الهيكلي للقصيدة يعتمد على تعدد الأغراض الشعرية ، فالشاعر يبدأ قصيدته بمقدمة طللية أو غزلية ، وينتقل بعدها للحديث عن الرحلة وديار المحبوبة ، ووصف الناقة والضعائن ، ثم يخلص إلى الغرض الأساسي .

ولقد كان هذا البناء الذي سارت عليه أغلب القصائد القديمة سبباً في الحكم عليها من قبل بعض الدارسين المحدثين عرباً ومستشرقين بأنها مفككة البناء لاترابط بين أجزائها .

ومن ذلك ما قاله جرونيباوم من أن المستشرقين لاحظوا في كثير من الحالات أن الآثار الأدبية العربية تعاني شيئاً من عدم التناسق أو الوحدة الذاتية في بنائها، إذ العناية القصوى موجهة إلى البيت أو العبارة أو الفقرة على حساب البناء الكلي.

وهو يرى في تفسير ذلك أن هناك نوعاً من الرابطة النفسية بين ما يسميه «القفز الاستطراذي من موضوع إلى موضوع» وبين ما يقول إنه النظرة الكونية التي تهيم على علم الكلام والفلسفة الإسلاميين ، إذ يرى الأشاعرة (حسب قوله) «أن الزمن توالٍ غير مستمر للذرات الزمنية وأن الله خلق العالم في كل ذرة زمنية ويظل يخلقه أبداً» (١) . والحق أنه لا معنى لهذا الربط بين منهج القصيدة العربية وبين مدرسة كلامية إسلامية ، فهذا المنهج إن صح أنه منهج عام، هو من صنع الجاهليين

(١) انظر كتابه : « دراسات في الأدب العربي » ، ترجمة د. إحسان عباس وآخرين ، ص ٤٢ .

الوثنيين . أما الأشعري فهو متكلم إسلامي جاء بعد ذلك بعدة قرون . ثم لماذا الربط بين منهج القصيدة الوثنية وبين مدرسة الأشعري بالذات ؟ هل الأشعري هو الذي يمثل وحده دون المتكلمين جميعاً الشخصية الإسلامية ؟ ولنفترض أن مقاله جرونيباوم عن فكر الأشعري صحيح ، فهل هذا يؤدي إلي النتيجة التي يريد التوصل إليها ؟ لنفترض جدلاً أن الله ، فعلاً ، يخلق العالم في كل ذرة زمنية وأن ذلك مستمر أبداً هل ينبغي على هذا أن العالم متفكك لا رابطة بين وحداته الزمنية أو أجزائه في المكان ؟ إن العالم يمثل لكل ذي عينين وحدة خلقية واحدة رغم تجزئته إلى لحظات وذرات ، وإلا لما بقي طرفة عين .

والدكتور محمد مندور هو أيضاً أحد الذين أنكروا الوحدة في الشعر العربي القديم . يقول : « والناظر في الشعر العربي القديم لا يلبث أن يلاحظ أن وحدة القصيدة لم تكن تتمثل إلا في اتحاد الوزن والقافية . وأما الغرض أو الموضوع فقلما نراه موحداً في القصيدة العربية القديمة . وهكذا تكون القصيدة العربية ذات الأغراض المتباينة المتتابعة ، وأصبحت هذه الظاهرة تقليداً شعرياً عند العرب » (١)

ومن الذين أكدوا افتقار القصيدة القديمة إلى الوحدة د. محمد غنيمي هلال ، الذي يرى أن القصيدة الجاهلية ليست لها وحدة عضوية في شكل ما من الأشكال ، لأنه لا صلة فكرية بين أجزائها ، فالوحدة فيها خارجية لا رباط فيها إلا من ناحية خيال الجاهلي وحالته النفسية في وصفه لرحلته لمده الممدوح (٢) .

(١) د. محمد مندور « الشعر المصري بعد شوقي » ، مطبعة النهضة ، ط ١ ، (د.ت) ، ص ١٩-٢٠ .

(٢) د. محمد غنيمي هلال « النقد الأدبي الحديث » ، دار نهضة مصر ، القاهرة ، ص ٣٧٤-٣٧٥ .

وكذلك د. محمد مصطفى بدوي ، إذ يقول : « إن الشعر العربي القديم شعر تقريبي تستخدم فيه الألفاظ بكل ما فيها من قوى تقريرية تكاد لا تستغل فيه امكانياتها الإيحائية . ومن هنا كان اهتمامهم بوحدة البيت منفصلاً عن السياق الأوسع الذي يرد فيه ، فجاءت تجاربهم كلها من النوع البسيط الحي المباشر ، ولذا برعوا في الجزئيات الشعرية دون أن يحققوا الوحدة الكلية » (١) .

والذي أراه أن أصحاب هذا الرأي ينطلقون من تصور مغاير لطبيعة الشعر العربي ، فمقياس الوحدة الذي يتحدثون عنه مقياس غربي صرف نبت في سياق مغاير ليفسر شعراً يتمثل هذه الوحدة ، ولا يصح بحال محاكمة الشعر العربي بمقتضاه . وواضح أن د. بدوي ينطلق - فيما ذهب إليه - من تصور المستشرقين للعقلية السامية أنها عقلية لا تمتلك القدرة على التركيب ، فهي عقلية تحليلية قوامها التحليل الجزئي لا التركيب الكلي .

وليس كل الدارسين متفقين على هذا الرأي الذي ينفي وجود الوحدة في القصيدة القديمة ، إذ ثمة آراء عديدة حاولت أن تقدم رؤية مختلفة تكشف عن نمط من العلاقات يربط بين أطراف القصيدة المتعددة الأغراض ؛ لأن هذا التعدد لا ينفي فكرة الوحدة تماماً .

ولعل ما أورده ابن قتيبة منسوباً إلى بعض أهل الأدب، يعد أول محاولة في الربط بين أطراف القصيدة القديمة ، إذ يذكر فيه: «وسمعت بعض أهل الأدب يذكر

(١) د. محمد مصطفى بدوي « دراسات في الشعر والمسرح » ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ،

أن مقصد القصيد إنما ابتداءً فيها بذكر الديار والدمن والآثار فبكى وشكا وخاطب
الربع ... ثم وصل ذلك بالنسيب فشكا شدة الوجد وألم الفراق وفرط الصبابة
والشوق ليميل نحوه القلوب ويصرف إليه الوجوه وليستدعي به إصغاء الأسماع إليه
، لأن التشبيب قريب من النفوس ، لائط بالقلوب لما قد جعل الله في تركيب العباد
من محبة الغزل وإلف النساء ... فإذا علم أنه قد استوثق من الإصغاء إليه
والاستماع له عقب بإيجاب الحقوق فرحل في شعره ، وشكا النصب والسهر وسرى
الليل وحر الهجير وإنضاء الراحلة والبعير . فإذا علم أنه قد أوجب على صاحبه حق
الرجاء وضمامة التأميل وقرر عنده ماناله من المكاره في المسير بدأ في المديح فبعثه
على المكافأة وهز للسماح وفضله على الأشباه وصغر في قدره الجزيل.

فالشاعر المجيد من سلك هذه الأساليب وعدل بين هذه الأقسام فلم يجعل
واحداً منها أغلب على الشعر ولم يطل فيمهل السامعين ولم يقطع وبالنفوس ظمماً إلى
المزيد» (١) .

فهذا النص يوجد نمطاً من العلاقة بين كل غرض وآخر في القصيدة
القديمة ، غير أن ما يؤخذ عليه أنه قصر ذلك على المديح ، كما أن الأغراض الأخرى
أصبحت مجرد وسيلة للوصول إلى الغرض الأصلي وليست غاية بحد ذاتها .

بل إن بعض القدامى أشار إلى أهمية وجود علاقة تربط بين مقدمة
القصيدة والغرض الذي يليها ، وهذا ما يتبين من قول الحاتمي : « من حكم النسيب
الذي يفتتح به الشاعر كلامه أن يكون ممزوجاً بما بعده من مدح أو ذم متصللاً به

(١) ابن قتيبة « الشعر والشعراء » ، ١ / ٧٤ - ٧٦ .

غير منفصل منه ، فإن القصيدة مثلها مثل خلق الإنسان في اتصال بعض أعضائه ببعض ، فمتى انفصل واحد من الآخر وبأينه في صحة التركيب غادر بالجسم عاهة تشوهه محاسنه وتعفي معالم جماله . ووجدت حذاق الشعراء وأرباب الصناعات يحترسون من مثل هذه الحال احتراساً يحميهم من شوائب النقصان ، ويقف بهم على محجة الإحسان»(١).

ومن هذا ماقاله ابن رشيق من أنه ليس من عادة الشعراء أن يقدموا قبل الرثاء نسيباً كما يصنعون ذلك في المديح والهجاء ، وما لاحظته ابن الكلبي - بغض النظر عن صواب ملاحظته أو لا - أنه لا يعلم مرثية أولها نسيب إلا قصيدة دريد بن الصمة التي أولها :

أرثُ جديـد الحبل من أم معبد بعافية وأخلفت كل موعـدٍ

وما علق به ابن رشيق على ذلك قائلاً : « إنه الواجب في الجاهلية والإسلام إلى وقتنا هذا ومن بعده ، لأن الأخذ في الرثاء يجب أن يكون مشغولاً عن التشبيب بما هوفيه من الحسرة والاهتمام بالمصيبة » ومحاولته تبرير صنع ابن الصمة بقوله : « وإنما تغزل دريد بعد قتل أخيه بسنه وحين أخذ ثأره وأدرك طلبته » (٢) . وابن رشيق هنا يرى ضرورة وجود رابط بين المقدمة وغرض القصيدة ولهذا نجده يشير إلى عدم ملائمة النسيب كمقدمة للرثاء وفهمه هذا هو نتيجة تصور خاص لوجود تناقض بين هذين الغرضين .

(١) ابن رشيق « العمدة » ، ١١٧/٢ .

(٢) السابق ، ١٥١/٢ - ١٥٢ .

ويدخل في هذا الباب ما يسميه البلاغيون بـ « حسن التخلُّص » ، أي الانتقال من موضوع إلى آخر في القصيدة بمهارة لا تشعر القارئ بوجود فجوات بين هذه الموضوعات .

وإذا كان هناك من رأى خلُو القصيدة العربية من الوحدة فإن منهم من كشف عن وحدة في بناء القصيدة تنأى بها عن أن تكون أمشاجاً ملفقة لا رابط بين أجزائها إلا الوزن والقافية ، فالدكتور طه حسين يرى في بعض القصائد ذات الأغراض المتعددة وحدة تربط بين هذه الموضوعات ، وذلك كقصيدة لبيد بن ربيعة ، التي قال فيها : « إن أجزاء القصيدة جاءت ملتئمة الأجزاء قد نسقت أحسن تنسيق وأجمله وأشدّه ملاءمة للموسيقى ... إنها بناء متقن محكم لا تستطيع أن تقدم فيه وتؤخر أو تضع بيتاً دون أن تفسد القصيدة وتشوه جمالها ، ودون أن تفسد البناء كله وتنقضه نقضاً » (١) ، وقد عزا د. طه حسين وجود التفكك والخلل في بعض القصائد الجاهلية إلى قصور الذاكرة لدى رواة الشعر مما ترتب عليه من خلط واضطراب (٢) .

وممن رأى رأيه الدكتور محمد النويهي ، الذي أكد وجود الوحدة في الشعر الجاهلي وسماها « الوحدة الحيوية » (٣) ، وكذلك فؤاد إفرام البستاني ، الذي أطلق عليها الوحدة الشعورية (٤) ، ود. إبراهيم عبدالرحمن ، الذي يؤكد أن وحدة

(١) انظر « حديث الأربعماء » ، ط دار المعارف ، ص ٣٠ .

(٢) السابق ، الصفحة نفسها .

(٣) انظر « الشعر الجاهلي منهج في دراسته وتقويمه » ، ٢/٤٣٥ .

(٤) انظر « الشعر الجاهلي » سلسلة الروائع .

الموضوع والمشاعر والمواقف تنتظم القصيدة العربية القديمة جميعاً على رغم تعدد الموضوعات التي تحتوي عليها (١) .

ويقول د. مصطفى الشورى ، وهو بصدد الكلام عن بناء قصيدة الرثاء في العصر الجاهلي ، إن « ثمة وحدة تسود شعر الرثاء في العصر الجاهلي ، تلك الوحدة يمكننا تسميتها وحدة الصراع بين الحياة والموت ، أو وحدة الإحساس بوحشة الحياة وقسوتها وبالجزع من فداحة الموت وفضاعته ، وبالتالي الإحساس بالفقد والحزن والأسى واليأس » (٢) . وهو يسمي هذه الوحدة بالوحدة الفنية (٣) .

وربما لا نوافق هؤلاء الباحثين على رأيهم هذا في وجود الوحدة بهذا الاتساع في القصيدة القديمة ، ولكن يبقى صحيحاً على كل حال ما قلناه قبل قليل من تحقق الوحدة لعدد كثير جداً من القصائد العربية في الجاهلية والإسلام .

وبعد أن سقنا طائفة من الآراء المختلفة حول بناء القصيدة العربية القديمة بوجه عام نريد أن نتوقف عند شعر الرثاء في العصر الذي نتناوله لنرى بأنفسنا مدى تلاحم بناء قصائده أو تفككها والنظام الذي يسير عليه هذا البناء في النصوص المختلفة .

وبإدنى ذي بدء لابد أن نذكر أن كثيراً من النصوص الرثائية في عصرنا الذي ندرسه لا يفي من ناحية الطول إلى أن يكون قصيدة .

كما أننا نستبين من قراءة النصوص الرثائية في عصر صدر الإسلام

(١) انظر « الشعر الجاهلي - قضاياها الفنية والموضوعية » ، ص ٢٥٩ - ٢٦٠ .

(٢) « شعر الرثاء في العصر الجاهلي - دراسة فنية » ، ص ٢١٥ .

(٣) السابق ، ص ٢١٦ .

وجود قصائد ليست بتلك الكثرة اللافتة يعمد شعراؤها إلى وضع مقدمة طللية كانت أو غزلية لها بينما نجد الأغلبية العظمى منها تبدأ بمقدمة وثيقة الارتباط بموضوع الرثاء . ولعل هذا ما سيتضح من خلال رصدنا التالي لأنواع المقدمات التي وقفنا عليها في العصر الإسلامي وهي :

(١) المقدمة الغزلية ، ومن ذلك مقدمة كعب بن مالك لقصيدته في رثاء

حمزة بن عبدالمطلب :

طرقت همومك فالرقاد مسهد	وجزعت أن سلخ الشباب الأغيد
ودعت فؤادك للهوى ضميرية	فهواك غورى وصحوك منجد
فدع التماذي في الغواية سادرا	قد كنت في طلب الغواية تفند
ولقد أنى لك أن تنهى طائعا	أو تستفيق إذا نهاك المرشد
ولقد هددت لفقده حمزة هدة	ظلت بنات الجوف منها ترعد (١)

ومنها قول لبيد بن ربيعة في مقدمة إحدى رثائياته في أخيه أريد :

طرب الفؤاد وليته لم يطرب	وعناه ذكرى خلة لم تصعب
سفها ولو أني أطعت عواذلي	فيما يشرن به بسفح المذنب
لزجرت قلبا لا يريح لزاجر	إن الغوى إذا نهى لم يعتب
فتعز عن هذا وقل في غيره	وانكر شمائل من أخيك المنجب (٢)

وقول متمم بن نويرة في مطلع إحدى رثائياته لأخيه مالك :

(١) ديوانه ، ص ١٨٩ .

(٢) « شرح ديوان لبيد » ، ص ١٥٦ .

صرمت زنيبة حبل من لا يقطع حبل الخليل وللأمانة تفجع
 ولقد حرصت على قليل متاعها يوم الرحيل فدمعها المستنفع
 جذي حبالك يا زنيب فإني قد استبد بوصل من هو أقطع (١)

وفي القصيدة هذه نرى الشاعر لا يكتفي بهذه المقدمة الغزلية بل يخرج منها إلى وصف رحلة على ناقته التي ركبها وانطلق ليتسلى بها عن هم (هو هجر حبيبته) يقوده إلى هم عظيم آخر يؤرقه لا تقطعه إلا الناقة . إنه الموت الذي يعصف بالكائنات ، ولهذا لانكاد نجد الناقة ترحل بصاحبها إلا عن هم ينوء به . وبناءً عليه فلا غرابة في أن تكون المقدمة جزءاً لا يتجزأ من النسيج العام للبناء الفني للقصيدة.

والذي أراه أن هذه المقدمات الغزلية ليست منفصلة عن سياق القصيدة العام، المتمثل في الرثاء . إذ إن قراءة متأنية لأبياتها تحاول أن تتجاوز سطحية التناول إلى التعمق في البحث عن مدلولات خفية لا يمكن للقارئ العادي أن يصل إليها ؛ تستطيع أن تثبت نمطاً من العلاقة بين المقدمة الغزلية والرثاء .

فكعب بن مالك - على سبيل المثال - يشكو من تراكم الهموم عليه ، حيث إن فكرة الإحساس بالتقدم في العمر وانقضاء مرحلة الشباب تستحيل لديه إلى كابوس رهيب يؤرقه، ورغم هذا كله فإن هناك ملذات كثيرة في هذه الحياة تحاول إغراءه ، ولعل المرأة ترمز إلى واحدة منها، غير أن واقعه يتنافى مع الاستسلام لهذه الملذات، وهذا ماجعله يتصور وجود مرشد ينهيه عن التماهي في طرق الغواية. ثم

(١) « مالك ومتمم ابنا نويره اليربوعي » ، ص ٩٣ وما بعدها .

يأتي الموت - متمثلاً في موت حمزة - ليمثل المرشد الأكبر الذي يردعه ، ويوقظه من سباته. ولعل الصورة التي رسم بها كعب وقع موت حمزة عليه تؤكد ذلك ، حيث يقول :

ولقد هددت لموت حمزة هدة ظلت بنات الجوف منها ترعد
ولعل ماسقناه - هنا - من رؤية لاستجلاء العلاقة بين المقدمة والرثاء تجعل
مقولة ابن رشيقي الأنفة الذكر لا تثبت أمام التأمل النقدي الدقيق للنص الشعري.

(٢) **المقدمة الظلية** : وهي المقدمة التي يقف فيها الشاعر بديار
حبيبتة بعد أن رحلت عنه مع أهلها . ومنها القصيدة المنسوبة لحسان في الرد على
ابن الزبيرى وبكاء شهداء المسلمين في أحد :

أشواقك من أم الوليد ربوع	بلاقع ما من أهلن جميع
عفاهن صيفي الرياح وواكف	من الدلورجاف السحاب هموع
فلم يبق إلا موقد النار حوله	رواكذ أمثال الحمام وقوع
فدع ذكر دارٍ بددت بين أهلها	نوى فرقت بين الجميع قطع (١)

ويقول حسان في مقدمة رثائه لحمزة أيضا :

هل تعرف الدار عفا رسمها	بعدك صوب المسبل الهاطل
بين السراديح فأدمانة	فمدفع الروحاء في حائل
سألته عن ذاك فاستعجمت	لم تدر ما مرجوعة السائل؟
دع عنك دارا قد عفا رسمها	وابك على حمزة ذي النائل (٢)

(١) « ديوان » (ط. د. عرفات) ، ٣٣٧/١ .

(٢) السابق ، ٣٢١/١ .

ومن القصائد الجياد ذات المقدمة الطللية قصيدة منسوبة لحسان في رثائه
 ﷺ يقف فيها على رسم الرسول ومعهد في المدينة قائلاً :

بطيبة رسم للرسول ومعهد منير ، وقد تعفو الرسوم وتهمد

ولا تمتحي الآيات من دار حرمة بها منبر الهادي الذي كان يصعد (١)

غير أننا هنا لانجد أنفسنا بإزاء نوى وأحجار وأبعار وحبل رميم وأثافي،
 بل بإزاء منبر ومصلى ومسجد وحجرات كان ينزل فيها الوحي ، وقبر دفن فيه أكرم
 البشر. وهذا نوع من التطور في المقدمة الطللية .

وكثيراً مانجد الشاعر يتخلص من حديثه عن الأطلال والديار إلى موضوعه
 الأصلي وهو الرثاء بقوله : « دع التماذي » ، « دع عنك ذا » ، « فدع ذكر ذا » كما
 مرّ في الأبيات السابقة .

وفوق ذلك فإننا نجد حسان بن ثابت - رضي الله عنه - في إحدى مرثياته
 ينعي على من يقف على الأطلال والدمن متذكراً باكياً ، وذلك في مقدمة إحدى
 رثائياته لعثمان بن عفان رضي الله عنه :

يالرجال لدمع هاج بالسِّنْ لقد عجبت لمن يبكي على الدمن (٢)
 فهو يريد أن يقول إن قتل عثمان هو الأمر الجدير بالبكاء لا الدمن
 والأطلال.

ولعل هذا النص يمثل بداية للموقف السلبي من المقدمة الطللية الذي رأيناه
 - فيما بعد - أكثر وضوحاً في العصرين الأموي والعباسي عند كل من الكميت
 الأسدي وأبي نواس .

(١) « ديوانه » ، (ط. د. عرفات) ، ٤٥٥/١ .

(٢) السابق ، ٣١٩/١ .

ويبدو أن المقدمة الطللية تمثل نسيجاً آخر أكثر وضوحاً من المقدمة الغزلية، في وجود علاقة بينها وبين الرثاء . إن الشاعر في كليهما يقف باكياً إماماً على ذكرى ماضية ، أو واقع مؤلم ، ولهذا نجد أن المعنى العام المنبثق من فكرة البكاء يحدد نوعية الوشائج الحميمة التي تربط طرفي القصيدة . وما الوقوف على الطلل إلا بكاءً على الحياة الزاهية.

وإلى جانب المقدمات الغزلية هناك مقدمات أخرى منها :

(٣) **المقدمة البكائية** : وهي المقدمة التي يصف فيها الشاعر بكاءه ويذكر دموعه وقد يخاطب عينه طالباً منها أن تجود بالدمع . وقد يقرن بذلك الحديث عن سهادته وهجر النوم لجفونه . ومن الأمثلة على هذا قول كعب بن مالك في بداية رثائه لعبيدة بن الحارث الذي مات من مصاب رجله يوم بدر :

أيا عين ، جودي ولا تبخلي بدمعك حقاً ولا تنزري
على سيد هدنا هلكه كريم المشاهد والعنصر
جرئ المقدم شاكي السلاح كريم النثا طيب المكسر (١)

ويقول طالب بن أبي طالب لأهل القليب في بدر أيضاً :

ألا إن عيني أنفدت دمعها سكباً تبكي على كعب وما إن ترى كعباً (٢)
ويبدأ ضرار بن الخطاب الفهري رثاءه لأبي جهل قائلاً :

(١) ديوانه ، ص ٢٠٢ .

(٢) « السيرة النبوية » ، ق ٢٦/٢ .

ألا من لعين باتت الليل لم تنم تراقب نجما في سواد من الظلم
 كأن قذى فيها وليس بها قذى سوى عبرة من جائل الدمع تتسجم (١)
 ويستهل أمية رثائيته لصرعى كفار قريش في ذلك اليوم بقوله :

ألا بكيت على الكرا م بني الكرام أولى الممادح
 كبكا الحمام على فرو ع الأيك في الغصن الجوانح
 يبكين حرى مستكيا نات يرحن مع الروائح
 أمثالهن الباكيا ت المعولات من النوائح
 من يبكيهم يبك على حزن ويصدق كل مادح (٢)

ويخاطب حسان عينه طالبا منها أن تجود بالدمع المنسكب على خبيب

ورفاقه:

يا عين ، جودي بدمع منك منسكب وابكي خبيبا مع الغادين لم يؤب
 صقراً توسط في الأنصار منصبه حلو السجية محضا غير مؤتشب
 قد هاج عيني على علات عبرتها إذ قيل: نص إلى جذع من الخشب (٣)

وله في خبيب رضي الله عنه أيضا :

ما بال عينك لاترقى مدامعها سحا على الصدر مثل اللؤلؤ القلق
 على خبيب وفي الرحمن مصرعه لا فثل حين تلقاه ولا نزق (٤)

(١) « ضرار بن الخطاب » ، ص ١١٠ .

(٢) ديوانه ، ص ٣٤٥ .

(٣) ديوانه ، (ط . د . عرفات) ، ١ / ٣٧٠ .

(٤) السابق ، ١ / ٢١٣ .

وفي رثاء سعد بن معاذ في غزوة الخندق يقول في مطلع الأبيات :
لقد سفحت من دمع عينيك عبرة وحق لعيني أن تفيض على سعد
قتيل ثوى في معرك فجعت به عيون زواري الدمع دائمة الوجد (١)

وفي مفتتح رثائه لشهداء قومه يقول :

عينُ ، جودي بدمعك المنزور واذكري في الرخاء أهل القبور
واذكري مؤتة وما كان فيها يوم ولوا في وقعة التغوير (٢)

وفي مقدمة رثاء آخر فيهم يقول ذاكراً طول الليل والسهاد وانفساح

العبرات :

تأويني ليل بيثرب أعسر وهم إذا مانوم الناس مسهر
لذكرى حبيب هيجت ثم عبرة سفحوحا وأسباب البكاء التذكر
بلاء وفقدان الحبيب بلية وكم من كريم يبتلى ثم يصبر
رأيت خيار المؤمنين تواردوا شعوب وقد خلفت فيمن يؤخر (٣)

ويقول كعب بن مالك فيهم أيضا من مقدمة مشابهة للتي مرت لحسان

رضي الله عنه:

(١) نوانه (ط . د . عرفات) ، ٤١٥/١ .

(٢) السابق ، ٢٩٥/١ .

(٣) السابق ، ٩٨/١ .

نام العيون ودمع عينك يهمل
 في ليلة وردت على همومها
 واعتادني حزن فبت كائني
 وكانما بين الجوانح والحشى
 وجداً على النفر الذين تتابعوا
 سحا كما وكف الطباب المخضل
 طوراً أجن وتارة أتململ
 ببينات نعش والسماك موكل
 مما تأويني شهاب مدخل
 يوماً بمؤتة أسندوا لم ينقلوا (١)

ويقول أبوسفیان بن الحارث في مطلع أبيات له في رثاء النبي عليه السلام:

أرقت وبتات ليلي لايزول
 وأسعدني البكاء ، وذاك فيما
 لقد عظمت مصيبتنا وجلت
 عشية قيل : قد قبض الرسول (٢)
 وليل أخي المصيبة فيه طول
 أصيب المسلمون به قليل

ويقول متمم بن نويرة من مطلع لقصيدته له في رثاء أخيه مالك :

أرقت ونام الأخلياء وهاجني
 وهيج لي حزنا تذكر مالك
 إذا عبرة ورعتها بعد عبرة
 كما فاض غرب بين أقرن قامة
 جديد الكلى واهي الأديم تبينه
 مع الليل هم في الفؤاد وجيع
 فما نمت إلا والفؤاد مرع
 أبت واستهلت عبرة ودموع
 يروى دياراً ماءؤه وزروع
 عن العبر زوراء المقام نزوع (٣)

وتقول زوجة عمر بن الخطاب في مقدمة رثائها له :

(١) ديوانه ، ص ٢٦٠ .

(٢) ابن عبد البر « الاستيعاب » ، ٤ / ١٦٧٥ - ١٦٧٦ .

(٣) « مالك ومتمم ابنا نويرة اليربوعي » ، ص ١٠٢ .

عين ، جودي بعبرة ونحيب لا تملي على الإمام النجيب (١)
وتقول أم الهيثم بنت الأسود النخعية في رثاء علي بن أبي طالب رضي الله
عنه :

ألا ياعين ويحك فاسعدينا ألا تبكي أمير المؤمنين (٢)
(٤) المقدمة النديية ، وفيها يأمر الشاعر بعض النساء بأن يقمن
فيندين الميت أو الشهيد وينحن معددات فضائله ، وذلك كقول حسان في مطلع رثائه
لحمزة رضي الله عنهما :

يامي ، قومي فاندبن بسحيرة شجو النوائح
كالحاملات الوقربال ثقل الملحقات الدوالح
المعولات الخامشات وجوه حرات صحائح
وكان سيل دموعها الأ نصاب تخضب بالذبائح
ينقضن أشعاراً لهن هناك بادية المسائح
وكانها أذئاب خيال بالضحاح شمس روامح (٣)

ويقول كعب بن مالك مخاطباً صفيية بنت عبدالمطلب يحضها على أن تنهض
فتبكي أباها وتندبه وتثير النساء على البكاء عليه :

(١) ابن عبد البر « الاستيعاب » ، ١٨٧٨/٤ .

(٢) أبو الفرج الاصفهاني « مقاتل الطالبين » ، ص ٧٣ .

(٣) ديوانه (ط د . عرفات) ، ٤٥٠/١ .

صفية ، قومي ولا تعجزني وبكى النساء على حمزة
ولا تسأمي أن تطيلي البكا على أسد الله في الهمة (١)

وفي مطلع إحدى رثائيات لبيد بن ربيعة في أخيه أربد نجده يقول :

يامى قومي في الماتم واندبي فتى كان ممن يبتنى المجد أروعا
وقولي : ألا لايبعد الله أربدا وهدى به صدع الفؤاد المفجعا (٢)

(٥) المقدمة التأملية : وفيها يتأمل الشاعر في المصير البشري فيجد

أنه مفض إلى الهلاك والموت ، وأن ريب الدهر متربص بالأحياء . ومن ذلك قول هند بنت عتبة في رثاء أهلها الذين سقطوا صرعى بسيف الإسلام في بدر :

يريب علينا دهرنا فيسوونا ويأبى فما نأتي بشيء يغالبه (٣)

ومنه أيضا هذا المطلع من رثاء لبيد لأخيه أربد :

باينا وماتبلى النجوم الطوالع وتبقى الجبال بعدنا والمصانع
وقد كانت في أكناف جار مضنة ففارقني جار بأربد نافع
...

وما الناس إلا كالديار وأهلها بها يوم يحلوها وغدوا بلاقع
وما المرء إلا كالشهاب وضوئه يحور رمادا بعد إذ هو ساطع (٤)

(١) ديوانه ، ص ٢١٦ .

(٢) « شرح ديوان لبيد » ، ص ١٧٣ .

(٣) « السيرة النبوية » ، ق ٣٩/٢ .

(٤) « شرح ديوان لبيد » ، ص ١٦٩ .

وكذلك هذا المطلع للبيد أيضا في أخيه ولكن من قصيدة أخرى :

ما إن تعري المنون من أحد لا والد مشفق ولا ولد (١)
ومن أبيات منسوبة لعلي رضي الله عنه في رثاء النبي ﷺ نجده يقول في
مطلعها:

الموت لا والدا يبقي ولا ولدا هذا السبيل إلى ألا نرى أحدا (٢)

ويقول أبو ذؤيب في مقدمة رثائه لأولاده في قصيدته العينية المشهورة:

أمن المنون وريبها تتوجع ^{لمعبر} والدهر ليس بمتعب من يجزع ؟ (٣)

(٦) المقدمة الخطابية : وفيها يتوجه الشاعر إلى الذي يرثيه بالنداء،

أو يخاطبه كأنه لا يزال حيا يرزق ، وذلك من شدة وجده عليه وصعوبة تسليمه بفقده.
ومن هذا النوع قول صفية بنت عبدالمطلب في مقدمة أبيات لها في رثاء رسول الله
عليه الصلاة السلام :

ألا يارسول الله كنت رجاعا ^{ركب} وكنت بنا برا ولم تكن جافيا

وكنت رحيماً هادياً ومعلماً ليبك عليك اليوم من كان باكيا (٤)

وقول فاطمة الزهراء رضي الله عنها تخاطب أباه عليه الصلاة السلام :

(١) « شرح ديوان لبيد » ، ص ١٥٨ .

(٢) د. نشأت العناني « مراثي الرسول عقب وفاته » ، ص ٨٠ .

(٣) « المفضليات » ، ص ٤٢١ .

(٤) « التبيين في أنساب القرشيين » ، ص ١٤٠ . وتُنسَبُ في « مناقب آل أبي طالب » لعلي رضي

الله عنه ، ٢٠٨/١ . وفي « الطبقات الكبرى » منسوبة لأروى بنت عبدالمطلب ، ٢٠٨/١ .

قل للمغيب تحت أطباق الثرى إن كنت تسمع صرختي وندائيا
صبت علي مصائب لو أنها صبت على الأيام صرن لياليا (١)
وكذلك قول هند بنت أثاة مخاطبة النبي عليه الصلاة والسلام :

قد كان بعدك أنباء وهنبثة لو كنت شاهدها لم تكثر الخطب
إنا فقدناك فقد الأرض وابلها فاحتل لقومك واشهدهم ولا تغب
قد كنت بدرأ ونوراً يستضاء به عليك تنزل من ذي العزة الكتب (٢)

وقول هوصعة بن صوحان في رثاء علي رضي الله عنه :

ألا من لي بأنسك يا أخيا ؟ ومن لي أن أبتك مالديا ؟ (٣)

(٧) المقدمة النعيبية : وفيها ينعي الشاعر الذي يرثيه أو يأمر بنعيه أو

يذكر أنه قد أتاه نعيه ، قال لبيد يبكي أربد أخاه :

انع الكريم للكريم أربدا انع الرئيس واللطيف كبدا (٤)

وقال كعب بن مالك رضي الله عنه في رثائه للرسول عليه السلام :

ألا أنعي النبي إلى العالينا جميعاً لاسيما المسلمينا
ألا أنعي النبي لأصحابه وأصحاب أصحابه التابعينا (٥)

(١) « مناقب آل أبي طالب » ، ٢٠٨/١ .

(٢) « الطبقات الكبرى » ، ٢٥٢/٢ .

(٣) « مناقب آل أبي طالب » ، ٩٧/٣ .

(٤) « شرح ديوان لبيد » ، ص ١٦٤ .

(٥) « ديوان » ، ص ٢٨١ .

ومن ذلك هذه المقدمة من قصيدة في رثائه عليه السلام منسوبة لعلي رضي
الله عنه:

ألا طرق الناعي بليلى راعني وأرقني لما استهل مناديا
فقلت له لما رأيت الذي أتى : أغير رسول الله أصبحت ناعيا؟ (١)
وقال عبدالله بن أنيس فيه عليه السلام أيضاً :

تطاول ليلى واعترتني القوارع وخطب جليل للبليّة جامع
غداة نعى الناعي إلينا محمداً وتلك التي تستك فيه المسامعُ (٢)
وقالت هند بنت أثالة :

ألا ياعين ، بكى لا تملي فقد بكى النعي بمن هويت
وقد بكى النعي بخير شخص رسول الله حقاً ماحييت
...

فقد بكر النعي بذاك عمــــرا فقد عظمت مصيبة من نعت (٣)
وإن كنا نلاحظ أنه قد اختلطت هنا - إلى حد ما - المقدمة النعيية مع
المقدمة البكائية ، ولكن ملامح الأولى أغلب ، فقد ذكر النعي عدة مرات ، أما البكاء
فذكر مرة واحدة لاغير .

(١) « مناقب آل أبي طالب » ، ٢٠٧/١ - ٢٠٨ .

(٢) ابن سعد « الطبقات الكبرى » ، ٩٠/٢ .

(٣) السابق ، ٢٥٢/٢ .

(٨) المقدمة الإبلاغية : وفيها يستخدم الشاعر عبارة « من مبلغ أن ... - أبلغ ... » ، لإبلاغ الناعي بموت المرثي أو ما اتصل بذلك ، أو لإبلاغ الميت نفسه بالتحية والرثاء . ومن الشواهد على هذه المقدمة قول قتيلة في النضر بن الحارث :

ياراكببا إن الأثيل مظنة من صبح خامسة وانت موفق
أبلغ بها ميتا بأن تحية ما إن تزال بها النجائب تخفق
مني إليك وعبرة مسفوحة جادت بواكفها وأخرى تخنق(١)

ويقول حسان يرثي خبيبا ويهجو هذيلاً لما صنعوه به :

أبلغ بني عمرو بأن أخاهمُ شراه امرؤ قد كان للغدر لازما
...
أجرتم فلما أن أجرتم غدرتمُ وكنتم بأكتاف الرجيع لهاذما (٢)

ويقول متمم في يوم قساوة يرثي بجير بن عبدالله السليطي :

أبلغ أبا قيس إذا مالقيته نعامة أدنى داره فظليم
بأنا ذوو حد وإن قبياكم بني خالد لو تعلمون كريم (٣)

(١) « السيرة النبوية » ، ق ٤٢/٢ .

(٢) « ديوان » (ط د ، عرفات) ، ٢٤٨/١ .

(٣) « مالك ومتمم أبنا نويرة اليربوعي » ، ص ١٣٤ .

ويقول كعب بن مالك في افتتاحية إحدى قصائده في رثاء عثمان :

من مبلغ الأنصار عنـي آية رسلا تقص عليهم التـبـيانا
رسول تخبركم بما أوليتم أن البلاء يكشف الإنسانا
أن قد فعلتم فعلة مذكـورة كست النضوح وأبدت الشنانا
بقعودكم في داركم وأميركم تحشى ضواحي داره النيرانا (١)
إلخ ...

(٩) **القدمة الدعائية** : ويبدأ فيها الشاعر قصيدته بالدعاء للميت والترحم والصلاة عليه ، من مثل قول حسان يرثي نافع بن بُدِيل ، الذي استشهد يوم بئر معونة :

رحم الله نافع بن بُدِيل رحمة المشتـهي ثواب الجهاد (٢)
وقول حسان أيضاً يرثي أصحاب الرجيع :

صلى الإله على الذين تتابعوا يوم الرجيع فأكرموا وأثيبوا (٣)
وذلك القول المنسوب لبعض بني عبدالمطلب يرثي علياً رضي الله عنه:

ياقبر سيدنا المـجـن له صلى الإله عليك يا قـبـر (٤)

(١) « ديوانه » ، ص ٢٨٤ .

(٢) « ديوانه » (ط د . عرفات) ، ١٣٦/١ .

(٣) السابق ، ١٧٩/١ .

(٤) « مقاتل الطالبين » ، ص ٤٤ .

(١٠) **القدمة اللومية** : وفيها يذكر الشاعر اللوم الذي يوجهه إليه من

يرونه يكثر من البكاء على عزيز فقده ، ويطلب منهم أن يكفوا هم عن ذلك الملام .
جاء في مقدمة مرثية لمتمم في أخيه مالك :

أقول لها لما نهتني عن البكا أفي مالك تلحينني أم خالد ؟
ذريني ، فإلا أبك لم أنس ذكره وإن أمرتني بالعزاء عوائدي
ذريني ، فكم من صالح قد رزنته أخ لي كصدر الهندواني ماجد (١)
ويقول متمم أيضا رداً على من استغربوا أن يبكي أخاه كلما رأى قبراً من
القبور في بلد آخر غير البلد الذي دفن فيه أخوه :

لقد لامني عند القبور على البكا رفيقي لتذراف الدموع السوافك
أمن أجل قبر بالملا أنت نائح على كل قبر أو على كل هالك ؟
فقال : أتبكي كل قبر رأيتَه لقبر ثوى بين اللوى فالدكادك
فقلت له : إن الشجا يبعث الشجا فدعني فهذا كله قبر مالك (٢)

ونظراً لوجود مقدمات عدة منها : المقدمتان الغزلية والطللية في شعر
الرثاء، فإن ذلك ينفي مايبديه الدكتور يوسف بكار من أهمية لاختفاء مقدمات
قصائد الرثاء معتمداً على ماوصل إلينا من شعر لهذيل ، على أن عدم وجود

(١) « مالك و متمم ابنا نويرة اليربوعي » ، ص ٨٨ - ٨٩ .

(٢) السابق ، ص ١٢٥ .

مقدمات في شعر هذيل - على حد قوله - لا ينسحب بالضرورة على الشعر عامة ،
وشعر الرثاء بصفة خاصة (١) .

ولعل من المهم بعد استعراضنا السابق للمقدمات الشعرية ، أن نقف عليها
وقفة أخرى لنمعن النظر في استهلالاتها ، التي تتمثل في البيت الأول لكل منها .

لقد حظى الاستهلال بحضور قوي في نقدنا القديم ، إذا أولى نقادنا
القدامى اهتماماً واضحاً باستهلالات الشعراء . وقد عبر عن سر ذلك ابن رشيق
بقوله: « الشعر قفل أوله مفتاحه ، وينبغي للشاعر أن يجود ابتداء شعره ، فإنه أول
ما يقرع السمع ، وبه يستدل على ما عنده من أول وهلة » (٢) .

والناظر في القصائد الرثائية لعصر صدر الإسلام لا يلاحظ فيها نهجاً بنائياً
معيناً، عدا قصيدة أبي ذؤيب الهذلي العينية التي رثى فيها أولاده ، فقد قسمها
أربعة أقسام: قسم تحدث فيه عن موت أولاده الخمسة والحشرات التي خلفها موتهم
والشحوب الذي أصاب جسمه ، والتأمل في طبيعة الموت ، وتصوير تجلده
للشامتين... إلخ. وقسم قص فيه علينا قصة حمار وحشي مع اتنه وكيف كان يستمتع
معهم بالمرعى الخصب حتى إذا عطشت وردت الماء وساخت بأكارعها فيه إلي أن
امتلأت ورويت ، وعندئذ سمعت صوتاً استرابت له فنفرت هائمة على وجهها هرباً
من الخطر المحدق ، لكن السهام عاجلتها من كل جانب فسقط منها ما سقط . وثالث

(١) « بناء القصيدة في النقد العربي القديم في ضوء النقد الأدبي » ، دار الأندلس ، بيروت ، ط ٣ .

١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م ، ص ١٢٧ .

(٢) « العمدة » ، ٢١٨/١ .

حكاية شبيهة عن ثور وحشي تنتهي بمصرعه، ورابع نراه يحكي لنا فيه حكاية فارسين دخلا في قتال انتهى بأن صرع كل منهما الآخر.

فالقصاص الثلاث جميعاً تدور حول المحور نفسه الذي يدور حوله الكلام في القسم الأول، إنه الموت الذي يعصف بالكائنات ، فكأن الشاعر قد لجأ في هذه الأقسام الأخيرة إلى ما يسمى في النقد الأدبي الحديث بـ « المعادل الموضوعي » ، إذ بدلاً من أن يمضي في البكاء المباشر على أولاده والتغني بالآمه وحسراته نجده قد عبّر عن هذا بطريقة غير مباشرة من خلال تصوير الحمار الوحشي والثور الوحشي والفارسين وكيف أن كلا منهم كان يعيش حياته أماناً ممتعاً بالصحة غير ملق بالآ إلى أية عواقب وخيمة، وإذا بمصيبة الموت تنصبّ عليه من حيث لا يحتسب ، وإذا به في عداد الأموات بعد أن كان يملأ الدنيا حياة وحركة .

ولعل الشاعر أيضاً قد أراد من وراء هذه القصاص الثلاث إلى التعزي عن مصيبتته وكأنه يقول لنفسه: هذه هي الحياة ، وهذا هو مصير الأحياء . كل المخلوقات من إنسان وحيوان منته إلى الموت .

والشاعر لا يكتفي بالتقسيم فحسب ، بل يبدأ كل قسم منه بشطرة تدل على المعنى الذي سلفت الإشارة إليه لتوها :

والدهر لا يبقى على حدثانه

مما يدل على أنه واع تماماً بالبناء الذي اختاره لقصيدته ، إنه بناء متماسك تسوده وحدة الموضوع ووحدة العاطفة ووحدة الجو ، وكل من الأقسام الثلاثة الأخيرة عبارة عن قصة ، والقصة بطبيعتها لا تقبل عادة تقديماً ولا تأخيراً ،

وكل قصة تقول الشيء ذاته ولكن بطريقة مختلفة . والشاعر كما قلت قد أكد الربط بين هذه القصص بقوله في أول شطرة منها : « والدهر لا يبقى على حدثانه...».

وهناك شيء ثانٍ تنفرد به هذه القصيدة بين شعر الرثاء في ذلك العصر ، وهو ذكر الحيوان في الرثاء . ثم إن العنصر القصصي هو ملمح آخر من الملامح التي تتميز بها هذه القصيدة .

ونخلص إلى القول بأن الشاعر في عينيته الرائعة استطاع أن يرسم لنا لوحة شعرية جاءت متلاحمة متناسقة كأحسن ما تكون .

لغة الشعر

معروف أن مادة الأدب هي اللغة ، وعبقرية الشاعر إنما تتمثل في امتلاكه اللغة التي يشكّل بها تجاربه ومواقفه من الأشياء التي يتعامل معها . وعبقرية الشاعر تتجلى في تطويعه للغة ؛ لأن موقفه يختلف عن موقف الناثر أو الفيلسوف . وإذا كانت اللغة عند هؤلاء وسيلة إلى غاية فإنها عند الشاعر غاية في حد ذاتها . والألفاظ والمعاني هي أساس اللغة الشعرية . ومن خلال اختيار الألفاظ والمعاني والتراكيب والمواضع بينها تتجلى براعة الشاعر في استخدام اللغة .

ومما لاشك فيه أن لغة الشعر في عصر النبوة والخلافة الراشدة تعد امتداداً للغة الشعر الجاهلي ، باعتبار أن أغلب شعرائها هم من المخضرمين الذين اكتمل نضجهم العقلي والفني قبل الإسلام . وعلى حد قول بعض الدارسين ، فإن «اللغة الجاهلية - لصفاتها واكتمالها الفني - قد فرضت نفسها على لغة الشعر والنثر في عصور العربية المختلفة منذ العصر الإسلامي إلى العصور العباسية المختلفة» (١).

ولعل قراءة لأغراض الشعر العربي تكشف عن وجود بعض الظواهر اللغوية التي تبدو أكثر بروزاً في غرض دون آخر . وسيقوم البحث بتتبع أهم هذه الظواهر اللغوية التي شاعت في قصيدة الرثاء في هذه الفترة .

(١) د . ابراهيم عبدالرحمن « الشعر الجاهلي - قضاياها الفنية والموضوعية » ، مكتبة الشباب ،

القاهرة (د . ت) ، ص

التكرار :

التكرار ظاهرة أسلوبية في شعرنا القديم تحمل دلالات معينة يكشف عنها السياق الذي تتجلى فيه . ولعل الرثاء من أكثر الأغراض الشعرية التي استخدم فيها الشعراء هذه الظاهرة ، بل إن ابن رشيق يرى أن الرثاء أولى من غيره بالتكرار «لما كان الفجيجة ، وشدة القرحة التي يجدها المتفجع» (١).

ويرى بعض الدارسين أن التكرار يحسن في الرثاء « لأنه لا يخرج عن كونه صرخات متشابهة الإيقاع ، ولا مناص في الرثاء من الصراخ ، وبخاصة حين يكون الميت عزيزاً وجزءاً من النفس » (٢) .

ويعتقد الدكتور مصطفى الشورى « أن الشعراء إنما كانوا يريدون من هذا التكرار أن يسلطوا الضوء على نقطة حساسة في التعبير تكشف عن مدى حسرتهم على من فقدوه ، أو قد يريدون أن يشعروا السامعين بمدى الخسارة التي حلت بهم بسبب هذا الفقد » (٣) .

ونقف في شعر الرثاء على صور مختلفة للتكرار ، فقد يكون تكراراً لكلمة واحدة.

ومن ذلك قول طالب بن أبي طالب :

ألا إن عيني أنفدت دمعها سكباً تبكي على كعب وما إن ترى كعباً (٤)

(١) « العمدة » ، ٧٦/٢ .

(٢) د. عبده بنوي « دراسات في النص الشعري العصر العباسي » ، دار الرفاعي للنشر والطبع

والتوزيع ، الرياض ، ط ٢ ، ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٤ م ، ص ١٦٧ .

(٣) « شعر الرثاء في صدر الإسلام » ، ص ١٦٧ .

(٤) « السيرة النبوية » ، ق ٢٦/٢ .

حيث كرر اسم « كعب » مرتين في شطرة واحدة ، وكان يمكن أن يستعيز عن اسمه في المرة الثانية بضميره .

وفي الأبيات التالية نجد الحارث بن هشام يكرر ذكر اسم أخيه عدة مرات:

ألا يالهِف نفسي بعد عمرو ! وهل يغني التلهف من قتيل ؟
يخبرني المخبر أن عمراً أمام القوم في جفر محيل

...

كأني حين أمسي لا أراه ضعيف العقد نوهم طويل
على عمرو إذا أمسيت يوماً وطرف من تذكره كليل (١)

وهذا الهتاف المتكرر باسم أخيه يدل على شدة حسرة في النفس تحاول أن تجد لها متنفساً .

وتكثر في حائية أمية هذه التكرارات . وهذه بعض أمثلة :

من كل بطريق لبطريق ————— ق نقى اللون واضح

...

المطعمين الشحم فـ ————— ق الخبز شحما كالأنافح
نقل الجفان مع الجفا ن إلى جفان كالمناضح

...

(١) « السيرة النبوية » ، ق ٢٨/٢ .

الضد الضيف

للضيف ثم الضيف بعد الضيف والبسط السلاطح (١)

... الخ

ويكرر متمم بن نويرة الفعل « نعم » مع كل منقبة من مناقب أخيه مالك مضيفاً بهذا التكرار على كل واحدة من هذه المناقب ومبيناً أهميته :

لنعم مناخ الضيف إن جاء طارقا إذا أخدم النيران أو حارد المحل
ونعم محل الجار حل بأهله إذا ما بدا كعب المصونة والحجل
ونعم أخو العاني إذا القيد عضه وأسرع في ضاحي سواعده الغل (٢)

ومن ألوان التكرار مانجده عند بعض الشعراء من تعداد أسماء الأشخاص الذين فقدوهم أو الذين فقدهم أعداؤهم ، قال الحارث بن هشام في هزيمة بدر مخاطباً المسلمين :

فإنكم لن تبرحو بعد قتلهم شتيتا هواكم غير مجتمعي الشمل
بفقد ابن جدعان الحميد فعاله وعتبة والمدعو فيكم أبا جهل
وشيبة فيهم والوليد وفيهم أمية مأوى المعترين وذو الرجل (٣)

وكأن الشاعر يريد أن يبين عن طريق تعداد الأسماء مدى فداحة المصيبة التي نزلت به وبقومه ، وكذلك الافتخار بأصحاب هذه الأسماء الرنانة ، فضلاً عن أنه ربما كان يجد في هذا الأسلوب تنفيساً عن مشاعر الحزن والغيبظ التي كانت تحرق قلبه .

(١) ديوانه ، ص ٣٤٧ .

(٢) « مالك ومتمم ابنا نويرة اليربوعي » ، ص ١٢٩ .

(٣) « السيرة النبوية » ، ق ١٢/٢ - ١٣ .

ومن قصيدة لابن الزبيرى في هزيمة بدر أيضا نراه يقول :

ماذا على بدر وماذا حـوله من فتية بيض الوجوه كرام
تركوا نبيها خلفهم ومنبها وابنى ربيعة خير خصم فئام
والحارث الفياض يبرق وجهه كالبدر جلى ليلة الإظلام
والعاصي بن منبه وجدوده رمحا تميما غير ذى أوصام

...

وإذا بكى باك فأعول شجوة فعلى الرئيس الماجد ابن هشام
حيا الإله أبا الوليد ورهطه رب الأنام وخصمهم بسلام (١)

فيذكر نبيها ومنبها وعتبة وشيبة ابني ربيعة ، والعاصي بن منبه وعمرو بن هشام ، وهؤلاء من الذين صرعتهم سيوف الإسلام في بدر موجهة بذلك ضربة مصمية إلى قلب الكفر ، مما جعل المشركين وشعراءهم يصرخون مولولين.

وكأني بكعب - رضي الله عنه - في رثائه لحمزة وهو يعدد أسماء قتلى المشركين في بدر كأني به يقول : إنكم إذا كنتم ، فقد سبق أن أصبناكم في فلان أعز مالدكم من رجال :
أصبهون

نسيتم ضربنا بقليب بدر غداة أتاكم الموت العجـيل
غداة ثوى أبوجهل صريعا عليه الطير حائمة تجول

(١) « شعر عبدالله بن الزبيرى » ، ص ٤٦ - ٤٧ .

وعتبة وابنه خرا جميعا وشيبة عضه السيف الصقيل
ومتركنا أمية مجلعبا وفسي حيزومه لدن نبيل
وهام بني ربيعة سائلوها ففي أسيافنا منها فلول (١)
ويعود كعب في رثائية أخرى لحمزة دالية لتعداد أسماء بعض من صرعتهم
سيوف الإسلام في بدر ، وذلك في الأبيات السابع عشر والثامن عشر والتاسع
عشر.

وينوح جبل بن جوال الثعلبي في يوم قريظة على قتلاهم معددا بعض
الأسماء البارزة منهم :

وأقفرت البويرة من سلام وسعية وابن أخطب ، فهي بور

...

وكل الكاهنين ، وكان فيهم مع اللين الخضارمة الصقور (٢)
ويذهب حسان ذاكراً أسماء شهداء الإسلام يوم الرجيع ، ناقشاً إياها على
ذاكرة الزمن وفي قلب كل مسلم يقرأ شعره :

صلى الإله على الذين تتابعوا يوم الرجيع فأكرموا وأثيبوا
رأس السرية مرثد وأميرهم ابن البكير إمامهم وخبيب

(١) ديوانه ، ص ٢٥٣ .

(٢) « السيرة النبوية » ، ق ٢٧٣/٢ .

والعاصم المقتول عند رجليهم كسب المعالي . إنه لكسوب
 وابن لطارق وابن دثنة فيهم وافاه ثم حمامه المكتوب (١)
 وهذا شاعر إسلامي آخر - لم يذكر اسمه ابن هشام - يسجل لنا في
 شعره أسماء بعض الشهداء الكرام في مؤتة . وهو من الذين حضروا الواقعة كما
 يبدو من كلامه :

كفى حزنا أنى رجعت ، وجعفر وزيد وعبدالله في رمس أقبر (٢)
 ويسجل حسان في رائيته التي يرثي بها شهداء مؤتة أيضا هذه الأسماء
 الثلاثة ، والترتيب نفسه ، قائلاً :

فلا يبعدن الله قتلى تتابعوا بمؤتة منهم ذو الجناحين جعفر
 وزيد وعبدالله حين تتابعوا جميعا وأسباب المنية تخطر (٣)
 ويسوق متمم بن نويرة أسماء بعض من ماتوا من قومه في سياق التماسك
 والصبر، مشيراً إلى أنه لا يزال كما هو ، يغيظ أعداءه ولا يمنحهم فرصة للشماتة أو
 الاستهانة به:

ألم تر أني بعد قيس ومالك وأرقم غياظ الذين أكابد
 وعمرا بوادي منعج إذا أجنه ولم أنس قبرا عند ذات الوسائد (٤)

(١) ديوانه (ط . د . عرفات) ، ١٧٩/١ .

(٢) « السيرة النبوية » ، ق ٢٨٨/٢ .

(٣) ديوانه (ط . د . عرفات) ، ٩٨/١ .

(٤) « مالك ومتمم ابنا نويرة اليربوعي » ، ص ٩٠ .

ويعمد بعض الشعراء إلى تكرار عبارة معينة ، فهبيرة بن أبي وهب يكرر عبارة «لفارسها (عمرو)» تعبيراً عن عظمة فروسية عمرو بن ود في نظره ومدى فداحة الخطب بفقدهم إياه على يد علي بن أبي طالب رضي الله عنه في وقعة الخندق :

لقد علمت علياً لؤي بن غالب لفارسها عمرو إذا ناب نائب
لفارسها عمرو إذا مايسومه على ، وإن الليث لا بد طالب (١)

ويكرر كعب بن مالك نداءه لهند بنت عتبة ، التي استأجرت وحشياً لقتل حمزة وبقرت بطنه الشريفة ولاكت كبده . وهذا التكرار يشي بالغضب الشديد الذي كان يتلهب في قلب الشاعر :

ألا ياهند ، فابكي لا تملئي فأنت الواله العبرى الهبول
ألا ياهند لا تبدي شماتا بجمزة ، إن عزكم ذليل (٢)

ونراه يكرر في البيتين التاليين عبارة « قد قتلوه » (والضمير لعثمان رضي الله عنه) هادفاً من وراء ذلك التكرار إلى تضخيم فداحة الجرم الذي ارتكبه الثوار المتمردون ، والتعبير عن استنفاذه وحزنه الشديد على القتل الكريم :

قد قتلوه وأصاحب النبي معا لولا الذي فعلوا لم نبيل بالفتن
قد قتلوه نقياً غير ذي أبن صلى الإله على وجه له حسن (٣)

(١) « السيرة النبوية » ، ق ٢٦٨/٢ .

(٢) ديوانه ، ص ٢٥٣ .

(٣) ديوانه ، ص ٢٨٢ ، ٢٣٨ .

وفي رثائية له فيه ، رضي الله عنهما ، نراه يكرر المعنى ذاته في البيت التالي:

قتل الخليفة كان أمرا مفضعا قامت لذاك بلية التخويف
قتل الإمام له النجوم خواضع والشمس بازغة له بكسوف (١)
وقد تمتد العبارة لتكون شطراً كاملاً . وهذا ما يتبين من قول شداد بن
الأسود عقب هزيمة بدر:

فماذا بالقلب ! قلب بدر من القينات والشرب الكرام
ومماذا بالقلب قلب بدر من الشيزى تكلل بالسنام
وكم لك بالطويّ : طويّ بدر من الحومات والنعم المسام
وكم لك بالطويّ : طويّ بدر من الغايات والدسع العظام (٢)

إذ إن العبارة الاستفهامية « وماذا بالقلب قلب بدر ؟ » ، وكذلك العبارة
الخبرية « وكم لك بالطوي : طوي بدر » تتكرر مرتين ، وهما عبارتان متقاربتان جداً
لدرجة توهم أنهما عبارة واحدة تكررت أربع مرات ، ونبرة الألم الفادح بارزة في
هذا التكرار ، وهو ألم وغيظ يحاول الشاعر أن يخففهما بالفخر الذي يمزجه بهما .

(١) ديوانه ، ص ٢٣٨ .

(٢) « السيرة النبوية » ، ق ٢٩/٢ .

الخرابة :

تقابلنا في شعر الرثاء - في مواطن قليلة - لفظة غريبة ، وإن كانت بعض القصائد يبرز فيها هذا النوع من الألفاظ بروزاً واضحاً . ومن هذه الألفاظ كلمة « وشيظة » في قول الحارث بن هشام في رثائه لأخيه عمرو ، والضمير في البيت للمسلمين :

أغرهم ما جمعوا من وشيظة ونحن الصميم في القبائل من فهر (١)

ومعنى « الوشيظة » : الأتباع الذين ليسوا من القوم . ولعله يشير إلى أن جيش المسلمين لم يكن من قبيلة واحدة بل من قبائل شتى ، على عكس جيش الشرك الذي كان كل أفراده من مكة . وبطبيعة الحال ليس هذا شيئاً يؤخذ على الجيش الإسلامي ، ولكنها تعلقة من تعلات المهزوم يريد أن يهون بها من شأن الانتصار الذي أحرزه عدوه بأي سبيل .

كذلك فكلمة « الأواسى » من الكلمات التي لم تعد تستخدم الآن . وأشيع منها لفظة « الأسس » (ج : أساس) . جاء في القصيدة المارة أيضاً ، والضمير في البيت للآلهة التي استصرخ الشاعر قومه أن ينهضوا لنجدتها والمحامية عنها :
توارثها أباًؤكم وورثتم أواسيها والبيت ذا السقف والستر (٢)
ومن قصيدة أخرى للحارث بن هشام نرى لفظة « مصاليت » ، والمقصود « الشجعان » :

مصاليت بيض من لؤى بن غالب مطاعين في الهيجا مطاعيم في المحل (٣)

(٢ ، ١) « السيرة النبوية » ، ق ١٠ / ٢ .

(٣) السابق ، ق ١٢ / ٢ .

ومن الألفاظ التي توارت مع مرور الزمن لفظة « خذم » (ج: خذمة) أي القطعة من اللحم . جاء في شعر لضرار بن الخطاب الفهري يرثي به أباجهل:

ترى كسر الخطي في نحر مهره لدى بائن من لحمه بينها خذم (١)

وتكثر هذه الألفاظ الغريبة في قصيدة أمية في رثاء قتلى المشركين ببدر كثرة تلفت النظر ، فتقابلنا ألفاظ « جاجح » (ج: ججاج ، أي السيد الشريف) ، و«الواحوح» (ج : وحوح ، أي المنكمش الحديد النفس) ، و«دعموص» (وهو من يكثر الدخول على الملوك) ، و«رح رحارح : واسعة من غير عمق «... إلخ.

ويقول أبوسفیان بن الحارث في المناسبة نفسها :

فأبوا وقد أودى الجلابيب منهم بهم خذب من معطب وكئيب (٢)

ولفظة « خذب » (الطعن النافذ) التي استخدمها تبدو غريبة جداً .

وفي لامية كعب في رثاء حمزة رضي الله عنهما ، وهي قصيدة سهلة جدا ، تفاجئنا كلمة « مجلعبا » ، (أي متمددا على الأرض) :

ومتركنا أمية مجلعبا وفي حيزومه لدن نبيل (٣)

وفي مرثية حسان الحائية في حمزة رضي الله عنه نجد ألفاظاً مثل «نسائح»، و«المصامح»، و«حضارمة».

(١) « ضرار بن الخطاب الفهري » ، ص ١١٠ .

(٢) « السيرة النبوية » ، ق ٧٦/٢ .

(٣) ديوانه ، ص ٢٥٣ .

ومن الألفاظ الغريبة التي تقابلنا في رثاء ذلك العصر كلمة « عرندسة » أي (الكتيبة) الشديدة ، وذلك في قول ضرار بن الخطاب بن مرداس في يوم الخندق:

ومشفقة تظن بنا الظنوننا وقد قدنا عرندسة طحونا (١)

وكذلك كلمة « كريت » ، وهي صفة تستخدم مع كلمة « عام » أو « شهر » عادة ، بمعنى « عام أو شهر كامل » ، وإن لم تكن لها خشونة كلفظة « عرندسة » الواردة في القصيدة ذاتها :

فأجرتناهم شهرا كريتاً وكنا فوقهم كالقاهرينا (٢)

وشعر كعب بن مالك - بوجه عام - هو من الشعر السهل القوي ، ومع ذلك لانعدم أن تقابلنا من حين لآخر كلمة مثل « أظأ » (بمعنى « ألزم ») ، وذلك في قوله:

أنسيتم عهد النبي إليكم ولقد أظأ ووكد الأيماننا (٣)

ويقول متمم بن نويرة في مطلع رثائه لأخيه مالك :

لعمري وما دهري بتأبين هالك ولا جزعا والدهر يعثر بالفتى (٤)

وتستخدم أم الهيثم النخعية في رثاء علي - رضي الله عنه - هذا القسم ولكن بعد تغيير المضاف إليه من الكاف إلى « أبي » :

لعمري أبي لقد أصحاب مصر على طول الصحابة أوجعوننا (٥)

(٢ ، ١) « ضرار بن الخطاب الفهري » ، ص ١١٣ .

(٣) ديوانه ، ص ٢٨٧ .

(٤) « مالك ومتمم ابنا نويرة اليربوعي » ، ص ٨٣ .

(٥) « مقاتل الطالبين » ، ص ٤٣ .

ومن الأقسام التي كانت مستعملة في الجاهلية وامتد وجودها إلى شعر
مابعد الإسلام قول متمم بن نويرة :

حلفت برب الراقصات إلى عشية وحيث تناخ البدن دافعها العقل
لئن فاتني ريب الزمان بمالك وقد كملت فيه المروءة والعقل
ففات ، ولو قيل الفداء فديته وما عز مال عن فداه ولا أهل (١)

ذلك أن الهدى والأضاحي هي من شعائر الحج في الجاهلية والإسلام،
ولذلك نجد هذا القسم قبل الإسلام وبعده .

أما قسم متمم - أيضا - في البيت التالي فهو قسم إسلامي بحت في
نصفه الأول ، إذ هو يحلف بمن نزل الهدى - أي القرآن - وذلك شيء لم يكن
معروفا بطبيعة الحال في الجاهلية . أما قسمه الثاني فيبدو أنه قسم قريب من
القسم المار في البيت الفاتت :

ولو شئت بالله الذي نزل الهدى حلفت وبالأدم المجللة الهدل (٢)

(١) « مالك ومتمم ابنا نويرة اليربوعي » ، ص ١٢٩ .

(٢) السابق ، ص ١٣١ .

الدعاء :

يكثر في الرثاء أسلوب الدعاء . وقد كان الجاهليون يدعون لموتاهم بالسقيا وغيرها . وطبيعي أن يكثر الدعاء للموتى بعد الإسلام ، حيث يعتقد المسلمون في وجود حياة بعد الموت ويرجون رحمة الله ورضوانه ويتمنونها لأحبابهم ويدعون لهم بها .

وعبارة « لاتبعد » من عبارات الأدعية التي يخاطب بها الميت . وعلى قدر ما لاحظت لم أجدها في أي رثاء قاله شاعر مسلم في تلك الفترة التي تتناولها هذه الدراسة .

قال الحارث بن هشام يخاطب أخاه عمرو بن هشام (أباجهل) ، الذي جندلته سيوف المسلمين في بدر :

فلا تبعدن يا عمرو من ذي قرابة
ومن ذي ندام كان ذا خلق غمر (١)
ولحسان في شهداء مؤتة البيت التالي :

فلا يبعدن الله قتلى تتابعوا
بمؤتة منهم ذو الجناحين جعفر (٢)
وفيه الدعاء - كما نرى - بعدم البعد ، ولكن ليس بالفعل اللازم الموجه إلى المخاطب «لاتبعد» بل بالفعل المتعدي الذي فاعله لفظ الجلالة : « لايبعد الله قتلى » .

ومثله قول أربد :

وقولي : ألا لايبعد الله أربدا
وهدي به صدع الفؤاد المفجعا (٣)

(١) « السيرة النبوية » ، ق ١٠/٢ .

(٢) ديوانه (ط د ، عرفات) ، ٩٨/١ .

(٣) « شرح ديوان ليبيد » ، ص ١٧٣ .

ويقول كعب بن الأشرف في قتلى المشركين في بدر :

قتلت سراة الناس حول حياضهم لاتبعـدوا إن الملوك تصرع(١)

فبينما نراه يدعو لهؤلاء الهلكى بعدم الهلاك نراه من جهة أخرى يدعو على
من حمل نبأ هلاكهم وأشاعه بالقتل بطعنة نافذة ، أو على الأقل بأن يعيش أعمى
أصم مرعش اليدين والأطراف لا يستطيع أن يتماسك :

صار الذي أثر الحديث بطعنه أو عاش أعمى مرعشا لا يسمع(٢)

وقال سافع بن عمرو يخاطب عمرو بن ود لقتله علي بن أبي طالب رضي

الله عنه يوم الخندق :

لاتبعدن ، فقد أصبت بقتله ولقيت قبل الموت أمراً يثقل(٣)

وبالمثل يقول له هبيرة بن أبي وهب في رثائه له :

فلا تبعدن يا عمرو حيا وهالكا وحق لحسن المدح مثلك من مثلي

ولا تبعدن يا عمرو حيا وهالكا فقد بنت محمود الثنا ماجد الأصل(٤)

ومن عبارات الأدعية قول ابن الزبير في الذين سقطوا مجندين في بدر

من مشركي قريش :

حيا إله أبا الوليد ورهطه رب الأنام وخصمهم بسلام(٥)

(٢٠١) « السيرة النبوية » ، ق ٥٢/٢ .

(٢) السابق ، ق ٢٦٧/٢ .

(٤) السابق ، ق ٢٦٨/٢ .

(٥) « شعر عبدالله بن الزبير » ، ص ٤٧ .

فهو يدعو لهم بأن يحييهم الإله وأن يسبح عليهم السكينة والسلام . ولاندرى
أية سكينة وأي سلام يمكن أن ينزلا على قبر هولاء الكفار ، وكيف يطمع الشاعر أن
يجيبهم الإله ، الذي عاداه الشاعر وقومه .

أما في قصيدة كعب في رثاء حمزة فإن نداءه سيد الشهداء : « عليك سلام
ربك في جنان » يبدو منسجماً تمام الانسجام مع عقيدته وموقفه ، يقول :

عليك سلام ربك في جنان مخالطها نعيم لا يزول (١)

وبالمثل هذا الدعاء الذي يدعو به حسان لحمزة في البيت التالي :

أقول وقد أعلى النعي بهلكه جزى الله خيراً من أخ ونصير (٢)

وقوله أيضاً في رثاء حمزة رضي الله عنه في البيت التالي هو دعاء إسلامي

خالص:

صلى عليك الله في جنّة عالية مكرمة الداخل (٣)

ويشبه دعاء حسان في البيت التالي لخبيب بن عدي حين غدر به الكفار

وقتلوه صلباً على جذع من الخشب :

(١) ديوانه ، ص ٢٥٢ .

(٢) ديوانه (ط . د . عرفات) ، ١٣٤/١ .

(٣) ديوانه (ط . د . عرفات) ، ٣٢١/١ .

ولكعب في شهداء مؤتة :

صلى الإله عليهم من فتية وسقى عظامهم الغمام المسبل

وقالت هي أيضا :

رحمة الله والسلام عليه وجزاه المليك حسن الثواب (١)

وقال حسان :

صلى الإله ومن يحف بعرشه والطيبون على المبارك أحمد (٢)

ولكل دعاء من هذه الأدعية تلويحاته الخاصة كما هو واضح .

وفي البيت التالي يدعو متمم لقبر أخيه بالسقيا ، وهو دعاء قديم ، ولكن

ربما كان إسناد السقيا فيه إلى الله سبحانه شيئا جديداً :

سقى الله أرضا حلها قبر مالك ذهاب الغواصي المدجنات فأمرعا (٣)

وكذلك كعب يدعو لعثمان رضي الله عنه وغيره بالسقيا قائلا :

وعمرو وعثمان بن عفان والفتى أبو مرثد ، سقيا لذلك في الأجر (٤)

وقال حسان في عثمان رضي الله عنه :

ماذا أردتم من أخي الخير باركت يد الله في ذاك الأديم المقدد (٥)

(١) ابن سعد « الطبقات الكبرى » ، ٢ / ٣٢٩ .

(٢) ديوانه (ط . د . عرفات) ، ١ / ٢٧٠ .

(٣) « مالك ومتمم ابنا نويرة اليربوعي » ، ص ١١٢ .

(٤) ديوانه ، ص ٢١٢ .

(٥) ديوانه (ط . د . عرفات) ، ١ / ٣٢٠ .

النداء :

النداء سمة أسلوبية بارزة في المراثي ، وكثيراً ما يستهل الشعراء قصائدهم به .

فقد يدعو الشاعر المرأة إلى النذب على الميت . وهذا مانراه في قول حسان ابن ثابت في مطلع رثائه لحمزة إذ يقول :

يامى قومى فانذبــــــــــــــــــــن بسحيرة شجو النوائح (١)

كما يظهر في قول كعب بن مالك مخاطباً صافية بنت عبدالمك :

صافية قومى ولا تعجزى ويكى النساء على حمزة (٢)

وهذا نابع - كما يبدو - من ارتباط المرأة بالنياحة على الميت في الجاهلية .

ولأن الشاعر يريد أن يعبر عن شدة فجيعة ، ومرارة ألمه ، يوجه نداءه

لعينه ، أو لعينيه لكي تجود بدموعها الغزار ، حيث إن هذه الدموع تعكس الحالة النفسية التي يعاني منها .

فكعب بن مالك في بداية رثائه لعبيدة بن الحارث يقول :

أيا عين جودي ولا تبخلى بدمعك حقاً ولا تنزري (٣)

وتقول هند بنت أثاة :

(١) ديوانه (ط . د . عرفات) ، ٤٥٠ / ١ .

(٢) ديوانه ، ص ٢١٦ .

ألا ياعين بكى لا تملسى فقد بكى النعى بمن هويتُ (١)
وتقول أم الهيثم بنت الأسود النخعية في رثاء علي بن أبي طالب رضي الله
عنه:

ألا ياعين ويحك فاسعدينا ألا تبكي أمير المؤمنين (٢)
وفي كثير من الأحيان نجد الشاعر يتجه بالنداء والخطاب لمن يرثيه ، وكأنه
يتناسى بأنه قد مات . ومن ذلك قول كعب بن مالك في رثاء حمزة رضي الله
عنهما:

أبا يعلى ، لك الأركان هدت وأنت الماجد البر الوصول (٣)
ويخاطب حسان حمزة أيضا مؤكداً أنه لن ينساه أبداً وأنه سيظل يبكيه
أينما ذهب وحيثما استقر :

فوالله ما أنساك ماهبت الصبا ولأبكين في محضري ومسيري (٤)
ومثل ذلك قوله أيضا من قصيدة أخرى :

ياحمز ، لا والله لا أنساك ماصر اللقائح

...

(٣) السابق ، ص ٢٠٢ .

(١) ابن سعد « الطبقات الكبرى » .

(٢) « مقاتل الطالبين » ، ص ٤٣ .

(٣) ديوانه ، ص ٢٥٢ .

(٤) ديوانه (ط . د . عرفات) ، ١ / ١٣٣ .

يا فرسا ، يامدرها ، يا حمز ، قد كنت المصامح

...

يا حمز ، قد أوجدتني كالعود شذب الكوافح (١)

وهذا التكرار لندائه - رضي الله عنه - يوحى بفداحة الألم الذي كان يحسه حسان والمسلمون لفقد هذا البطل المغوار .

ويتوجه حسان - رضي الله عنه - بالنداء والخطاب إلى خبيب يبشره بأن الجنة هي مصير المؤمنين الصابرين على البلاء المحتسبين لما يصيبهم في سبيل الله:

صبراً خبيب ، فإن القتل مكرمة إلى جنان نعيم يرجع النفس (٢)

وفي رثاء حسان لسعد بن معاذ رضي الله عنهما يتوجه إلى الشهيد الكريم الذي استشهد في يوم الخندق ، مثنيا على ما كان يتصف به من ود كريم ، وذاكرا إنجازاته النبيلة التي ألبسته أثوابا من المكارم والحمد ، وحكمه في بني قريظه الخونة الذين وافق حكم السماء فيهم ، وما ينتظره من ثواب الله في الجنة :

فإن تك قد ودعتنا عن مـودة
وأمسيت في غبراء مظلمة الحد
فأنت الذي ، ياسعد ، أبت بمشهد
كـريم وأثواب المكارم والحمد
بحكمك في حيي قريظة بالذي
قضى الله فيهم ما قضيت على عمد

(١) ديوانه (ط.د. عرفات) ، ١/٤٥٠ ، ٤٥١ ، ٤٥٢ .

(٢) السابق ، ١/٢٢٧ .

فوافق حكم الله حكمك فيهم ولم تعف إذ ذكرت ما كان من عهد
 فإن كان ريب الدهر أمضاك في الألى شـروا هذه الدنيا بجناته الخلد
 فنعم مصير الصادقين إذا دعوا إلى الله يوما للوجاهة والقصد (١)
 وتنادي أروى بنت عبدالمطلب ابن أخيها رسول الله - عليه السلام -
 والحزن ملء قلبها ، متذكرة صفاته العظيمة التي كان المسلمون ينعمون في
 ظلها إبان حياته - عليه السلام - ثم حرّموا منها بعد انتقاله إلى الرفيق الأعلى :
 ألا يارسول الله كنت رجاءنا وكنت بنا برا ولم تك جافيا
 وكنت بنا روبا رحيمنا لبيك عليك اليوم من كان باكيا (٢)
 وتبدو نبرة الحسرة والتفجع قوية في قول كعب بن مالك يخاطب عثمان
 رضي الله عنه بعد أن قتله المتمرّدون :
 قتلوك يا عثمان غير مدنس قتلا لعمرك واقعا بسقيف (٣)

(١) ديوانه (ط . د . عرفات) ، ١ / ٤٥١ .

(٢) ابن سعد « الطبقات الكبرى » ، ٢ / ٣٢٥ .

(٣) ديوانه ، ص ٢٤٠ .

القسم :

قال طالب بن أبي طالب بعد بدر ، محاميا عن قريش :

فوالله لاتنفك نفسي حزينة تململ حتى تصدقوا الخزرج الضربا (١)
مقسما بالله ، كما يفعل المؤمنون به سبحانه .

أما قسم حسان به سبحانه فهو طبيعي ، لأنه كان مسلما ، وإن كان قد
أكد الآلية وجعلها آلية إنسان بر لا يعرف الخداع :

أليت حلفة بر غير ذي دخل مني أليّة بر غير إفناد
بالله ما حملت أنثى ولا وضعت مثل النبي رسول الرحمة الهادي (٢)

أما ضرار بن الخطاب الفهري في رثائه أبا جهل فهو يكتفي بفعل القسم
دون أن يحدد المقسم به . قال :

فأليت لا تنفك عيني بعبرة على هالك بعد الرئيس أبي الحكم (٣)

وبالمثل نجد حسان يستخدم العبارة ذاتها ، مهدداً بحرب للانتقام ممن
قتلوا خبيبا بعد أن غدروا به :

يا أيها الراكب الغادي لطيته أبلغ لديكم وعيدا ليس بالكذب

(١) « السيرة النبوية » ، ق ٢٧/٢ .

(٢) ديوانه (ط د عرفات) ، ١ / ٢٧٢ .

(٣) « ضرار بن الخطاب الفهري » ، ص ١١٠ .

يا ابني فكيهة ، إن الحرب قد لقت مطلوبها الصاب إذ تمرى لمحتلب (١)

ويتساءل كعب بن مالك : من يبلغ الأنصار عنه رسالته التي يلومهم فيها

على قعودهم عن نصره عثمان رضي الله عنه :

من مبلغ الأنصار عني آية رسلاً تقص عليهم التبيانا

رسلاً تخبركم بما أوليتم أن البلاء يكشف الإنسانا

أن قد فعلتم فعلة مذكرة كست الفضوح وأبدت الشنانا

بقعودكم في داركم وأميركم تحشى ضواحي داره النيرانا (٢)

ويطلب أبو الأسود الدؤلي من مخاطب له متوهم أن يبلغ معاوية بن أبي

سفيان سخطه على مقتل أمير المؤمنين علي رضي الله عنه :

ألا أبلغ معاوية بن حرب فلا قرت عيون الشامتينا

أفي الشهر الحرام فجعتمونا بخير الناس طرا أجمعينا ؟ (٣)

(١) ديوانه (ط د. عرفات) ، ٢٧٠/١ .

(٢) ديوانه ، ص ٢٧٤ .

(٣) ديوانه ، ص ١١٧ .

ويقول أبو سفيان بن الحارث في المناسبة نفسها :

أقاتلهم وأدعي : يا الغالب وأدفعهم عني بركن صليب (١)

ويتألم حسان رضي الله عنه لمن سقطوا شهداء في ميدان الجهاد في سبيل
الله مستغيثاً لقومه ومتسائلاً تساؤل المؤمن بالقضاء والقدر قائلاً :

ألا يا قوم ، هل لما حم دافع ؟ وهل ماضى من صالح العيش راجع؟ (٢)

ويستصرخ عبدالله بن أنيس ، في رثائه للنبي ، قريشاً أن تهب ولا تهمل
أمر الحكم بعد النبي ﷺ بل تختار واحداً من ثلاثة (أبي بكر أو عمر أو علي رضي
الله عنهم جميعاً) وتولية خلافة النبي عليه الصلاة والسلام حتى لا يضطرب حبل
المسلمين وينتقض عليهم أمرهم :

فيا القريش ، قلدوا الأمر بعضهم فإن صحيح القول للناس نافع

ولا تبطنوا عنها فواقا ، فإنها إذا قطعت لم يمن فيها المطامع (٣)

ويستغيث كعب بن مالك بمن يأمل أن يجد عنده عوناً على أحزانه التي
أفقدته عقله لمقتل عثمان رضي الله عنه ، قائلاً :

يا للرجال للبك المخطوف ولدمعك المترقرق المنزوف (٤)

(١) « السيرة النبوية » ، ق ٧٦/٢ .

(٢) ديوانه (ط . د . عرفات) ، ٢٦٧/١ .

(٣) ابن سعد « الطبقات الكبرى » ٣٢١/٢ .

(٤) ديوانه ، ص ٢٣٨ .

وهذا هو حسان - أيضاً - يستغيث الاستغاثة نفسها والسبب نفسه :

يا للرجال لدمع هاج بالسنن لقد عجبت لمن يبكي على الدمن
إني رأيت أمين الله مضطهداً عثمان رهنا لدى الأجداث والكفن (١)

ويعمد بعض الشعراء للتعبير عن شدة فجيعتهم باستخدام بعض العبارات التي تدل على ذلك مثل « يالهدف نفسي » ، أو « لهفي » ، كما في قول الحارث بن هشام يرثي أخاه أبا جهل :

ألا يالهدف نفسي بعد عمرو وهل يغني التلهف من قتيل (٢)
إنه يتحسر أشد التحسر على أخيه ، الذي فقداه فقدانا مروعا في بدر ، غير أنه سرعان ما يتبين أن هذا التحسر لن يفيد في شيء ، فالحسرة لاتعيد قتيلاً إلى الحياة .

ويقول حسان متلهفاً على حمزة رضي الله عنه ورفاقه الشهداء في أحد:

لهفي لشبان رزينا هم كأنهم المصابيح (٣)

ويستخدم هبيرة بن أبي وهب العبارة نفسها ، منقسا بها عن الغيظ والحسرة اللذين يمزقان قلبه على عمرو بن ود صريع سيف علي رضي الله عنه في غزوة الخندق:

(١) ديوانه (ط د . عرفات) ٣١٩/١ .

(٢) « السيرة النبوية » ، ق ٢٨/٢ .

(٣) ديوانه (ط د . عرفات) ، ٤٥١/١ .

فيالهف نفسي إن عمرا تركته بيثرب لازالت هناك المصائب (١)

وتملأ الحسرة قلب حسان لما أوقع ببعض أصحاب رسول الله ﷺ من غدر على أيدي الكفرة عند بئر معونة ، فهو يهتف متفجعا قائلاً :

فيالهفي لمنذر إذ تولى ^{كرو} وأعنق في منيته بصبر (٢)

ويتفجع على فقد المسلمين للرسول عليه ^{السلام} معلنا أنه مستعد لافتدائه بوجهه بل بحياته وبأبيه وأمه :

وجهي يقيك الترب ، لهفي ، ليتني غيببت قبلك في بقيع الغرقد

بأبي وأمي من شهدت وفاته في يوم الاثنين النبي المهدي (٣)

(١) « السيرة النبوية » ، ق ٢٦٨/٢ .

(٢) ديوانه (ط . د . عرفات) ، ٢٠٧/١ .

(٣) السابق ، ٢٦٩/١ .

النفي :

الرثاء في جانب منه تعداد مناقب المرثي وإشادة بها . وهذا التعداد قد يتخذ أسلوباً إيجابياً فيذكر الرائي ما كان يتمتع به الفقيد من نبيل الصفات ، وقد يتخذ أسلوباً سلبياً فينفي عنه الصفات الرديئة . ومن هذا الأسلوب الأخير قولهم إن الفقيد لا هو كذا ولا كذا . ومن أمثلة هذا التركيب قول طالب بن أبي طالب عقب بدر ، والكلام في البيتين عن رسول الله ﷺ :

أخا ثقة في النائبات مرزاً كريما نثاه لا بخيلا ولا ذربا
يطيف به العافون يغشون بابه يؤمون بحرا لانزوراً ولا صربا (١)
وقول ضرار بن الخطاب في رثاء أبي جهل :

ثوى يوم بدر رهن خوصاء رهنها كريم المساعي غير وغد ولا برم (٢)
وقول أمية يبكي زمعة بن الأسود وقتلى بني أسد في بدر :

تلك بنو أسد إخوة الجو زاء لا خانة ولا خدعه (٣)
وينفي حسان عن حمزة رضي الله عنه الطيش والاعتلال معاً قائلاً :

لا طائش رعرش ولا نو علة بالحمل أنح (٤)

(١) « السيرة النبوية » ، ق ٢٧/٢ .

(٢) « ضرار بن الخطاب الفهري » ، ص ١١٠ .

(٣) « السيرة النبوية » ، ق ٣٣/٢ .

(٤) ديوانه (ط. د. عرفات) ، ٤٥١/١ .

ويذكر جبل بن جوال الثعلبي مناقب من سقطوا من قريظة بسيف
المسلمين فيقول عن أبي الحكم سلام إنه « لارث السلاح ولا دثور » ، واصفا إياه
بالشجاعة والقوة والاستعداد ، وبالثبات في المعركة لا يتحول :

فإن يهلك أبو حكم سلام فلارث السلاح ولا دثور (١)

وينفي لبيد عن نفسه تخليه عن الخيل في وقت الشدة ، وكذلك خيانتة
وغدره للأصدقاء ، وذلك حين طلب من ابنتيه أن تبكياه بعد موته وتذكرا مناقبه:

وقولا : هو المرء الذي لاخيليه أضاع ولا خان الصديق ولا غدر (٢)

كما ينفي متمم أن يكون مالك طائشا في الحرب أو أن سيفه كان كهاماً
لايقطع ، إلا إنه يريد أن يثبت له عكس هذه الصفات وأنه كان شجاعاً مقداماً ثابت
الجأش ماضي السيف :

وما كان وقافا إذا الخيل أحجمت ولا طائشاً يوم اللقاء مدفعا

ولا بكهام بزه عن عدوه إذا هو لاقى حاسرا أو مقنعا (٣)

وتقول زوجة الزبير بن العوام فيه بعد مامات رضي الله عنه :

يا عمرو ، لو نبهته لوجدته لا طائشا رعرش الجنان ولا اليد (٤)

(١) « السيرة النبوية » ، ق ٢٧٣/٢ .

(٢) « شرح ديوان لبيد » ، ص ٢١٤ .

(٣) « مالك ومتمم ابنا نويرة اليربوعي » ، ص ١٠٨ .

(٤) ابن عبد البر « الاستيعاب » ، ٤/١٨٧٩ .

الإبلاغ :

من السمات الأسلوبية التي تلفت النظر في الشعر الجاهلي والإسلامي طلب الشاعر من سامع له متوهم أن يبلغ رسالة إلى صديق له أو إلى قومه أو إلى أعدائه ، وذلك وفق طبيعة الموقف . لقد كان الشعر يمثل أهم وسيلة إعلامية في ذلك الوقت . ومن هنا اتخذ الشاعر لإعلان ما يريد تبليغه للآخرين . وقد قابلتني هذه السمة في شعر الرثاء في العصر موضوع الدراسة ، حيث يعلن الشاعر بها موت عزيز لديه أو تهديده بالانتقام من الأعداء الذين قتلوا ذلك العزيز . ومن ذلك قول ضرار بن الخطاب الفهري يرثي أبا جهل :

فبلغ قريشا أن خير نديها وأكرم من يمشي بساق على قدم
ثوى يوم بدر رهن خوصاء رهنها كريم المساعي غير وغد ولا برم (١)
وهذا البيت ، وهو من أبيات منسوبة لهند بنت أبي عتبة :

فأبلغ أبا سفيان عني مالكا فإن ألقه يوما فسوف أعاتبه (٢)
وتقول قتيلة بنت الحارث طالبة أن يبلغ النضر بن الحارث رثاءها فيه وتحيتها
له :

أبلغ بها ميتا بأن تحية ما إن تزال بها النجائب تخفق (٣)
ويهدد كعب بن مالك المشركين بأن المسلمين سوف يثأرون لشهادتهم في أحد
بحرب تطحن الأعداء . وهو يبحث عن ينقل هذه الرسالة التهديدية ويبلغها إياهم:
ألا من مبلغ عني لؤيأ فبعد اليوم دائلة تدول (٤)

(١) « ضرار بن الخطاب الفهري » ، ص ١١٠ .

(٢) « السيرة النبوية » ، ق ٣٩/٢ .

(٣) السابق ، ق ٤٢/٢ .

(٤) ديوانه ، ص ٢٥٢ .

الحوار :

أسلوب الحوار في الشعر الرثائي قليل فيما لاحظت ، ومن ذلك قول متمم في إحدى مرثياته في أخيه مالك ، حيث يسوق حديثاً دار بينه وبين من لأمه على كثرة بكائه على أخيه :

لقد لآمني عند القبور على البكا رفيقي لتذراف الدموع السوافك
 أمن أجل قبر بالملا أنت نائح على كل قبر أو على كل هالك ؟
 فقال : أتبكي كل قبر رأيتَه لقبر ثوى بين اللوى فالدكادك ؟
 فقلت له : إن الشجا يبعث الشجا فدعني ، فهذا كله قبر مالك (١)

إن اللائم يفكر بالمنطق البارد فيستغرب من ثم بكاء متمم على قبور ناس لا يعرفهم، لكن الشاعر أصدق منه نظراً وأصوب منطقاً . ذلك أن أحزاننا لاستثثار استثارة مباشرة بفعل موضوعها فحسب ، بل كثيراً ما يستثيرها أيضاً الخيال والمصائب المشابهة . وعلى هذا فمتمم بن نويرة لا يبكي كل تلك القبور ، وإنما هو يبكي أخاه . كل ما في الأمر أنها تذكره بقبر أخيه ، فكأنها قد تحولت كلها إلى ذلك القبر ، أو كما قال : « هذا كله قبر مالك » .

وشبيهه بذلك هذا الحوار الذي يقصه علينا حسان في أبياته التالية التي يرثي فيها شهداء يوم الجسر يوم قس الناطف :

يقول رجال : ما لحسان باكيا ؟ ومالي لأبكي على المعشر الزهر (٢)

(١) « مالك ومتمم ابنا نويرة اليربوعي » ، ص ١٢٥ .

(٢) ديوانه (ط . د . عرفات) ، ٤٢٢/١ .

وفي الحوار الذي دار بين أبي نؤيب وأميمة نسمع اللوم نفسه على كثرة بكائه وشحوب جسمه وطول سهاده ، ونسمع الرد نفسه عن الحزن على الأحباب الذاهبين :

منذ ابتذلت ، ومثل مالك ينفع	قالت أميمة : ما جسمك شاحبا
إلا أقض عليك ذاك المضجع	أم ما جنبك لا يلائم مضجعا
أودى بنى من البلاد فودعوا	فأجبتها : أن ما لجسمي أنه
بعد الرقاد وعبرة لاتقلع	أودى بنى وأعقبوني غصة
فتخرموا ، ولكل جنب مصرع	سبقوا هوى وأعنقوا لهواهم
وإخال أني لاحق مستتبع (١)	فغبرت بعدهم بعيش ناصب

الصورة الفنية

تمثل الصورة عنصراً فنياً مهماً في الشعر ، بل هي قوامه ؛ إذ إن هذا الفن الأدبي يعتمد في جانب منه على التعبير بالصور عن الأفكار والمشاعر والأحاسيس التي لدى الشاعر ، وإذا افتقد النص الشعري إلى الصور فإنه يتحول إلى كلام جاف وبارد ، لا يتحقق معه المتعة الجمالية التي تمثل هدفاً أساسياً للشعر ، وهي تعتمد على التقديم الحسي للمعنى ، وفرق بين أن يأتي إليك المعنى مجرداً وبين أن يأتي في صورة محسوسة . إن الشاعر الأصيل « يتوسل بالصورة ليعبر بها عن حالات ، لا يمكن له أن يتفهمها ، ويجسدها بدون الصورة . وبهذا الفهم لا تصبح الصورة شيئاً ثانوياً يمكن الاستغناء عنه ، أو حذفه وإنما تصبح وسيلة حتمية ، لإدراك نوع متميز من الحقائق ، تعجز اللغة العادية عن إدراكه ، أو توصيله . وتصبح المتعة التي تمنحها الصورة للمبدع قرينة الكشف ، والتعرف على جوانب خفية من التجربة الإنسانية » (١) .

وبما أن الصورة رؤية جديدة للأشياء فإن الخلاف بين مذاهب أهل الفن حولها يظل خلافاً شكلياً ، فكل تلك المذاهب ترى أن الصورة هي جوهر الشعر .

فالتشبيه - مثلاً - يقوم على إدراك العلاقات المتباعدة بين الأشياء والتقريب بشكل قد لا يكون واضحاً عند كثير من الناس . وفي الاستعارة يحاول الشاعر أن

(١) د. جابر عصفور « الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي » ، دار التنوير ، بيروت ، ط ٢ ،

يضيف طابع الحياة على الأشياء الحسية والمعنوية من خلال لغة المجاز التي يستخدم فيها الألفاظ استخداماً فنياً يمنحها بعداً جديداً . وفي الكناية يستخدم الشاعر الإيحاء ويبتعد عن التصريح والمباشرة التي تفسد الشعر . فهو يومض إلى الأشياء وهنا يكمن التأثير على القاريء والمتذوق لأنه يظل في حوار دائم مع الشعر .

والشاعر يمتح صورته من البيئة التي ينتمي إليها : من سمائها وأرضها ووديانها ورمالها وجبالها وأنهارها ومطرها وسحابها وحيواناتها وعاداتها وتقاليدها ودينها، وكذلك من بيئته المتمثلة في النصوص الأدبية التي قرأها أو درسها أو سمعها، حتى لو لم تكن بعض الصور التي فيها مما ينتمي إلى بيئته الطبيعية والاجتماعية .

وقد يكون استمداد الشاعر صورة من البيئة استمداداً مباشراً ، وقد يسلط خياله على جزئياتها فيأتي بشيء جديد من ناحية التراكيب وإن لم تكن عناصره المفردة متوفرة فيها .

والناظر في شعر صدر الإسلام يجد عدداً من الصور بعضها قد تكرر عدة مرات، وبعضها لا يمثل ظاهرة تسترعى الانتباه . ولكي يسهل الكلام عن هذه الصور يحسن بنا أن نقسمها حسب المعاني التي تنتمي إليها : فهناك صور خاصة بالثناء على الميت والإشادة به ، وصور خاصة بالحنن عليه والألم لفقده ، وصور خاصة بمشاعر الانتقام والتهديد بالثأر ... إلخ .

وسيعمد البحث إلى الوقوف على بعض الصور الفنية في شعر الرثاء محور الدراسة في ضوء الدراسات البيانية .

ومن الصور الخاصة بالثناء على الميت وذكر شمائله والإشادة بها بياض الوجوه . وقد كانت العرب تمدح بياض الوجه ، وتعدده سمة من سمات النبيل والشرف

وعراقة الأصل . قال ابن الزبير في قتلى قريش الذين جندلتهم سيوف الإسلام في بدر:

ماذا على بدر؟ وماذا حوله من فتية بيض الوجوه كرام (١)

كذلك فقد شبه الشعراء مرثيتهم بالبدر ، وهي صورة متصلة بالصورة السابقة، إذ البدر يمثل البياض في رقعة الظلام المادة رواقها على الكون . قال ابن الزبير في الحديث عن هزيمة بدر وقتلى المشركين فيها :

والحارث الفياض يبرق وجهه كالبدر جلى ليلة الإظلام (٢)
ويقول حسان راثياً جعفر بن أبي طالب :

أغر كلون البدر من آل هاشم شجاع إذا سيم الظلّامة مجسراً (٣)
ويرثي ليبد بن ربيعة أخاه أربد قائلاً :

ألفيت أربد يستضاء بوجهه كالبدر غير مقتّر مستأثر (٤)
ويقول حسان في عثمان رضي الله عنه :

غدروا بأبيض كالهلال مبراً خلصت مضاربه بزئد وار (٥)

(١) « شعر عبدالله بن الزبير » ، ص ٤٦

(٢) السابق ، ص ٤٧ .

(٣) ديوانه (ط . د . عرفات) ، ٩٨/١ .

(٤) « شرح ديوان ليبد » ، ص ١٦٦ .

(٥) ديوانه (ط . د . عرفات) ، ٣١١/١ .

ويكثر الشعراء العرب من المدح بالكرم . وفي هذا السياق يشبهون المدوح أو المرثي بالبحر : فكما أن البحر في سعته وغزارته لا يكاد ينفد مافيه من ماء ، فكذلك المدوح أو المرثي لم تكن عطاياه تنفد ولا كرمه يتوقف . قال طالب بن أبي طالب في يوم بدر :

يطيف به العاقون يغشون بابه يؤمون بحراً لا نزوراً ولا صرباً (١)

فهو بحر لا يعرف نزوره الماء فضلاً عن انقطاعه . وفي البيت صورة أخرى هي صورة مرتادي بيت المدوح وغاشيه الذين لا ينقطعون عن الوفود إليه والطواف حوله كما يطوف الحجيج بالكعبة . وهذه أيضاً من الكنايات المعروفة في شعرنا القديم .

ويقول حسان في رثاء حمزة رضي الله عنه :

بحرٌ فليس يُغْبُ جاراً منْ ————— ه سيبٌ أو منادح (٢)

أي أن عطاياه لا تتوقف أو تبطيء . وهل يفيض ماء البحر أو يعز على من يريد أن يمتح منه ؟

ومن الصور التي تعبر عن الكرم صورة شراء المدوح أو المرثي الحمد بالأموال :

المشترون الحمد بالأموال ، إن الحمد رابع (٣)

(١) « السيرة النبوية » ، ق ٢٧/٢ .

(٢ ، ٣) ديوانه (ط . د . عرفات) ، ٤٥١/١ .

إن الذي يعقد هذه الصفقة لا يمكن أن يخسر ، فإن الذي يشتري به أغلى وأعز وأبقى مما يدفع فيه من أموال مهما كثرت . ذلك أنه يشتري الحمد ، والحمد باق ، أما المال فالى نفاذ . إنه يدفع شيئاً هالكاً في سبيل الحصول على شيء باقٍ مابقيت الدنيا: حسن السمعة والأحدوثة ، وثناء الناس عليه وإشاداتهم بكرمه وأريحيته . أو ليس من يفعلها هذا هو الكاسب الرابع ؟

ومما كانت العرب تمدح به الشجاعة ، والوصف بالشجاعة يتخذ صوراً متعددة، من أشهرها صورة الأسد، ولا شيء من حيوان أو إنسان يستطيع الوقوف له أو الانتصار عليه . قالت صفية بنت مسافر في رثاء زوجها الذي صرّع في بدر:

وما ليث غـريف ذو أظافر وأسنان
أبو شـبلين وثأب شديد البطش غـرثان
كـحبيبي إذ تولى ووجه القوم ألوان (١)

ولكن زوجها في نظرها أسد متميز ، حيث إن له ولدين جائعين مثلما هو جائع، فهو هائج أشد الهياج تأكله أظفاره وأسنانه تحرقا إلى فريسة ينقض عليها ويعمل فيها تلك الأظافر والأنياب ممزقاً مفترساً .

ويقول كعب في حمزة بعد استشهاده في أحد :

وتراه يرقل في الحديد كأنه نو لبدة شئتُ البرائن أريدُ (٢)

ويقول حسان في رثاء خبيب بن عدي :

(١) « السيرة النبوية » ، ق ٢/٤٠ ، ٤١ .

(٢) ديوانه ، ص ١٩٠ .

فيها أسود بني النجار يقدمهم شُهْبُ الأسنة في معصوبٍ لَجِبِ (١)
 وكثيراً ما تقابلنا في قصائد المدح والثناء تشبيه الممدوح بالفحل الكريم .
 وهذه الصورة هي من صميم البيئة العربية حيث كانت تكثر الإبل ويحرص الناس
 على اقتناء كرائمها . يقول حسان في حمزة :

تسائل عن قرم هجان سَمِيدَعٍ لدى الباسِ مِغْرارِ الصبّاحِ جَسُودِ (٢)
 ويقول كعب بن مالك رضي الله عنه في شهداء مؤتة :

فمضوا أمام المسلمين كأنهم فَنُقُّ عليهن الحديد المُرْقَلُ (٣)
 وأحيانا ما نراهم يسمون المرثي «صقراً» . قال حسان في خبيب بن عدي:
 صقراً توسّط في الأنصار منصبه حَلَوَ السجّية محضاً غير مؤتشبِ (٤)
 وقد قابلت عند ليبي وصفه لأخيه أريد بلطافة الكبد ، كناية عن
 حسن الخلق:

حلو كريم وفي حلالوته مرّ لطيف الأحشاء والكبد (٥)
 وذلك في مقابل « غلاظة الكبد » ، التي يكنى بها الفظاظة والقسوة . ويقول
 أيضا في أخيه :

(١) ديوانه (ط . د . عرفات) ، ١ / ٣٧٠ .

(٢) السابق ، ١ / ١٣٣ .

(٣) ديوانه ، ص ٢٦١ .

(٤) ديوانه (ط . د . عرفات) ، ١ / ٣٧٠ .

(٥) « شرح ديوان ليبي » ، ص ١٦٢ .

انْعَ الكَرِيمَ للكَرِيمِ أَرْبَدًا انْعَ الرَّئِيسَ وَاللَطِيفَ كِبِدًا (١)

كما قابلت عنده وصفه له بأنه « حلو كالعسل » ، وهي صورة فيها عفوية وتلقائية وبساطة وقوة تأثير أيضاً . ومازلنا نستخدم هذه الصورة في لغتنا اليومية:

مَمْقَرٌ مُرٌّ عَلَى أَعْدَائِهِ وَعَلَى الْأَدْنِيِّينَ حَلْوٌ كَالْعَسَلِ (٢)

وقد وجدتُ متمم بن نويرة يشبه أخاه مالكا - في رثاء له فيه - بصدر السيف الهندواني ، وهو من أفخر السيوف وأقواها ، يريد أنه ماضٍ شجاع مستقيم قاطع ، قال :

ذَرِينِي ، فَكَمْ مِنْ صَالِحٍ قَدْ رُزِيَتْهُ أَخٍ لِي كَصَدْرِ الْهِنْدَوَانِيِّ مَاجِدِ (٣)

وثمة صورة وجدتها عند راثٍ آخر في هذه الفترة هي وصف كعب بن مالك للشهيد عثمان بن عفان رضي الله عنه بأنه « طيب الردن » :

يَاقَاتِلِ اللَّهَ قَوْمًا كَانَ أَمْرُهُمْ قَتَلَ الْإِمَامَ الزَّكِيَّ الطَّيِّبَ الرَّدُنِّيَّ (٤)

ويكثر في رثاء الرسول ﷺ بالذات وصفه بالنور والضيء ، دلالة على أنه عليه السلام هو الهادي الذي يميّط به الله سبحانه وتعالى عن الدنيا ظلام الجاهلية والكفر والطغيان والضلال . قال حسان :

فَبِينَا هُمْ فِي ذَلِكَ النُّورِ إِذْ غَدَا إِلَى نُورِهِمْ سَهْمٌ مِنَ الْمَوْتِ مُقْصِدٌ (٥)

(١) « شرح ديوان لبيد » ، ص ١٦٤ .

(٢) السابق ، ص ١٩٧ .

(٣) « مالك ومتمم ابنا نويرة اليربوعي » ، ص ٨٩ . .

(٤) ديوانه ، ص ٢٨٢ .

(٥) ديوانه (ط . د . عرفات) ، ٤٥٦/١ .

وقال حسان أيضا :

كان الضياء ، وكان النور نتبعه وكان بعد الإله السمع والبصرا (١)

وقال كعب بن مالك :

وكان بشيرا لنا منذرا ونورا لنا ضوؤه قد أضا
فانقذنا الله في نوره ونجى برحمته من لظى (٢)

وقالت عمته أروى بنت عبدالمطلب :

ألا يا عين ، ويحك ، واستهلي على نور البلاد وأسعديني (٣)

وقالت عمته عاتكة :

يا عين ، فاحتفلي وسُحى واسجمي وابكي على نور البلاد محمد (٤)

وقالت أيضا :

أعيني ، جودا بالدموع السواجم على المصطفى بالنور من آل هاشم
على المصطفى بالنور والهدى وبالرشد بعد المنذبات العظام (٥)

وقالت عمته صفية :

(١) ديوانه (ط . د . عرفات) ، ٤٢١/١ .

(٢) ديوانه ، ص ١٧٣ .

(٣) ابن سعد « الطبقات الكبرى » ، دار صادر - بيروت (د . ت) ، ٣٢٥/٢ .

(٤) السابق ، ٣٢٦/٢ .

(٥) السابق ، ٣٢٧/٢ .

لقد المصطفى بالنور حقاً رسول الله . مالك من ضريب (١)
ومن الصور المعبرة عن حزن الشاعر وتأمله لفقد ميته صورة الحرارة التي
يحسها في صدره لاهبة تشوي وتكوي . قال الحارث بن هشام بن المغيرة في
هزيمة بدر :

ألا يالقومي للصبابة والهجر وللحزن مني والحرارة في الصدر (٢)
ويقول كعب بن مالك في رثاء شهداء مؤتة :

وكانما بين الجوانح والحشا مما تأوبني شهابٌ مدخل (٣)
وفي الاستعارة التالية يشبه حسان رضي الله عنه حزن المسلمين على مقتل
حمزة رضي الله عنه وألم ذلك الحزن بقروح وتأليل أصابت القلوب :

ولقد أصاب قلوبها مجل له جلب قوارح

إذ قصد الحدثن من كنا نرجي إذ نشائح (٤)

وصورة الدمع الذي يشبهه الشاعر بحبات عقد انفرطت من نظامه فتناثرت
هنا وهناك لايمسكها شيء . وهذه الصورة توحى بأن الشاعر لم يستطع السيطرة
على دموعه فهي تسح رغماً عنه على خديه ، مثلما لاتستطيع حبات العقد المنفرطة

(١) « الطبقات الكبرى » ، ٢ / ٣٢٩ .

(٢) « السيرة النبوية » ، ق ٢ / ١٠ .

(٣) ديوانه ، ص ٢٦٠ .

(٤) ديوانه (ط د . عرفات) ، ١ / ٤٥٠ .

أن تسيطر على نفسها بعد انقطاع السلك الذي كان يربطها ويضمها معاً. قال
الحارث بن هشام :

ألا يالقومي للصبابة والهجر وللحزن مني والحرارة في الصدر
والدمع من عيني جوداً كأنه فريد هوى من سلك ناظمه يجري (١)

ويقول حسان في رثاء خبيب بن عديّ محدداً نوع حبات العقد بأنها لؤلؤ:

مابال عينيك لاترقا مدامعها سحاً على الصدر مثل اللؤلؤ القلق؟ (٢)

وتشبهه صفية بنت مسافر عينيها وهي تسح الدمع مدراراً بدلوين يحملهما
صاحب بستان ليسقي أشجاره ، ذاهباً أيباً بين الشجر والبئر لايتوقف ، فهو
يصبهما ثم يسرع فيملؤهما ثانية ليصبهما من جديد في أصول شجره ... وهكذا
دواليك:

ألا يامن لعين للتي بكى دمعها فنان
كغريبي داليج يسقى خلال الغيث الدان (٣)

ويقول كعب بن مالك في رثاء شهداء مؤتة :

نام العيون ودمع عينك يهمل سحا كما وكف الطباب المخضل (٤)

فعينه تسح الدمع كالمزادة غير المربوطة ربطاً محكماً .

(١) « السيرة النبوية » ، ق ١٠/٢ .

(٢) ديوانه (ط د . عرفات) ، ٢٣١/١ .

(٣) « السيرة النبوية » ، ق ٤١/٢ .

(٤) ديوانه ، ص ٢٦٠ .

ويقول ضرار بن الخطاب الفهري ، واصفاً عينه وعدم توقفها عن إرسال الدمع ، راثياً أبا جهل :

كأن قذى فيها وليس بها قذىً سوى عبرةٍ من جائل الدمع تنسجمُ (١)

فيشبهه عينه وسيلان الدمع منها دون توقف بالعين التي فيها قذى من رمدٍ أو حبة رملٍ أو ما إلى ذلك مما يهيج أغشيتها ودموعها التي لا يستطيع صاحبها أن يتحكم فيها . وهي صورة تدل على غلبة أحزان الشاعر عليه حتى إن الدمع لينزل رغماً عنه لا يملك حياله شيئاً .

أما أبو نؤيب الهذلي فقد مضى في رثائه لأولاده خطوة أبعد ، إذ جعل عينه قد سُمِلت بشوك فهي تدمع ، بالإضافة إلى أنها قد أصبحت عوراء :

فالعين بعدهم كأن حداقها سملت بشوك فهي عور تدمع (٢)

ومن الصور الدالة على الحزن ولها علاقة بالعين تلك الكناية في البيت التالي ، التي تتحدث عن نفاذ الدمع بسبب كثرة البكاء . لقد بكى الشاعر حتى لم تعد عينه تستطيع أن تمده بالدمع المطلوب . وهذا لغلبة الحزن عليه . قال طالب بن أبي طالب في يوم بدر :

ألا إن عيني أنفدت دمعها سكباً تبكي على كعب وما إن ترى كعباً (٣)

وينتشر في شعرنا القديم تشبيهه بكاء الحزين بكاء الحمام على الفصون إذ

(١) « ضرار بن الخطاب الفهري » ، ص ١١٠ .

(٢) « ديوان الهذليين » ، ٣/١ .

(٣) « السيرة النبوية » ، ق ٢٦/٢ .

يرسل هديله في الفضاء ملتاعاً منكسراً . يقول أميه بن أبي الصلت حائئاً على بكاء
صرعى قريش في بدر :

الأبكييت على الكرا م بني الكرام أولى المماح
كبكها الحمام على فرو ع الأيك في الغصن الجوانح (١)

ومما يصور به الشعراء حزنهم على من سقطوا منهم قولهم إن موت هؤلاء

بن القتلى قد هدّم ، فكان ذلك الموت زلزال مدمر ، أو صخرة هائلة دمرتهم . قال كعب
بن مالك الأنصاري يبكي عبيدة بن الحارث ، الذي مات في بدر بسبب إصابته في
رجله:

أيا عين ، جودي ولا تبخلي بدمعك حقا ولا تتزري
على سيد هدنا هلكه كريم المشاهد والعنصر (٢)

ويقول كعب بن مالك في رثاء حمزة رضي الله عنهما :

أبا يعلى ، لك الأركان هدت وأنت الماجد البر الوصول (٣)
وقال أيضا في رثائه :

ولقد هددت لفقده حمزة هدة ظلت بنات الجوف منها ترعد (٤)
ويضيف صورة أخرى يؤكد بها شدة وقع المصاب ، قائلا :

(١) ديوانه ، ص ٣٤٥ .

(٢) ديوانه ، ص ٢٠٢ .

(٣) السابق ، ص ٢٥٢ .

(٤) السابق ، ص ١٨٩ .

ولو أنه فجعت حراءً بمثله لرأيت راسي صخرها يتبددُ (١)
وتقول صفية بنت مسافر عن قومها ، في صورة ذات صلة وثيقة بالصورة
السابقة:

كانوا سقوب سماء البيت فانقصفت فأصبح السمكُ منها غير ذي عمدٍ (٢)
فهم كانوا العمد الذي تنهض الخيمة عليها ، وبعد أن سقطوا سقطت
وانقض البيت .

ويجعل كعب بن مالك مقتل عثمان رضي الله عنه ، لايهده هو أو حتى بيته ،
بل يهد الجبال ذاتها :

ويحُ لأمر قد أتاني رائع هدَّ الجبال فانقضت برجوف (٣)
وتنسب لأبي سفيان في رثائه عليه السلام أبيات منها هذا البيت الذي
يصور تأثير موته عليه السلام على الأرض ، إذ ماتت أو كادت (أن) تميل جوانبها في
قوله:

وأضحت أرضنا ممّا عراها يكاد بنا جوانحها تميلُ (٤)
وقد يجعلون القتيل كالجبل الذي كانوا يأوون إليه . تقول هند بنت عتبة

(١) ديوانه ، ص ١٨٩ .

(٢) « السيرة النبوية » ، ق ٤٠/٢ .

(٣) ديوانه ، ص ٢٣٨ .

(٤) ابن عبد البر « الاستيعاب » ، ١٦٧٦/٤ .

تبكي أباهما يوم بدر :

وكان لنا جبلاً راسياً جميل المرآة كثير العُشْبُ (١)
وبعضهم يقول إن النجوم قد سقطت من مداراتها وكسفت الشمس وساد
الظلام الكون كله . إن الأفلاك كلها قد حزنت له . كقول كعب في مقتل عثمان رضي
الله عنه :

قتل الإمام له النجوم خواضعُ والشمس بازغةٌ له بكسوف (٢)
وفي القصيدة الدالية المنسوبة لحسان في رثائه النبي ﷺ نجد السموات
والأرض تبكيه :

يكون من تبكي السماوات يومه ومن قد بكته الأرض ، فالناس أكمدُ (٣)
وفي هذه الصورة - كما ترى - استيحاء لقوله تعالى عن الكفار وحقارتهم
وعدم مبالاة الدنيا بهلاكهم : ﴿ فما بكت عليهم السماء والأرض
وما كانوا منظرين ﴾ .

لكن البيت الثاني - وهو منسوب إلى هاتف من الجن في رثاء الرسول عليه
السلام - يجعل المشاعر والمساجد تبكي عليه مع الناس ، وهي صورة مناسبة لرثائه
ﷺ ، إذ هو عليه الصلاة والسلام رسول إلى الناس لعبادة الله ، وسيد العابدين
القانتين ، فالمساجد والمشاعر تفتقده وتبكيه :

(١) « السيرة النبوية » ، ق ٢٨/٢ .

(٢) ديوانه ، ص ٢٣٨ .

(٣) ديوانه (ط . د . عرفات) ، ٤٥٦/١ .

بكت المشاعر والمساجد بعدما بكى الأنام له بكل مكان (١)

ويصور حسان مقتل عثمان رضي الله عنه في صورة الأضحية ، وهي صورة ملؤها النقمة والغيز والتهكم بأولئك الذين ينتسبون إلى الإسلام ، فبدلاً من أن يقدموا أضحية قرباناً إلى الله تقسو قلوبهم وتتحجر إلى الحد الذي يجرون على قتل إمامهم عثمان رضي الله عنه :

ضحوا بأشمط عنوان السجود به يقطع الليل تسبيحا وقرآنا (٢)

ويكرر هذه الصورة في مرثية أخرى فيه أيضا رضي الله عنه :

وكان أصحاب النبي عشية بدن تنحر عند باب المسجد (٣)

وقد يصور الشاعر نفسه أو أصحاب القتل أو أهله بالناقة التي فقدت وليدها ، فهي والهة حيرى لا يستقر بها المقام . يقول شداد بن الأسود في البكاء على قتلى بدر :

وإنك لو رأيت أبا عقيل وأصحاب الثنية من نعام

إذا لظلمت من وجد عليهم كأم السقب جائلة المرام (٤)

وبعض الشعراء يصورون حالهم بعد فقدهم من يرثون . وكلُّ يصور ذلك

(١) « مناقب آل أبي طالب » ، ٩٧/٣ .

(٢) ديوانه (ط . د . عرفات) ، ٩٦/١ .

(٣) السابق ، ١١٨/١ .

(٤) « السيرة النبوية » ، ق ٢٩/٢ .

بطريقته . فليبد يشبه نفسه بعد موت أخيه أربد بالثور الذي كُسر أحد قرنيه وأضحى أعصب ، وهي صورة تدل على التفرد والتشوه والنقص والعجز :

يا أربد الخير الكريم جدوده أفردتني أمشي بقرن أعصب (١)
ويقول أيضا في المعنى نفسه ، ولكن في صورة مختلفة :

ذهب الذين يعاش في أكنافهم وبقيت في خلف كجلد الأجرب (٢)
فكل من يستمتع بصحبتهم قد مضوا في طريق لارجعة فيه ولم يبق إلا من لاتصح معاشرتهم ولايستطيع الإنسان الاقتراب منهم ؛ لقبح نفوسهم وفساد أخلاقهم وسلوكهم، بل على الإنسان أن يفر منهم فراره من الأجرب حتى لايعديه جربه .

ويكنى متمم عن قوة العلاقة التي كانت تربطه بأخيه ، فيقول :

وكنا كندماني جذيمة حقبلة من الدهر حتى قيل : لن يتصدعا
فلما تفرقنا كأني ومالكاً لطول اجتماع لم نبت ليلة معا (٣)
ويقول أيضا في المعنى ذاته :

وكل فتى في الناس بعد ابن أمه كساقطة إحدى يديه من الخبل (٤)
وقد يكنى الشاعر عن شدة حبه وفداحة مصابه وعظم وجدده على الفقيد

(١) « شرح ديوان ليبد » ، ص ١٥٦ .

(٢) السابق ، ص ١٥٧ .

(٣) « مالك ومتمم ابنا نويرة اليربوعي » ، ص ١١١ - ١١٢ .

(٤) السابق ، ص ١٣٣ .

الذي يرثيه ، فيتمنى أن يكون هو القاتل بدل المرثى ، وهو حين يفعل ذلك يختار قتلة شنيعة يريد من خلالها أن يقول إن قتله على ذلك النحو أهون عليه من مصابه بالفقيد ، كما في قول حسان في رثاء حمزة رضي الله عنهما :

ألا ليت شلوي يوم ذاك وأعظمي إلى أضعب ينتببني ونسور

فهو يكني هنا عن موت حمزة - رضي الله عنه - متمنياً أن يكون هو الذي مات وتركت جثته في العراء على أديم الصحراء طعاماً مباحاً تفترسه الضباع والنسور (وحوش الفلاة الطائرة وطيورها الجارحة) .

أما حسان فقد تمنى لو أنه ، قبل أن يسمع بوفاة الرسول عليه السلام ، كان قد شرب سما وهلك فلم يسمع ذلك الخبر الصاعق المزلزل . يقول مخاطباً الرسول عليه السلام :

أأقيم بعدك بالمدينة بينهم ؟ يا ليتني صبحت سم الأسود (٢)

وقد اختار كلمة « صبحت » ، التي تدل على الشرب في أول النهار ، حتى يهلك في أول النهار فلا يعرف شيئاً من حوادث ذلك اليوم .

ويقول حسان أيضاً في رثائه عليه السلام متمنياً لو أن البشر كلهم قد ماتوا ولحقوا به ، إذ الدنيا لم تعد لها معنى بعد فقده ﷺ :

فليتنا يوم واروه بمحسنة وغيبوه وألقوا فوقه المدرا

لم يترك الله خلقاً من بريته ولم يعش بعده أنثى ولا ذكراً (٣)

(١) ديوانه (ط . د . عرفات) ، ١٣٤/١ .

(٢) ديوانه (ط . البرقوقي) ، ص ١٥٣ .

(٣) ديوانه (ط . د . عرفات) ، ٢٤١/١ .

وقد يتخذ التمني منحى آخر ، إذ يعبر الشاعر عن استعداده ، لو كان ذلك ممكناً ، أن يفدي فقيدته الذي يرثيه بكل ما يملك مهما غلا . قال متمم بن نويرة:

بودي لو اني قد تمليت عمره بمال من مال طريف وتالد
وبالكف من يمنى يدى حياته ففارقني منها بناني وساعدي
فعلشنا لنا أيد ثلاث ، وإنما تصافى الحياة بذلها بالتحامد (١)

وهو فداء عجيب ، إذ يعلن الشاعر أنه كان مستعداً أن يبذل في سبيل بقاء أخيه إلى جانبه كفه اليمنى .

وهناك عدة كنايات تتردد في الشعر القديم في التعبير عن ديمومة الحزن إلى الأبد . قال حسان يرثي حمزة رضي الله عنهما :

يا حمز لا والله لا أنساك ما صر اللقائح (٢)

والكناية مفهومة : فمادامت هناك حياة فهناك نوق لقائح تسر . وهذا يعنى أنه لن ينقطع عن بكائه والتفجع لفقده ولن ينساه ، أي سيظل يذكره إلى الأبد .

وقال حسان أيضاً في سيد الشهداء :

فوالله لا أنساك ماهبت الصبا ولأبكين في محضري ومسيرى (٣)

ويقول متمم باكياً أخاه مالكا :

(١) « مالك ومتمم ابنا نويرة اليربوعي » ، ص ٨٩ .

(٢) ديوانه (ط . د . عرفات) ، ٢٧٨/١ .

(٣) السابق ، ١٣٣/١ .

سأبكي أخي مادام صوت حمامة تؤرق في وادي البطاح حماما (١)
أما حسان - رضي الله عنه - فيقول في رثاء سليط بن قيس النجاري ،
الذي استشهد يوم الجسر يوم قس الناظف :

فإني لباك ماحييت ، ولو بكى على الميت ميت جدت بالدمع في
قبري (٢)

والمعنى في الجملة الأولى معنى جد عادي ، ولكن الروعة تكمن في بقية
البيت : إنه لو كان بكاء الميت في قبره ممكناً لما توقف - عند موته - عن البكاء على
هذا الشهيد ولظل يبكيه في قبره كما كان يفعل وهو حي .

ومن الصور التي استخدمها الشاعر في التعبير عن الانتقام الذي يهدد
بإيقاعه بمن قتلوا مرثية صورة « قطع الظهر » ، ونحن نعرف أن الإنسان إذا
ماكسرت فقار ظهره ، فإنه لا يستطيع أن يقف ولا أن يسيطر على حركاته ويصبيه
العجز وتضيع حيلته . يقول الحارث بن هشام :

فإلا أمت ياعمرو أتركك ثائراً ولا أبق بقيا في إخاء ولا صهر
وأقطع ظهراً من رجال بمعشر كرام عليهم مثلما قطعوا ظهري (٣)

وهو حين يفعل ذلك فإنما يرد المصيبة بمثلها ، فقط قطع المسلمون ظهره
بمن جندلوه من قريش في بدر وألقوا بهم في القليب .

(١) « مالك ومتمم ابنا نويرة اليربوعي » ، ص ١٣٦ .

(٢) ديوانه (ط. د. عرفات) ، ٤٢٢/١ .

(٣) « السيرة النبوية » ، ق ١٠/٢ .

ومن الصور التي ترد في الرثاء صور الموت والفراق الأبدي بين الأحباب.
يقول لبيد من مرثية له في أخيه أربد :

وما الناس إلا كالديار وأهلها بها يوم حلوها وغدوا بلاقع

وما المرء إلا كالشهاب وضوئه يحور رمادا بعد إذ هو ساطع(١)

فكل شيء إلى زوال ، والحياة ليست دائمة لأحد .

ويقول لبيد أيضا في المعنى نفسه ، ولكن بصورة أخرى هي صورة الأحلام التي يخالها الغائم حقائق ، فإذا ما استيقظ لم يجد لها أدنى حقيقة :

وإنا قد يرى مانحن فيه ونسحر بالشراب وبالطعام

كما سحرت به إرم وعاد فأضحوا مثل أحلام المنام(٢)

ولأبي نؤيب الهذلي في قصيدته العينية استعارة رائعة ، فالمنية تحولت عنده

إلى وحش كاسر ينشب أظافره في ضحيته ، وعندها لاتنفع التمام ولا التعاويذ :

وإذا المنية أنشبت أظفارها ألفيت كل تميمة لاتنفع(٣)

ومادنا نتحدث عن أبي نؤيب وراثته لأولاده فمن المناسب أن نذكر هنا أنه

هو الوحيد من بين الشعراء المخضرمين(٤) الذي ضمن رثاءه كلاماً عن الثور

(١) « شرح ديوان لبيد » ، ص ١٦٩ .

(٢) السابق ، ص ٢٠٩ .

(٣) « ديوان الهذليين » ، ٣/١ .

(٤) يصنّف د. محمد عبدالقادر أحمد خطأً أبا نؤيب الهذلي ضمن الشعراء الجاهليين ، ويدرس

قصيدته في أولاده على أنها من الرثاء الجاهلي ، انظر كتابه : « دراسات في أدب ونصوص =

الوحشي وهلاكه وجعله رمزاً على أولاده الذين فقدهم ، وممن التفت إلى هذا الأمر الباحثة نوره الشملان ، التي تقول في هذا الصدد إن الشاعر قد « استخدم الحيوان رمزاً يعرب به عما يريد ، فهو لا يتحدث عن أبنائه وصراهم مع الموت ، بل لا يشير إلى المرض الذي ماتوا فيه ، ولم يصف الساعات الأخيرة من حياتهم كما فعل ابن الرومي مثلاً حين رثى ابنه الأوسط ، ذاكراً بالتفصيل المراحل التي مر بها في ساعة الاحتضار ... أبو ذيب رمز بالحيوان وموته على يد الصائد ليعبر عن فجيعة بأبنائه» (١).

أما ما يقوله د. مصطفى الشورى من أن الثور هو إله القحط عند السومريين، وموته في قصائد الرثاء (ومنها مرثية أبي نؤيب) معناه الانتصار على القحط (٢) ، فهو رأي يبدو فيه مجافاة للمنطق ؛ إذ إننا نعرف أن الثور لا يموت في غير قصائد الرثاء ، كما لاحظ الجاحظ ذلك في القصائد القديمة ، فهل معنى ذلك أن الانتصار على القحط لا يتم إلا في ظروف فقد الأحباب ؟ أليس العكس هو الذي يقتضيه المنطق ؟ أليس ما يناسب الموت هو القحط لا الانتصار عليه ؟ .

والناظر في الصور البيانية التي أوردت قدراً كبيراً منها في الصفحات

العصر الجاهلي » ، ص ١٧٣ ، ولعله متأثر في ذلك بالدكتور يحيى الجبوري ، والدكتور محمد النويهي - اللذين رغم إقرارهما بأنها نظمت بعد الإسلام إلا أنها من الشعر الجاهلي لأن مضمونها وأسلوبها جاهليان ، انظر كتابيهما على الترتيب : « الشعر الجاهلي » ، ص ٣٣٦ وما بعدها ، و « الشعر الجاهلي - منهج في دراسته وتقويمه » ، الدار القومية للطباعة والنشر ، القاهرة ، ص ٦٤٩ - ٦٥٠ . والواقع أنه ليس فيها شيء جاهلي خاص ، كما أنه ليس فيها شيء إسلامي بالذات ، إنما هي أفكار ومشاعر يختص بها البشر في كل عصر .

(١) « أبو نؤيب الهذلي - حياته وشعره » ، جامعة الرياض ، ١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠ م ، ص ٥٩ ، ٦١ .

(٢) د. مصطفى الشورى « شعر الرثاء في العصر الجاهلي » ، ص ٦٢ .

الماضية يدرك دون عناء أن الكناية تتركز غالباً في الصور الدالة على تأييد الحزن واستقراره وتمني الشعراء أن تحل بهم المصائب والكوارث فداءً لأحبتهم الذين فقدوهم .

كذلك فالغالبية العظمى من هذه الصور هي صور بسيطة لاتعقيد فيها ولا تكثيف، ولا يحاول الشاعر أن يمضي معها مطوراً ومفصلاً ، فالبكاء على الميت من قبل الناس كبكاء الحمام على الأغصان (في بيت أمية بن أبي الصلت) ، وهلك الميت قد هدأ أحبابه (في بيت كعب بن مالك من رثائه لعبيدة بن الحارث في بدر) ، والناس الذين بقوا بعد الميت يشبهون جلد الأجر (في بيت لبيد) ، وحسان يتمنى لو أن الناس قد لحقوا بالرسول ﷺ وماتوا جميعاً فلم يبق منهم أحد ... وهكذا . فهي صور سريعة مباشرة لاتعمق فيها ولا إغراب ، وإن كان عدد منها طريفاً أو على الأقل لم يشع في شعرنا العربي كغيره من الصور التي بليت من كثرة الاستعمال حتى فقدت حيويتها وتأثيرها . ومن هذه الصور قول متمم في أخيه مالك:

بودي لو أني قد تمليت عمره بمالي من مال طريف وتالد
وبالكف من يمني يدي حياته ففارقني منها بناني وساعدي
فعشنا لنا أيد ثلاث ، وإنمنا تصافى الحياة بذلها بالتحامد (١)
وبيت القصيد في البيتين الأخيرين ، إذ الصورة في البيت الأول مألوفة ،
ولكن الجديد تمنى الشاعر لو أنه استطاع أن يفدي أخاه بكفه ، إذن لقطعها

(١) « مالك ومتمم ابنا نويرة اليربوعي » ، ص ٨٩ .

بأصابعها وساعدها أيضاً ، واكتفى بكف واحدة يخطها بكفي أخيه فيصبح عندهما
أكف ثلاث ، وهو واثق أنها ستكفيهما تماماً بما بينهما من حب وخلطة نفس .

ومن الصور المركبة النادرة قول صفية بنت مسافر ترثي زوجها الذي صرع

في بدر :

وما ليث غـ ريف نو أظافر وأسنان
أبو شـ بلين وثـ باب شديد البطش غـ رثان
كـ حـ بي إذا تـ و لو وجوه القوم ألوان (١)

إن الشاعرة هنا لا تقول إن زوجها يشبه الأسد أو الليث أو الهزير ، أو إنه
هو الليث نفسه ، كما يقابلنا في معظم الصور التي تعقد مقارنة بين الرجل الشجاع
والليث ، ولكنها تقول إن الليث ليس كزوجها ، فهي تعكس البناء التشبيهي الشائع .
هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فإن الليث هنا « ليث غريف نو أظافر وأسنان ، وله
شبلان ، وهو شديد البطش غرثان » . وهذه الصفات تتضافر لرسم صورة لليث
هائج هصور لا يرحم . ومن ناحية ثالثة فهي لا تكتفي بكل هذا ، بل تراها تعقد
مقارنة أخرى بين زوجها ومن حوله : إن وجوههم ألوان ، أما وجهه فلم يشهب ولم
يعتره أي شيء ينم عن الفرع . صحيح أنها لم تذكر شيئاً عن وجه زوجها . لكن
ماذكرته عن وجوه القوم وأنها (ألوان) يوحي بذلك ، وقد فهمناه نحن دون حاجة
إلى أن تعبر عنه تعبيراً صريحاً ، ففي الإيحاء كفاية .

ومن هذه الصور المركبة قول متمم في أخيه مالك :

(١) « السيرة النبوية » ، ق ٤١/٢ .

وما وجد أظارَ ثلاثِ روائِم أصبن مجراً من حوارٍ ومصرعا
 يذكرن ذا البث الحزين بيثه إذا حنت الأولى سجعن لها معا
 إذا شارف منهن قامت فرجعت حيننا فأبكى شجوها البرك أجمعا
 بأوجد مني يوم قام بمالك مناد بصير بالفراق فأسمعا (١)

ونلاحظ في هذه الصورة المركبة التي تسمى بالاستدارة أنها تتركب من :
 («ما» النافية + اسمها الموصوف بعدة صفات منبسطة على بيتين أو أكثر + خبرها
 المركب من «الباء» التي يعدها النحويون زائدة ، و«أفعل التفضيل» ... إلخ. وفي
 حالات أخرى قد نجد بدل الباء وأفعل التفضيل أداة تشبيه ومشبه به).

ويمكننا أن نلحق بهذه الصورة الأبيات المارة قبل قليل لمتمم في أخيه
 مالك بن نويرة أيضا ، فالصورة فيها تنبسط فوق أبيات ثلاثة ، وتتركب من عدة
 عناصر، واحتاجت من الشاعر شيئاً من التحديد والتفصيل .

كذلك فإن فحصنا العناصر التي تتكون منها صور الرثاء في ذلك العصر
 فإننا نرى بعضها مستمداً من البيئة الطبيعية للشاعر : البدر ، والأسد ، والبحر ،
 والقمر الهجان ، والصقر ، والحمام الذي يبكي على الغصن ، والجبل ، والسماء
 والأرض ، والنجوم ، والبُدن ، والثور الأعضب ... إلخ .

وبعضها مستقى من الحياة الاجتماعية ، كـ « طيب الرदन » و« شراء الحمد
 بالأموال » ، و« العقد الذي انفرطت حباته » ، و« المزادة التي تسح الماء لعدم ربطها
 محكما » ... إلخ .

(١) « مالك ومتمم ابنا نويرة اليربوعي » ، ص ١١٧ .

وجدير بالذكر ، فليس هناك صورة في هذه الأشعار مستمدة من بيئة أجنبية رآها الشاعر في بلد غير بلاد العرب . إنها كلها مستمدة من البيئة العربية: البيئة الطبيعية ، والبيئة الاجتماعية والاقتصادية .

وعند المقارنة بين هذه الصور وصور الشعر الجاهلي ينبغي ألا يغيب عن أذهاننا أن المسافة الزمنية بين العصرين قصيرة بحيث لا يمكن أن نتوقع تغييراً كبيراً في هذا الجانب ، وبخاصة أن شعراء الرثاء في عصرنا هذا من المخضرمين ، أي أن شعرهم في الإسلام هو امتداد لشعرهم في الجاهلية . صحيح أنه قد تغير في كثير من أفكاره ومعانيه وتوجهاته ، ولكن لم يحدث ذلك في مجال الصور الشعرية.

وعلى أية حال ، فهذه بعض المقارنات في هذا المجال بين الشعر الجاهلي وشعر صدر الإسلام . إن ليبدأ يقول :

وما المرء إلا كالشهاب وضوئه يحور رماداً بعد إذ هو ساطع (١)

وهو مسبوق في هذا المعنى والصورة بقول عدي بن زيد :

ألا من مبلغ النعمان عني علانية ، فقد ذهب السرار

بأن المرء لم يخلق جديداً ولا هضبا توقاه الوبار

ولكن كالشهاب فثم يخبو وحادي الموت عنه ما يحار (٢)

وقول عمرو بن قميئة :

(١) « شرح ديوان ليبيد » ، ص ١٦٩ .

(٢) « ديوان عدي بن زيد » ، جمع وتحقيق : محمد عبد الجبار المعبيد ، وزارة الثقافة والارشاد ،

بغداد ، ١٣٨٥ هـ - ١٩٦٥ م ، ص ١٣٢ .

وما عيش الفتى في الناس إلا كما أشعلت في ريح شهابا
فيسطع تارة حسنا سنانه ذكى اللون ثم يصير هابا (١)
وإن قول حسّان في رثائه حمزة :

بحر ، فليس يغب جارا منذ ———ه سيب أو منادح (٢)

قد سبقه قول النابغة - وهذا مجرد مثال - في قوله :

وما الفرات إذا هبّ الرياح له ترمى غواربه العبرين بالزبد
يظل من خوفه الملاح معتصما بالخيزرانة بعدا الأين والنجد
يوما بأجود منه سيب نافلة ولايحول عطاء اليوم دون غد (٣)

وقبل قول كعب بن مالك في شهداء مؤته :

نام العيون ودمع عينك يهمل سحا كما وكف الطباب المخضل (٤)

نقرأ قول المنخل الهذلي في رثاء ولده :

مابال عينك تبكي دمعها خضل كما وهى سرب الأخرات منبذل (٥)

وتشبيه شعراء هذا العصر مرثيهم بالبدر وضوئه له سابقة في مثل قول

زهير بن جذيمة العبسي بيكي ابنه شأساً :

(١) « ديوان عمرو بن قمينة » ، بتحقيق : حسن كامل الصيرفي ، معهد المخطوطات العربية ،

القاهرة ، ١٣٦٥ هـ - ١٩٨٥ م ، ص ١٨٧ .

(٢) ديوانه (ط . د . عرفات) ، ٤٥١/١ .

(٣) ديوانه ، بتحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار المعارف بمصر ، ١٩٧٧ م ، ص ٢٦ .

(٤) ديوانه ، ص ٢٦٠ .

(٥) « ديوان الهذليين » ، ٣٣/٢ .

وحزن عليه ماحييت ولو عـ على مثل ضوء البدر أو هو أعجب (١)

ونجد حسناً يقول في رثاء حمزة :

المشترون الحمد بالأموال . إن الحمد رابح (٢)

في حين قال حاتم :

يقسمه غنما ويشري كرامة وقد صرت في خط من الأرض أعظما (٣)

وإذا كان ضرار بن الخطاب الفهري في رثائه أبا جهل قد قال :

كأن قذى فيها وليس بها قذى سوى عبرة من جائل الدمع تنسجم (٤)

فقد قال قبله المهلهل باكياً أخاه كليياً :

أهاج قذاة عيني الادكار هدوءاً فالدموع لها انحدار (٥)

والآبيات التي سقناها قبل قليل قد توجي لبعض الباحثين بفكرة السرقة

وهذا أمر - في نظري - لا يستقيم لأنه لا يمكن أن تكون هناك صورة واحدة في

بنائين لغويين مختلفين ؛ إذ الطبيعي أن يتوافر قدر مشترك بين السابق واللاحق

وأحسب أن البناء اللغوي عند كل شاعر هو الفيصل في ذلك ، ولذا نجد أن اللاحق

يكشف في فكرة (هملان العين في الحزن) عن جانب جديد .

(١) « الأغاني » ، ٧٨/١١ .

(٢) ديوانه (ط . د . عرفات) ، ٤٥١/١ .

(٣) ديوانه ، صنعة يحيى بن مدرك الطائي ، رواية هشام بن محمد الكلبي ، دراسة وتحقيق د .

عادل سليمان جمال ، مطبعة المدني ، القاهرة (د . ت) ، ص ٢٣٦ .

(٤) « ضرار بن الخطاب » ، ص ١١٠ .

(٥) « أيام العرب في الجاهلية » ، ص ١٥١ .

فمثلاً يقول المهلهل : (أهاج قذاة عيني الادكار) على حين أن ضراراً يقول (كأن قذى فيها وليس بها قذى) فالذي أهاج قذى عين المهلهل هو الادكار ، أما ضرار فإنه ينفي القذى من عينه ، وإلى هذا ونظائره نبه عبد القاهر الجرجاني « وأعلم أنه لو كان المعنى في أحد البيتين يكون على هيئته وصفته في البيت الآخر ، وكان التالي من الشعاعين يجيئك به معاداً على وجهه لم يحدث فيه شيئاً ، ولم يُغيّر له صفة ، لكان قول العلماء في شاعر : إنه أخذ المعنى من صاحبه فأحسن وأجاد ، وفي آخر : إنه أساء وقصر ، لغواً من القول من حيث كان محالاً أن يحسن أو يسيء في شيء لا يصنع به شيئاً » (١) .

وقد ذكر د. السيد عبدالقادر عويضة أن من الصور الجديدة التي استمدها شعراء صدر الإسلام من القرآن وصف الرسول ﷺ بأنه نور ، وأنه كالشهاب والهلل والبدر (٢) . ولا أظن في هذا شيئاً جديداً . ومن السهل استحضار الأمثلة الجاهلية التي وردت فيها مثل هذه الصورة . وقد مرُّ بنا مثال على هذا قبل قليل .

وأخيراً ... فإن تتبع الصور الفنية في قصائد الرثاء يوضح أن الشعراء يعمدون إلى الصور التقريرية التي تجسد الموقف الرثائي . وإذا ماتجاوزوا هذا النمط من التصوير إلى استخدام الأساليب البلاغية ، فإن التشبيه يأتي في طبيعتها ، والكناية تالية له . بينما نجد الاستعارة نادرة جداً .

ولا شك أن بروز الصورة التقريرية أو القائمة على التشبيه والكناية إنما يعود لطبيعة الخيال لدى شعراء تلك الفترة ، الذي يتسم بواقعيته . أما الاستعارة

(١) « دلائل الإعجاز » ، تحقيق : محمود شاكر ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، (د . ت) ، ص ٥٠٩ .

، وانظر : ص ٥٠٧ .

(٢) انظر كتابه « أثر الإسلام في عصر الرسول والخلفاء الراشدين » ، ص ١٤٦ ، ١٤٧ .

بما فيها من تجسيد فإنها تخضع لخيال جامع يمزج بين الأشياء حتى تتحول إلى كائن واحد . ولعل الذي يوضح ذلك ما ذكره بعض الدارسين عند الموازنة بين التشبيه والاستعارة ، من أن التشبيه أكثر شيوعاً عندما يكون الشعراء أقل حدة في الخيال وأكثر انصياعاً لأحكام العقل والمنطق ، بينما تكون الاستعارة أكثر شيوعاً عندما يشطح الخيال ويجمع فلا يكون العقل عليه ضابط (١) .

(١) هـ . ب . تشارلتن « فنون الأدب » ، تعريب وشرح : د . زكي نجيب محمود ، لجنة التأليف

والترجمة والنشر ، ط ٢ ، ١٩٥٩ م ، ص ٩٥ .

الموسيقى

علاقة الموسيقى بالشعر علاقة قديمة ، والموسيقى في الشعر ليست للزخرفة والزينة واستمالة الأسماع ، وإنما تشكل جزءاً جوهرياً من معاني الشعر وأسراره . ولهذا نجد أن بعض القدماء لا يرضى ترجمة الشعر أمثال الجاحظ لأن الشعر حينما يترجم يفقد قيمته ورونقه وبريقه .

وسيقوم البحث بإحصاء بعض البحور الشعرية المستخدمة في الرثاء لمعرفة الشائع منها وعلاقة ذلك بالغرض الأساسي ، كما سيقف عند بعض قوافي الشعر باعتبارها تاج الإيقاع وقراره الذي ينتهي إليه ؛ ليكشف عن الدلالة الخفية والجمالية لحرف الروى ، ودرره في إبراز المعنى ، والإبانة عن الحالة النفسية والشعورية لدى الشاعر.

الموسيقى الخارجية :

الوزن والقافية ركنان أساسيان من أركان القصيدة العربية ، ولعل هذه الأهمية لهما هي التي جعلت نقادنا القدامى يعرفون الشعر بأنه : « الكلام الموزون المقفى » ؛ إذ كانوا يدركون مايمثله هذان العنصران من قيمة جمالية في هذا الفن الأدبي . والشاعر يخضع عند نظمه لقصيدته لكل من الوزن والقافية ، إذ يكون لهما دور في اختيار كلماته وترتيبها وتنسيقها .

وتجدر الإشارة إلى أن العلاقة بين الأوزان والقوافي والمعاني كانت مثار اهتمام النقاد القدامى والمحدثين ، وإذا كان هناك من يولي اهتمامه بالناحية

الشكلية والزخرفة الخارجية فإننا نجد نقاداً آخرين يتجاوزون تلك النظرة السطحية فأبو هلال العسكري يقول : « وإذا أردت أن تعمل شعراً فأحضر المعاني التي تريد نظمها فكرك ، وأخطرها على قلبك ، واطلب لها وزناً يتأتى فيه إيرادها ، وقافية يحتملها ، فمن المعاني ما تتمكن من نظمه في قافية ولا تتمكن منه في أخرى ، أو يكون في هذه أقرب طريقاً وأيسر كلفة منه في تلك ؛ ولأن تعلق الكلام فتأخذه من فوق فيجيء سلساً سهلاً ذا طلاوة ورونق خير من أن يعلوك فيجيء كزاً فجاً ومتجعداً جلفاً» (١) .

وساقف - فيما يأتي - عند البناء الموسيقي في شعر الرثاء في عصر النبوة والخلافة الراشدة من خلال هذين العنصرين في محاولة للكشف عن مدى التلاؤم بين الأوزان والقوافي المستخدمة وبين الرثاء .

١ - الوزن :

من خلال دراستنا لنصوص شعرية مختارة تتكون من ثمانين أنموذجاً ما بين قصيدة ومقطوعة ، يتبين أن عدد الأوزان التي صاغ فيها الشعراء نصوصهم تبلغ تسعة أوزان هي :

(١) « الصناعتين » ، تحقيق على البجاوي ومحمد ابوالفضل ابراهيم ، عيسى البابي الحلبي ،

البحور المستخدمة في الرثاء (اجصائية تقريبية)

رقم	اسم البحر	عدد مرات تكرار هجئته
١	الطويل	أربعة وعشرون أنموذجاً .
٢	الكامل	ثمانية عشر أنموذجاً .
٣	مجزوء الكامل	ثلاثة نماذج .
٤	البسيط	ثلاثة عشر أنموذجاً .
٥	المتقارب	ثمانية نماذج .
٦	الوافر	خمسة نماذج .
٧	مجزوء الوافر	أنموذج واحد
٨	الخفيف	أنموذجان .
٩	مجزوء الخفيف	أنموذج واحد .
١٠	الرملي	أنموذجان .
١١	الرجز	أنموذج واحد .
١٢	مجزوء الرجز	أنموذج واحد .
١٣	السرير	أنموذج واحد .

ولعل من عجيب المصادفة أن تكون الأوزان الثلاثة الأولى : الطويل والكامل والبسيط ، هي أكثر أوزان الشعر شيوعاً في شعرنا العربي القديم كما تدل الدراسة التي قام بها د. إبراهيم أنيس (١) .

وقد فسر د. أنيس هذا البروز للأوزان الطويلة كالطويل والبسيط في الرثاء حين ذكر « أن الشاعر في حالة اليأس والجزع يتخير عادة وزناً طويلاً كثير المقاطع يصب فيه من أشجائه ما ينتفس عنه حزنه وجزعه » (٢) . فهو يرى أن امتداد هذه الأوزان إلى ثمان تفعيلات يساعد الشاعر على التعبير عما في أعماقه من الحزن والألم .

وأما عن الأوزان المعتدلة والقصيرة التي تشكل ثلاثة وأربعين في المائة تقريباً ، فإن د. أنيس يرى أن الشعر إذا قيل « وقت المصيبة والهلع تأثر بالانفعال النفسي ، وتطلب بحراً قصيراً يتلاءم وسرعة التنفس وازدياد النبضات القلبية » (٣) . والنماذج السابقة لا تتفق مع مقاله حازم القرطاجني من أن وزني المديد والرمل أليق بالرثاء لما فيهما من اللين (٤) ، إذ ليس هناك إلا أنموذجان من الرمل ، بينما النماذج الأخرى تنتمي إلى أوزان لم يذكرها حازم .

ولعل من الواضح في نماذج الرثاء السابقة أن هناك ما يمثل خمسين في

(١) « موسيقى الشعر » ، دار القلم - بيروت ، ١٩٧٢ م ، ص ٢٠٧ .

(٢) السابق ، ص ١٩٦ .

(٣) السابق ، ص ١٩٦ .

(٤) « منهاج البلغاء وسراج الأدباء » ، تحقيق محمد الحبيب بن خوجة ، المطبعة الرسمية

للجمهورية التونسية - تونس ، ١٩٦٦ م ، ص ٢٦٩ .

المائة، منها ما ينتمي إلى ما يعرف بالبحور الصافية التي تعتمد على تكرار تفعيلة واحدة وهي : الكامل ، والمتقارب والوافر والرمل والرجز والسريع . ويبدو لي أن هذه التفعيلات المتتابعة تساعد الشاعر على التعبير عن انفعالاته التي يعاني منها بشكل سريع ومتلاحق ، دون بطء - قد يحدث مع تغيير التفعيلة - ولعل ذلك يكون عندما ينظم الشاعر قصيدته في أعقاب الفاجعة مباشرة ، أو في وقت لم تهدأ فيه حدة تأثيرها عليه .

٢ - القافية :

يتبين من خلال تتبع قوافي النصوص التي اخترناها للدراسة ، أن أكثر حروف الروى دوراناً فيها هي على الترتيب : الراء ، فاللام ، فالعين ، فالدال ، فالباء ، فالنون ، فالميم . وهذه الحروف تعد أكثر شيوعاً من غيرها في مجيئها رويًا عند الشعراء العرب القدامى (١) ، كما يندر فيها استخدام القوافي المقيدة إذ لانقف إلا على أربعة أبيات ، وهذا أمر طبيعي ؛ لأن هذا النمط من القوافي يعد نادراً في شعرنا العربي .

٣ - التصريح :

التصريح نمط من الإيقاع يتفق فيه شطرا البيت في قافيتهما ورويتهما ، وغالبا ما يجيء في استهلال القصيدة ، وقد يأتي - أحيانا - في ثناياها . وقد فسر حازم القرطاجني سر الاهتمام بتصريح أوائل القصائد بأن له « طلاوة وموقعا من النفس لاستدلالها به على قافية القصيدة قبل الانتهاء إليها » .

(١) « موسيقى الشعر » ، ص ٢٧٥ .

وياستعراضنا للنماذج المدروسة من شعر الرثاء يتضح أن التصريح ورد في أربعة وعشرين استهلالاً أي مانسبته ثلاثون في المائة وهي نسبة قليلة ، ولعل مرد ذلك لأسباب هي :

(١) أن الرثاء تعبير عن معاناة الشاعر في أعقاب الفجيعة بوفاة قريب أو عزيز ، وهذا مايجعله يعبر عن انفعالاته بشكل سريع فلا يشغل نفسه بتصريح الاستهلال ، الذي يحتاج إلى شيء من التأني .

(٢) أن جزءاً غير قليل من شعر الرثاء المدروس هو مقطوعات أو قصائد قصيرة ويغلب فيها إهمال التصريح في استهلالاتها . ومما ساعد على ذلك أن بعضها قد قاله شعراء مقلون - ومنهم من لم يقل الشعر من قبل - لم يعمدوا إلى التصريح لعدم معرفتهم بالتقاليد الشعرية التي تهتم بتصريح استهلال القصيدة . ولأستبعد أن تكون مقدمات بعض هذه المقطوعات والقصائد القصيرة قد ضاعت .
الموسيقى الداخلية :

لقد عرف النقاد القدماء الموسيقى الخارجية ممثلة في العروض والقافية ، ومايندرج تحتها ، ولكن مصطلح الموسيقى الداخلية ظل عائماً ، وهو يعني باختيار الكلمات وترتيبها والمواهمة بينها وبين المعاني التي تدل عليها ، ليس هذا فحسب بل يتجاوزها إلى الكشف عن إحياءاتها وإيقاعاتها المختلفة .

وقد رأى الدكتور شوقي ضيف أن وراء الموسيقى الخارجية موسيقى خفية تنبع من اختيار الشاعر لكلماته ومايبينها من تلاؤم في الحروف والحركات ، وبهذه الموسيقى الداخلية يتفاضل الشعراء (٢) .

(١) « منهاج البلغاء » ، ص ٢٨٣ .

(٢) انظر : « الفن ومذاهبه في الشعر العربي » ، مكتبة الأندلس ، لبنان ، ط ٣ ، ١٩٥٦م ، ص ٧٤

ولعل أبرز مظاهر الموسيقى الداخلية لشعر الرثاء ما يعرف عند النقاد والبلاغيين القدماء بالمحسنات اللفظية ؛ كالتطابق والمقابلة والتقسيم ، مما يساعد على إحكام بناء القصيدة وتوفير قدر كافٍ من الرنين .

والتطابق من الألوان البديعية التي تقابلنا في شعر الرثاء الإسلامي . ولكنه ليس بالكثرة التي انتهى إليها أمره في العصر العباسي وما تلاه ، كما أن الشاعر لا يقصده قصداً ، إنما يأتي طبيعياً لا تكلف فيه ، بسيطاً غاية البساطة . ولا غرو ، فقد كان الشعر العربي لا يزال على جانب كبير من فطرته التي كان عليها في الجاهلية .

وعلى سبيل المثال نلمس ذلك بين كلمتي « تروح » و « تغدو » في البيت التالي وهو من أبيات منسوبة لهند بنت عتبة قالتها بعد بدر :

ألا رب يوم قد رزئت مرزءاً تروح وتغدو بالجزيل مواهبه (١)

وهذا مطابقة تدل على الاستمرار والمداومة .

أما المطابقة في البيت التالي فهي تبرز الفرق بين مصير المؤمنين ومصير الكافرين : فالأولون مخلدون في جنات النعيم ، والآخرون يلقون في قعر جهنم ويئس المصير :

شنتان من هو في جهنم ثاويأ أبدأ ومن هو في الجنان مخلد (٢)

(١) « السيرة النبوية » ، ق ٣٩/٢ .

(٢) « ديوان كعب بن مالك » ، ص ١٩١ .

وهذه المطابقة التي تؤدي وظيفتها في إبراز المعنى قد تعددت وتنوعت في
رثاء الشعراء المسلمين ذلك العصر .

وفي البيت التالي نجد الطباق بين « محضري » و « مسيري » ، وهو يدل
على شدة الحزن وشمول البكاء لكل حالات الشاعرة وعدم توقفه ، فهو بكاء دائم
خلعت عليه الشاعرة صفة الديمومة :

فوالله لا أنساك ماهبت الصبا بكاء وحرناً محضري ومسيري (١)

وبالمثل يقول هبيرة بن أبي وهب مخاطباً عمرو بن ود ، الذي جندله سيف
علي رضي الله عنه في معركة الخندق :

ولا تبعدن يا عمرو حيا وهالكها فقد بنت محمود الثنا ماجد الأصل (٢)
داعيا له بالسلامة في حال حياته وموته .

وهذا جبل بن جوال الثعلبي ، في رده على حسان بعد هزيمة بني قريظة،
يقابل بين قدر الأوس التي يدعي أنها فارغة وقدر أعدائهم الحامية التي تفور ،
قاصداً بذلك أن يحقر من شأن الأوسيين ، والمسلمين بوجه عام ، ورفع شأن
أعدائهم:

تركتم قدركم لاشيء فيها وقدر القوم حامية تفور (٣)

ويؤلم شاعراً مسلماً - لم يسمه ابن هشام شارك في غزوة مؤتة - أن يعود
حيا سليماً إلى بلده بينما دفن الشهداء حيث قتلوا ، فيصور ذلك في المقابلة التالية

(١) « السيرة النبوية » ، ق ١٦٧/٢ .

(٢) السابق ، ق ٢٦٨/٢ .

(٣) السابق ، ق ٢٧٣/٢ .

التي تصور حزنه الشديد :

كفى حزنا أني رجعت وجعفر وزيد وعبدالله في رمس أقبر
قضوا نحبهم لما مضوا لسبيلهم وخلفت للبلوى مع المتغير (١)
وهذا لبيد يقارن بين من ماتوا من قومه ومن بقى فتنتهى المقارنة لصالح
الذاهبين:

ذهب الذين يعاش في أكنافهم وبقيت في خلف كجلد الأجر (٢)
وما هو ذا أيضاً يتأمل في الناس وأعمالهم ما بين بان يحافظ على بنائه
ويحرص على تعليته ، وآخر يعمد إلى ما قد بناه فيهدمه ويبوء من ثم بالخسران:

وما الناس إلا عاملان : فعامل يتبر ما يبني ، واخر رافع
فمنهم سعيد أخذ لنصيبه ومنهم شقى بالمعيشة قانع (٣)
وفي المقابلتين التاليتين نراه ينسب كل حال لابن آدم إلى إرادة الله، فعلى
المسلم أن يؤمن بأن كل شيء إنما هو بقضاء من الله وقدر :

إن تقوى ربنا خير نفل وبإذن الله ريثي وعجل

...

من هداه سبل الخير اهتدى ناعم البال ، ومن شاء أضل

(١) « السيرة النبوية » ، ق ٣٨٨/٢ .

(٢) « شرح ديوان لبيد » ، ص ١٥٧ .

(٣) السابق ، ص ١٧٠ .

ويصور في المقابلة التالية حالتي أخيه : حالته تجاه أعدائه ، وحالته الأخرى
تجاه أحبائه وأقربائه :

ممقـر مر على أعدائه وعلى الأدين حلو كالعسل (١)

والموازنات لون من ألوان البديع يتمثل فيه التوازن ، وهو لون من ألوان
الإيقاع الموسيقي أيضاً ، ولكنه هادئ يخلو من الرنين ويضفي على القصيدة مزيداً
من الموسيقية والغنائية .

ومن هذه الموازنات ما جاء في البيت التالي من قصيدة للحارث بن هشام
يرد فيها على أحد الشعراء المسلمين الذين يتغنون بانتصار الإسلام في بدر ،
قائلاً:

مصاليت بيض من لؤي بن غالب مطاعين في الهيجا ، مطاعيم في المحل (٢)

حيث نجد حسن التقسيم والموازنة بين « مطاعين في الهيجا » و « مطاعيم
في المحل » ، فكل من الجملتين مركبة من ثلاث كلمات ، كل كلمة توازن نظيرتها ،
فـ«مطاعين» على وزن « مطاعيم » ، و « في » تقابلها « في » ، و « الهيجا » من وزن
« المحل » موسيقياً ، إذ ضبط حروف كليهما كالأتي : فتحة فسكون ففتحة
فسكون مد .

وإذا كان الشاعر هنا قد لجأ إلى الموازنة في شطرة واحدة من بيت فإن
كعب بن مالك الأنصاري ، في بكاء عبيدة بن الحارث ، أحد الذين استشهدوا بعيد
بدر بسبب قطع رجله في تلك الغزوة ، قد وسع موازنته بحيث انتظمت بيتاً كاملاً ،
قال:

(١) « شرح ديوان لبيد » ، ص ١٧٤ ، ١٩٧ .

(٢) « السيرة النبوية » ، ق ١٢/٢ .

جريء المقدم، شاكي السلاح كريم النثا ، طيب المكسر(١)
 مقسما البيت إلى أربع جمل متوازنة عدد كلمات وتركيبا ، فكل جملة مكونة
 من كلمتين هما مضاف ومضاف إليه ، والمضاف صفة مشتقة من غير «ال»،
 والمضاف إليه معرف بال .

وفي رثائه لعمر رضي الله عنه يقول :

رعوف على الأدنى ، غليظ على العدى أخي ثقة في النائبات نجيب (٢)
 وبعض الشعراء لا يكتفون بالقافية الموجودة في أواخر الأبيات ، بل يضيفون
 إليها قوافي أخرى في داخل البيت فتجانب أبياتهم بالرنين . وهذا الغنى الموسيقي
 هو تعبير عن شدة العاطفة وتوترها من جهة ، وسيطرة الشاعرة وبراعته في
 إخراجها موقعة من جهة أخرى .

ومن أمثلة ذلك هذه الايقاعات القوية التي لجأ إليها أمية بن أبي الصلت
 تعبيراً عن شدة الحزن ومرارة الألم :

أمثالهن الباكيا ت المعولات من النوائح
 حيث نجد التقفية بين « الباكيات » و « المعولات » . وكذلك قوله :

ومن السراطمة الخلا جمة الملائمة المناجح

بما فيه من تقفية بين « السراطمة » و « الخلاجمة » . وأيضا قوله :

(١) ديوانه ، ص ٢٠٢ .

(٢) « ديوان حسان » (ط . د . عرفات) ٢٧٣/١ .

بالمقربات المبعودا ت الطامحات مع الطوامح
والتقفية فيه أغنى منها في البيتين السابقين ، إذ كانت هذه المرة بين ثلاث
كلمات ، كما هو واضح . ومثل ذلك قوله :

مرداً على جرد إلى أسد مكالبة كوالح (١)

وإن كانت حركة « مردا » تختلف عن حركة « جرد » و « أسد » ، فهي في
الأولى الفتح ، وفي الثانية والثالثة الكسر ، لكن التوقيع موجود رغم ذلك .

أما في البيتين التاليين فنجد صيغة المذكر السالم المنصوبة قد تكررت أربع
مرات :

القائلين الفاعلين الأخذين بكل صالح

المطعمين الشحم فـ ق الخبز شحما كالأنافح

وهذا كله بخلاف التوقيع الموسيقي الناشيء من تكرار الكلمة الواحدة داخل
البيت الواحد مثل :

ألا بكيت على الكـمـرا م بني الكرام أولى المـمـاح

وهذا مثال واحد وتوجد أمثلة أخرى تحت عنوان « التكرار » . وهذه
القصيدة هي من أغنى قصائد الرثاء في ذلك العصر في هذه الناحية .

وفي أبيات لحسان في رثاء حمزة - رضي الله عنهما - نجد توافقا إيقاعيا

(١) « ديوان أمية بن أبي الصلت » ، ص ٣٤٦ - ٣٥١ .

بين لفظتي « الندى » و « المدى » في البيت التالي :

أخي ثقة يهتز للعرف والندى بعيد المدى في النائبات صبور(١)

وفي قصيدته الحائية التي أشرنا في موضع سابق من هذه الدراسة إلى
أوجه التشابه المتعددة بينها وبين حائية أمية في رثاء قتلى بدر من المشاركين نلاحظ
مالحظناه في قصيدة أمية من بروز الموسيقى الداخلية ، مثل :

كالحاملات الوقر بالثقل الملحات الدوالح

المعولات الخامشات وجوه حرات صحائح

من بين مشرور ومجزور يذدع بالبوارح

من كان فارسنا وحامينا إذا بعث المسالح

القائلين الفاعلين نوي السماحة والمادح(٢)

ومثل هذه الموسيقى التي تتجاوب بها أبيات القصيدة الحائية ، بل هي
أقوى منها وأجمل وأوقع في الأذن وأشد استثارة للحنين ومشاعر الحزن النبيلة ،

(١) ديوانه (ط. د. عرفات) ، ١٣٣/١ .

(٢) السابق ، ٤٥٢/١ .

تلك التقسيمات الرائعة الجميلة في رثائه النبي ﷺ :

كاساب الحقيقة ، نسال الوديقة فكـ	اك العناة كـريم ماجد عال
كساب مكرمة ، مطعام مسغبة	وهاب عيضية وچناء شملاال
عف مكاسبه ، جزل مواهبه	خير البرية سمح غير نكال
وارى الزناد ، وقواد الجياد إلى	يوم الطراد إذا شبت بأجدال(١)

الخاتمة

الخاتمة

بعد هذا نكون قد وصلنا إلى تنمة هذا البحث الذي خصصناه لدراسة شعر الرثاء في عهد النبوة والخلافة الراشدة ، وقد تبين لنا - من خلال ما استعرضناه في فصول هذه الرسالة ومباحثها - نتائج نحسب أن لها أهميتها، وينبغي إثباتها ، وهي:

* أننا لانملك دليلاً يقينياً على تحديد البدايات الأولى للشعر بعامة، وشعر الرثاء -على وجه الخصوص- ، وكل ما قيل في هذا المقام لا يرقى إلى مرتبة الإقناع والقبول، بل هو أقرب ما يكون إلى الحدس والتخمين والتعسف أيضاً، وأن ما أورده القدماء من شواهد -على قلتها- لاتنهض دليلاً على الجزم بأن نشأة الشعر كانت نشأة رثائية.

* يعد التوثيق أمراً شائكاً، فلا يكتفى فيه بالسرود الوصفي لمواطن الاختلاف، بل لابد من الرجوع إلى المعجم الشعري للشاعر، والتعرف على كيفية استخدامه للغة ومن ثم الوصول إلى تمييز ما نسب إليه من شعر.

* أن ما وصلنا من أحكام للقدماء بشأن نسبة بعض الأشعار - لايجعلنا نطمئن إلى صحتها المطلقة ، بل إن اخضاعها للنقد والتمحيص يظل أمراً ضرورياً للوصول إلى رأي قاطع حولها ، أو ترجيح هذه النسبة على أقل تقدير .

* أن الموت في ظل الرؤية الإسلامية ما هو إلا رحلة إلى عالم مطلوب هو الجنة، لكنه في فلسفة الجاهليين رحلة إلى عالم المجد الدنيوي والسؤدد.

- * وضوح الرؤية الإسلامية وضوحاً شديداً من خلال استقراء النصوص الشعرية الرثائية، وماحدث فيها من تطور في الألفاظ والمعاني والتأثر بالأسلوب القرآني. صحيح أن هناك بقايا تعبيرات جاهلية وجدت في شعر بعض الشعراء ولكنها من الندرة بمكان، ومقصورة على قلة من الشعراء وقريبة عهد من العصر الجاهلي.
- * أثبت البحث من خلال الدراسة أن هناك صفات مشتركة تصلح لكل عصر، ولايمكن أن يقال عنها إنها صفات جاهلية تأثر بها شعراء فترة النبوة والخلافة الراشدة كما يزعم بعض الباحثين .
- * أن القول بأن النقائص كانت إسلامية النشأة قول لا أساس له، فقد أثبت البحث أنها نشأت في ظل الجاهلية، وتطورت بعد ذلك في العصر الأموي.
- * أثبتت الدراسة أن القول بأن الشاعر المنتصر يكون أكثر تمكناً من اللغة وأقدر على امتلاك زمام الموقف قول لا يستقيم ؛ لأن الإجادة والإخفاق يقعان على المنتصر كما يقعان على المهزوم ، وأن العبرة في الفن تكمن في سيطرة الشاعر على أدواته وتوفيقه في لحظة الإنتاج المواتية . وكذلك الحال في قوة العاطفة وفتورها.
- * أن دعوى ضعف الشعر في هذه الفترة التي نادى بها بعض الباحثين هي نتيجة لسوء فهم مقولة الأصمعي، وإن كان هناك من ضعف فهو ضعف نسبي إذا ماقيس بقصائد كانت في غاية الجودة والجمال.
- * كشف البحث من خلال الدراسة الفنية عن ظهور مقدمات لقصائد الرثاء أحسب أنها جديدة، كالمقدمة النديبية والتأملية والخطابية والإبلاغية والدعائية... إلخ ، وإن كانت لاتخرج في مضمونها عن الجو العام للرثاء .

* اتضح لنا من خلال البحث وجود قصائد رثائية في هذا العصر بدأت بمقدمات غزلية. وفي هذا ردّ على بعض النقاد الذين يرون أنه ليس من عادة الشعراء الجمع بين الرثاء والمقدمات الغزلية والطللية .

* أن ماذهب إليه بعض الباحثين من إنكار للوحدة الموضوعية في قصيدة الرثاء والتزامهم بالتقاليد الفنية في بناء هذه القصيدة ، إنما يجري في الغالب على قصيدة المديح، وأن الناظر للقصائد الرثائية في فترة الدراسة لايلحظ نهجاً بنائياً معيناً، عدا بعض القصائد.

* أن لغة الشعر في عصر النبوة والخلافة الراشدة تتسم - في معظمها - بالوضوح وتميل إلى السهولة ، وأن ما نلمسه في بعض القصائد من الغرابة يعدّ أمراً طبيعياً إذا ما قورن بالموقف الرثائي ونفسية الشاعر أثناء الإنشاد وطبيعة العصر ، لأن الذي نراه غريباً في عصرنا ، قد لا يكون كذلك في العصر الذي ينتمي إليه .

* أن ما ربط به بعض الباحثين بين موت الثور الوحشي وهلاكه على يد الصائد وبين موت عزيز له ، وإرجاع ذلك إلى أمور أسطورية لا يمكن قبوله لأن فيه مجافاة للعقل والمنطق .

* أن الصور الفنية لقصائد الرثاء كانت صوراً بسيطة تميل إلى المباشرة والتقريرية خالية من التعقيد والتكثيف ، عدا بعض الصور القليلة التي ظهر فيها شيء من ذلك .

وبعد ... فإني أمل أن تكون هذه الدراسة قد حققت الهدف المرجو منها،
والله من وراء القصد، وهو حسبنا ونعم الوكيل والحمد لله الذي بنعمته تتم
الصالحات .

فهرس
المصادر والمراجع

فهرس
المصادر والمراجع

أولاً - المصادر والمراجع العربية :

[أ]

★ الأمدى ، الحسن بن بشر (ت ٣٧٠ هـ) .

- الموازنة بين شعر أبي تمام والبحثري ، تحقيق السيد أحمد صقر ، دار
المعارف ، القاهرة ، ١٣٨٠ هـ - ١٩٦١ م .

★ ابتسام مرهون الصغار :

- مالك ومتمم ابنا نويرة اليربوعي ، مطبعة الإرشاد ، بغداد ، ١٩٦٨ م .

★ إبراهيم أنيس (الدكتور) :

- موسيقى الشعر ، دار القلم ، بيروت ، ١٩٧٢ م .

★ إبراهيم عبدالرحمن (الدكتور) :

- الشعر الجاهلي قضاياها الفنية والموضوعية ، مكتبة الشباب ، القاهرة ،
(د . ت) .

★ إبراهيم محمود عوض (الدكتور) :

- سورة الرعد - دراسة أسلوبية وأدبية ، مركز الشرق العربي ، الطائف ،
١٤١٠ هـ .

- معركة الشعر الجاهلي بين الرافعي وطه حسين - بحث موضوعي
مفصل، مطبعة الفجر الجديد ، القاهرة ، ١٩٨٧م .
- من ذخائر المكتبة العربية ، الطائف ، ١٤١٣ هـ - ١٩٩٢ م .

★ ابن الأنبير ، علي بن محمد (ت ٦٢٠ هـ) ك

- أسد الغابة في معرفة الصحابة ، تحقيق محمد إبراهيم البنا، محمد
أحمد عاشور ، دار الشعب ، القاهرة ، ١٩٧٠ م .
- الكامل في التاريخ ، دار صادر ، بيروت ، ١٣٨٥ هـ - ١٩٦٥م .

★ إحسان النص (الدكتور) ،

- حسان بن ثابت حياته وشعره ، دار الفكر ، دمشق ، ط ١ ، ١٩٨٥م .

★ أحمد الشايب ،

- تأريخ الشعر السياسي إلى منتصف القرن الثاني ، مكتبة الآداب،
القاهرة، ١٩٤٧م .
- تأريخ النقائض في الشعر العربي ، مكتبة النهضة المصرية ،
القاهرة، ١٣٦٥ هـ - ١٩٤٦م .

★ أحمد كمال زكي (الدكتور) ،

- شعر الهذليين في العصرين الجاهلي والإسلامي ، دار الكاتب
العربي، القاهرة، ١٣٨٩ هـ - ١٩٦٩م .

★ ابن إسحاق ، محمد بن إسحاق (ت ١٥١ هـ) ،

- السير والمغازي ، تحقيق د.سهيل زكار ، دار الفكر ، ط ١ ،
١٣٩٨هـ-١٩٧٨م .

★ ابن الأست ، أبو تيس صيفي ،

- ديوانه ، دراسة وجمع وتحقيق د. حسن محمد باجودة ، دار التراث ،
القاهرة ، ١٩٧٣م (إيداع) .

★ أبو الأسود الدؤلي ، ظالم بن عمرو (ت ٦٩ هـ) ،

- ديوانه ، صنعة أبي سعيد السكري ، تحقيق : د. محمد حسن
آل ياسين ، دار الكتاب الجديد ، بيروت ، ط ١ ، ١٩٨٤م .

★ الأسود الغندجاني ، الحسن بن أحمد (ت ٤٣٠ هـ) ،

- إصلاح ماغلط فيه أبو عبدالله النمري (ت ٣٨٥ هـ) في «معاني
أبيات الحماسة» ، تحقيق د. محمد علي سلطاني ، منشورات معهد
المخطوطات العربية ، الكويت ، ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م .

★ الأصفهاني ، أبو الفرج علي بن الحسين (ت ٣٥٦ هـ) ،

- الأغاني ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت (نسخة مصورة عن
طبعة دار الكتب المصرية) .

- مقاتل الطالبين ، تحقيق السيد أحمد صقر ، دار إحياء الكتب
العربية ، عيسى البابي الحلبي وشركاه ، القاهرة ، ١٣٦٨هـ -

١٩٤٩م .

★ **الإشبيلى ، سلام بن عبدالله (ت بعد ٨٣٩ هـ) ،**

- الذخائر والأعلاق في آداب النفوس ومكارم الأخلاق ، المطبعة
الوهبية، القاهرة، ١٢٩٨هـ.

★ **الألوسى ، محمود شكرى (ت ١٣٤٢ هـ) ،**

- بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب ، تحقيق محمد بهجت الأثري ،
دار الكتب العلمية ، بيروت .

★ **أنور أبو مويلم (الدكتور) ،**

- دراسات في الشعر الجاهلي ، دار الجيل ، بيروت ، ودار عمار ،
عمّان، ط ١ ، ١٩٨٧م.

[ب]

★ **البعثرى ، الوليد بن عبيد (ت ٢٨٤ هـ) ،**

- الحماسة ، عناية لويس شيخو اليسوعي ، المكتب الشرقي ، بيروت،
١٩١٠م.

★ **البخارى ، محمد بن إسماعيل (ت ٢٥٦ هـ) ،**

- صحيح البخارى ، عالم الكتب ، بيروت ، ط ٥ ، ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦م.

★ **بروكلمان ،**

- تاريخ الأدب العربي ، ترجمة د. عبدالطيم النجار ، دار المعارف،
القاهرة، ط ٣ ، ١٩٧٤م ، (الجزء الأول).

★ بشرى محمد الخطيب :

- الرثاء في الشعر الجاهلي وصدر الإسلام ، مطبعة الإدارة المحلية ،
بغداد ، ١٩٧٧ م .

★ البصري ، علي بن أبي الفرج (ت ٦٥٩ هـ) .

- الحماسة البصرية ، عالم الكتب ، بيروت ، (نسخة مصورة عن طبعة
دائرة المعارف العثمانية) .

★ البغدادي ، أبو عبيد عبدالقادر بن عمر (ت ١٠٩٢ هـ) .

- خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب ، تحقيق عبدالسلام هارون ،
مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ١٩٧٩ م إلى ١٩٨٣ م .

★ البكري ، أبو عبيد عبدالله بن عبدالعزيز (ت ٤٨٧ هـ) .

- معجم ما استعجم من أسماء البلدان والمواضع ، تحقيق مصطفى
السقا ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ط ١ ، ١٣٦٦ هـ -
١٩٤٧ م .

★ البلاذري ، أحمد بن يحيى (ت ٢٧٩ هـ) .

- أنساب الأشراف ، تحقيق د. محمد حميد الله ، معهد المخطوطات
بجامعة الدول العربية ودار المعارف ، القاهرة ، ١٩٥٩ م .

★ بلاشير :

- تاريخ الأدب العربي ، ترجمة د. إبراهيم الكيلاني ، دار الفكر ،
دمشق ، ط ٢ ، ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م .

★ بهجت الحديثي (الدكتور) :

- أمية بن أبي الصلت حياته وشعره ، مطبعة العاني ، بغداد ، ١٩٧٥م.

[ت]

★ تشارلتن ، هـ . ب :

- فنون الأدب ، تعريب وشرح : د. زكي نجيب محمود ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ط ٢ ، ١٩٥٩ م .

★ أبو تمام ، حبيب بن أوس (ت ٢٣١ هـ) :

- الحماسة ، تحقيق د. عبدالله عبدالرحيم عسيلان ، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، الرياض ، ١٤٠١هـ - ١٩٨١م.

[ث]

★ نعلب ، أحمد بن يمي (ت ٢٩١ هـ) :

- مجالس نعلب ، تحقيق عبدالسلام هارون ، دار المعارف ، القاهرة ، ط ٣ ، ١٩٦٩م.

[ج]

★ جابر عنصور (الدكتور) :

- الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي ، دار التنوير ، بيروت ، ط ٢ ، ١٩٨٢م.

★ الجاحظ ، عمرو بن بحر (ت ٢٥٥ هـ) ،

- البيان والتبيين ، تحقيق عبدالسلام هارون ، مكتبة الخانجي ،
القاهرة ، ط ٤ ، ١٩٧٥ م.

- الحيوان ، تحقيق عبدالسلام هارون ، مطبعة مصطفى البابي
الخطي ، القاهرة ، ط ٢ ، (د . ت) .

★ جاسر أبو صفية (الدكتور) ،

- بانث سعاد دراسة نقدية ، مجلة أبحاث اليرموك ، جامعة اليرموك ،
المجلد الرابع ، العدد الأول ، ١٩٨٦ م.

★ الجرجاني ، عبدالقاهر (ت ٤٧١ هـ)

- دلائل الإعجاز ، تحقيق : محمود شاكر ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ،
(د . ت) .

★ جواد علي (الدكتور) ،

- المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، دار العلم للملايين ، بيروت ،
مكتبة النهضة ، بغداد ، ط ١ ، ١٩٧٠ م (الجزء السادس) .

★ الجوهري ، إسماعيل بن حماد (ت ٣٩٣ هـ) ،

- تاج اللغة وصحاح العربية ، تحقيق أحمد عبدالغفور عطار ، ط
١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م (نسخة مصورة) .

[ح]

★ **حاتم الطائي (ت ٤٦ ق . هـ) .**

- ديوان شعر حاتم بن عبدالله الطائي وأخباره ، صنعة يحيى بن
مدرک الطائي ، رواية هشام بن محمد الكلبي ، دراسة وتحقيق د.
عادل سليمان جمال ، مطبعة المدني ، القاهرة (د . ت) .

★ **حازم القرطاجني (ت ٦٨٤ هـ) .**

- منهاج البلغاء وسراج الأدباء ، تحقيق محمد الحبيب بن خوجة ،
المطبعة الرسمية للجمهورية التونسية ، تونس ، ١٩٦٦ م.

★ **ابن حجر العسقلاني ، أحمد بن علي (ت ٨٥٢ هـ) .**

- الإصابة في تمييز الصحابة ، تحقيق علي محمد البجاوي ، دار
نهضة مصر - القاهرة ، (د . ت) .

★ **ابن أبي الحديد ، عبدالله بن هبة الله (ت ٦٥٦ هـ) .**

- شرح نهج البلاغة ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، مطبعة الحلبي ،
القاهرة ، ١٩٦٢ م.

★ **ابن حزم ، علي بن أحمد (ت ٤٥٦ هـ) .**

- جمهرة أنساب العرب ، تحقيق عبدالسلام هارون ، دار المعارف ،
القاهرة ، ١٣٨٢ هـ - ١٩٦٢ م.

★ **حسان بن ثابت (ت ٥٤ هـ) ،**

- ديوانه ، تحقيق د.سيد حنفي حسنين ، الهيئة المصرية العامة
للكتاب، القاهرة، ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م.

- ديوانه ، تحقيق د.وليد عرفات ، دار صادر، بيروت ، ١٩٧٤م.

★ **حسن محمد باجودة (الدكتور) ،**

- تأملات في سورة الرعد، دار الاعتصام ، القاهرة ، ١٩٧٩م (إيداع).

- نهوض القرآن بخصائص اللغة التعبيرية ، النادي الأدبي بمكة.

★ **حسين جمعة (الدكتور) ،**

- الرثاء في الجاهلية والإسلام ، دار معد ، دمشق ، ط ١ ، ١٩٩١م.

★ **الحصري ، إبراهيم بن علي (ت ٤٥٣ هـ) ،**

- زهر الآداب وثمر الألباب ، تحقيق علي محمد البجاوي ، دار إحياء

الكتب العربية ، عيسى الحلبي ، القاهرة ، ط ٢ ، ١٣٨٩هـ - ١٩٦٩م.

★ **أبو حيان ، محمد بن يوسف (ت ٧٤٥ هـ) ،**

- تفسير البحر المحيط ، دار الفكر ، ط ٢ ، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.

[خ]

★ **الخطيب التبريزي ، يحيى بن علي (ت ٥٠٢ هـ) ،**

- شرح ديوان الحماسة ، تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد،

المكتبة التجارية الكبرى ، القاهرة، ١٣٥٨هـ - ١٩٣٩م.

★ ابن خلكان ، أحمد بن محمد (ت ٦٨١ هـ) ،

- وفيات الأعيان ، تحقيق د.إحسان عباس ، دار الثقافة ودار صادر،
بيروت ، ١٩٦٨ إلى ١٩٧٢م.

★ الخليل بن أحمد (ت ١٧٥ هـ) ،

- العين ، تحقيق د. مهدي الخزومي ، ود.إبراهيم السامرائي ، وزارة
الثقافة والاعلام ، العراق ، ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م.

[د]

★ ابن داود الأصفهاني ، أبو بكر محمد (ت ٢٩٧ هـ) ،

- الزهرة (النصف الثاني) ، تحقيق د. إبراهيم السامرائي ، ود.محمد
نوري القيسي ، وزارة الإعلام العراقية ، ١٩٧٥م.

★ ابن دريد ، محمد بن الحسن (ت ٣٢١ هـ) ،

- الاشتقاق ، تحقيق عبدالسلام هارون ، مطبعة السنة الحمديّة،
القاهرة، ١٩٥٨م.

- جمهرة اللغة ، مطبعة دائرة المعارف العثمانية ، حيدر آباد الدكن ،
الهند (د . ت) (نسخة مصورة) .

[ر]

★ الرازي أبو هاتم ، أحمد بن حمدان (ت ٣٢٢ هـ) ،

- الزينة في الكلمات الإسلامية العربية ، عارضه بأصوله وعلق عليه
حسين بن فيض الله الهمداني ، دار الكتاب العربي ، القاهرة ، ط ٢ ،
١٩٥٧م.

★ ابن رشيّق ، الحسن بن رشيّق (ت ٤٦٣ هـ) ،

- العمدة في محاسن الشعر ونقده ، تحقيق محمد محيي الدين
عبد الحميد ، المكتبة التجارية الكبرى بمصر ، ط ٢ ، ١٣٧٤ هـ -
١٩٥٥ م .

[ز]

★ الزبيرى ، مصعب بن عبدالله (ت ٢٢٦ هـ) ،

- نسب قريش ، عناية ليفي بروفنسال ، دار المعارف ، القاهرة ،
١٩٥٣ م .

★ الزمخشري ، محمود بن عمر (ت ٥٢٨ هـ) ،

- الفائق في غريب الحديث ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم وعلي
البجاوي ، عيسى البابي الحلبي ، ط ٢ (د . ت) .

[س]

★ سامي مكى العائى (الدكتور) ،

- الإسلام والشعر ، عالم المعرفة ، عدد (٦٦) ، الكويت ، ١٤٠٣ هـ -
١٩٨٣ م .

- دراسات في الأدب الإسلامي ، منشورات دار المعرفة ، بغداد ، ط ٢ ،
١٩٦٢ م .

★ ابن سعد ، محمد بن سعد (ت ٢٣٠ هـ) ،

- الطبقات الكبرى ، دار صادر ، بيروت (د . ت) .

★ **معد مصلوح (الدكتور) ،**

- في النص الأدبي - دراسة أسلوبية إحصائية، النادي الأدبي الثقافي، جدة، ط ١ ، ١٤١١هـ - ١٩٩١م.

★ **ابن سلام ، محمد بن سلام الجمي (ت ٢٣١ هـ) ،**

- طبقات فحول الشعراء ، تحقيق محمود شاكر، مطبعة المدني ، القاهرة، ١٩٧٤م.

★ **ابن سنان الفغاجي ، عبدالله بن محمد (ت ٤٦٦ هـ) ،**

- سر الفصاحة ، تحقيق علي فودة ، مكتبة الخانجي ، القاهرة، ١٩٣٢م.

★ **السهيلي ، عبدالرحمن بن عبدالله (ت ٥٨١ هـ) ،**

- الروض الأنف ، تحقيق عبدالرحمن الوكيل ، دار الكتب الحديثة ، القاهرة، ط ١ ، ١٣٧٨هـ - ١٩٦٧م.

★ **سيد حنفي حسنين (الدكتور) ،**

- حسان بن ثابت شاعر الرسول ، سلسلة أعلام العرب ، القاهرة.

★ **السيد عبدالقادر عويضة (الدكتور) ،**

- أثر الإسلام في الشعر في عصر الرسول والخلفاء والراشدين ، مطبعة الأمانة ، القاهرة ، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٧م .

★ **سيد قطب (ت ١٣٨٧ هـ) ،**

- في ظلال القرآن ، دار الشروق ، بيروت - القاهرة ، ط ١٠ ، ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م .

★ ابن سيد الناس ، محمد بن محمد (ت ٧٣٤ هـ) :

- عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير ، دار الآفاق الجديدة ،
بيروت ، ط ٣ ، ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م .

★ السيوطي ، عبدالرحمن جلال الدين (ت ٩١١ هـ) :

- لباب النقول في أسباب النزول ، دار إحياء العلوم ، بيروت ، ط ١ ،
١٩٧٨ م .

- المزهر في علوم العربية ، شرح وتصحيح محمد أحمد جاد المولى ،
علي محمد البجاوي ، محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار إحياء الكتب
العربية ، عيسى البابي الحلبي وشركاه ، القاهرة (د . ت) .

[ش]

★ الشماخ بن ضرار الديباني (ت ٢٢ هـ) :

- ديوانه ، تحقيق صلاح الدين الهادي ، دار المعارف ، القاهرة ،
١٩٧٧ م (إيداع) .

★ ابن شعاب الزهري ، محمد بن مسلم (ت ١٢٤ هـ) :

- المغازي النبوية ، تحقيق د.سهيل زكار ، دار الفكر ، دمشق ،
١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م .

★ ابن نهر اثوب ، محمد بن علي (ت ٥٨٨ هـ) :

- مناقب آل أبي طالب ، المطبعة الحيدرية ، النجف الأشرف ، العراق ،
١٩٥٦ م .

★ **شوقي رياض أحمد (الدكتور) :**

- شعر السيرة النبوية - دراسة توثيقية ، دار المأمون ، القاهرة ، ط ١ ،
١٩٨٧ م.

- شعر النقائض في السيرة النبوية ، مطابع الفرزدق التجارية،
الرياض، ط ٢، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٧ م.

★ **شوقي ضيف (الدكتور) :**

- العصر الإسلامي ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٦٣ م.

- العصر الجاهلي ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٦١ م.

- الفن ومذاهبه في الشعر العربي ، مكتبة الأندلس - لبنان ، ط ٣ ،
١٩٥٦ م.

[ص]

★ **صالح آدم بيلو (الدكتور) :**

- تيارات عقديّة وثقافية في الأدب الجاهلي ، مطابع الصفا ، مكة
المكرمة، ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩ م.

★ **صبحي الصالح (الدكتور) :**

- مباحث في علوم القرآن ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ط ١٦ ،
١٩٨٥ م.

★ صلاح الدين الهادي (الدكتور) :

- الأدب في عصر النبوة والراشدين ، ط ٢ ، ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م .
- الشماخ بن ضرار الغطفاني - حياته وشعره ، دار المعارف ، القاهرة، ١٩٦٨م .

★ ابن أبي الصلت ، أمية بن عبدالله (ت ٥ هـ) :

- ديوانه، تحقيق د. عبد الحفيظ السطلي، مكتبة أطلس، دمشق، ١٩٧٤م .

[ط]

★ طه حسين (الدكتور) :

- حديث الأربعاء ، دار المعارف ، القاهرة ، ط ١٣ ، ١٩٨٢م .
- في الأدب الجاهلي ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة، ط ٣ ، ١٩٥٢م .

★ ابن طباطبا ، محمد بن أحمد (ت ٣٢٢ هـ) :

- عيار الشعر ، تحقيق د. محمد سلام زغلول، ود. طه الحاجري، المكتبة التجارية، القاهرة، ١٩٥٦م .

★ الطبري ، محمد بن جرير (ت ٣١٠ هـ) :

- تأريخ الرسل والملوك ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٣م .
- جامع البيان عن تأويل آي القرآن (تفسير الطبري) ، مصطفى البابي الحلبي ، القاهرة، ط ٢ ، ١٣٧٣هـ - ١٩٥٤م .

★ طفيل الفنوي :

- ديوانه ، تحقيق : محمد عبدالقادر أحمد ، دار الكتاب الجديد ،
بيروت ، ط ١ ، ١٩٦٨ م .

[ع]

★ عادل محمد أبو العلا :

- خصائص السور والآيات المدنية - ضوابطها ومقاصدها ، دار القبلة ،
جدة ، ومؤسسة علوم القرآن ، بيروت ، ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م .

★ ابن عاشور ، محمد الطاهر :

- تفسير التحرير والتنوير ، الدار التونسية للنشر ، ١٩٨٤ م .

★ عباس الجراري (الدكتور) :

- من أدب الدعوة الإسلامية ، الدار البيضاء ، ١٩٨٤ م .

★ ابن عبد الجبر ، يوسف بن عبدالله (ت ٤٦٣ هـ) :

- الاستيعاب في معرفة الأصحاب ، تحقيق علي محمد البجاوي ، مكتبة
نهضة مصر ، القاهرة ، (د . ت) .

★ عبدالجبار الطلبي (الدكتور) :

- حسان بن ثابت في معايير النقد ، مجلة المورد ، بغداد ، العدد
الرابع ، المجلد التاسع ، ١٩٨٠ م .

★ **عبدالمليم حفني (الدكتور) :**

- مطلع القصيدة العربية ودلالاته النفسية ، الهيئة المصرية العامة
للكتاب، القاهرة، ١٩٨٧م.

★ **عبد الحميد السلوت (الدكتور) :**

- نظرية الانتحال في الشعر الجاهلي ، دار القلم ، القاهرة (د.ت).

★ **ابن عبدربه ، أحمد بن محمد (ت ٢٢٨ هـ) :**

- العقد الفريد ، تحقيق أحمد أمين ، أحمد الزين ، إبراهيم الأبياري،
مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ط ٢ ، ١٣٦٧هـ -
١٣٩٣هـ.

★ **عبدالرحمن بدوي (الدكتور) :**

- دراسات المستشرقين حول صحة الشعر الجاهلي ، دار العلم
للملايين، بيروت ، ط ١ ، ١٩٧٩م.

★ **عبدالرحمن البرقوقي :**

- شرح ديوان حسان بن ثابت الأنصاري ، دار الأندلس ، بيروت،
١٩٨٠م.

★ **عبدالرحمن خليل إبراهيم :**

- دور الشعر في معركة الدعوة الإسلامية أيام الرسول صلى الله عليه
وسلم، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ١٩٧١م.

★ **عبدالقادر القط (الدكتور) :**

- مفهوم الشعر عند العرب كما يصوره كتاب الموازنة للآمدي ، ترجمة
د.عبد الحميد القط ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨٢م.

★ **عبدالله الحامد (الدكتور) :**

- الشعر الإسلامي في صدر الإسلام، مطابع الإشعاع التجارية، ط٢،
١٤٠٢هـ-١٩٨١م.

★ **عبدالله بن رواحة (ت ٨ هـ) :**

- ديوان عبدالله بن رواحة الأنصاري الخزرجي ، دراسة وجمع
وتحقيق د. حسن محمد باجودة، دار التراث، القاهرة، ١٩٣٢م
(إيداع) ١٩٧٥

- ديوان عبدالله بن رواحة ودراسة في سيرته وشعره، د.وليد قصاب،
دار العلوم ، الرياض، ط ١ ، ١٤٠١هـ - ١٩٨١م.

★ **عبدالله سليمان الجربوع (الدكتور) :**

- إخضاع الحدث التاريخي لدراسة صحة نص من النصوص
الشعرية، مجلة البحث العلمي والتراث الإسلامي، منشورات جامعة
أم القرى، كلية الشريعة ، مكة المكرمة ، العدد الرابع ، ١٤٠١هـ -
١٩٨١م.

- ضرار بن الخطاب الفهري ، دراسة وجمع وتحقيق ، مطبوعات نادي
مكة الثقافي الأدبي ، ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩م.

- نظرة على روايات القصيدة المنسوبة إلى قتيلة بنت الحارث، مجلة
كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة الملك عبدالعزيز، المجلد الثالث،
١٤٠٣هـ-١٩٨٣م.

★ عبده بدوي (الدكتور) :

- دراسات في النص الشعري القديم ، دار الرفاعي للنشر والطبع
والتوزيع، الرياض ، ط ٢ ، ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٤ م .

★ أبو عبيدة ، معمر بن المنبي (ت ٢١٠ هـ) :

- نقائض جرير والفرزدق، عناية المستشرق بيفان، ط ليدن ١٩٠٥ م
(نسخة مصورة).

★ عدي بن زيد (ت نحو ٢٥ ق هـ) :

- ديوانه، جمعه وحققه محمد عبد الجبار المعبيد، وزارة الثقافة
والإرشاد، بغداد، سلسلة التراث (٢)، ١٣٨٥ هـ - ١٩٦٥ م.

★ عروة بن الزبير (ت ٩٤ هـ) :

- مغازي رسول الله صلى الله عليه وسلم، تحقيق د. محمد مصطفى
الأعظمي، مكتبة التربية العربية لدول الخليج، الرياض،
١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م.

★ العسكري ، أبو هلال :

- الصناعتين - الكتابة والشعر ، تحقيق : علي محمد البجاوي ، محمد
أبو الفضل إبراهيم ، عيسى البابي الحلبي ، ١٩٧١ م (إيداع) .

★ **العصامي ، عبد الملك بن حسين (ت ١١١١ هـ) ،**

- سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي، المطبعة السلفية،
القاهرة، ١٣٧٩هـ.

★ **عفيف عبدالرحمن (الدكتور) ،**

- الأدب الجاهلي في آثار الدارسين قديماً وحديثاً، دار الفكر للنشر
والتوزيع، عمان ، ط ١ ، ١٩٧٨م .

★ **أبو العلاء المعري ، أحمد بن عبدالله (ت ٤٤٩ هـ) ،**

- شروح سقط الزند ، لجنة إحياء آثار أبي العلاء المعري، دار الكتب
المصرية، القاهرة، ١٩٤٥م-١٩٨٤م.

★ **على البطل (الدكتور) ،**

- الصورة في الشعر العربي حتى آخر القرن الثاني الهجري - دراسة
في أصولها وتطورها، دار الأندلس، بيروت، ط ١ ، ١٩٨٠م.

★ **على الجندي (الدكتور) ،**

- تاريخ الأدب الجاهلي، مكتبة الجامعة العربية ، بيروت ، ط ٢ ،
١٩٦٦م.

★ **على جواد الطاهر (الدكتور) ،**

- منهج البحث الأدبي ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ،
ط ٣ ، ١٩٧٩م .

★ علي العتوم (الدكتور) :

- قضايا الشعر الجاهلي، مكتبة الرسالة الحديثة، عمان، ط١، ١٩٨٢م.

★ ابن العماد المنبلي :

- شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، القاهرة ، ١٣٥٠ هـ .

★ عمر رضا كماله :

- الأدب العربي في الجاهلية والإسلام، المطبعة التعاونية، دمشق،

١٣٩٢هـ-١٩٧٢م.

★ عمر فروخ (الدكتور) :

- تاريخ الأدب العربي، دار العلم للملايين، بيروت، ط ٤ ، ١٩٨١م.

★ عمرو بن قميئة (ت ٨٥ ق هـ) .

- ديوانه ، تحقيق حسن كامل الصيرفي ، معهد المخطوطات العربية،

القاهرة، ١٣٦٥هـ-١٩٨٥م.

[غ]

★ غرونبوم غوستاف :

- دراسات في الأدب العربي، ترجمة د.إحسان عباس ، د. أنيس

فريجة ، د. محمد يوسف نجم ، د. كمال يازجي ، دار مكتبة الحياة،

بيروت، ١٩٥٩م.

(٣٩٢)

[ف]

★ ابن فارس ، أحمد بن فارس (ت ٣٩٥ هـ) ،

- معجم مقاييس اللغة، تحقيق وضبط عبدالسلام هارون، ط ١، دار
إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي وشركاه، ١٣٦٦هـ.

★ الفرزدق ، همام بن غالب (ت ١١٠ هـ) ،

- ديوانه، جمع وتعليق عبدالله الصاوي، المكتبة التجارية الكبرى،
القاهرة، ط ١، ١٣٥٤هـ - ١٩٣٦م.

★ نواد انرام البستاني :

- الشعر الجاهلي ، سلسلة الروائع .

★ نواد مزكين :

- تاريخ التراث العربي ، ترجمة د.محمود فهمي حجازي، جامعة
الإمام محمد بن سعود، الرياض، المجلد الثاني، الجزء الثاني،
١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.

★ الفيروزآبادي ، محمد بن يعقوب (ت ٨١٧ هـ) ،

- القاموس المحيط ، المطبعة المصرية ، ط ٣، ١٣٥٢هـ - ١٩٣٣م.

[ق]

★ القالي ، إسماعيل بن القاسم (ت ٣٥٦ هـ) ،

- الأمالي ، دار الكتب المصرية ، القاهرة ، ط ٢ ، ١٣٤٤هـ - ١٩٢٦م.

★ ابن قتيبة ، عبدالله بن مسلم (ت ٢٧٦ هـ) ،

- الشعر والشعراء ، تحقيق أحمد محمد شاكر ، دار المعارف ،
القاهرة ، ١٣٨٦ هـ - ١٩٦٦ م .

★ قدامة بن جعفر (ت ٢١٩ هـ) ،

- نقد الشعر ، تحقيق كمال مصطفى ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ط ٣ ،
١٩٧٩ م (إيداع) .

★ ابن قدامة المقدسي ، عبدالله بن أحمد (ت ٦٢٠ هـ) ،

- التبيين في أنساب القرشيين ، تحقيق محمد نايف الدليمي ، ط
المجمع العلمي العراقي ، ١٩٨٢ م .

★ القرشي ، أبو زيد محمد بن أبي الخطاب (ت أوائل القرن الرابع الهجري) ،

- جمهرة أشعار العرب في الجاهلية والإسلام ، تحقيق علي محمد
الجباوي ، دار نهضة مصر ، القاهرة ، ١٩٦٧ م .

- جمهرة أشعار العرب في الجاهلية والإسلام ، تحقيق محمد علي
الهاشمي ، منشورات جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ،
الرياض ، ١٩٨١ م .

★ القرطبي ، أبو عبدالله محمد بن أحمد الأنصاري ،

- الجامع لأحكام القرآن ، مطبعة دار الكتب المصرية ، القاهرة ،
١٣٦٨ هـ - ١٩٤٩ م .

★ القنطري ، علي بن يوسف (ت ٤٦٤ هـ) ،

- إنباه الرواة في أنباء النحاة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار
الكتب العربية، القاهرة، ط ١، ١٣٩٦هـ.

[ك]

★ ابن كثير ، إسماعيل بن كثير (ت ٧٧٤ هـ) ،

- البداية والنهاية ، مطبعة السعادة ، ط ١ ، ١٩٣٢م.

- تفسير القرآن العظيم ، تحقيق عبدالعزيز غنيم ، محمد أحمد
عاشور، محمد إبراهيم البنا ، دار الشعب ، القاهرة ، (د . ت) .

★ كعب بن مالك (ت ٥٠ هـ) ،

- ديوانه ، دراسة وتحقيق د. سامي مكي العاني ، مكتبة النهضة،
بغداد، ط ١ ، ١٣٨٦هـ - ١٩٦٦م.

★ الكميّ بن زيد الأسيدي (ت ١٢٦ هـ) ،

- شرح هاشميات الكميّ ، تحقيق د. داود سلوم ، ود. نوري القيسي،
عالم الكتب ومكتبة النهضة العربية ، بيروت ، ط ١ ، ١٤٠٤هـ -

١٩٨٤م.

[ل]

★ **لبيد بين ربيعة (ت ٤١ هـ) :**

- شرح ديوان لبيد بن ربيعة العامري ، تحقيق د. إحسان عباس ،
وزارة الإرشاد والأنباء الكويتية ، ١٩٦٢ م.

★ **لويس شيخو اليسوعي :**

- أنيس الجلساء في شرح ديوان الخنساء ، المطبعة الكاثوليكية للآباء
اليسوعيين ، بيروت ، ١٩٨٦ م.

[م]

★ **مارجليوت :**

- أصول الشعر العربي ، ترجمة د. يحيى الجبوري ، مؤسسة الرسالة ،
بيروت ، ١٩٨٠ م.

★ **المالقي ، محمد بن يحيى (ت ٧٤١ هـ) :**

- التمهيد والبيان في مقتل الشهيد عثمان ، تحقيق د. محمود يوسف
زايد ، دار الثقافة ، بيروت ، ط ١ ، ١٩٦٤ م.

★ **المبرد ، محمد بن يزيد (ت ٢٨٦ هـ) :**

- التعازي والمرثي ، تحقيق محمد الديباجي ، مطبوعات مجمع اللغة
العربية بدمشق ، ١٣٩٦ هـ - ١٩٧٦ م.

★ **محمد ابو الأنوار (الدكتور) :**

- من قضايا الأدب الجاهلي ، مكتبة الشباب ، القاهرة ، ١٩٧٢ م.

★ محمد أحمد الغمراوي ،

- النقد التحليلي لكتاب في الأدب الجاهلي ، المطبعة السلفية ، القاهرة ،
١٣٤٧هـ - ١٩٢٩م.

★ محمد الفخر حسين ،

- نقض كتاب في الشعر الجاهلي ، المطبعة السلفية ، القاهرة ،
١٩٢٧م.

★ محمد الفخرى بك ،

- محاضرات في بيان الأخطاء العلمية والتاريخية التي اشتمل عليها
كتاب (في الشعر الجاهلي) ، المطبعة السلفية ، القاهرة ، ١٩٢٦م.

★ محمد خير شيخ موسى ،

- فصول في النقد العربي وقضاياها ، دار الثقافة ، الدار البيضاء ،
(د.ت).

★ محمد رجب البيومي (الدكتور) ،

- موقف النقد الأدبي من الشعر الجاهلي ، جامعة الإمام محمد بن
سعود الإسلامية ، الرياض ، (د . ت) .

★ محمد طاهر درويش (الدكتور) ،

- حسان بن ثابت ، دار المعارف ، مصر ، ط ٣ ، ١٩٧٦م.

★ محمد عبدالعزيز الكفراوي (الدكتور) ،

- الشعر العربي بين الجمود والتطور ، مكتبة نهضة مصر ، ط ٢ ،
١٣٧٨هـ - ١٩٥٨م.

★ محمد عبدالقادر أحمد (الدكتور) :

- دراسات في أدب ونصوص العصر الجاهلي ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.

★ محمد عبدالله دراز (الدكتور) :

- مدخل إلى القرآن الكريم - عرض تاريخي وتحليل مقارن، ترجمة محمد عبدالعظيم علي ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية، ١٩٨٩م.

★ محمد غنيمي هلال (الدكتور) :

- النقد الأدبي الحديث ، دار نهضة مصر ، القاهرة، (د . ت) .

★ محمد فريد وجدي :

- نقد كتاب الشعر الجاهلي ، مطبعة دائرة معارف القرن العشرين، القاهرة، ط ١ ، ١٩٢٦م.

★ محمد لطفي جمعة :

- الشهاب الراصد . مطبعة المقتطف والمقطم ، القاهرة ، ط ١ ، ١٩٢٦م.

★ محمد محمد حسين (الدكتور) :

- ديوان الأعشى ، شرح وتعليق ، مكتبة الآداب ، القاهرة ، ١٩٥٠م.

- الهجاء والهجائون في الجاهلية ، مكتبة الآداب ، القاهرة ، ١٩٤٧م.

- الهجاء والهجائون في الجاهلية ، دار النهضة العربية ، بيروت ، ط ٢ ، ١٣٨٩هـ - ١٩٧٠م .

★ محمد مصطفى بدوي (الدكتور) :

- دراسات في الشعر والمسرح ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ،
الإسكندرية ، ١٩٧٩م.

★ محمد مصطفى هداره (الدكتور) :

- الأدب العربي في العصر الجاهلي ، دار المعرفة الجامعية ،
الإسكندرية ، ١٩٨٥م.

- دراسات في الشعر العربي - تحليل لظواهر أدبية وشعراء ، دار
المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ، ١٩٨٢م.

★ محمد مندور (الدكتور) :

- الشعر المصري بعد شوقي ، مطبعة النهضة المصرية ، ط ١ ،
(د . ت) .

★ محمد النويهي (الدكتور) :

- الشعر الجاهلي منهج في دراسته وتقويمه ، الدار القومية للطباعة
والنشر ، القاهرة ، (د . ت) .

★ محمد هاشم عطية :

- تاريخ الأدب العربي في العصر الجاهلي ، مطبعة العلوم ، القاهرة ،
١٣٥١هـ - ١٩٣٢م.

★ محمود حسن أبوناجي (الدكتور) :

- الرثاء في الشعر العربي أو جراحات القلوب ، دار مكتبة الحياة ،
بيروت ، ط ١ ، ١٤٠١هـ - ١٩٨١م.

★ محمود حسن زيني (الدكتور) :

- دراسات في أدب الدعوة الإسلامية ، مطبوعات نادي مكة الثقافي ،
١٤٠٢هـ (المقدمة) .

★ الرزباني ، محمد بن عمران (ت ٣٨٤ هـ) :

- معجم الشعراء ، تحقيق عبدالستار أحمد فراج ، دار إحياء الكتب
العربية ، عيسى البابي الحلبي وشركاه ، القاهرة ، ١٣٧٩هـ .
- الموشح في مأخذ اللغويين على الشعراء ، تحقيق علي محمد
البجاوي ، مكتبة نهضة مصر ، القاهرة ، ١٩٦٥م .

★ الرزوقي ، أحمد بن محمد (٤٢١ هـ) :

- شرح ديوان الحماسة ، نشر أحمد أمين وعبدالسلام هارون ، لجنة
التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ط ١ ، ١٣٧١هـ - ١٩٥١م .

★ المزود بن ضرار الغطفاني (ت ١٠ هـ) :

- ديوانه ، تحقيق خليل إبراهيم العطية ، مطبعة أسعد ، بغداد ،
١٩٦٢م .

★ مصطفى صادق الرافعي :

- تحت راية القرآن ، القاهرة ، ١٩٢٦م .

★ مصطفى عبدالشافي الشوري (الدكتور) :

- شعر الرثاء في صدر الإسلام - دراسة موضوعية فنية ، دار
المعارف ، القاهرة ، ط ١ ، ١٩٨٦م .

- شعر الرثاء في العصر الجاهلي دراسة فنية ، الدار الجامعية ، بيروت ،
١٩٨٣م .

★ مصطفى عبداللطيف جياووك :

- الحياة والموت في الشعر الجاهلي، منشورات وزارة الإعلام العراقية،
١٩٧٧م.

★ الفضل الضبي ، الفضل بن محمد (ت ١٦٨ هـ) .

- المفضليات ، تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر وعبدالسلام هارون،
دار المعارف، القاهرة، ط ٣ ، ١٩٦٤م.

★ ابن منظور ، محمد بن مكرم (ت ٧١١ هـ) .

- لسان العرب ، دار صادر ودار بيروت ، بيروت ، ١٣٨٨هـ - ١٩٦٨م.

[ن]

★ النابغة الذبياني ، زياد بن معاوية (ت ١٨ ق هـ) .

- ديوانه ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار المعارف ، القاهرة،
١٩٧٧م.

★ ناصر الدين الأمد (الدكتور) .

- مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية، دار المعارف ، القاهرة،
ط ١ ، ١٩٥٦م.

★ نالينو ، كارلو .

- تاريخ الآداب العربية من الجاهلية حتى عصر بني أمية ، عناية مريم
نالينو ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٥٤م.

★ نجيب محمد البهيتي (الدكتور) ،

- المدخل إلى دراسة التاريخ والأدب العربيين ، دار الثقافة ، المغرب ،
ط ٢ ، ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٥ م.

★ النسائي ، أبو عبدالرحمن بن شعيب :

- سنن النسائي ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر ، ط ١ ،
١٣٨٠ هـ - ١٩٦٤ م .

★ نشأت العناني (الدكتور) ،

- مرآة الرسول عقب وفاته ، دار العهد الجديد ، القاهرة ، ط ١ ،
١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م .

★ النعمان عبدالمتعال القاضي (الدكتور) ،

- شعر الفتوح الإسلامية في صدر الإسلام ، الدار القومية للطباعة
والنشر ، ١٣٨٥ هـ .

★ نورة الشملان :

- أبوزؤيب الهذلي حياته وشعره ، جامعة الرياض ، ط ١ ، ١٤٠٠ هـ -
١٩٨٠ م .

★ النويري ، أحمد بن عبدالوهاب (ت ٧٣٣ هـ) ،

- نهاية الأرب في فنون الأدب ، وزارة الثقافة والارشاد القومي ،
المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة (مصور عن
طبعة دار الكتب المصرية) ، (د.ت.) .

[هـ]

★ الهدايون :

- ديوان الهذليين ، الدار القومية للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٦٥ م.

★ ابن هرمة ، إبراهيم بن علي (ت ١٧٦ هـ) ،

- شعره ، تحقيق محمد نفاع وحسين عطوان ، مطبوعات مجمع اللغة

العربية بدمشق ، ١٣٨٩ هـ - ١٩٦٩ م.

★ ابن هشام ، عبد الملك بن هشام (ت ٢١٣ هـ) ،

- السيرة النبوية ، تحقيق مصطفى السقا ، إبراهيم الأبياري ،

عبد الحفيظ شلبي ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر ، ط ٢ ،

١٣٧٥ هـ - ١٩٥٥ م .

- السيرة النبوية ، تحقيق د. عمر عبدالسلام تدمري ، دار الكتاب

العربي ، بيروت ، ط ٢ ، ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩ م .

★ هوميروس :

- الياذة هوميروس ، ترجمة سليمان البستاني ، دار إحياء التراث

العربي ، بيروت - لبنان ، (د . ت) .

[و]

★ الواحدي ، علي بن أحمد (ت ٤٦٨ هـ) ،

- أسباب النزول ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط ١ ، ١٤٠٢ هـ -

١٩٨٢ م .

★ الوائدي ، محمد بن عمر (ت ٢٩٧ هـ) ،

- المغازي ، تحقيق د. مارسدن جونز ، مطبعة جامعة أكسفورد ،
١٩٦٦ م.

★ وليد الأعظمي (الدكتور) ،

- شاعر الإسلام حسان بن ثابت - دراسة أدبية تاريخية ، مكتبة
المنار ، الكويت ، ١٣٨٢ هـ - ١٩٦٢ م.

[ي]

★ يحيى الجبوري (الدكتور) ،

- الإسلام والشعر ، مكتبة النهضة ، بغداد ، ١٣٨٣ هـ - ١٩٦٤ م.

- الشعر الجاهلي - خصائصه وفنونه ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط ٣ ،
١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م.

- شعر عبدة بن الطبيب ، د. يحيى الجبوري ، دار التربية للطباعة
والنشر والتوزيع ، بغداد ، ١٣٩١ هـ - ١٩٧١ م.

- شعر عبدالله بن الزبير ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط ٢ ،
١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م.

- شعر المخضرمين وأثر الإسلام فيه ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط ٢ ،
١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م.

- ليلى بن ربيعة العامري ، دار القلم ، الكويت ، ط ٢ ، ١٩٨١ م.

★ **يوسف حسين بكار (الدكتور) :**

- بناء القصيدة في النقد العربي القديم في ضوء النقد الحديث ، دار
الأندلس ، بيروت ، ط ٣ ، ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٣ م.

★ **يوسف معي الدين أبو هلاله (الدكتور) :**

- الشعر والدعوة في عصر النبوة ، دار العاصمة ، الرياض ،
١٤٠٨ هـ.

★ **يوسف اليوسف :**

- مقالات في الشعر الجاهلي ، دار الحقائق ، الجزائر ، ط ٣ ،
١٩٨٣ م.

ثانياً - الدوريات والمجلات العلمية :

- مجلة أبحاث اليرموك ، جامعة اليرموك ، الأردن ، المجلد الرابع ، العدد الأول، الأردن ، ١٩٨٦م ، المجلد الثامن ، العدد الأول ، ١٩م .
- مجلة البحث العلمي والتراث الإسلامي، منشورات جامعة أم القرى، كلية الشريعة ، مكة المكرمة ، العدد الرابع ، ١٤٠١ هـ - ١٩٨١م .
- مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، جامعة الملك عبدالعزيز، جدة ، المجلد الثالث ، ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م .
- مجلة المورد ، بغداد ، العدد الرابع ، المجلد التاسع ، ١٩٨٠م .

ثالثاً - المراجع الأجنبية :

(1) *Guillaume, A.*

The life of Muhammad; a translation of Ibn Ishaq (Serat Rasul Allah). Karachi : Oxford Univ. Press, 1980.

(2) *Arafat, W.*

An aspect of the forger,s art in early Islamic poetry. Bulletin of the School of oriental and African Studies. Univ. of London. v. 28, part 3 .

(3) *Khan, M. A. Muid*

A critical study of the poetry of the prophet,s time and its authenticity as the source of Sira. Islamic Culture. V. 38(4) Oct. 1964 .

فهرس
محتويات البحث

فهرس محتويات البحث

الموضوع رقم الصفحة

- شكر وتقدير
- المقدمة أ - ط

مدخل

- ٢ الرثاء في اللغة والاصطلاح
٩ نشأة فن الرثاء

الفصل الأول الدراسة التوثيقية

- ١٣ توطئة : بين يدي التوثيق
٢٤ المبحث الأول : الشك والانتحال وشعراء الرثاء
٣٤ المبحث الثاني : توثيق شعر الرثاء

الفصل الثاني الدراسة الموضوعية

- ١٤٨ المبحث الأول : الرثاء والرؤية الإسلامية
٢١٢ المبحث الثاني : النقائص وفن الرثاء
٢٤٠ المبحث الثالث : الرثاء ودعوى ضعف الشعر

رقم الصفحة

الموضوع

الفصل الثالث الدراسة الفنية

- ٢٦٤ - المبحث الأول : بناء القصيدة
- ٢٩٠ - المبحث الثاني : لغة الشعر
- ٣٢٣ - المبحث الثالث : الصورة الفنية
- ٣٥٢ - المبحث الرابع : الموسيقى
- ٣٦٧ - الخاتمة
- ٣٧١ - فهرس المصادر والمراجع
- ٤٠٨ - فهرس محتويات البحث